العلاقات بين العرب والصين

بقلم

بدر الدين حي الصيني
(خريج الجامعة الاسلامية بدهلى والجامعة الأزهرية بمصر)



الطبعة الاولى

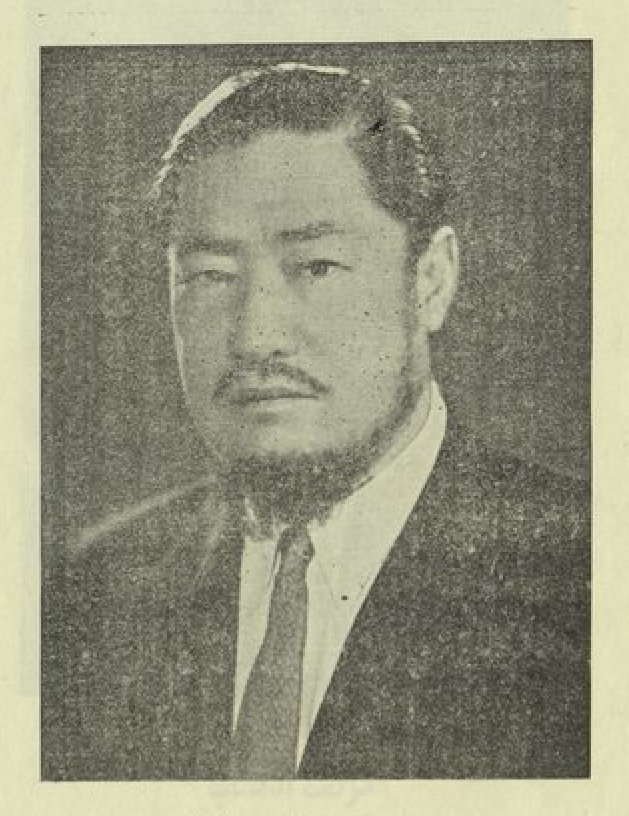
١٣٧٠ - ١٩٥٠

الناشر: مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن ويوسف محمد وإخوتهما
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

الإهداء

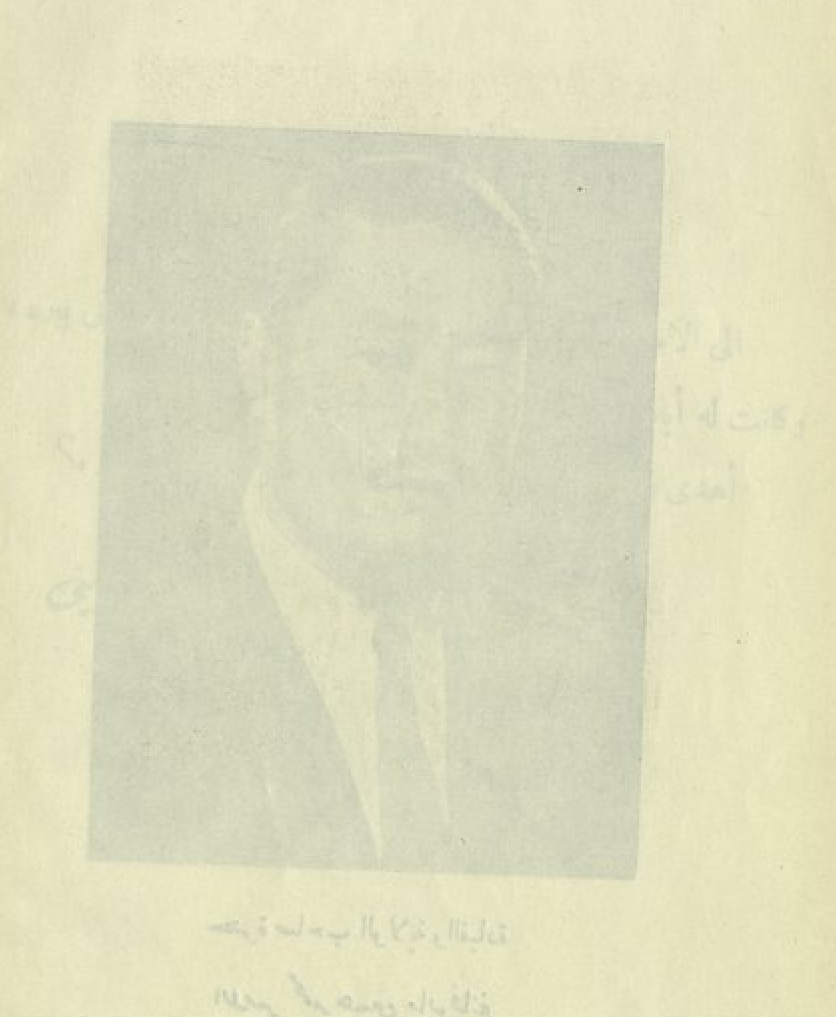
الى الأمير الجليل محمد حسين الذى حبانى بعطفه ، وغمرنى ببره ،
وكانت له أياد بيض على الاسلام والمسلمين فى الصين
أهدى ذلك الكتاب رمزاً للوفاء ، وعنوانا على التقدير ؟

بدر الدين حى الصينى



حضرة صاحب الولاية والقيادة

الامير محمد حسين مابوفانغ





مؤلف الكتاب

فهرست كتاب (العلاقات بين العرب والصين)

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أن المسلمين فى الصين كانوا خاملى الذكر فى الغابر وفى الحاضر . فانقطعوا عن العالم الأسلامى وانقطع العالم الاسلامى عنهم فلذا قل الحديث عنهم فى كتب التاريخ وفى أفواه المسلمين فى جميع الاقطار

ولقد استشعر المسلمون الصينيون هذا الخمول وشعروا انهم من المنسيين أو فى حكم المنسيين . ففكروا فى رفع ذكرهم فى العالم الاسلامى ودبروا طريق الاتصال به . فسنحت لهم الفرصة فى سنة ١٩٣١ م اذ كانت الجمعيات الاسلامية فى الصين قد قررت إرسال بعض ابنائه الى مصر ليتزودوا من الثقافات الأسلامية والعربية والدينية . فوصلوا فى بعثات فى سنوات مختلفة والتحقوا بالأزهر الشريف فأوجدوا للمسلمين الصينيين فى مصر وفى العالم الاسلامى اسما عظيما ومقاما محمودا . وكان ذلك فاتحة عهد جديد بين مسلمى الصين وأخوانهم وقد كنت فى احدى الجامعات بالهند فاقتفيت خطواتهم وجئت ألى مصر فى سنة ١٩٢٣ م . حيث انضممت إلى البعثات الصينية بالأزهر الشريف .

وكان على رأس الأزهر استاذ العصر ، المرحوم الشيخ مصطفى المراغى الذى كان يهتم باحوال المسلمين فى البلاد القريبة والبعيدة ، وكان رجال الثقافة والمعارف يعنون باخبار العالم الاسلامى عنايتهم بشئون العالم العربى ومنذ قدمت البعثات الصينية إلى مصر أخذت الروابط تزداد توثقا بين البعثات الصينية وأخوانهم المسلمين من مختلف الاقطار، فقد كانوا يسألوننا عن أحوال المسلمين وتاريخهم فى بلاد الصين ، فنعرض عليهم جانبا من الاخبار عن طريق الصحف والمجلات التى

تعتبر منبراً لنشر الآراء والأفكار . وقد كان لتساؤل الاصدقاء والأخوان من العالم الأسلامي والعربي عن المسلمين في الصين واهتمامهم بأحوالهم وقع عظيم في نفسي، فالهمني بضرورة وضع كتاب جامع في تاريخ الاسلام في الصين فلذا عقدت نيتي على جمع المواد والمعلومات من المصادر الوثيقة والمراجع المعتبرة لاجل تدوينه فاستحضرت الكتب من أوربا ومن الصين مع مطالعة مستمرة ايام دراستي في الأزهر ، في دار الكتب المصرية بباب الخلق ، حيث تمكنت من قراءة عدد وفير من المراجع العربية .

بيد أن المعلومات التي أخذتها من المراجع التي كانت بين يدي لا تكفي لتدوين كتاب في تاريخ الاسلام في الصين، لأن هناك بعض مسائل تتعلق بتاريخ الاسلام في الصين، تحتاج الى تحقيق مفصل وبحث مستقص ، مثل حالة المسلمين في عهد المغول ، والثقافة الاسلامية في عهد (منغ) وثورات المسلمين في تركستان وقانصو وشانسي ويونان في عهد (مانشو) ولكسب المعلومات عن هذه الأحوال والحوادث على التفصيل رايتني في حاجة إلى السفر الى ولاية يونان وإلى إقامة ببكين على الأقل مدة سنة واحدة للتنقيب عن المراجع الصينية في دور الكتب بتلك العاصمة القديمة وان هذا لم يتيسر لي حتى اليوم ، ومع الشعور بهذه الصعوبات والعقبات رأيت ترتيب بعض ما جمعته من المعلومات عما يتعلق بتاريخ الاسلام في الصين وجعلته كتابا سميته (العلاقات بين العرب والصين) ورأيت أن أبحث فيه العلاقات بين العرب والصين من شتى نواحيها مع تضمن جزء من تاريخ الاسلام في الصين . ولقد انتهيت من وضع هذا الكتاب في سنة ١٩٤١ ، غير أنني لم استطع طبعه بسبب الحرب وماجرته من غلاء يعجز عن مقاومته مثلي ، وبسبب غيبتي عن مصر مدة من الزمن في خدمة الصين . فلقد سافرت إلى ايران سنة ١٩٤٢ م ملحقا بالسفارة الصينية بطهران ثم نقلت الى الهند في نفس الوظيفة حتى أول هذه السنة ولم أعد الى مصر إلا في الربيع المنصرم ، وذاك لطبع هذا الكتاب ، ولله الحمد ، قد تم المراد الآن .

ومع تقديم الكتاب الى القراء، أقدم هنا جزيل شكرى الى صاحب الولاية والقيادة الحاج محمد جسين مابوفانغ الذى كان واليا على ولايات شمال الصين الغربى والقائد العام لقوات الحكومة الوطنية فى تلك الولايات على مساعدته المالية التى يسرت لى طبع هذا الكتاب كما أقدم عظيم شكرى الى صاحب الفضيلة الشيخ أحمد موسى ، الأستاذ فى كلية اللغة العربية ، الذى قد تشرفت بزمالته فى الكلية مدة دراستى فيها ، فانه هو الذى قد ساعدنى فى تهذيب الاسلوب اذ كان الكتاب فى مسودته، وفى تصحيح صورة خامه، إذ كان تحت الطبع . فبمسا عدتهما استطعت أخراج هذا الكتاب الى الوجود، ذكرى دائمة للبعثات الصينية فى الأزهر الشريف.

وإنى لشاعر بأن فى الكتاب عيوبا من حيث الترتيب والتقسيم، وذلك لأنى قد كتبته من تلقاء نفسى ورتبته من حيث فهمت دون أن ألجأ الى ارشادات كبار المتخصصين ، وماحملنى على هذا الا الظروف القاسية التى يستهدف لها أمثالى فلذا أرجو من القراء الكرام أن يغمضوا عن هذه العيوب إلى ما فيه من معلومات جديدة مفيدة ، كمقدمة لتاريخ الاسلام فى الصين . والله أسأل أن يكتب للأسلام والمسلمين نصرا عزيزا أنه على ما يشاء قدير ؟

٢٢ أكتوبر ١٩٥٠

بدر الدين حى الصينى

واجهة امامية

لجامع « تشوان جو » يظهر فيها امتزاج الفن العربي بالصيني

الباب الأول

الصين وعلاقتها بالعرب قبل الاسلام

---

١ — حالة الصين قبل ظهور الاسلام :

لا شك أن كلامنا سيتناول شتى النواحى من العلاقات بين العرب والصين فى عصور الاسلام ، ولكن أشياء وقعت قبل ظهور الاسلام بين الأمتين ، يجب علينا أن نلقى نظرة عليها ، تمهيدا للموضوع الذى سنبحثه بالتفصيل ، ولأن بلاد الصين وهى عريقة فى التمدين والحضارة ، ومشهورة بالصناعات الدقيقة ، لا تزال أحوالها القديمة مجهولة لدى الأمم الإسلامية والناطقين بالضاد ، أرى مناسبا أن أذكر طرفا من تاريخها القديم إلى ظهور الإسلام إجمالا ، تتميما للفائدة وتعريفا بمملكة الصين التى سنتكلم عن علاقتها بالعرب فيما بعد .

من القواعد العامة أن المؤرخين إذا لم يجدوا سبيلا إلى معرفة حقائق الأمم القديمة يبدأون تاريخها بالخرافات التى جرت على ألسن الرواة ودونت فى كتب القصص بعد اختراع الحروف والطباعة ، ثم زينت بالتأويلات والتفاسير فلذا نرى أن تاريخ العصور الخاليـــة لأية أمة من الأمم ، يقبلها بعض الناس ويردها الآخرون .

وأما تاريخ الصين ـ كما يقول الباحثون الأخصائيون ـ فقد بدأ أيضا من الخرافات التى هى أصل التاريخ المـــدون لجميع الأمم القديمة : الشرقية ، والغربية ، البائدة والباقية . لكن الخرافات التى أسس عليها الصينيون تاريخهم القديم ، تكاد توافق

الواقع ويقبلها العقل ، لأن قادة السياسة فى الصين الأقدم ، كما هو شأن المؤسسين الأول لكل شعب ذى سيادة على جزء من الكرة الأرضية تصفهم القصص والروايات بأنهم كانوا حكماء عقلاء ، آراؤهم سديدة وأعمالهم نافذة . فمثلا (فونى Funi) أول من حكم على أرض الصين ، كسب شهرته الخالدة ، باختراع ستة أنواع من الحروف الكتابية ، وبوضع نظام الأوقات وبايجاد ثمانية رموز ، هى أصل (كتاب التطور Book of Changes) [1] وبهداية الناس إلى الصيد والقنص ، واتخاذ المساكن فى الكهوف وبين الصخور . والذى خلفه فى السيادة والحكم سماه المؤرخون الصينيون (شينغ لونغ Shing Lung) أى ملك الفلاحين فعلم الناس الحرث والزراعة وإنشاء الأسواق للمعاملات والمبادلات ، وعرف فوائد طبية من الاعشاب والجذور ، فيها شفاء للناس وتخفيف للآلام .

ومن العاهلين المشهورين فى تاريخ الصين (هوانغ تى Hwang-Ti) الذى جلس على عرش الصين فى سنة ٢٣٢٢ قبل المسيح وهو الذى ينسب اليه صنع السفينة ، واختراع البوصلة وينسب إلى زوجته ، علم تربية ديدان القز وصناعة الحرير والغزل والنسيج .

وبدأ وضع القانون المدنى ، بعهد الامبراطور (ياو Yao) الذى حكم الصين من سنة ٢٠٨٥ الى ٢٠٠٤ قبل الميلاد . انتهى به فصل الخرافات من تاريخ الصين ، وعندئذ أخذ كونفوشيوس (حكيم الصين الأكبر) ، يدون الوقائع التاريخية من هذا العهد . فوصفه بأنه كان عارفا ، عاقلا ، ذا بصيرة مفكرا مدبرا كاملا ، مصلحا عظيما . كان يحكم بالعدل والحكمة ورأى الناس فيه المثل الأعلى للحاكم ، فلذلك كان كونفوشيوس دائما يحن إلى عصر هذا الامبراطور ، حينما يبين ما دخل من الفساد فى نظام البلاد وما انتشر من المظالم فى وقته .

وتولى الأمر بعده الامبراطور (شونغ Shung) ، الذى ظهر فى زمنه طوفان عظيم خرب كثيرا من المدن المعمورة والأرض المزروعة . فأمر (يو Yu) أحد الموظفين

---

(١) أقدم كتاب باللغة الصينية يبحث فى دوران الافلاك وتقلب الدهور .

الكبار فى الحكومة ، أن يرد الماء الفائض الى مجراه بفتح القنوات وحفر الترع ؛ فتم ذلك فى تسع سنين ، فكان جزاؤه على هذه الخدمة الجليلة ، أن خلف الامبراطور (شونغ) على عرش الصين بعد وفاة صاحبه فسمى أسرته (هيا Hsia) ابتدأ حكمها من ٢٢٠٤ ق م فقسم مملكته الى تسع ولايات . وظل هذا التقسيم باقيا حتى عهد المغول فى القرن الثالث عشر للميلاد . فتتابع ستة عشر أمبراطورا من هذه الأسرة ، الواحد تلو الآخر ، حتى انقرضت حكومتهم فى سنة ١٦٨٧ قم بسبب الثورة التى قام بها (تانغ) على (شيك كوى) ، آخر ملوك هيا . لأنه لم يكن صالحا للحكومة ؛ فأنزله عن العرش وتولى هو زمامها .

وأما أسرتا (شانغ) و (اينغ) فلم تكونا . إلا تجديدا لأسرة هيا البائدة ؛لأن أسرة (تانغ) ، قد انتهى حكمها على يد الملك الثامن والعشرين من ملوكها، والحقيقة أن أولاده لم يكونوا صالحين للامارة والسيادة، سوى اثنين منهم وأما الباقون فكانوا من الفاسدين المفسدين ؛ لأنهم قد استغرقوا فى الشهوات الذاتية والمظالم الوحشية ، وفى سلب حقوق الناس والإسراف فى سفك الدماء . فكان الأمن فى عهدهم غير موجود فى البلاد والنظام معدوما بين العباد ، وكان السكان كبيرهم وصغيرهم تحت رحمة قطاع الطريق والأشرار والناهبين . فكانت النتيجة أن فنيت هذه الأسرة على يد ثائر يسمى (شوسين Chow Sen) .

كان شوسين فى رتبة أمير البحر ، وبعد ثورة ناجحة ، قبض على زمام الحكومة ونادى بسيادته على البــلاد ، ونصب نفسه أمبراطورا . وكان جلوسه على العرش وفق رغبة الشعب ورضاه .

وأما نظام الحكومة الذى وضعه للبــلاد ، فقد نال المدح والثناء من جميع المؤرخين الصينيين حتى من الحكيم كونفوشيوس ، وقد قيل أن عصره كان عصر القوة والرفاهية ، وجاءه السفراء من كوريا ومن آنام .

أخذت هذه الأسرة تضعف وتضمحل رويدا رويدا ، كما هى الحال لكل دولة من الدول التي لا بد أن يأتي عليها دور من الضعف بعــد دور من الفتوة

والقوة ، واشتد ضعفها فى عهد الامبراطور (مووانغ Mo Wang) ١٠٠١ — ٩٤٨ ق م. وهو أول من خلص أصحاب الجنايات الكبيرة من الاعدام ، وأحل محله الغرم المادى فكان لذلك أثر سيء فى أخلاق الناس وكثر المجرمون وانتشرت الفوضى فى الدولة . فكانت حالة البلاد تستدعى استعمال القوة للقضاء على هذه الفوضى وإحلال النظام محلها .

ذهبت هيبة الحكومة . فوجد الفاسدون ميدانا فسيحا للفساد وقلب النظام ، كان هذا هو الوقت الذى ولد فيه حكيم الصين كونفوشيوس فوجد أن الدولة القائمة قد أحاط بها النفاق والخيانة ، والناس خائضون فى الفتنة والفساد ، فكان الأمراء لا يعرفون شيئا غير النزاع والصراع فأصبح الشعب بين الماء والنار . فرأى من واجباته أن يقود الناس والأمراء بأفكاره وتعاليمه إلى الحالة المطمئنة التى كانت سائدة فى أرض الصين فى عصر الامبراطور (ياو Yao).

لم يدع كونفوشيوس أنه نبى أو رسول من خالق السموات والأرض وما بينهما وعلى الرغم من ذلك فقد عاش غير معترف به وبتعاليمه من معاصريه ، ولم يقدره حق قدره غير الأجيال التالية فقد قبلت تعاليمه واعتقدت بأنه أكبر معلم ظهر فى أرضهم ، وأنه جاء بمبادىء سامية انسانية خالدة ، فظلت تعاليمه منذ ٢٣ قرنا هداية للشعب الصينى الذى سار على مبادئه الخلقية وأصوله التعاونية حتى هذه الأيام .

كان كونفوشيوس يتألم تألما بالغا من حالة الظلم والفوضى فى زمانه . ومن القصص المشهورة فى الأدب الصينى أنه رأى ذات يوم امرأة تبكى بكاء مرآ ؛ فتعجب من أمرها وبعث واحدا من تلاميذه ، يسأل عن سبب بكائها ، فقال التلميذ: إنى أراك حزينة فما السبب ؟ قالت : كان لى أب قد افترسته الوحوش ، وكان لى بعل لقى حتفه من الوحوش . وكان لى ابن ، فلم ينج من افتراس الوحوش . . .

قال : فما المانع إذن من انتقالك من هنا إلى مكان آخر تأمنين فيه الوحوش المفترسة .

قالت : لأنى لا أجد هنا حكومة ظالمة . !

فالتفت كونفوشيوس إلى تلاميذه قائلا : اسمعوا ، إن الانسان يستطيع الصبر على الوحوش المفترسة ، ولا يستطيع الصبر على الحكومة الظالمة ، فانها أشد فتكا بحياته من الوحوش .

لم ينفع الأمراء الظالمين ، انذار كونفوشيوس ولا نداء (لوتش Lao - Tze) بل انغمسوا فى الفتنة ، والفساد ، حتى قام كل واحد من الرؤساء الصغار يطالبه باستقلال المدينة التى كان حاكما عليها ، ويحارب أخاه إذا لم يرض بما يطلب . فكثرت الحروب وانتشرت الأمراض فى العادات والأخلاق حتى ضاق الناس بالحيـــاة . وبقيت الصين فى هذه الحالة مدة طويلة الى أن ظهر (جنشى وانتى Chen - Shih - Wanti) وحارب جميع الأمراء الصغار وأزال دولهم فوحد جميع الولايات تحت لواء أسرته ، ثم شيد سورا كبيرا بشمال الصين يحول دون هجوم التتار على غرة . ثم فطن إلى أنه لا يأمن من الثورة الفكرية والسياسية ، أن ترك كلام السياسيين والمجادلين باقيا فى خزانة الكتب وبيوت العلماء ، يستنير به كل باحث فى تكوين أفكاره وآرائه ؛ فلذا عمد إلى إحراق جميع الكتب على اختلاف أنواعها إلا ما يتعلق بالزراعة والطب ، لأنه رأى فى تلك الكتب مصدر الثورة وينبوع العصيان . فأمن البلاد بسيف مسلول وقوة قهارة . ولقد أكمل هذا العاهل بعض الاصلاحات للصين بأوامر قاسية وسد غارات التتار بتشييد السور العظيم بشمال الصين الغربى ، الذى فنى فى بنائه آلاف من الأرواح البريئة والنفوس الزكية تحت سوط هذا الجبار فلما مات سنة ٢١٠ ق م ، شلت أعضاء دولته وسقطت على أثر الثورة التى قام بها (هانكاوتسو Han Kaotzu) . ومات ابنه الصغير قتيلا فى القصر ، فأسست دولة هان .

أسرة هانكاوتسو

وأما (هانـــكاوتسو) أول عاهل فى هـــذه الأسرة العظيمة ، بعد رد نظام البلاد إلى نصابه إذ أنه فكر قبل كل شىء فى تحديد الحياة العلمية فى أرض

للصين ؛ فأمر بالبحث ، عن النسخ الضالة من الكتب فى الكهوف والمغارات ، ومن تحت الرماد ومظلات السقوف ، ومن أجواف الأشجار والأكواخ فى الجبال . فجمع تاريخ الصين فى أيامها الخالية من صدور المسنين المعمرين ومن الروايات السائرة . فأحيا العلم بهذه الطريقة وصانه من الفنا. . وكان عهده عهدا ذا مجد وعظمة فى تاريخ الصين .

لقد ارتقى (هان كاوتسو) عرش الصين فى سنة ٢٠٦ ق م واستمر أولاده فى الحــكم إلى ٢٢٠ بعد الميلاد وكانت له اليد البيضاء فى إحياء الكتب العلمية القديمة التى كادت تفنى من الوجود بسبب السياسة القاسية التى اتبعها (جنشى وانتى) فى طول البلاد وعرضها . وانك لا تستطيع تقدير خدمته للعلوم ، إلا اذا علمت عدد الكتب التى قد جمعها فى الخزانة . يقول تاريخ الصين إن دار الكتب الامبراطورية التى أسسها (هانكاوتسو) كانت تحوى قبل الميلاد ٣١٢٢ نسخة من الكتب الكلاسيكية و ٢٧٠٥ نسخة من الكتب الفلسفية و ١٣٨٣ فى الشعر .

لم يكن عهده عهدا للنهضة الأدبية فقط ، بل للنهضة السياسية أيضا فقد كانت منشوريا وبوتنان وآنام غير خاضعة لسلطة الصين ، فخضعت لها فى القرن الثانى قبل الميلاد . وذلك أن (ووتى Wuti) العاهل الخامس من هذه الاسرة ، قد بعث سفيرا كبيرا معروفا باسم (جانغ جيانغ Chang Chieng) إلى البلاد الغربية التى كانت تطلق فى اصطلاحات جغرافيا الصين القديمة ، على بلاد التتار وايران والهند لإيجاد العلاقة الودية والتجارية وسنبين نتائج هذه السفارة فيما بعد إن شاء الله . وإنما الكلمة التى أحب أن أضيفها هنا ، هى دخول الديانة البوذية الى الصين . وكان ذلك فى عهد (منغ تى Ming Ti ٥٨ - ٧٦ م) . ومن الروايات المشهورة فى تاريخ الصين أنه رأى مرة فى منامه ، تمثــالا ذهبيا يسطع نوره الى قلبه . فعبر المعبرون بأن هذا التمثال يدل على ظهور مصلح عظيم فى بلاد الهند . فبعث رسولا خاصا إليها باحثا عن هذا المصلح . فلم يجده حيا . غير أنه عاد ببعض التماثيل التى قد صنعتها أيدى المعتقدين لبوذها ، تقربا وعبادة ،

وبعض الكتب السنسكريتية التى حفظت فيها تعاليم البوذها أو الأقوال التى نسبت اليه .

عند ابتداء القرن الثالث للميلاد، ظهرت آثار الضعف فى دوله (هان) وأخذت فى الازدياد على مر الايام حتى ثار قائد على الامبراطور (يانغ تى Yang Ti ١٩٠ - ٢٢١ م) فسلب منه زمام الحكومة . وبعدئذ كانت الحروب الدامية تستعر فى الصين بين المتنازعين على السلطة والمتنافسين على الحكم. وأخيرا غلبت أسرة (شى جن Shee Chen) على جميع المنافسين فى سنة ٢٦٥ م. وهو العصر الذى سافر فيه (فا هيانغ Fa Hsien) السائح الصينى الشهير الى الهند ليشاهد عجائبها وغرائبها . لحذا حذوه (يوان تسوانغ Yuan Tzuan) الذى يستند اليه الآن جميع المؤرخين فى أبحاثهم عن آسيا الوسطى للعصور التى بين القرن الثالث والسادس للميلاد .

من رماد هذه الأسرة التى انقرضت فى أوائل القرن السادس للميلاد، ظهرت أسرة (تانغ Tang) التى بسطت نفوذها على البلاد بالقوة أولا ، ثم استحكمت أركانها بالحكمة وبظهور هذه الأسرة على مسرح سياسة الصين الامبراطورية ، ابتدأ عصر جديد فى تاريخها .

فقد دخل الاسلام الصين فى عهد هذه الأسرة ، بعد النسطورية والمانوية بقليل من الزمان .

٢ — علاقة الصين بغرب آسيا وبلاد العرب قبل الاسلام :

لقد تكلمنا إجمالا عن حالة الصين قبل الاسلام ووصلنا إلى نقطة ، منها نستطيع الدخول فى البحث عن تاريخ الاسلام فى الصين والنظر إلى طريق دخوله . هل دخلها برا عن بلاد تركستان وما وراء النهر ، أو بحرا عن سواحل الهند وجزائر

جاوة وفى أية سنة ؟ لكنى لا أحب أن أدخل فى صميم هذا الموضوع الآن ، لأن تاريخ الاسلام فى الصين ، من المسائل العلمية التى لا يستطيع باحث تجليتها ، إلا بعد تحقيق علاقات العرب بالصين، مباشرة كانت أو غير مباشرة. وللوصول إلى حل صحيح لهذه المشكلة التاريخية التى اختلف فيها الكتاب المسيحيون، ولاتزال مجهولة عند علماء المسلمين ، أرى من الضرورة أن نبحث أولا عن علاقات العرب بالصين ثم نبحث عن تاريخ الاســلام فى الصين . وذلك يحتاج إلى كتاب على حدة واستقلال وأما هنا فباحثنا مقصورة على موضوع العلاقات المختلفة التى تحتاج إلى كتاب مستقل أيضا

وسترى فيما بعد أن علاقة الصين بالعرب لم تكن وليدة لعصر الاسلام ، بل ابتدأت قبل الاسلام بقرون . غاية الأمر أن عراها لم تكن أوثقت كما فى زمن الاسلام . لكن العلاقة كانت موجودة على طريقة غير مباشرة أولا ، ثم تطورت إلى علاقة مباشرة عندما قرب ظهور الاسلام . والتاريخ على هذا شاهد .

ولمعرفة متى اتصل بالصين وكيف ، يجب علينا أن ننظر إلى الوراء بقرن على الأقل قبل الميلاد وكان ذلك هو الوقت الذى نرى فيه على ضوء الوقائع التاريخية أن التجارة قد فتحت أبوابها بين بلاد الصين والبلاد التى تقع غربيها ، وأن طرق القوافل قد سهلت إلى حد كبير بآسيا الوسطى وفى بيان هذه النقطة ، لا أريد على كل حال ، أن أستشهد بتلك الأقوال التى ذكرت فى حيـــاة (موتيان تز MO Tientze) قد قيل أن موتيان تز ، وهو أمير من أسرة (تشو Chow) الشهيرة قد حكم قسما من أرض الصين من ١٠٠١ إلى ٩٥١ ق م .

لقد ذكر مؤلف هذا الكتاب القديم الذى يرجع تاريخ كتابته إلى سنة ٢٨١ م سياحة هذا الأمير الجرىء ، على جواده إلى البلاد الغربية ، حتى وصل إلى سواحل بحر الخزر . ثم رجع إلى عاصمته بقرب (سى آن) الحاضرة .

ليس من همى أن أصدق أو أكذب هـذا الواقع لأن المحققين البـارزين يعرفون كيف يقولون كلمتهم فى مثل هـذا الواقع التاريخى المشكوك فى صحته ،

غير أنى أجد فى كتاب (شانهاى جن) أى كتاب الجبال والأنهار ، وهو من مؤلفات أواخر عهد (تشو) ، وفى (التذكرة التاريخية) التى دونها (ليوبوى Lui Puwei) وزير الامبراطور (جنشى وانتى) فى سنة ٢٥٠ ق م ، بحث مفصل عن الأحوال التجارية بغرب الصين وعن البضائع التى كانت توجد بأسواقها .

بيد أنى أرى أن هذين الكتابين على كل حال ، لم يخبرانا بشىء عما وراء تيان شان (جبل السماء) أو عما وراء جبال (كونلون) بآسيا الوسطى . ومع ذلك نستطيع أن نقول أن لهذه الأقوال جانبا من الأهمية فى الاستشهاد للصينيين على أنهم قد عرفوا بعض البلاد بآسيا الوسطى قبل الميلاد .

لكن لا يصح لنا أن نستشهد بها على الاتصال التجارى بين الصين وايران ، أو بين الصين والامبراطورية الشرقية ، وذلك كما أعتقد ، قد وقع متأخراً على الأقل بقرن أو أكثر من قرن .

فالروايات الوثيقة المدونة فى تاريخ الصين القديم ، والتى تستطيع أن تهدينا إلى معرفة شىء عن ابتداء الرابطة التجارية بين الصين والبلاد الغربية فى قارة آسيا ، تقول أن الامبراطور (ووتى) الذى قد سبق ذكره بعث فى سنة ١٢٢ ق م واحدا من أمرائه العظام ، معروفا باسم (جانغ جيانغ) سفيرا له ، الى الممالك الوسطى والقصوى لإيجاد رابطة ودية مع قبائل التتار الذين كانوا يفاجئون الصين ويهددون حدودها بين حين وآخر وينهبون مدنها المجاورة لأوطانهم .

وقد ورد فى (تونغ جيان) أى تاريخ الصين العام فى جزئه السادس عشر ، أن (جانغ جيانغ) السفير ، قد زار فى أثناء سفره ، ستاً وثلاثين مملكة صغيرة كانت أو كبيرة ، منها بلاد ايلى ، والصغد ، والختن ، وخيوا ، وايران ، والهند (أى شمال الهند) .

ومما لا شك فيه أن سفارة (جانغ جيانغ) إلى هذه الممالك ، قد فتحت بابا جديداً للسفر برا من الصين إلى غرب آسيا عن طريق بلاد التتار أو تركستان

وكانت نتيجتها أن اتصلت الصين بإيران بطريق البر مباشرة و بالعراق والقسطنطينيه بواسطة إيران .

ومن ذلك الحين كانت القوافل التجارية تسير غربا من الصين وشرقا من العراق وإيران والبلاد الأخرى بغرب آسيا ، فتبادلوا البضائع فى الصغد .

ولقد دون تاريخ الصين حركات هذه القوافل تحت عنوان « تجار جاؤا من البلاد الغربية » والمراد من (البلاد الغربية) فى تاريخ الصين القديم ، هو البلاد التى وقعت فيما وراء حدود الصين الغربية من كاشغر إلى البحر الأسود بما بينهما من البلاد والممالك ، منها بخارى ، وخيوا ، والعراق ، وأرمنيا وجميع الممتلكات الساسانية .

وأغلب الظن أن العلاقة التجارية بين هذه البلاد والصين قد بدأت فى زمان قبل عصر (جانغ جيانغ) على طريق غير منظم . غير أننا لا نستطيع اثباتها بدليل قاطع ، أو تحديد وقتها بسنة معينة ، وذلك لعدم الشهادات التاريخية الصحيحة . وأما سفارة (جانغ جيانغ) فهى من الوقائع التاريخية ، التى لا تقبل الشك فالعلاقة التجارية بين الصين وجاراتها القريبة والبعيدة مثل سمرقند ، وبخارى ، وخيوا ، والعراق بعد مدة قصيرة نحو ثلاثين سنة ، من هذا الواقع التاريخى قطعت شوطا كبيرا . حتى (شى ما جياى Shih Ma-Chien) أكبر مؤرخى الصين فى ذلك العهد ، وله مكانة بين المؤرخين الصينيين مثل ابن خلدون بين مؤرخى العرب لم يستطع أن يغفل ذكر هذه الأحوال التجارية فى كتابه الخالد المسمى بـ (شى جيه Shih · Chih) أى الأخبار التاريخية ، الذى قدم تدوينه فى سنة ٨٠ م . فخصص فصلا فيه لأحوال بلاد (داوان Dawan) اسم قديم للبلاد التى كانت تمتد من الصغد إلى خيوا . ومن الامور المذكورة فى كتابه « البضائع الواردة من بلاد داوان إلى الصين » ومن هذه البضائع الخيول التى كان ملوك الصين يقدرونها أكثر من غيرها .

ومن المعلوم ، من الناحية التاريخية ، أن أواسط آسيا لم تكن بلادا تعرف أصيل خيولها . فنميل الى الاعتقاد بأن تجار (داوان) وكانوا يترددون شرقا وغربا ،

قد استوردوا الخيول الجيدة من شرق الغرب بقرب حدود العراق الحاضرة أولا الى خيوا، ثم الى الصغد . ثم أخذها تجار الصين من الصغد الى سى آن ، عاصمة الصين الاقدم .

ويثبت فى تاريخ الصين ، أن القوافل التجارية لم تقف بمعاملاتها فى الصغدأو سمرقند بنصف الطريق الى الصين ، بل كانت لهم رحلة سنوية منظمة الى عواصمها . ولقد أشار مؤرخ الصين (شى ما جيان) فى الفصل نفسه ' الى زيارات القوافل التجارية لقاعدة الامبراطورية الصينية قائلا أن التجار من البلاد الغربية ، يردون سنويا ، فى جماعة يكون عددها فى بعض الأحيان زائدا عن المائة ، وفى أحيان أخرى ، أقل من ذلك ، وقد يكون فى عشرات فقط ، وقد يكون فى بضع مئات و (البلاد الغربية) ولو أن المراد بها فى تاريخ الصين القديم غير واضح ، تشمل على أغلب الظن بلاد العراق وأرمنيا ، والشام . فمن المحتمل إذن أن تجار العراق أو الشام قد زاروا بلاد الصين مع القوافل التجارية التى كانت تتردد إلى (سى آن) بين حين وآخر .

ومن كثرة تردد قوافل التجار إلى الصين براً ، فتح الطريقان المنظمان على ظهر الجبال بآسيا الوسطى ، ترتبط بهما عواصم الصين بعواصم البلاد المجاورة لها ويعرف أحد الطريقين فى الكتب الجغرافية باسم (نان لو) أى الطريق الجنوبى والآخر باسم (بيلو) أى الطريق الشمالى . وكانت المحطة الابتدائية لكل واحدة منهما هى مدينة (سى آن) ، والمحطة النهائية هى مدينة خيوا ، عاصمة الدولة الساسانية . وقد اشترك هذان الطريقان فى محطات (لا نشو Lan - Chow) ولوبنور إلى تسيمو (Tsie Mo) حيث يفترقان ، أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب وبينهما صحراء (غوبى) و (تيان شان) أى جبل السماء . فالطريق الجنوبى يمر بجنوبى نهر طارم ، إلى ختن ويارقند حيث يصعد إلى سقف العالم وهو بامير ، ثم ينزل عن غرب نهر جيحون إلى خيوا . أو عن جنوب هذا النهر ذاهبا إلى نهر أندوس ، والمياه الخمس (بنجاب) بشمال الهند . وأما بيلو أو الطريق

الشمالى ، فيمر بشمال نهر طارم عن طرفان وكشار وأقصو إلى كاشغر ثم يمر بمضيق تيراك إلى سيحون وسمرقند حيث يوجد طريقان ، أحدهما يذهب بصاحبه جنوبا إلى خيوا ، والآخر ينعطف ناحية الجنوب الغربية ، إلى مرو ، عاصمة خراسان . وكان هذان الطريقان قد أصلحا إلى حد كبير بأمر القائد الصينى المعروف باسم بان جو (Pan Chao) الذى قاد جيشا جرارا إلى قتال التتار الذين لا يزالون يغيرون على حدود الصين الشمالية الغربية . فهزمهم شر هزيمة حتى فتح حصونهم المنيعة التى منها ختن وكاشغر فى سنة ٩٤ م .

وهذه الوثائق التاريخية التى اتفق جميع المؤرخين على صحتها ، تشهد من ناحية بأن الصين قد ربطت برا فى أوائل القرن الثانى من الميلاد مباشرة بالبلاد التى بغربى آسيا . خصوصا إيران ، وتخبرنا من ناحية أخرى عن علاقة الصين بالامبراطورية الشرقية علاقة غير مباشرة . ويؤكد هذا القول مؤرخ رومانى كبير بتصديقه سفر (ماركس أورليوس أنتونيوس Marcus Aurelius Antonius) من قبل امبراطور الروم الشرقى إلى الصين فى سنة ١٦٦ م [١] .
ثم أن الأستاذ جيبون ، مؤلف (انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها قد ذكر أيضا أن التجار الرومانيين الذين اختلفوا إلى أسواق الشام وأرمنيا ونصيبين ، كانوا يتبادلون بضائعهم بالبضائع الصينية بوساطة الايرانيين من حين الى آخر . وفى زمان بعد ذلك ، عند ما شعروا بمظالم الايرانيين وعدم انصافهم فى المعاملات ، جهدوا فى تخلصهم من هذه الذلة ، فنجحوا فى انشاء رابطة مباشرة مع تجار الصين بحرا فى القرن الثانى من الميلاد .

وأما الأستاذ هيرت مؤلف « الصين والرومان الشرقية » فقد صدق هذا القول غير أنه يشك فى كون ماركس أنتونيوس مبعوثا من قبل الامبراطور . بل هو يعتقد أن ماركس هذا ، قد أوفده التجار الرومانيون الى الصين فسافر اليها بحرا وكانت سفارته اذن غير سفارة رسمية ، بل سفارة خصوصية لمهمة تجارية . ومهما

(1) Chao Ju-Kua: P. 5.

يكن من أمـــر ، فان سفـــر ماركس أنتونيوس ثابت فى التاريخ ومتأكد من قبل المؤرخين الرومانيين أنفسهم . وبعد هذا نستطيع أن نفهم من كلمة الأستاذ هيرت ، أن العلاقة التجارية بين الروم الشرقية والصين كانت موجودة ثم انقطعت . فذهاب ماركس الى الصين لم يـــكن إلا تجديدا للعلاقة التجارية القديمة [1] .

ومن رأيه أن التجارة بين الروم والصين كانت عن بلاد الشام والموانىء التى بسواحل مصر . وأن النيل كان معروفا عند الصينيين . فاستشهد من المصادر الصينية التى ترجع إلى القرن الثالث من الميلاد . وأقواله هذه ، تؤكد ما قلناه عن علاقة الصين بالعرب علاقة غير مباشرة فى القرن الثانى من الميلاد ، إذ كانت بلاد الشام تحت سيطرة الروم الشرقى على أنها جزء منه لا تنفك عنه .

وأما أمبراطورية الرومان الشرقية فقد ذكرها فقد تاريخ الصين تحت اسم (تاتسن Ta - Tsin) وهذا الاسم بطبيعة الحال كان شاملا الممالك التى كانت تحت الروم بسواحل البحر الأبيض مثل الشام وفلسطين ومصر . وما يلى هو نص ورد فى (وى لير Wei—Lui ص ٧) ، كتاب قديم باللغة الصينية ، كتب فى القرن الثالث من الميلاد .

وأن هذه البلاد واقعة على غرب البحر فلذا تسمى ببلاد « هاى سى » أى بلاد غرب البحر ومنها يخرج نهر يصب فى بحر عظيم ... ويقول الاستاذ هيرت ، أن هذا النص تعريف تام لبلاد مصر . لأن البحر الأول الذى يقع غربيه مصر هو البحر الأحمر ، والنهر المشار اليه هو نهر النيل . وأما البحر العظيم الذى يسقط فيه هذا النهر فهو البحر الأبيض وأضاف الى ذلك قائلا أن فى بلاد « غرب البحر » مدينة يقال لها « كسند » محرفة عن اسكندرية ، كما يظهر ذلك من تقارب حروفها ووضعها الجغرافى المحدد فى ذلك المصدر [2]

(1) Hirth: China and Roman Orient. P. 175.
(2) Hirth: China and Roman Orient. PP. 180-181

وقال فى مواضع عديدة أخرى ، أن بلاد الشام كانت مركز التجارة ، لأنها وقعت فى موقع مركزى بين المدن المتفرقة فى آسيا الصغرى وقبرص ومصر وآرمنيا ومدين وبابل ، ولأنها قد تملكت من زمان بعيد ، جميع الوسائل التى تمكنها من احتكار تجارة اليواقيت على اختلاف أنواعها والزمرد وعيون الهرة واليصب وفرخ جمر واللازود والعقيق وغيرها من الاحجار الكريمة .

ومن المدن التى كانت البضائع تصدر منها الى الصين عن طريق البحر الأحمر ، مدينة اسكندرية ، فانها قد ورثت عظمتها التجارية من الشاميين والفنيقيين ، إذ كانت تحت سيطرة امبراطورية الروم الشرقية فأصبحت بلا نزاع مدينة الصناعة والحرفة ، وكانت صناعة الزجاج بمدينة الأسكندرية مشهورة فى العالم والمصانع التى قد فتحت لتركيب الأحجار الكريمة وصقلها وتجميلها ونظمها ، كانت بلاشك من مفاخر امبراطورية الروم . ولقد أخبرنا الاستاذ هيرت أن من بين البضائع التى كانت تصدر من الروم الشرق الى الصين ، الذهب والفضة والعنبر والعقيق واللؤلؤ والمرجان ثم المنسوجات القطنية المصنوعة بالولايات الشرقية من امبراطورية الروم : والأستاذ هيرت يميل الى الاعتقاد بأن أغلب الجواهر والأحجار الكريمة التى كانت تصدر من الروم الشرق الى الصين ، ليس من صناعات الامبراطورية الشرقية نفسها بل من منتجات مصانع الجواهر ومصاقلها بالاسكندرية [١] .

يرى هذا المؤرخ الرومانى أن أغلب البضائع التى كان تجار الروم يأخذونها من تجار الصين ، لا يحتاجون الى دفع ثمنها بالنقد ، بل يبادلونهم بالبضائع الأخرى التى من خاصة منتجات الروم . فالزجاج والمفارش والبطانيات والمزركشات والمطرزات والمنسوجات المذهبات والأحجار الكريمة كانت من بين هذه البضائع المتبادلة . فكان التاجر الصينى يستطيع أن يحمل هـــذه الأشياء من الشام ، مع أشياء أخرى من أنواع الأدوية وأعواد الطيب ، يأخذها بالطريق وقت عودته [٢]

---

(1) Hirth: China and Roman Orient. P. 245.
(2) Hirth: China and Roman Orient. P. 228.

وقد علمنا من المصادر الرومانية، أن طريق البحر بين سواحل البحر الأبيض وخليج فارس كان مفتوحا من زمان بعيد قبل الميلاد وكان ذلك عن البحر الأحمر كما أشرت اليه من قبل . فالمدينة التى لعبت دورا هاما فى العلاقة التجارية بين مصر والهند والصين فى القرون الأولى للميلاد هى مدينة عدن على ساحل البحر الأحمر بجنوب جـــزيرة العرب حينما كانت ايران تتوسط فى هذه التجارة حتى أيام جوستنيان [١] .

كان للتجار الذين جاؤا من سواحل البحر الأبيض الى خليج فارس، طرق عجيبة فى كسب الأموال وتحصيل المنافع . وكان ـ كما أخبرنا الاستاذ هيرت ـ البحارون الذين جاؤا بالمراكب التجارية الى خليج فارس قد حذوا حذو أسلافهم الفنيقيين فى معاملة التجارة من حيث أنهم لا يساعدون أحدا من جمع الأخبار عن أحوال التجارة بسواحل البحر الأبيض يخافون، أو يمنعون المنافسة فى التجارة، وربما كانت هذه المنافسة سببا قاضيا على احتكارهم فى بعض البضائع الخاصة . وكان بحاروا المراكب يكتمون كتمانا تاما حقيقة التجارة فى أسواق الشام ومصر لانهم كانوا يشتغلون بنقل البضائع الصينية من حدود ايران الى أسواق الشام فى السفن التى يملكها السوريون . فالاخبار عن التجارة فى البحر الابيض مقصورة عليهم دون غيرهم . فلذلك وجدنا أنهم قد اجتهدوا وسع طاقتهم ، فى الامتناع عن اطلاع غيرهم من الذين لهم اتصال بتجار الصين بخليج فارس أو بسواحل الهند من الايرانيين وغيرهم ، عن الاحوال التجارية وحقيقة الاسواق بسواحل البحر الابيض، خوفا من اذاعة حقيقة قيمة الحرير بالصين ، أو من تعرف الاثمان الاصلية لمصنوعات الزجاج والجواهر بالشام . فجلب المحتكرون السوريون بهذا الكتمان ، نفعا بالغا فى الاتجار بهـــذه البضائع الخاصة ، وكانت الارباح تبلغ مائة فى المائة فى معظم الاحايين [٢] .

---

(1) Chao Ju-Kua: P. 3.
(2) Hirth: China and Boman Orient. P, 168

ولا ريب فى أن السوريين كان لهم باع طويل فى التجارة البحرية مع تجار الصين والهند واكتسبوا فيها من ناحيتين . ناحية التصدير وناحية التوريد . لانهم كانوا يبيعون صادراتهم فى خليج فارس أو عدن الى تجار الصين وهم لا يعرفون قيمتها الاصلية ، بثمن مضاعف ثم ضاعفوا قيمة الواردات فى أسواق الشام لجهل أهلها بأصل الثمن ومن المعلوم أن أهم الواردات من الصين فى ذلك الوقت كان الحرير على اختلاف أنواعه وقيل أنهم باعوه فى أسواق الشام بالذهب على قاعدة الوزن بالوزن[1]. وسواء أكان هذا القول صحيحا أو غير صحيح ، لا نستطيع ان ننكر أن هذه البضائع كانت غالية جدا فى أسواق امبراطورية الروم فلم يقدر على شرائها والتمتع بها ألا الامراء والاغنياء ولا نستطيع أن ننكر أيضا أن أغنياء الروم الشرق ، كانوا ينفقون مبلغا عظيما من أموالهم فى اقتناء هذه البضاعة النفيسة التى لم يتمهر فى صناعتها إلا الصينيون فقط .

وأما سفر ماركس أنتونيوس، فقد اتفق المصدران الصينى والرومانى، على أنه قد تم ذلك بطريق البحر ومن المعلوم أن طريق البحر بين قسطنطينية وموانى الصين لا تكون الا عن سواحل الشام والفرات، أو البحر الأحمر ، ثم خليج فارس وملابار وسرنديب، وسماطرة، ومالاكا، وتونكين، ومن ثم الى أقرب المرافئ بجنوبى الصين واذا سئل متى بدأت المواصلات البحرية بين الصين وغيرها من البلاد التى بسواحل المحيط الهندى والبحر الأبيض ، ولا نستطيع ان نحدد تاريخها ، الا أن (جويوكوا Chao Ju Kua) قد ذكر فى كتابه (جوفان جى) «أى تذكرة عن الأمم الأجنبية، أن جماعة من الاجانب قد وصلوا مع أنتونيوس، بحرا الى تونكين . ومن ثم سافروا برا الى عاصمة الامبراطور (يوان تى Ynan Ti) . ثم جاء فى فى سنة ٢٢٦ م ، الى الصين تاجر آخر من الامبراطورية الرومانية . فوصل الى تونكين أولا . ثم بعث برا الى عاصمة الصين فى عهد الامبراطور (سيون جيون[2] .

(1) Hirth : China and Roman Orient. P, 225.
(2) Choa Ju Kua : P. 5.

ونظرا الى ما جاء فى « تذكرة عن الأمم الاجنبية » مؤلفة (جويوكوا) الذى اتفق بالمصادفة ، مع ما ورد فى كتاب الاستاذ هيرت ، وهو من ثقات التاريخ الرومانى عن سفر ماركس أنتونيوس بحرا الى الصين ، وكان ذلك فى سنة ١٦٦ م ، نستطيع أن نقول أن طريق البحر قد نظم على الأقل فى القرن الأول من الميلاد حتى استطاع ماركس أنتونيوس ان يصل الى الصين آمنا فى وقته .

ولقد علمنا طرفا من الحركات البحرية بين البحر الأبيض وخليج فارس وكان ذلك بفضل التجار السوريين الذين كانوا يشتغلون فى التجارة مع تجار الصين فى خليج فارس والبحر الأحمر . لكن من الذين يمكن أن يرجع اليهم فضل كشف الطريق البحرى بين موانىء الصين وخليج فارس هل كانوا رومانيين ، أو صينيين ، أو غيرهم من الأمم ، أما التاريخ فيشهد من ناحية بوجود التجار الصينيين بسواحل ايران والهند قبيل الميلاد ، ومن ناحية أخرى يدل على علم الرومانيين بهذا الطريق فى الوقت نفسه . ولو لم يعرفوا ذلك لما ركب البحر رجل رومانى مثل ماركس أنتونيوس الى الصين فى منتصف القرن الثانى للميلاد . ففى هذه النقطة ننظر الى رأى مؤرخ آخر ، لا هو صينى ولا هو رومانى . ذلك هو الاستاذ هادى حسن الذى له بحث مفصل فى هذا الصدد . فيجب علينا أن نأخذ رأيه السديد . قال فى كتابه « تاريخ الملاحة الايرانية » أن الطريق البحرى الى الصين لم يكن على أية حالة من الاحوال ، من اكتشافات الرومانيين ، لأن جنود الصين قد وردت إلى سواحل ملاربار فى القرن الثانى قبل الميلاد ومن المحتمل أن (جاءت فى زمن قبل هذا القرن . لكن الملاحة البحرية لم تكن منظمة قبل عهد الساسانيين بل متخللة بالفترات [١] . لقد أشار الاستاذ جيبون مؤلف انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها ، إلى هذه النقطة أيضا حينما تكلم عن طريق البر والبحر الى الصين . فأن قوافل تجار الحرير الذين خافوا من غارات التتار ونهبهم لأموالهم ، أو من سوء

(1) Hadi Hasan : History of the Persian Navigation. P. 54.

معاملة التجار الايرانيين لهم ، بحثوا طريقا آخر إلى الاجتماع مع التجار الصينيين بسواحل الهند . فاختاروا أن يشقوا طريقا فى جبال التبت ونزلوا عن طريق الكنج أو نهر الاندس ، إلى موانى كجرات وملابار وانتظروا هناك وصول مراكب التجارة من الصين فى مواسمها بفارغ الصبر [١] .

كان الأستاذ جيبون ، ولو أنه لم يعتقد بسفر الصينيين الى خليج فارس فى القرون الأولى للميلاد ، اضطر الى الاعتراف بأن تجار الحرير الصينيين الذين قد جمعوا فى أسفارهم البحرية الى جزيرة (تيرنك مال Trianque Mal) بضائع شتى مثل الصبر والقرنفل والنارجيل وأعواد الطيب ، نالوا قسما عظيما من التجارة مع أهل خليج فارس » .

وكان السبب الذى يدعو الرومانيين الى التفكير فى ايجاد علاقة مباشرة مع التجار الصينيين بسواحل الهند ، هو احتكار الايرانيين تجارة الحرير الصينى برا وبحرا . فأن هذه البضاعة ، كما قال الاستاذ جيبون ، قد أصبحت من ضروريات الرومانيين فى الملابس والكسوة فى زمن الامبراطور جوستينيان ، الذى كان ينظر بعين الاهتمام والقلق الى احتكار الايرانيين البضائع التى تحتاج اليها بلاده وبعين الحسد والحقد الى الثروة الهائلة التى يسلبها أعداؤه من رعاياه كل سنة . فالحكومة الرومانية الشرقية ، منذ ما استيقظت من غفلتها وانتبهت إلى تقصيرها فى التجارة البحرية ، قد استطيع أن تسترد نصيبا من تجارتها فى مصر وقوتها البحرية فى البحر الأحمر الى بدها . كانت هذه التجارة قد نقصت ، والقوة البحرية قد ضعفت الى حد كبير بسبب انحطاط الدولة وضعفها ، ومن المظنون أنهم قد صمموا على إرسال مراكب رومانية الى مرافىء مالاقا ، والى الصين لاشتراء الحرير . غير أن الضعف الذى أخذ يأكل قلب الدولة ، منعه عن هذا الأقدام . لكن جوستينيان على كل حال لم يغفل عن حاجات رعاياه ، كما أنه لم يجهل سوء معاملة الايرانيين لهم . نعم أنه لم يستطع إرسال المراكب من عنده رأسا الى الصين ، غير أنه تمكن من ايجاد وسيلة تنيله

---

(1) Gabbon: Vol. 11. 40.

غاياته . فالأحباش - وكانوا من حلفاء المسيحيين - ، قد نهضوا نهضة بحرية وقبضوا على ناصية التجارة فى سواحل البحر الأحمر ، فساعدوه فى تحقيق مراده ، بارسال بعض المراكب الى سواحل الهند لنقل البضائع الصينية الى الامبراطورية الرومانية

ولقد أثبتنا أن الرومانيين قد استطاعوا انشاء رابطة تجارية مع الصين فى القرن الثانى من الميلاد عن طريق خليج فارس والبحر الأحمر ، لأنهم امامفتاحان لتصدير البضائع الرومانية الى الصين ، أو لتوريد البضائع الصينية الى أمبراطورية الروم . والآن نستطيع أن نتصور وجود العلاقة بين الصين والعرب فى ذلك الوقت أيضا ، خصوصا بعد ما تكلمنا عن أن عدن كانت مدينة عظيمة وقد لعبت دورا هاما فى التجارة البحرية مع الصين وبلاد الروم الشرقى كليهما .

صحيح أننا لا نجد ذكرا فى المصادر العربية عن هـــذه العلاقة . غير أننا لا نستطيع أن ننكر وجودها على حال من الأحوال . والسبب فى ذلك أن بلاد العرب فى ذلك الوقت لم تكن متحدة تحت دولة قوية . ومن الجائز أيضا أن مؤرخى الغرب لا يعترفون بوجود هذه العلاقة ولهم عذر معقول . ومن المعلوم أن شمال بلاد العرب كانت فى ذاك الوقت تحت سيطرة الرومان الشرقية ، وجنوبها تحت بلاد الفرس ، فمن المفهوم اذن أن علاقتها التجارية مع الاجانب ، قد أخفيت تحت ظلال الرومان أو الايران . فاعتبر المؤرخون معاملة التجارة التى وقعت فى أسواق الشام ونصيبين وأرمنيا ، معاملة بين الصينيين والرومانيين كما نسبوا المعاملة التى وقعت فى موانىء اليمن وجزائر عمان ومسقط وبحرين الى عظمة الايران التجارية وكان الأمر غير منحصر فى هذا ، بل البضائع التى كان أصلها من شرق أفريقيا ، حسبوها من منتجات ايران ، وسموها البضائع الايرانية ، حتى أوائل القرن السابع من الميلاد . لقد صح ما قال الاستاذ هادى حسن فى كتابه « تاريخ الملاحة الايرانية » عند ما تكلم فى هذه النقطة ، حيث قال أن « تاريخ الصين الذى يتعلق بالعصور التى بين أواخر القرن الرابع الى أوائل السابع من الميلاد ، يذكر جميع البضائع التي كان أصلها من بلاد العرب أو من شرق أفريقيا تحت اسم (بضائع

بوسى) . لأنها هى المملكة التى كان يصدر منها أغلب بضائع البلاد المجاورة للصين

اتفقت المصادر الثلاثة ، الصينية والايرانية والرومانية ، على وجود العلاقة بين العرب والصين قبل الاسلام ببضعة قرون فى شكل غير مباشر اذا اعتبرنا السلطة الحاكمة التى كانت سائدة على شمال بلاد العرب وجنوبها ، قبل الاسلام وفى شكل مباشر إن أخذنا فى حسابنا الحدود الجغرافية . ومما لا مرية فيه ، أن نشاط الايران التجارى أثر فى هذه العلاقة أكثر من حركة التجار الرومانيين لأنهم لم يشعروا بحاجتهم الى ايجاد علاقة مباشرة ، الا بعد أن ذاقوا القساوة من الايرانيين الذين كانوا يتوسطون فى تجارة الصين مع الرومان ، وكانت ايران هى المملكة التى اتصلت الصين بواساطتها بدولة من الدول العربية القوية العظيمة حينما كانت جزيرة العرب لا تزال باقية فى وثنيتها وجاهليتها الاولى . وهى دولة الحيرة تحت أصحاب الخورنق والسدير . وكان الملك الذى قد عاصر خسرو برويز ، وهو النعمان بن المنذر ، الذى حكم تلك المملكة بالقوة والحكمة مدة ثمان وعشرين سنة (٥٨٥ — ٦١٣ م) وهو الذى أرسل فى أثناء حكمه ، وفدا يشتمل على عشرة أعضاء ، الى خسرو برويز . وكان كل واحد منهم فصيح اللسان ، طلق البيان ، شريف النسب ، مفتخرا بعروبته . وقد اجتمع عنده وفود الروم والهند والصين . وأما الخطب التى ألقاها وفد العرب أمام كسرى (خسرو) فمن أفصح كلام العرب نثرا ، أن كان اسناد صاحب العقد الفريد صحيحا ولم يخطىء فى نسبة هذه المنثورات الى أصحابها . فمن المتصور اذن ، أن أعضاء الوفد العربى ، بعد تأدية رسالتهم التى بعثوا لأجلها ، كانوا يطمعون فى الحصول على بعض المعارف عن البلاد التى قد اجتمعوا مع وفودها عند كسرى . وهذا من طبيعة حالة السفراء فى كل وقت وكل مكان . وبعد هذا فلا عجب عندنا ، فى أن أكثم بن صيفى وزملاءه

قد سألوا وفد الصين عما يريدون أن يعرفوه ، من أحوال بلاد الصين وعاداتها فسمعوا وصف بلاد الصين من أفواه وفدها . هذا من الناحية السياسية

وأما من الناحية التجارية ، فيحكى المسعودى ، أن العلاقة التجارية كانت قائمة مباشرة بين الصين ودولة الحيرة . قال فى مكان من كتابه أن الفرات يصب فى البحر الحبشى فى الموضع المعروف بالمحف . وكانت تتقدم هناك سفن الصين والهند ، ترد إلى ملوك الحيرة وقد ذكر ما قال عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغسانى ، حين خاطب خالد بن الوليد فى أيام أبى بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه ، حين قال له ما تذكر قال أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون (١) .

نكتفى بهذا التعليل فى إثبات وجود الاتصال بين العرب والصين قبل الاسلام ولا أظن أحدا ينكر هذا الجانب من الوقائع والحقائق التاريخية . غير أنه يستطيع أن يقول أن صاحب الرسالة هو من قريش بقلب الحجاز . ومن المشكوك فيه أن يتصل القرشيون بالصينيين قبل الاسلام مع ثبوت أن اليمانيين والقحطانيين كان لهم إتصال بتجار الصين بخليج فارس من عهد قديم منذ القرن الثالث من الميلاد على الأقل . لكنا نجد على كل حال ذكرا فى الكتب العربية ، عن زيارة التجار القرشيين للعراق فى الوقت الذى كانت فيه جزيرة العرب لا تزال فى وثنيتها . فسافر هؤلاء التجار إلى عاصمة كسرى وأهدوا اليه بعض البضائع النفيسة التى منها خيول العرب . ونظرا إلى أن اسم أبى سفيان قد ذكر فى زمرة هذه القافلة التجارية (٢) . أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأمر قد وقع قبل النبوة بزمن قليل .

لقد أثبتنا فيما تقدم أن تجار الصين كانوا يترددون على المدن الكبرى بايران بين حين وآخر وعلى موانئها بالخليج . فن المحتمل إذن أن هؤلاء التجار

---

(١) هوامش نفخ الطيب . ج ١ ، ص ١٢١

(٢) العقد الفريد ج ١ - ص ٩٠ (الطبعة الأميرية)

القرشيين أو معاصريهم قد اجتمعوا مع بعض التجار الصينيين فى أرض ايران أو العراق . ومن المؤكد أن بلاد الصين كانت معروفة عند القرشيين قبل الاسلام بدليل قوله عليه السلام « اطلبوا العلم ولو بالصين » لانه عليه السلام لم يرتحل إلى خارج بلاد العرب . وإذا صح ما قلنا ، فلا نشك فى أن علمه باسم (الصين) قد جاء من الأخبار السائرة فى جزيرة العرب فى وقته ، وذلك لم يكن إلا بعلاقة القرشيين بالصينيين أولا . ثم عرف هذا الاسم فى بلاد العرب حتى شرفه صاحب الرسالة بذكره فى الحديث

الباب الثانى

العلاقة السياسية

قد تكلمت فى الباب السابق على ضوء الوثائق التاريخية عن اتصال العرب بالصين من عهد قديم إلى زمن النبي صلى الله عليه وسلم. وكان ظهوره قد قلب ورقا جديدا فى تاريخ العالم. فالتغيرات التى ظهرت على أثر مناداته بالنبوة فى الشرق والغرب، وخصوصا فى محيط البحر الأبيض ظاهرة بالغة يشعر بها كل صغير وكبير من جميع الأجناس والألوان. فهى غير محتاجة إلى شرح فى هذا المقام. وأما الصين فلا شك فى أنها كانت بعيدة عن مهبط الوحى ومهد الاسلام، غير أن بعدها لم يغن عنها شيئا. فوقعت أيضا تحت تأثير هذا الانقلاب المدنى والدينى، الذى ظهر أولا فى جزيرة العرب فى أوائل القرن السابع للميلاد، ثم أخذ يفيض على البلاد المجاورة حتى عم أكثر ربوع العالم.

أن الاسلام الذى كلف الله محمدا (ص) نشره فى الأمة العربية أولا ثم فى الأمم الأخرى فى أقطار العالم هداية ورحمة، انتشر سريعا، بعد استحكام نفوذه فى الجزيرة، إلى بلاد الشام ومصر والعراق والفرس. وكانت واقعة القادسية (٦٣٦م) تهدد حياة الامبراطورية الساسانية التى كانت فى حالة الاحتضار، وانتصار العرب فى نهاوند (٦٤٢م) قوض دولة كسرى إلى الأبد. ففر يزدجرد، آخر الملوك من الساسانيين من أرض أجداده، وكان فراره إلى الصين نذيرا للامبرطور (تانغ تاى جونغ) بتقدم القوة الجديدة الناهضة من بلاد العرب نحو

الشرق الأقصى . ولا شك فى أن (تانغ تاى جونغ) كان يعطف على آخر الورثة لعرش الأكاسرة فوعده بأن يمده باعانات عسكرية ولوازم حربية من ممتلكاته المجاورة لبلاد الفرس، وكان لهذا الوعد أثر بالغ فى نفس يزدجرد حتى جدد أمنيته وعادت الحرارة المجوسية إلى عروقه . فرجع مع جماعة من عساكر التتار الذين كانوا يعترفون بسلطة (تانغ تاى جونغ) عليهم آملا بذلك فى استرداد تركة أجداده إلى وارثهم الأصيل . غير أن نجوم العرب الذين سيطروا على الامبراطورية الساسانية الآن ، فى مطلع الارتقاء ورأوا هلاك يزدجرد وآخر أيامه بدون اشتباك مع العساكر الذين جاؤا معه بحكم أمبراطور الصين. وكان ذلك أن حفيد خسرو برويز، قد خانه خادمه بالمرو فتمرد أهلها عليه واعتدوا عليه فتعقبوه إذ كان هاربا منهم . فوصل فارا بحياته إلى شاطىء نهر حيث أراد العبور على عجل فلم يجد الا مركبا لمطحن . وكان يزدجرد كما هو حال كل رجل فى وقت المصائب لم يجد فى جيبه شيئا من النقود . فعرض على صاحب المركب خاتما وسوارا لعبور عاجل . فأجاب ذلك القروى وكان جاهلا شخصية يزدجرد الخطر الذى كان فيه أنه يحصل من مطحنه يوميا على أربعة دراهم . وأنه لا يستطيع أن يعطل المطحن عن العمل إلا إذا عوض عن خسارته . فى هذه الساعة من التردد والتأجيل ، وصل المتعقبون فقبضوا عليه وانتزعوا روحه من جسده، فانتهت حياة آخر ملوك الساسانيين فى السنة التاسعة من حكمه

وأما ابنه فيروز وكان تابعا لأمبراطور الصين وخاضعا لحكمه فقد رضى بمركزه فى قصر (سيآن) حيث كان رئيسا لفرقة حراسه . وكانت الديانة المجوسية قد تسربت إلى بخارى مع جماعة من المنفيين ومنهم ابن فيروز الذى كان يحمل اسم جده . فعاد إلى الصين بعد ثورة فاشلة . فقضى نحبه فى قصر (سيآن) بين الحزن واليأس .

فابتدأت العلاقة السياسية مباشرة عند ما كان الأمراء الساسانيون يلتجئون إلى عاصمة الصين [1] .

---

(1) Huarts: Ancient Persian and Iranian Civilization P. 137.

وأما الحلقة الثانية من العلاقة السياسية فهى زحف قتيبة بن مسلم الباهلى إلى آسيا الوسطى ، كان قتيبة مطيعا لأوامر الحجاج بن يوسف والى العراق . فقاد قوة جديدة من العرب إلى خراسان ، ثم إلى ماوراء النهر ضد الاتراك الذين لم يخضعوا لحكم العرب حتى الآن ، مع أنهم قد انهزموا مرارا أمام قواد العرب الآخرين من قبل . فأعد عساكره بالمرو ، وشجعهم بالأناشيد العسكرية والخطب الحماسية . فزحف بهم أولا إلى بيكند (Beïkend) وقد فتح فى طريقه إلى كاشغر ، أدنى مدن الصين ، مدينة الصغد ورامتين وبخارى ووأردن وكش وسمرقند لقد اشتبك بقوة تركية تحت قيادة رئيس معروف باسم (غوزك) . ويقول البلاذرى أن قتيبة بعد الانتصار عليه ، فرض عليه جزية سنوية مقدارها ٢٠٠٠٠٠٠ و ٢ درهم . وكان أول عمله ، بعد دخول سمرقند بعساكره ، أن صلى ركعتين شاكرا للقادر المطلق الذى قد أعزه بفتح مبين على أعدائه المشركين ثم أصدر أمرا بانشاء أول بيت لله فى هذه المدينة الوثنية . فتقدم بغزواته إلى الشرق الأقصى ، تاركا وراءه فى سمرقند جماعة من الموحدين لنشر رسالة محمد رسول الله (ص) وإعلاء كلمة الله بين أهلها .

ووجد فى سمرقند عدداً كبيرا من المعابد الوثنية التى فيها أصنام وأوثان وكان الناس فى تلك المدينة يعبدونها ويعظمونها . وكان طبيعيا لا يسمح قتيبة بعبادة تلك الأصنام أو التقرب اليها ، بعد أن فتح تلك المدينة وشيد جامعا فيها . لأنها آلهة لا تضر ولا تنفع ، إذ أنها مصنوعة من صخور أو أحجار أو أخشاب أو أشجار . فعزم على تحطيم هذه الأصنام ، فضج المجوسيون غضباً لأنهم كانوا يدينون بتقديس هذه الأصنام ومعجزاتها . فأقبل كبراؤهم ينذرون المحطمين قائلين — كل من يرفع يده معاديا هذه التماثيل المقدسة ، يهلك فى وقته ولا مفر له من ذلك لكن قتيبة بن مسلم الذى كان قلبه يفيض بنور الإيمان ، وكان جبينه متلألئا من فخر الغزو والانتصار ، لم يخش تهديدهم . فأنزل الأصنام واحداً بعد الآخر ، وألقاها فى النار . وكان الناس على ذلك شاهدين ، فلم يروا إلا لهيبا فى لهيب ، ثم رمادا بين رماد تذروه الرياح . وأما المعجزة ، وأما هلاك المحطم فى وقته ، وأما غير ذلك من

قداسة الأصنام و فعلها فى الأحياء فلم يظهر لها أثر أبدا . وأما الجماهير الذين قد عاشوا فى الجهل فانتبهوا فى الحال فقاموا وثاروا على الرهبان وكذبوا أقوالهم ثم تولوا عن عبادة الأصنام ودخلوا فى دين الاسلام .

صرف قتيبة بن مسلم مدة من الزمن ومقداراً بالغا من التفكير فى إخضاع سكان بخارى الذين كانوا يخضعون لحكم العرب حينا ويتمردون عليهم حينا آخر . وكانت الصعوبة ليست فى فتح مدينة بخارى بالقوة العسكرية ، بل فى فتح قلوب السكان التى قد تجمدت فى الوثنية والأوهام غير شاعرة بالهزات التى أحدثها الاسلام فى المعتقدات الآن . نعم ، أنهم قد سلموا أنفسهم إلى سلطة العرب مراراً ، غير أنهم عند ما رأوا أن الفرقة الرئيسية من قوات العرب قد ارتحلت الى جهة أخرى ، خرجوا من بيوتهم . فأخذوا أسلحتهم للمرة الثانية ورفعوا لواء العصيان ضد حكام البلد . والقد وقع مثل هذا ثلاث مرات . فكان السبب الأصلى لهذه الثورات يرجع إلى أن أكثر السكان قد لبسوا ثياب الاسلام فى الظاهر . لكنهم فى الباطن قد بقوا فى الوثنية كما كانوا فى حالتهم الأولى . فلما فتح قتيبة بلاد بخارى للمرة الثالثة ، مكث يفكر فى وسيلة يستعين بها على إسلام أهلها وتبديل معتقداتهم من أصلها . فأسس فى مدينة بخارى جامعا معروفا باسم (جامع قتيبة) فى سنة ٧١٤ م ، ولا يزال باقيا الى يومنا هذا . وكان يمنح عطاء قدره درهمان لكل مصل جديد فى هذا الجامع يوم الجمعة . زد على هذا أنه قد بعث المعلمين والواعظين إلى أسر قد دخل أهلها فى الاسلام حديثا ليعلموهم الدين ، ويزيلوا الشكوك من قلوبهم . فبينوا لهم تلك الأحكام الضرورية التى يحتاجون اليها فى إقامة الصلاة وشعائر الدين . ولرفع الصعوبة فى فهم معانى القرآن بلغته الأصلية ، أجاز ترجمته إلى اللغة الفارسية [1] التى كانت وسيلة التفاهم فى الآراء ، وآلة التبادل للأفكار فى الامبراطورية الساسانية فى ذلك الزمن . فجعلوا سكان بخارى يفهمون معانى القرآن باللغة المترجمة اليها فهما تاما . ولقد أفادت هذه الطريقة التى تعتبر من أحدث

---

(1) Vambury: History of Bukhara. P. 30

أساليب التبليغ إفادة عظيمة فى نشر الاسلام ، وتقوية هذا الدين الحنيف فى بلاد التتار العليا التى انتشر منها فى الأيام اللاحقة إلى تركستان الصينية ، ومن ثم دخل شمال الصين الغربى .

فلما فرغ قتيبة بن مسلم من تنظيم سمرقند وبخارى ، واطمأن على النظام الذى وضعه لحل الامور وعقدها فى تلك الولايات النائية عن مركز الخلافة ، زحف بجيوشه نحو خوقند . ففتحها بلا مقاومة تذكر فى سنة ٩٥ هـ ثم توجه إلى شطر الشرق عن مضيق (تيرك) حتى دخـــل كاشغر فاتحا فى السنة نفسها . وكانت له محاربات خطيرة مع رؤساء الترك . ومن حسن حظه ، أن وجدهم مشغولين بالنزاع الداخلى غير متفقين على أمر الدفاع العام المشترك ، فأصبح اخضاعهم ، واحدا واحدا من السهولة بمكان على قتيبة وفى هذه الفترة كان بعض قواد التتار قد استغاثوا بأمراء القلموك بشمال تركستان الصينية ، لكن اغاثتهم لم تنفعهم شيئا ، لأن كاشغر ويارقند وختن - وكانت فيها حصونهم المنيعة - قد سقطت واحدة بعد أخرى فى ايدى العرب فتقدموا حاملين لواء النصر حتى وصلوا الى مدينة طرفان .

كان من عادات العرب فى الغزوات ، أن يعرضوا دين الاسلام ، أو الجزية ، على أهل البلاد التى يغزونها ، ولقد فعل قتيبة بن مسلم ذلك مع أمبراطور الصين أيضا . فبعث وفدا مع رسالة منه ، الى الأمبراطور (يوانغ جونغ Yuang Chung) (٧١٣ - ٧٥٥ م) ، يطلب منه الطاعة والجزية . ولابن الأثير فى هذا الأمر أقوال طريفة - طريفة جدا حتى لا نستطيع أن نميز حقيقة الواقعة من زخرف البيان . وأياما كان فلا أريد أن أدخل هنا فى نقد ابن الأثير ، لأن المتخصصين فى التاريخ يعرفون كيف يقولون كلمتهم الفاصلة ، ويبدون آراءهم السديدة فى النقط التاريخية الدقيقة . غير أننى أعتقد أن لأقواله قيمة عظيمة فى تمثيل آراء المؤرخين العرب فى هذا الواقع التاريخى . فلذا أرانى بحاجة الى تلخيصها هنا .

قال ابن الأثير « . . . فى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) غزا قتيبة بن مسلم كاشغر وحمل مع الناس عيالهم ليضعهم بسمرقند . فلما عبر النهر ، استعمل رجلا على المعبر

ليمنع من يرجع إلا بجواز منه. ومضى إلى فرغانة وأرسل إلى شعب عصام من يسهل الطريق الى كاشغر وهى أدنى مدن الصين. وبعث جيشا تحت قائد كبير الى كاشغر وختم أعناق أهلها وأوغل حتى بلغ قرب الصين فكتب اليه ملك الصين «

«ابعث الى رجلا شريفا يخبرنى عنكم وعن دينكم».

فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح. فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك من الخيول وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابى. فقال لهم «اذا دخلتم عليه» فاعلموه أنى قد حلفت لا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم، واجبى خراجهم. فساروا وعليهم هبيرة بن مشمرج وحضروا عند امبراطور الصين ثلاث مرات ولبسوا ملابس تختلف كل مرة عن الأخرى. فلقد لبسوا فى المرة الأولى ثيابا بيضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعـــال والأردية، وفى المرة الثانية لبسوا الوشى والعمائم الخز والمطارف، وفى المرة الثالثة شدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخــذوا السيوف والرماح والقسى وركبوا. فتعجب امبراطور الصين من مظاهرهم وسأل هبيرة عن حقيقة التنوع فى اللباس، قال: ـ زينا اليوم الأول لباسنا فى أهلنا وفى اليوم الثانى لباسنا أمام أمرائنا، وفى اليوم الثالث زينا أمام عدونا. قال ما أحسن ما دبرتم دهركم. فقولوا لقائدكم، ينصرف. فانى قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت اليكم من يهلككم. قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون. وأما تخويفك إيانا بالقتل، فان لنا آجالا، إذا حضرت فأكرمها القتل، ولسنا نكرهه ولانخافه، وقد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية.

قال الامبراطور فانا نخرجه من يمينه ونبعث اليه تراب أرضنا فيطؤه. وبعض أبنائنا فيختمهم وجزية يرضاها. فبعث اليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن.

قد ذكر هذ الواقع سوادة بن عبد الملك السلولى فى ثلاثة أبيات وهى جزء من بيان ابن الاثير عن علاقة العرب السياسية بالصين مباشرة. وها هى ذى:

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم للصين أن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشى الكريم هبيرة بن مشمرج
أدى رسالتك التي استدعيته فأتاك من حنث اليمين بمخرج

وأما قتيبة فرضي بما أهداه به أمبراطور الصين لأن الخبر قد وصل اليه في هذا الوقت عن وفاة الوليد بن عبد الملك وبيعة أمراء دمشق لسليمان الذي تولى الخلافة الأموية مدة وجيزة. وهو الذي أهلك كثيرا من أبطال الاسلام الذين كانوا أعمدة القوة وأركان الدولة، بسبب الحقد الشخصي الكامن في ذاته نحو هؤلاء الأبطال وكان قتيبة من الهالكين أيضا. والسبب في ذلك أن الخليفة الوليد بن عبد الملك، قد استشار الحجاج وقتيبة في عزل سليمان من ولاية العهد وجعل ابنه عبد العزيز مكانه. فأجاباه الى ذلك. فلما مات الوليد وتقلد سليمان مقاليد الخلافة، عزله عن الولاية في خراسان وولى وكيعا عليها بدلا من قتيبه. فأحدث قتالا هائلا بين الجماعتين حتى جرح قتيبة في المعركة وقتل فيها. وقتل معه أحد عشر ذكرا من أهل بيته.

وكان قتل قتيبة إيذانا باضعاف الاسلام فيما وراء النهر وإثارة الخلاف والشقاق بين صفوف العرب والمسلمين، وأما هبيرة بن مشمرج الذي كان يرأس الوفد العربي الى أمبراطور الصين بعد عودته الى ما وراء النهر، فأوفده قتيبة الى الوليد. لكنه لقي حتفه في طريقه الى دمشق، في قرية بفارس. فرثاه سوادة بهذه الأبيات

لله در هبيرة بن مشمرج ماذا تضمن من ندى وجمال
وبديهة تزهى بها أبناؤها عند احتفال مشاهد الأقوال
فسقى بقرية حيث أمسى قبره غر يرجن بسيل هطال
كان الربيع إذا السنون تتابعت والليث عند تكعكع الأبطال
بكت الجياد الصافنات لفقده وبكاه كل مثقف عسال
وبكته شعث لم يجدن مواسياً في العام ذي السنوات والأمحال

وقفت فتوحات العرب الى الشرق الأقصى بسبب قتل قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي قد شاركه في تناول كأس الموت، كثير من أبطال الاسلام. فتخلصت الصين

من حملة العرب عسكريا لكنها لم تستطع مقاومة نفوذ الدين الاسلامى الذى كان ينتشر بسرعة الى أواسط آسيا، مع التقدم العسكرى، فدخل الصين بعد أيام قلائل ورسا فى غربها وشمالها.

لاشك أن لقتيبة بن مسلم يدا طولى فى نشر الاسلام فى آسيا الوسطى، إذ كان واليا عليها. أما نصيبه فى نشر الاسلام فى ولايات الصين القاصية التى تقع بين سور الصين وسقف العالم فذلك مالم يرو لنا التاريخ عنه شيئا. فلذا لانستطيع أن نتكلم عنه هنا. غير أننا نرجح أن بعض الناس من أهالى تركستان الصينية قد تقبلوا الاسلام دينا فى زمنه، وخضعوا بعد وفاته لقواد العرب الذين كانوا يطلبون المجد الشخصى لأنفسهم فى ولايات بخارى وسمرقند والصغد. وكان من الذين أسلموا من أهالى آسيا الوسطى فى أواخر القرن الأول الهجرى، فى أغلب الظن، قوم أو يوغرى آباء المسلمين الصينيين الذين نشأت بينهم وبين الصين علاقة سياسية بعد توقف الفتح العربى فى الشرق.

ويشهد تاريخ الصين بأن الأواغرة شعب جديد تفرع عن التتار فى أوائل القرن الثامن من الميلاد، لأننا لا نجد ذكرا عنهم قبل هذا الزمن، مع أن تاريخ الصين ملىء بالحوادث التى وقعت على حدودها من غارات التتار وهزائمهم، أو خضوع رؤساء الترك لسلطة أمبراطور الصين و تقربهم اليه بتقديم الهدايا أو الخراج من هذه الحوادث خروج سابلو خان على الامبراطور (صوى ون تى Sui Wenti) الذى كان يتربع على عرش الصين فى سنة ٥٨٩ إلى ٦٠٥ م، إذ كان محمد رسول الله (ص)، لم يكلف بأعباء النبوة وتبعة الرسالة إلا بعد سنوات أخرى. وكان طبيعيا أن انهزم سابلوخان أمام القوات الصينية فالتمس الصلح من الامبراطور (صوى ون تى) فقبل التماسه فصالحه. ثم نتجت عن هذا الصلح رابطة عائلية بزواج أميرة من أسرة (صوى) بـ (كيمن خان)، رئيس من رؤساء التتار.

ولقد انقرضت أسرة (صوى) فى سنة ٦١٧ م، أى بعد النبوة بست سنوات وانتقل حكم البلاد إلى أسرة (تانغ = Tang)، وكان أول عامل من هـــذه

الأسرة العظيمة هو (تانغ كاوجو Tang Kao–Tzu) وكان رجلا عسكريا شجاعا فى الحرب مدبرا عظيما فى تنظيم الجيش وإدارة الأمور ، محبا للعلوم والفنون محترما لرجال الأخلاق والعدل مقربا لهم .

كانت علاقته بقبائل التتار على أساس المودة والصداقة . فانعم فى سنة ارتقائه العرش بلقب « أمير الوفاء » على خسر وخاع . وهـــو رئيس من رؤساء التتار الغربيين . فرفع خسروخان شكره الخالص إلى الأمبراطور (تانغ كاوجو) على هذا الانعام الممتاز وقدم له هدايا نفيسة منها درة يتيمة .

ولقد ذكر تاريخ الصين كثيرا من أمارات آسيا الوسطى ، اللاتى كن خاضعات لحكم الصين فى ذلك الوقت . منها أمارة (ووسين = Wu - Sen) وهى بلاد خولجة الحاضرة . قد أرسلت هذه الأمارة خراجها إلى أمبراطور الصين فى سنة ٦١١ م تقربا وتطوعا . وكان السبب فى ذلك أن خسروخان قد زار الصين فى عهد (صوى) فثار الأمراء فى عاصمته أيام غيابه عنها ونصبوا عمه ملكا عليهم . فعاد خسروخان بنجدة من الجيوش الصينية وتمكن من القبض على ناصية الأمارة للمرة الثانية . فاستقر فيها وقوى حتى استطاع فى أيام متأخرة ، إخضاع بعض الأمارات الصغيرة لحكمه . وحصل منهم الضرائب وأرسل قسما منها إلى الأمبراطور (تانغ كاوجو) ، شاكرا له إعانته له أيام الثورة السابقة [1] .

من رأى الاستاذ كاركورن (Corcorn) مؤلف « تاريخ ممالك جـــين » وهـو أحسن كتاب قرأته فى هـــذا الموضوع بلسان الاردو ، وطبع فى كلكته (الهند) أن نفوذ (تانغ كاوجو) من الناحية السياسية ، قد اتسع إلى سمرقنـــد وبخارى وبلاد قفجاق . وكان يأخذ الخراج من ملوكها لأنهم كلهم قد رضوا بحكمه وسيادته عليهم .

---

(1) Thong Chiang : Vol. 49. P. 10.

وظهرت أيام حياة هذا العاهل العظيم ، حوادث خطيرة فى بلاد العرب ، ذات أثر بعيد فى سياسة العالم ومدنياتها ، كخلافة أبى بكر رضى الله عنه ، بعد وفاة رسول الله (ص) ، وفتوحات عمر رضى الله عنه ، وسقوط دولة كسرى وغيرها من الوقائع الشهيرة فى تاريخ الاسلام والعالم .

فلما قطع الأجل حبل حياته فى سنة ٦٢٦ م ، تولى ابنه (تانغ تائى جونغ Taug Tai Tsung) زمام الحكم فتربع على عرش الصين آمرا ناهيا . وكان من أولى العزم والحلم ، وكان شجاعا مثل أبيه وذا رأى سديد فى الأمور السياسية وهمة عالية فى إدارة البلاد . وقد احتفظ بتركة أبيه من الممتلكات بآسيا الوسطى لا ، بل وسع سيادته إلى بلاد التبت وكشمير ونيبال . وهو الذى قد استغاث منه يزدجرد آخر ملوك الساسانيين عند ما كان العرب يغزون بلاده فسقطت فى أيديهم فى سنة ٦٤٢ م ، سقوطا لا عودة لها إلى القوة من بعده أبدا . ولقد روى مؤلف « تاريخ ممالك جين » أن ملك جيبور من ملوك الهند قد بعث سفيرا إلى الامبراطور (تانغ تائى جونغ) فى سنة ٦٤١ م لايجاد علاقة ودية بينهما . فأرسل وفدا من عنده إلى الهند ردا لزيارة سفير ملك جيبور له . مع هدايا ثمينة إلى ملكها . فاقتفى بعد ذلك ، كثير من راجوات الهند أثر جيبور . فجاء السفراء من إمارات كشمير وأوجين ونيبال إلى عاصمة الصين للاغراض ذاتها [1] .

بعد وفاه تانغ تائى جونغ ، ارتقى ابنه (تانغ كارجونغ كاوجونغ Tang Kao Tsung) عرش الصين . وهو الذى قد رحب بفيروز بن يزدجرد واسكنه فى عاصمته . وكان لفيروز ابن باسم جده أى يزدجرد . وكان فى نية تانغ كاوجونغ ، أن ينصبه ملكا على إيران بعد وفاة فيروز . لكنه فشل فى محاولته . أولا لأن العرب قد تقدموا إلى آسيا الوسطى واستحكم حكمهم فيها ، وثانيا لأن المسافة بعيدة والمواصلات غير منظمة كما ينبغى فاقتنع بالانعام عليه بلقب ملك إيران عليه ، بدلا من

---

(١) كاركود ، ج ٢ - ١٧٥

نصبه ملكا عليهـــا . فولاه ولاية من ولايات تركستان وكانت جزءا من مملكة جده .

ويظهر من تاريخ الصين أن العلاقة بين (تانغ كاوجرنغ) ورؤساء التتار فى هذا الوقت قد تغيرت من الود إلى النفار ومن الصداقة إلى العدوان . حتى نرى رئيسا من رؤسائهم ، معروفا باسم قطلو قد حمل على مدينة (بنشو Pin-Chow) فى سنة ٦٨٢ م فانهزم . فعاود الكرة مرة أخرى بعد سنتين على مدينة (سوشو Cu Show) ففتحها ثم توغل الى داخـــل الصين عـــلى رأس ٢٠٠٠ مقاتل [١] ومرة ثالثة فى سنة ٦٩٢ م على ليانج شو (Liang Chow) بقانصو . لكن الصين لم تكن ضعيفة فى قمع هذه الحملات وتفريقها . فدافعت عن حدودها بتدابير وقوات معا . وطردت المغيرين إلى ماوراء الحدود بالقوة العسكرية حتى خضعت لسيادتها ثمانى أمارات أخرى بتركستان ، فى السنة الثالثة من حكم الامبراطور (يونغ جونغ Yung-Tsuug) وكان السبب فى ذلك أن صاحب طرفان قد زحف على إمارة أيلى . ففر ملكها إلى آنسى (An—Si) مستغيثا من حاكمها . فأعانه بعشرة آلاف جندى ، وزحف بهم الى بلاد التتار وفتحوا كثيرا من المدن فمن الامارات التى كانت قد خضعت لسيادة الصين ، إمارة (تاشى) ولعلها تاشقند الحاضرة .

ومن المعلوم أن العرب الذين فتحوا أواسط آسيا بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى لم يستطيعوا المحافظة على النظام فيها بعد أن قتل قائدهم ، بسبب الاختلاف الذى ظهر بين رؤساء العرب . فاشتد هذا الاختلاف فى آخر عهد بنى أمية . فالصينيون وهم أقرب الى ما وراء النهر من الناحية الجغرافية ، قد سعوا إلى تقوية سيادتهم فى بعض مدنها ، باغتنام حالة الضعف فى الاتراك والخلاف الداخلى بين قوادالعرب وقد قيل أن رؤساء الأتراك الذين خضعوا لقوة العرب فى وقت قتيبة ، قد بعثوا

---

(1) Thong Chiang: Vol 53. P. 7.

رجالهم إلى الصين أبجاد الأمبراطورها فى رد سلطتهم المفقودة اليهم راضين بحمايتها عليهم . فالذين قد تعهدوا مع أمبراطور الصين فى هذه المسألة السياسية ، تلقوا من قبله ، ألقاب الشرف . وكانوا يلاقون حتفهم منه فى بعض الأحيان أن خرجوا أو هموا بالخروج عن طاعته . ولقد روى الأستاذ برتولد الرومى فى كتابه « تركستان الى غزو المغول » أن الصينيين قد سيطروا على مدينة سوياب وكان ذلك بسبب الاختلاف الداخلى بين العرب أنفسهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب عدم كفاية الاتراك فى تكوين قوة جديدة بعد خضوعهم الى حكم العرب . فقتلوا حاكم شاش فى سنة ٧٤٩ م ، لأنه لم يوف عهده بكونه تابعا للصين ونقل عن ابن الأثير قائلا : أن آل أخشيد بفرغانة ، استنجدوا بالصينيين على حاكم شاش [1] ، عندما ظهر الخلاف بين المدينتين . وكان طمع الصينيين فى وضع يدهم على شاش ، هو الذى دفعهم الى الاصطدام مع قوات العرب فمادوا بخسارة فادحة وذلك لأن ابن حاكم شاش القتيل ، التجأ الى أخذ المساعدة من العرب ، بدلا من الخضوع لحكم الصين . فأجابه زياد بن صالح الذى بعثه أبو مسلم الخراسانى الى ماوراء النهر لاطفاء نار الثورة التى قد أوقدها شريك بن المهدى من أيام قريبة لجاء بجيش جرار فاصطدم بقوات الصين بموضع (تالاس) فاذن كانت معركة فاصلة للعرب على الصينيين فى سنة ٧٥١ م وكان قائد القوات الصينية (كاوشيان كى (Kao Shian-Chi

وبناء على رواية الاستاذ برتولد ، أن العرب قد قتلوا فى هذه المعركة الفاصلة ، ٥٠٠٠٠ من جيش الصين ما عدا ما أسروه من عدد هائل ، قد بلغ ٢٠٠٠٠ رجلا

أعتقد أن هذا البيان لا يخلو من المبالغة لأن القوات الصينية التى كانت تحت قيادة كاوشيان كى ، كما ورد فى تاريخ الصين ، لم تتجاوز ٣٠٠٠٠ جندى . فليس من المعقول اذن أن يقع فى أيدى العرب ٢٠٠٠٠ أسير بعد قتل ٥٠٠٠٠ منهم . وأما القدماء من مؤرخى العرب الذين اشتغلوا بتدوين الوقائع الشهيرة ،

---

(١) ابن الأثير ج ٧ - ص ٢٤٤

فلم يذكروا هذه المعركة. لكن على كل حال نجد إشارة اليها فى لطائف المعارف للثعالبى ويظهر أنه أسند روايته الى كتاب المسالك والممالك الجوينى . ومن قول الثعالبى أن الصينيين الذين وقعوا أسارى فى أيدى العرب علموا أهل سمرقند صناعة الورق فانتشرت هذه الصناعة فى البلاد الاسلامية الأخرى من بعد .[1]

لاشك أن هذه الواقعة مهمة جدا بالنسبة الى الاتراك فى أواسط آسيا . لأنها عملية حربية فاصلة فى حل مسألة خطيرة وهى المدنية المستقبلة فى تركستان . كانت هناك مدنيتان تتنازعان السيطرة على آسيا الوسطى ، مدنية صينية ومدنية عربية . وكان انتصار العرب على الصينيين فى هذه المعركة التاريخية قد وضع حدا فاصلا لهذه المسألة . فظلت المدنية العربية مسيطرة منذ ذلك اليوم على تلك البقاع من أرض الله حتى الآن .

ويظهر من تاريخ الصين ، أن الصينيين قد ساعدوا الأمراء الآخرين من الترك فى نزاعهم مع العرب . لكنهم امتنعوا عن إعلان الحرب ضد العرب مباشرة ، بعد تجاربهم مع صالح بن زياد فى واقعة (تالاس) . فلقد ذكر فى بعض الكتب الصينية ، أن قوات الصين ، قد نالت انتصارات هامة ببعض الجهات النائية بما وراء النهر ، القريبة حدود الهند . لكن تاريخ العرب لم يصدق هذا القول فلا نعرف اذن مبلغ صحته ، بل على العكس نجد دليلا على خلاف ذلك فأن أبا داود الذى عينه أبو مسلم واليا على بلخ ، نال انتصارا باهرا فى حملته على خودال وكش ففر حاكم خودال الى الصين وقتل أمير كش فى المعركة تاركا أخاه فى الولاية[2] ففى سنة ٧٥٢ م ، التمس أمير (أوشروسانة) من حكومة الصين ، أن تساعده على العرب . فأبت ، فان لها تجارب مع قوات العرب من قبل فترى من الخير أن تمتنع من إرسال المساعدة وعدم التدخل فى هذا النزاع القائم بين العرب وأمير تركى .

---

(1) Turkistan Down to the Mongol Invasion : P. 196.

(٢) الطبرى ج ٢ - ص ٧٩ - ٨٠

والحقيقة أن الصين فى هذه الأيام ، كانت تواجه ثورة هائلة فى داخل الامبراطورية . ظهرت هذه الثورة فى سنة ٧٥٤ م وكادت تسقط دولة (تانغ) من أساسها ، لولا مساعدة الأواغرة والمسلمين لها . ولعل هذا هو السبب الأصلى الذى كان يمنعها من التدخل فى الأمور السياسية بآسيا الوسطى « لا » ، بل اضطرها إلى الصلح مع العرب والترك الذين دخلوا فى حظيرة الإسلام فى آخر عهد بنى أمية وكان من هؤلاء ، الأواغرة .

أن الأواغرة قوم جدد تفرعوا عن التتار فى أوائل القرن الثامن من الميلاد كما أشرت إلى هذا من قبل واقد أسلم رئيسهم بعد قتيبة بزمن قليل ولاسلامه قصة عجيبة طويلة ذكرها آغا جان محمد خان فى كتابه « أويغاق مغول » باللغة الفارسية ونقلتها فى كتابى « الاسلام وتركستان الصينية » وخلاصة القصة « أن أو يغور بن قراخان » قد أسلم سرا مع أمه ، فلما علم ذلك أبوه غضب عليه ، فحشد جيشا عظيما لمقاتلته بعد الفشل فى المفاوضات فى رده إلى دين آبائه الأولين فكان لاويغور أنصار يدافعون عنه ويقاتلون له . فقاوموا قراخان وكان ملكا على «قراقرم» ، فهزموه وقتلوه . فاختاره ملكا عليهم . فاشتهر أنصاره باسم الاويغوريين من بعد . ومعنى كلمة « أو يغور » فى اللغة التركية ، المساعدة أو « المرابطة » ، ومن هنا نعرف أصل الشعب الاويغورى الشهير فى تاريخ آسيا الوسطى . وكانت لهم علاقة سياسية مع الصين بعد العرب الذين ذكرناهم آنفا . لأنهم قد كونوا شعبا قويا ، عند ما كثر الدعاة لبنى العباس فيما وراء النهر واتسع اختلافهم مع حماة بنى أمية فى النصف الأول من القرن الثامن من الميلاد ، حتى التجأ أمبراطور الصين وهو سوجونغ (Su - Tsung) الى مساعدتهم فى قمع ثورة آنلوشان (An Lushan) الذى قد رفع لواء العصيان ضد الحكم القائم فى سنة ٧٥٤ م .

كان هذا الثائر حاكما على مدينة صغيرة يقال لها (يون تشو Yun Chow) فترقى الى منصب المحافظ بولاية (هاتونغ Ho-Tung) ، فى السنة التى انقرضت فيها الدولة الأموية وابتدأ حكم العباسيين فى الامبراطورية العربية (٧٥٠ م) . كان يربي فى هذه الايام عنده ثمانية آلاف من التتار مثل الجاتشاريين

عند السلاطين العثمانيين . فتوجس وزير من الوزراء خيفة من تمرد آنلوشان ونبه الامبراطور إلى ذلك وكان من الغافلين .

فى سنة ٧٥٤ م ، التمس آنلوشان من الامبراطور (يونغ جونغ) ترخيصا بالحضور الى العاصمة وتقديم ثلاثة آلاف من الخيول اليه . فزاد طلبه هـــذا فى قلب الامبراطور خوفا بالغالم يكن يعهده من قبل . لأنه عرف من بعض العيون أن آنلوشان لم يطلب الترخيص بالحضور إلى العاصمة ، إلا لأجل القبض على أمرها فدبر ورأى أن أظهار تقديم الخيول الى الامبراطور ، يكون آمن طريق للتقرب من صاحب العرش ، وأسهل وسيلة الى اغتياله . وما كانت هذه الهدايا إلا خيلا على كل جواد مقاتلان وحوله اثنان وعشرون حارسا فى الظاهر وما هم فى الواقع إلا قواد الجيوش . فلما عرف الامبراطور ما بطن فى قلب آنلوشان وحقيقة الاغراض التى أراد أن يرمى اليها بهذه الهدايا ، أصدر أمرا فى الحال بمنعه من الحضور الى العاصمـــة ولكن كيف يمنع رجل قد عزم على الخروج والعصيان . فأعلن عصيانه علانية فى أواخر هذه السنة وعلى أثره هاجم العاصمة الشرقية وهى (لويانغ Lo Yang) الآن فى ولاية هانان (Honan) ثم بعث فوجا من الجيوش لمهاجمة (تونغ جونغ Tung -Kung) ، نقطة عسكرية ذات أهمية عظيمة فى الطريق الى العاصمة الغربية وهى (شانغ آن Chang An) فى ولاية (شانسى) ففتحها ودخل شانغ - آن وقتل عشرات من أفراد الأسرة المالكة . ثم نادى بنفسه أمبراطورا على الصين . هذا ما يتعلق بآنلوشان الثائر .

وأما الامبراطور يونغ جونغ فقد فر تحت ضغط الثوار الى (بوآن Pao-An) بولاية سيجوان (Sze Chwan). ولم يعرف الأمراء والوزراء عنه شيئا، وأما ولى العهد فكان فى مدينة بنليان (Pin Liang) وقت الثورة . فطار اليه الوزراء وتشاوروا فيما بينهم على ما يجب أن يعملوه . واتفقوا على نصب ولى العهد أمبراطورا عليهم فتلقب بسوجونغ - Su Tsung) وكان ذلك من وقائع سنة ٧٥٥ م .

كان أول عمل يعمله، ويجب أن يعمله، بعد المناداة به أمبراطورا على الصين، هو اتخاذ التدابير اللازمة لقمع الثوار ورد الأمن الى البلاد. فلما رأى أن قواته العسكرية لم تكن كافية لمقاومة كتائب الثوار الهائلة قرر الاستنجاد بالدول الصديقة المجاورة حدود الصين فكلف (ليبي) وزيرا من الوزراء، أن يسافر الى بلاد الأواغرة بتركستان، مستنجدا بأمرائها على أن يكافئهم مكافأة عظيمة فى نهاية الثورة، وطلب اليهم أن يزحفوا من طريق (سى - آن Si-An) ففى أواخر سنة ٧٥٥ م، وصلت قوات الأواغرة وهم خمسة آلاف محارب تحت إمرة القائدين (خولوكى) و (وانشين) كما ورد فى تاريخ الصين العام [1]. فدارت الحروب سجالا بين قوات الأواغرة وبين جيوش آنلوشان الثائر سنتين. ولم تظهر النتيجة. فطالب قائد الأواغرة التعزيزات من أميرهم. فجاء فى الدفعة الثانية، أربعة آلاف فارس فى سنة ٧٥٧ م، بقيادة ابن الأمير واسمه (يهفور) الى مدينة (فونغ هيانغ Fong-Hiang) حيث اجتمع مع حاكم (كوانغ بنغ) من حامية الامبراطور. فقبضا على آنلوشان، زعيم الثورة وقتلاه. ثم زحفا بجيوشهما الى العاصمة الغربية وهى (شانغ آن) الآن وقد ساهم فى الأعمال الحربية قائد صينى كبير معروف باسم (كوتسى Kuo Tze-i) ثم اتفقوا على الزحف الى العاصمة الشرقية وهى لويانغ فى ذلك الوقت ففتحوها، وجاء فى تاريخ الصين العام أن القائد (كوتسى) قد حارب الثوار ففشل فى كسر قواتهم حتى قدم جيوش الأواغرة من خلفهم. وقيل أنهم عندما علموا بقدوم الأواغرة، وقد ملئت قلوبهم منهم رعبا، صاحوا — يا ويلنا من الأواغرة! فولوا عندئذ مدبرين. فدخل جيوش المسلمين العاصمة الشرقية مع القائد الصينى، فاتحين منتصرين وبهذه الطريقة ردوا سلطة الحكم الى الامبراطور (سوجونغ) فانتهت ثورة آنلوشان، بعد استئصال اذنابه وتطهير البلاد منهم، فاستطاعت الصين أن تتمتع بالأمن والنظام مرة أخرى، واستطاعت أسرة تانغ أن تستمر فى الحكم حتى منتصف القرن العاشر من الميلاد.

---

(1) Thong Chiang: Vol. 55.

وروى عن بعض المؤرخين ومنهم موسيودابرى، مؤلف كتاب «المحمدية فى الصين»، أن امبراطور الصين قد طلب الاعانة العسكرية من الخليفة أبى جعفر المنصور فى قمع ثورة (آنلوشان). ولقد بحثت عن هذا الخبر فى الكتب العربية القديمة من الطبرى الى ابن خلدون فلم أجد فيها أية إشارة اليها وما ذكر فى «صفوة الاعتبار بمستودع الامصار» للشيخ بيرم التونسى المتوفى سنة ١٨٨٩ م، وهو أن «أصل المسلمين فى الصين وهم ينيفون على الستين مليونا من السكان ومن العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدي معلوما اذا أنجده فأرسل اليه أربعة آلاف من صناديد المسلمين وقهر بهم رعاياه، وجازاهم على ذلك بجواز الاقامة فى مملكته الخ» من أقوال القرن التاسع من الميلاد، وطبيعى أنه قد أخذ هذا الكلام عن غيره. لكننا نأسف لانه لم يذكر مأخذه مع أن كلامه فى هذه المسألة التاريخية أوزن من كلام غيره إذ يحسم به النزاع وينتهى به البحث. فلا نحتاج الى السؤال عن الشهادات الأخرى. غير أن عدم ذكره للمأخذ يقينا فى شك لا يزيله عن قلوبنا إلا أوثق مصدر وأوضح دليل عما قال الشيخ بيرم فى كتابه. أما ما قال الاستاذ غستاف لبون فى كتابه «حضارة العرب»، وهو منقول عن موسيودابرى، فلا نعتبره أصح من قول الشيخ بيرم التونسى، إلا أن هناك بيانا آخر لمستشرق معروف باسم (بريتشنايدر Breitschneider) فى كتابه (علم الصينيين القدماء عن العرب Ancient Chinese Knowledge on the Arab s وهو يستند الى «تانغ شو» أو كتاب تاريخ تانغ (ص ١٥ من الباب العاشر) أن امبراطور الصين قد استرد عاصمتيه الشرقية والغربية (شانغ آن ولو يانغ) وقمع ثورة آنلوشان، بمساعدة الجيوش التى بعثها الخليفة أبو جعفر المنصور فى سنة ٧٠٧ م (١). فراجعت المصدر الأصلى فوجدت أن اسم الخليفة لم يذكر ثم الجيوش

---

(1) Breitschneider: P. 9.

التى اشتركت فى قمع الثورة ، كانت مكونة من الأواغرة والعرب والتتار وهم ٢٠ ألفا [١] .

لقد ثبت على الأقل من تاريخ الصين أن العرب قد ساعدوا أمبراطور الصين فى أيام هذه الثورة . ولا ينبغى أن نقبل هذا القول على أنه القول الفصل ، إلا بعد التحقيق من جهة تاريخ العرب والنظر الى إمكان هذه المساعدة من قبل أبى جعفر المنصور .

ومن المعلوم أن أبا جعفر المنصور قد أخذ زمام الخلافة بعد أخيه السفاح فى سنة ١٣٦ هـ ٧٥٤ م - وكان أول عهد خلافته مليئا بالحوادث والاضطرابات مثل خروج عمه عبد الله بن على فى صفر ١٣٧ هـ أو فى نوفبر سنة ٧٥٤ م . فرأى أنه لا يستطيع أن يكون جالسا مطمئنا على كرسى الخلافة ، ما دام أبو مسلم الخراسانى واقفا أمام طموحه . فاحتال عليه وذبحه فى ٧٥٥ م . فأدى هذا القتل الى ثورة هائلة فى خراسان استمرت ثلاث سنوات وانتهت فى سنة ١٤١ هـ ٧٥٨ م بعد مكافحة جبارة من قبل أبى جعفر المنصور . ومن المعلوم أيضا أن الثورة التى ظهرت فى الصين كانت فى السنة التى تولى فيها أبو جعفر الخلافة فاستمرت الى ثلاث سنوات أيضا ولم تقمع إلا فى سنة ٧٠٧ م . ومن المتيقن اذن أن البعثة العسكرية التى جاءت الى الصين فى سنة ٧٥٥ م ، لم تكن من قبل أبى جعفر المنصور ، لأن الوقت لم يتسع لذلك . ثم أن الحوادث التى كانت تسود أرجاء الخلافة فى أول عهده ، لا تسمح له أن يفرق قواته العسكرية الى وحدات متفرقة ، وحدة لتعضيد أركان الخلافة ، وأخرى لمقاومة أتباع أبى مسلم الخراسانى ، وثالثة لاعانة أمبراطور الصين . وأما التى جاءت فى سنة ٧٥٧ م ، فمن المحتمل أن يوجد فيها عدد كبير من العرب ، كما أشار الى ذلك ، (تانغ شو) القديم ، مؤكدا بمصدر آخر صينى [٢] وإن سكت المصدر العربى فى هذا الصدد سكوتا تاما . بيد أننا نميل الى الاعتقاد بأن هؤلاء

---

(1) The Old Tang Shu : Vol. 10. P. 15.

(٢) أنظر باب العلاقة الدبلوماسية

العرب لم يكونوا مبعوثين من بغداد ، بل من أواسط آسيا . لأن قتيبة بن مسلم والذين جاءوا بعده من أولى الأمر قد أمروا جيوشهم أن يحملوا عيالهم ليضعوها فى المدن التى استوطنوها . ومما لا شك فيه أن للعرب جيوشا فى هذه المدن ، فكان سهلا على المنصور أن يأمر والى بخارى مثلا أو والى سمرقند، ان يساعد امبراطور الصين بما تحت قيادته من الجيوش ، إن جاء يستنجده ، لأن ذلك أسرع طريق الى النجدة وأقرب مسافة الى حدود الصين . وكان قائد هذه البعثة يعبور ، كما ذكرت من قبل . وهو أو يغورى لا عربى . ومن المحتمل أيضا أن العرب الذين فى البعثة كانوا تحت إمرة هذا القائد . ويجب علينا أن نتمسك بهذا الرأى فى هذه المسألة التاريخية ، حتى يظهر لنا دليل جديد من المصادر التى لا نزال عنها غافلين .

لقد قلت أن ثورة آنلوشان قد قمعت فى سنة ٧٥٧ م نهائيا ، وكان ذلك بفضل أولئك الأواغرة والعرب الذين جاءوا الى مساعدة الامبراطور (سو جونغ) . وبعد ذلك خيرهم بالعودة أو الاقامة . فقد عاد من عاد بعد مالقى من الحفاوة والاكرام من أمراء الصين الذين عاونوهم فى تثبيت أركان الدولة ورد الحكم الى ذويه . وأقام من فضل الاقامة فيها . ويروى الشيخ بيرم التونسى الذى قد تقدم ذكره ، أنهم أقاموا على شروط وهى استقلالهم فى إدارتهم الخصوصية وعباداتهم وشعائرهم فأجاز لهم مطالبهم . لكن فرقهم على المدن العظيمة فى مملكته . وصار فى كل مدينة ، مدينة مستقلة بالمسلمين على حسب كثرتهم وقلتهم مستقلين فى أحكامهم الخصوصية متمسكين بالدين [1] وأجاز لهم أيضا التزوج ببنات السكان ومصاهرة الأعيان فكثروا فى مدة وجيزة وانتشروا . ومن ذلك الحين ازداد الود بين أسرة تانغ ورؤساء الاواغرة من جهة، وكثرت السفارات بين الصين والعرب من جهة أخرى . وستجد تفاصيل السفارات فى باب مستقل .

وأما العلاقة الودية التى بين أسرة تانغ ورؤساء الأواغرة ، فقد ازدادت توثقا بعلاقة دموية ومصاهرة . ونعرف هذا من تاريخ الصين العام الذى ذكر فيه

(١) صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار ، ج ١ - ص ٢٣

أن ثلاثة من رؤساء الأواغرة قد تزوجوا فى سنوات بين ٧٥٠ و ٧٨٥ م ، بأميرات تانغ . لأسباب سياسية . وكان أول من تزوج من رؤساء الاواغرة ، بأميرة يقال لها (نينكو) ، هو باشل خان المعروف فى تاريخ الصين باسم (اينفو) وكان (وانيو) ، أمير (هانجون) مكلفا بمرافقة الاميرة الى تركستان . وقد صاحبها أمبراطور الصين من عاصمته الى مدينة (هانغ يانغ) ، حيث ودعها بدموع حارة وأنين حزين[1] (هذا من وقائع سنة ٧٥٨ م) .

وبعد أربع سنوات استنجد أمبراطور الصين مرة أخرى بالأواغرة على أحد أنصار آنلوشان وقد خرج وهاجم العاصمة الشرقية ومدينة (هانغ يانغ) . فلبي قطن خان استغاثته وجاء بجيوشه فرد ما سقط فى أيدى الثوار من المدن الى ملك الأمبراطور (دائى جونغ Dai-Tsung) ابن (سوجونغ) . فالجائزة التى نالها قطن خان لهـذه الخدمة الجليلة ، هى يد أميرة من صلب أمـير (واى غين Wei-Ghen-Wang) ، الذى قد استعان مرة بقوات المسلمين على إشعال ثورة على الأمبراطور . ففشل ، وبعد وفاته أدخل ابنته فى قصره ، فرباها الى الرشد . ثم زوجها بقطن خان[2] .

ألا أننا نرى واقعا محزنا قد وقع فى هذه الايام ، وهو قتل تسعمائة أو يغورى فى مدينة (جنغ وو) فى سنة ٧٨٠ م . وكان ذلك بسبب غضب حاكم المدينة على رئيس قافلة الأواغرة ، وقد نشأ ذلك من سوء التفاهم . وكان الواقع ، كما أخبرنا تاريخ الصين ، أن بعض العشائر من التتار كانوا يترددون على عاصمة الصين للتجارة وكانوا يختلطون مع أهلها ويظهرون أنهم من الأواغرة . ثم أنهم لم ينصفوا فى معاملاتهم مع السكان فلامهم أهل العاصمة وكان فيها بعض تجار الأواغرة أيضا . غير أن السكان لم يستطيعوا التفريق بين هؤلاء وأولئك ، فأمر أمبراطور الصين رئيس الأواغرة وهو (جون تون) أن يعود مع أصحابه إلى

(1) Thong Chinag: Vol 56. P. 9.
(2) Thong Chinag: Vol. 57. P. 1.

تركستان ، فسافروا مطيعين أمر جلالة الامبراطور حتى وصلوا إلى مدينة (جنغ وو) ، حيث مكثوا بضعة شهور . وكان بها رئيس التجار التتار الذين قد تقدم ذكرهم فوقعت مشاجرات بين الفريقين لأجل الأمور التجارية . فحمل رئيس التتار حاكم المدينة على قتل (جوتنون) وجميع التجار الذين كانوا معه فهلك فى هذا الحادث أكثر من تسعمائة أو يغورى .

وقد أسف الامبراطور أسفا شديدا على هذا الحادث ، فأخذه الخوف من حملة الأواغرة بسببه فاستشار الوزير (ليمى) فيما يجب أن يفعل . فقال : ليس من مصلحة الدولة أن تبقى منقطعة عن الأواغرة بعد استخدامهم فى دعم أركانها . فأن الصلح مع الأواغرة شمالا ، والاتصال ببلاد يونان جنوبا ، وإيجاد الرابطة مع الهند والعرب غربا ، من الأمور التى يجب ألا تؤجل على أى حال من الأحوال . فقال الامبراطور لماذا ؟ قال : أن الصلح مع الأواغرة ، قوة تمنع هجوم التتار على الحدود ، والاتصال ببلاد يونان ، أول خطوة فى ضمها إلى الامبراطورية ، وأما العرب فأقوى الشعوب فى هذه الأيام ، وأما الهند فقد أظهرت ودها نحو الصين من قديم الزمان .

فاقتنع الامبراطور بما قال الوزير . فبعث رسولا إلى بلاد الأواغرة ليجدد علاقة الصداقة بين الطرفين . فعقد معاهدة الود معهم ، وقواها بتزوج أميرة (هانغ آن) من أميرات (تانغ) بقطلو خان رئيس الأواغرة [1] .

لقد صدقت الحوادث الأخيرة ، ما قال الوزير (ليمى) ، لأن قبيلة من التتار قد هاجمت حدود الشمال ، فأرسل رئيس الأواغرة قائدا من قواده إلى مساعدة الامبراطور . وطرد المغيرين إلى حيث أتوا .

والحقيقة أن الأواغرة المقيمين بتركستان كانوا أصدقاء للصين وأنصارها فى مصائبها ومحنها فلذلك نرى فى تاريخ الصين التنويه بخدماتهم فى مواضع كثيرة وكانت علاقة المصاهرة بين رؤسائهم وأمراء أسرة تانغ أكبر عون على تعزيز

---

(1) Thong Chinag: Vol. 58. P. 22.

علاقة حسن الجوار حتى اعتمد كل طرف على الآخر، فى النجدة والمساعدة فى أيام الحرب، والتعاون والتعاضد فى أيام السلم.

هذا وأما علاقة العرب بالصين من الناحية السياسية، فلا نعرف عنها كثيرا بعد واقعة (تالاس)، لأن تاريخ العرب وكذلك الصين صمت بعد ذلك اليوم المشهور. إلا أننا نجد فى « تاريخ ممالك جين » مؤلفة الأستاذ كاركورن، ما يأتى : « مما هو جدير بالذكرى فى آخر عهد (سوجومغ)، الذى حكم الصين سبع سنوات (٧٥٦ — ٧٦٢ م)، أن السفير قد ورد من خليفة بغداد، يحمل التحف والهدايا. فودعه بالتعظيم الوافر والاكرام الفائق[1]. ثم تكلم عن علاقة أسرة سونغ (Sung) بخلفاء بغداد وقال : كان (جوكوانغ أين) وزيرا لآخر عامل من أسرة تانغ. فلما رأى ضعفه فى تنظيم أمور الدولة، غصب منه زمام الحكم، نأسس دولة لأسرته المعروفة فى تاريخ الصين بأسرة سونغ. وكان شجاعا، مدبرا كبيرا، وسياسيا عظيما. نعم، أنه لم يكن عالما أو فاضلا، غير أنه يعرف الناس خيرهم وشرهم. وإنك لتعظم شخصيته وتقدر عظمته، حين ترى العلماء يكون بكاء الأطفال إذ نعى اليهم فتراهم آسفين أشد الأسف على فراقه يعزى بعضهم بعضا أياما.

« وكان ملك الختن وأمراء تركستان أوفدوا سفراءهم اليه وقد بعث اليه هدية نفيسة مطيع الله أبو القاسم من خلفاء بغداد، فى سنة ٣٦٢ هـ، مرفقة برسالة المودة والاخلاص[2] ».

لكن كل هذا ليس من صميم العلاقة التى نحن بصددها هنا لأن العلاقة السياسية هى ما نرى فيها من حركات عسكرية، ووقائع حربية، ومظاهر الغزوات وآثار الخوف على الوجوه وعلامات الرجاء فى الأخذ والرد. وأما حضور السفراء بالهدايا والرسالات الودية : فله باب مستقل تحت عنوان « العلاقة الدبلوماسية » وستمر بك فيما بعد.

---

(١) كاركورن. ص ١٧٥

(٢) أيضا : ص ١٨٣

الباب الثالث

فى العلاقة العلمية

---

(١) الصين وكتاب الاسلام :

لقد عرفنا فى الباب السابق العلاقة التى كانت بين الصين والعرب من الناحية السياسية والحد الذى وصلت اليه. لكن ليس معنى هذا أننا نظن أن علاقة العرب بالصين كانت منحصرة فى هذه الناحية الوحيدة ، غير متعدية الى النواحى الأخرى لأن العلاقة التجارية كانت أقوى وأطول مدة من العلاقة السياسية . وعندنا أدلة كثيرة من المصادر العربية وغير العربية ، تنطق بوجود هذه العلاقة بين الصين والعرب وامتدادها مدة طويلة . لكن قبل أن أخوض فى البحث عن العلاقة التجارية أرى من الضرورى أن نحقق العلاقة العلمية بين هاتين الأمتين . لأن بحثنا عن العلاقة التجارية يحتاج الى معرفة ما قال كتاب الاســلام عن الصين وأحوالها المختلفة ، كما يحتاج الى معرفة ما علمه الصينيون عن العرب وبلادهم . فلذا أقدم العلاقة العلمية على العلاقة التجارية .

ولنقف هنا قليلا أمام ما كتب كتاب الاسلام ، وأكثرهم العرب ومنهم الايرانيون عن الصين وما يتعلق بها من الأحوال والأمور التى لها صلة إما بالتجار، أو بالدين، أو بالصناعة، ونفحصها لخصادقيتها . فنقبل ما هو من المعقول ، ونرفض ما هو بعيد عن المعقول ، حتى نعلم من أقوال العرب أنفسهم ، كيف صوروا الصين فى الأيام الغابرة، والى أى حد قد أصابوا فى تصويرهم لها ؟

وأما علم الصينيين عن العرب وبلادهم ، فله كتاب خاص طبع منذ زمان ، باللغة الانكليزية وهو بقلم الاستاذ برتشنائدر (Breitschneider) سماه « علم

الصينيين القدماء عن العرب . فمن يريد التوسع فى هذا الموضوع ، يستطيع أن يراجع هذا الكتاب بدون أى تعب ولم أدخل فى أبحاثى فصلا خاصا عن علم الصينيين عن العرب ، لأنى أرى أن هذا الكتاب يغنى عن هذا الفصل . غير أنى سأشير اليه بين حين وآخر ، عندما يدعو المقام الى ذلك فى الصفحات الآتية .

ومما لاريب فيه أن معرفة علم العرب عن الصين ، متوقفة على معرفة الكتاب الذين يوجد فى مؤلفاتهم المتنوعة ، ذكر الصين وأحوالها . فحينئذ يجب علينا أن نستقصى هؤلاء الكتاب أولا ، ثم نلقى نظرة فاحصة الى خصوصيات بياناتهم عن الصين فى زمنهم . ومن المعلوم أن كثيرا من كتاب العرب والاسلام قد تكلموا عن الصين . ومنهم من قد عاشوا فى القرن التاسع من الميلاد ومنهم من عاش بعد ذلك ، حتى القرن الحاضر — القرن العشرين — وأياما كان فسنلزم أنفسنا فى هذا الباب بالترتيب الزمنى لما نذكره من هؤلاء الكتاب .

وأولهم ابن خرداذبه — هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه ، فارسى الأصل . وكان جده مزدكيا ثم أسلم ، وكان أبوه حاكما على طبرستان مدة طويلة ولقد سافر ابن خرداذبه الى بغداد واتصل باسحاق الموصلى . فمكث بعراق العجم مدة بوصف أنه مدير عام لديوان البريد ، وله كتاب سماه «المسالك والممالك» كتبه فى مدينة (سامرا) بين ٨٤٤ و ٨٤٨ م . بين فيه محطات البريد ومبلغ الايرادات لكل ولاية من الولايات الخاضعة للخلافة العباسية [١] .

وقد طبع هذا الكتاب بمدينة ليدن (Leiden) فى سنة ١٨٨٩ م مع ترجمة فرنسية ، ذكر فيه طريق البر والبحر الى الشرق ، والمراحل التى بين كل مدينة وأخرى ، أو المسافة بين كل مرفأ وآخر . وذكر فيه ما يتعلق بالتجارة فى مرافىء الصين وما الى ذلك مما تجده فى مكانه من هذا الكتاب .

سليمان التاجر السيرافى . يقول علماء الغرب ومنهم غستاف لبون ، أن أول من ترك لنا معلومات هامة محفوظة فى اللغة العربية عن بلاد الصين وتجارة العرب فيها ،

(1) Ferand: Relation des Voyages. P. 33.

هو سليمان التاجر السيرافى الذى سافر إلى بلاد الصين بحرا ، أكثر من مرة ، عن طريق سواحل الهند وجاوة . ولست عارفا مبلغ صحة هذا الرأى من جهة الحقيقة . لأنى أجد أن ابن خرداذبه لم يكن متأخرا عن سليمان . بل أنه سبقه فعلا من جهة تاريخ الكتابة . لأنه قد كتب كتابه « المسالك والممالك » بين ٨٤٤ و ٨٤٨ م . وأما كتاب سليمان المعروف الآن باسم « سلسلة التواريخ » وأضاف اليه أبو زيد الجزء الثانى ، فتمت كتابته فى سنة ٨٥١ م ، أى بعد ثلاث سنوات بالنسبة إلى كتاب ابن خرداذبه . ومن الممكن أن معرفة سليمان عن بلاد الصين ، أسبق من معرفة ابن خرداذبه ، لكنه لم يسبقه فى الكتابة عنها . وإنما نقول أن ما كتبه ابن خرداذبه عن الصين هو من مجرد علمه الذى حصله بسؤال الناس عنها وهو مقيم ببغداد ، أو بوسيلة أخرى لا سبيل لنا الى معرفتها اليوم . إذا كان الأمر كذلك ، كما اعتقدنا ، فعلمه عن الصين لم يكن مبنيـــا على التجارب والمشاهدات ، بخلاف ما قاله سليمان السيرافى ، لأنه قد سافر اليها مرارا فشاهد أحوالها بعينيه . فجاء فى كتابه بمعارف لم يسبقه اليها أحد . وكانت أقواله تتفق مع الواقع والحقيقة فى أغلب الاحوال ، إلا ما ذكر عن غيره ولم يكن شاهده عيانا

وإذا قابلنـــا ما قال سليمان عن الصين مع أقوال ابن خرداذبه فى « المسالك والممالك » فأننا نجد أنهما متفقان فى أكثر الاشياء ومختلفان فى بعض الأمور . فممـا يتفقان فيه ، طريق البحر من البصرة الى الصين ، مارا بسواحل الهند وسرنديب وجاوة الى أول مرافىء الصين (خانفو) ، وسلع التجارة التى كانت العرب تستوردها الى الصين . ومما يختلفان فيه ، أن ابن خرداذبه ، لم يذكر المسلمين بالزيتون ، مع أنه ذكر وجودهم بسيلا (كوريه) . ولعله أول من ذكر ولاية قانصو فى أقصى الصين وجزيرة الوقواق (اليـــابان) بشرقها ، ولم يكن سليمان عالما بوجود المسلمين بسيلا بسبب عدم ذهابه الى هناك ، لأن مواضع وروده كانت منحصرة فى مرافىء الصين الجنوبية فقط ، مثل الزيتون ، وخانفوه ، وخنسا ، وغيرها من المدن الساحلية فجمع فى كتابه معلومات كثيرة عن الصين وإن كان رجلا تاجرا لا يعرف كيف يتعمق

فى المشاهدات أو يملل ما يراه من الغرائب . وأنه قد وازن أيضا بين بعض عادات الصين وعادات الهند . وعندنا أن لهذين الكتابين قيمة علمية عظيمة تختلف من جهة واحدة . فقيمة كتاب « المسالك والممالك » ، فيما يتعلق بالصين ، فى صواب النظرية العلمية التى لم تخالف الواقع ، وقيمة كتاب « سلسلة التواريخ » ، فى صحة المشاهدات التى لا تختلف كثيرا عن آراء أهل الصين أنفسهم . فلذا أصبح هذان الكتابان منبعين لمن جاء بعدهما من علماء الجغرافيا والتاريخ فى تحقيقهم أحوال الصين وما يتعلق بها من العادات والأخلاق .

وأما كتاب « سلسلة التواريخ » فكما نراه ، فى الجزءين . الجزء الأول بقلم سليمان التاجر السيرافى وقد أتمه فى سنة ٨٥١م . واتفق على صحة هذا التاريخ جميع العلماء . والجزء الثانى لأبى زيد الحسن السيرافى وهذه الرحلة هى أول كتاب عربى وقف منه علماء أوربا على أحوال الصين وعلاقتها بالعرب من ناحية التجارة . ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسيه فى سنة ١٧١٨ م بقلم ريناندو (Abbe Renandot) ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب كما فى رأى الكثير من علماء الغرب هو أقدم الكتب العـربيه فى الرحلة والجـغرافية ، وقد بقى على الدهـر ولم يتطرق اليه البـلى والفناء كغيره من المصادر الأخرى . ووجد فى هذا الكتاب نور يهدى علماء أوربا الى معرفة أحوال البلاد الشرقية القاصية فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة أو الثامن والتاسع من الميلاد ، فلذا أنكروا صحته وحملوا على المترجم ورموه بارتكاب جرم علمى وقالوا : « ان رينادو هو المخترع لهذه الأقوال عن علاقة العرب بالهند والصين [1] ، أنه لم يذكر فى نسخة الترجمة أو نسى أن يذكر فى الترجمة ، النسخة الاصلية التى نقل منها الى اللغة الفرنسيه » قال السير أيليوت (Sir Elliot) « لكن الزمن منصف ، ولا يظلم من صنع صنيعا للعلم . فكشف للناس بعد مئات من السنين ، أن المترجم كان بريئا من تلك التهمة . فأن النسخة الاصلية التى نقل

---

(1) Sir Elliot: History of India. Vol 1, P. 3.

مهاريناندوه كانت محفوظة فى خزانة جولبرت (Golburt Library) فوقعت مجموعات هذه الخزانة بعد وفاة صاحبها فى يد كونت دى سائنلاى (Comte de Seigniey) ثم فى ملكية دار الكتب الفرنسية الاهلية . وعثر على هذه النسخة الفريدة عالم فرنسى ذو صيت بعيد ، معروف باسم دى جينيه فكتب عنها عدة مقالات فى مجلة الجمعية الآسيوية فى الجزء الثالث والثلاثين .

لقد ذكر سليمان أن أهل الصين والهند اتفقوا على أن فى الدنيا المعروفة فى ذلك الوقت أربعة ملوك ، وحسبوا أن ، أعظمهم هو ملك العرب أى خليفة بغداد . لأنهم اعترفوا بلا نزاع ولا تردد بأنه أكبر الملوك فى العالم لثروته الواسعة ، ولعظمة قصره الشاهق ، ولشوكته العسكرية ، ولأنه رئيس للدين الحنيف السامى الذى ليس له نظير فى الاديان .

فوضعوا ملك الصين فى الدرجة الثانية عظمة وقوة ، ثم ملك اليونان ثم ملك بلهرا بالهند . وذكر سليمان أيضا حالة البحر والتجارة وأسماء البضائع والموانىء بخليج فارس وسواحل الهند وجنوبى الصين ونظام الحكم وعادات الصينيين وغيرها من الأمور الأخرى التى سنعالجها فى محلها .

أبو زيد الحسن السيرافى — فى الجزء الثانى من « سلسلة التواريخ » ، وهو بقلم أبى زيد الحسن السيرافى ، تجد تصديق ماحكى سليمان عن الصين فى الجزء الأول . غير أن ماذكر فيه من الطعام الذى يقدمه أهل الصين إلى موتاهم ، وأنه إذا وضع بالليل عند الميت ، أصبحوا فلم يوجد فقال أبو زيد — لا أصل لهذه الحكاية المنسوبة إلى الصينيين .

كان أبو زيد — ولو أنه لم يذهب إلى الصين وقد اعترف بذلك علانية فى كتابه — مواظبا على الاشتغال بتكميل ما كتب سليمان عن الهند والصين . ولعله قد سأل كثيرا من الذين قد سافروا إلى تلك البلاد عن أحوال أهلها . فجاء بمعلومات أفيد مما رواه سليمان من جهة تاريخ الاسلام فى الصين . وهو أول من ذكر مهمة

وهبان بن الأسود إلى عاصمة الصين فنقل عنه المسعودي فى كتابه الشهير « مروج الذهب ومعدن الجوهر » ، ولعل كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان ، لم يطلع على ماورد فى كتاب أبى زيد الحسن السيرافى فى هذه النقطة . فلذا ينسب أصل الرواية إلى المسعودى ، حينما أجرى قلمه السيال فى بيان وصول الاسلام إلى الصين ، تعليقا على كلمة (الصين) فى «حاضر العالم الاسلامى» . لقد لاحظ أبو زيد تغير الأمور فى الصين فى سنة ٢٦٤ ﻫ وبين سببه . ويظهر أن ماجاء فى تاريخ الكامل لابن الأثير فى الجزء السابع ، منقول عن أبى زيد ، فنقل عن ابن الأثير غيره من العلماء المتأخرين ، غافلا عما ورد فى الجزء الثانى من سلسلة التواريخ .

كان سليمان تاجرا فحسب ، لم يعرف كيف يكتب على أصول علمية . فلا ترى فى كتابه إلا مشاهدات تافهة ومعلومات مجردة عن التعليلات العلمية والفروض المنطقية . غير أن لهذه المشاهدات أو المعلومات أهمية علمية كبيرة فى نظر المحققين ، لأنها من التجارب ، ومبنية على الحقائق لم تشوهها التعليلات المنطقية . وأما ما أضافه إليه أو زيد من المعلومات فلم يكن أقل أهمية من ناحية العلم والتاريخ ، مما كتب سليمان فان بيانه عن مهمة وهبان بن الأسود ، يكشف لنا إلى حد كبير موقف أمبراطور الصين من الاسلام .

اتفق علماء الغرب على أن كتاب « سلسلة التواريخ » من الكتب العربية التى يجب على الباحث أن يستند اليه أو يراجعه ، إن أراد البحث عن علاقة العرب بالصين ، أو كتابة شىء عن هذه الناحية ، كما يجب عليه أن يراجع المسعودى والبيرونى فى البحث عن أحوال الممالك الشرقية الآسيوية فى القرون الوسطى من الميلاد وسنعود اليه فى الفصل الثانى .

اليعقوبى — كان من معاصرى أبى زيد الحسن السيرافى ، أحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر بن وهب وادية ، المعروف باليعقوبى وهو من بنى العباس ، وكان له اتصال بالعائلة الطاهرية بخراسان . وقد قام برحلات الى الهند وإلى مصر ، وإلى المغرب فألف كتابا فى تاريخ بنى العباس ورأى الأستاذ فران (Ferand) ،

أن هذا الكتاب فى الحقيقة يعتبر خلاصة تاريخ العالم . وهو فى جزءين وقد انتهى من وضعه فى سنة ٨٧٢ م .

ولقد ذكر اليعقوبى طريق البحر من السيراف الى الصين . ويظهر من بيانه فى هذه النقطة أنه يختلف مع ابن خرداذبه . فمن أقوال اليعقوبى أن الصين بلاد واسعة ، اذا أراد أحد السفر الى الصين بحرا ، يجب عليه أن يجاوز سبعة أبحر ، يختلف كل واحد منها ، فى اللون والريح والأمواج وغيرها من المخلوقات البحرية والأول من هذه البحار ، بحر فارس ، يبحر فيه تاجر من السيراف وينتهى برأس الجمجمة . ورأس الجمجمة ضيق يصاد فيه اللؤلؤ . والثانى البحر الذى يبتدىء برأس الجمجمة ويقال له بحر (لاروى) . وهو بحر كبير فيه جزائر وقواق [١] وسكانها من جنس الزنج ، لهم ملوك وفى هذا البحر أسماك عظيمة ، وعجائب كثيرة ، وأشياء غير معروفة . والثالث هو بحر (الهركند) ، حيث تجد جزائر سرنديب المشهورة ، بالأحجار الكريمة والأشياء الاخرى . وفيها يوجد القصب وكذلك الورد . والرابع يقال له بحر « كلاه بار » والماء فيه قليل والافاعى فيه عظيمة ، توجد فيه أشجار الكافور بكثرة . والخامس بحر (سلاهط) ، بحر عظيم كثير العجائب وفير الغرائب . والسادس بحر (كندرنج) والسابع بحر صنجى وهـــو بحر (تشان هاى) المعروف فى جغرافيا الصين حيث يلتقى ببحر آخر يقال له (كنجلى) وهذا بحر الصين يصعد منه الى كور نهر عظيم . ومنه الى مدينة (خانفو) . وهذا النهر هو حد الرباط العسكرى والبلاد المسكونة للصين وأما (خانفو) فهى مدينة عظيمة من نواحى الصين يقصد اليها ملاحو المسلمين [٢] .

وابن خرداذبه الذى كتب قبل اليعقوبى بأربع وعشرين سنة ، لم يذكر هذه الابحر السبعة . وما ذكر عن طريق البحر الى الصين ، إنما هو من البصرة الى

---

(١) من الظاهر أن (وقواق) هذا غير ما ذكر فى ابن خرداذبه وذلك بشرق الصين .

(2) Ferand : Vol. 1. P. 50.

مايط ، مارا بسواحل فارس ، ومن مايط ذات اليسار الى جزيرة تيمومة ، وفيها العود الهندى ، والكافور . ومنها الى قمار مسيرة خمسة أيام . ومن قمار الى الصنف (الصنخى فى اليعقوبى) على الساحل مسيرة ثلاثة أيام . ومن الصنف الى لوقين (تونكين Tonkin) الآن وهى أول مرافئ الصين ، مائة فرسخ فى البر والبحر . ومن لوقين الى خانفو وهى المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام فى البحر ، وعشرين يوما فى البر . ومن خانفو الى خانجو (Hangchow) مسيرة ثمانية أيام . وفيها مثل ما فى خانفو . ولكل مرفأ من مرافئ الصين نهر عظيم تدخله السفن ويكون فيه المد والجزر[1] .

وإذا وازنا بين أقوال الكاتبين ، نجد أن اليعقوبى ذكر هذا الطريق من حيث الابحر ، وأما ابن خرداذبه فقد قرر مسافات السفر بين المرفأ والآخر . فلذلك لا نرى فى اليعقوبى أسماء المدن بسواحل الهند وجاوة ، كما لا نرى ذكر الابحر فى ابن خرداذبه . إلا أننا نجد أنهما يتفقان على ذكر مدينة خانفو ، بأنها إحدى موانئ الصين الكبرى ، التى اجتمع بها تجار العرب والفرس وزادوا فيها رونقا وبهاء بوجودهم ووجود بضائعهم .

ابن الفقيه — أبو بكر بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمذانى ، يستحق ذكرنا هنا ، لأنه من علماء الاسلام الذين عاشوا فى أوائل القرن العاشر من الميلاد . وكتاب البلدان الذى ألفه ابن الفقيه فى سنة ٩٠٢ م ، يتعلق بموضوعنا ، ولو أنه لم يأت بشىء جديد من المعلومات عن علاقة العرب بالصين ، لكننا نجد فى كتابه تأكيدا لما قال ابن خرداذبه وسليمان واليعقوبى عن الجزائر والمدن التى فى الطريق البحرى إلى الصين . ثم هناك فرق بين بيانه وبيان السالفين . وهو أن ابن خرداذبه لم يذكر إلا جزيرة واحدة باسم وقواق وكذلك اليعقوبى . والمراد منها فى اليعقوبى هو جزيرة بين رأس الجمجمة وهركند . لكننا إذا نظرنا الى كتاب البلدان نجد أن ابن الفقيه قد ذكر قواقين ، وقواق بخلاف الصين وهذا يوافق ما جاء فى ابن

(١) ابن خرداذبه ص ٦٨

خرداذبه ، ووقواق آخر سماه ابن الفقيه بوقواق المتوسط الذى يوجد فيه ذهب أدنى درجة مما يوجد بوقواق الصين . ويظهر من وصف ابن الفقيه لهذه الجزيرة ، أنه يريد بها جزيرة مدغا سكر ، أو جزيرة فى وسط بحر الهند بين خليج فارس وموميای . فوصف بحر الهند بأنه بحر عظيم يتصل بالقلزم عن وادى القرى إلى البربرة وعمان ، يسير الى ديبل وملتان ، حتى ينتهى الى جبال الصنف والصين .

وفرق آخر . عند ابن الفقيه هو أنه إذا أراد أحد أن يسافر الى الصين ، أو الى عدن ، أو الى سلاهط ، يأخذ الطريق عن المغرب ويمامة وعمان . وإذا أراد السند فليأخذ الطريق عن خليج فارس والسيراف (١) .

وأما ما قاله ابن الفقيه عن « أبواب الصين » فهو منقول عن سليمان السيرافى . ثم أتى الأستاذ فران فى كتابه « علاقات الأسفار » بمقارنة بين عبارة ابن الفقيه وعبارة سليمان السيرافى . ولا يظهر فرق كبير بين العبارتين (انظر ابن الفقيه فى كتاب علاقات الأسفار) . وما يلى هو من كلمات سليمان فى كتابه « سلسلة التواريخ »

« من صندرفولات الى أبواب الصين وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة « تمر فيها المراكب ، فاذا سلم الله من صندرفولات ، وصلت المراكب إلى الصين فى « شهر الا أن الجبال التى تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام ، فاذا جازت السفينة « الأبواب ودخلت الخور ، صارت إلى ماء عذب ، إلى الموضع الذى ترسى اليه من « بلاد الصين وهو خانفو (٢) » .

وزاد ابن الفقيه بعض كلمات بعد خانفو وهى : « يكون فيه مد وجزر فى النهار والليل مرتين ويقولون أن البضائع الصينية ، أعلاها وأحسنها يستوردها تجار العراق . »

وما قال عن تباين العادات بين أهل الهند وأهل الصين ، منقول عن سليمان أيضا . لكن أقواله عن الفخار الصينى والمصابيح الصينية وأشياء أخرى من

---

(1) Ferand : Vol. 1. P. 56.

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٢١

الأوانى الخزفية ، من معلوماته الخاصة عن صناعة الصينيين . ويظهر من كتب العرب ، أن ابن الفقيه ، هو أول من ذكر صناعة الصين اليدوية من كتاب الاسلام .

ابن رستة ـ من معاصرى ابن الفقيه ، واسمه أبو على أحمد بن عمر ألف كتابا سماه العلقة النفيسة فى سنة ٩٠٣ م . فالقسم الجغرافى من هذا الكتاب ، كون منه الجزء السابع ، محفوظا فى متحف لندن الآن ولقد نشر هذا الجزء بعناية المستشرق (دى جوز De Goeje) فى مدينة ليدن سنة ١٨٩٢ م . ومن كلام ابن رستة ، أن من أراد الصين يقطع شرق بحر الهند[1] . وأقواله عن بلاد سيلا ، كانت منقولة من غير شك ، عن ابن خرداذبه .

المسعودى ـ يجب علينا ألا نترك المسعودى ، ونحن فى سبيل ذكر كتاب (الاسلام الذين نمنى بالنظر الى مؤلفاتهم فى هذا الفصل . أن هذا العالم الجليل ، كما يعرف القراء ، قد ولد فى آخر القرن التاسع من الميلاد ببغداد . وكان عالما كبيرا ، عميقا فى العلم ، سياحا كثير السياحة ، وأنه قد صرف من عمره ٢٥ عاما فى السياحة العلمية والجولان فى الممالك الاسلامية المجاورة لقاعدة الخلافة العباسية ، مثل ماوراء النهر والهند وله تحقيقات علمية ومشاهدات قيمة دونت فى الكتب والاسفار وأشهرها « مروج الذهب ومعدن الجوهر » قد طبع عدة مرات فى السنين المختلفة فى عواصم الغرب والشرق ، فى الهند ومصر ، وفى أوروبا ، وعلى هوامش نفح الطيب .

وأنه ذكر أشياء كثيرة عن الصين منها سفر وهبان بن الأسود الى بلاد الصين فنقل هذا الخبر عن أبى زيد الحسن السيرافى ، الذى اجتمع معه فى البصرة فى سنة ٣٠٣ هـ — ٩١٦ م . ومنها رسالة ملك الصين الى أنشيروان ووفد الصين إلى الخليفة المهدى ، ومنها عادات الصينيين فى العبادة ودياناتهم ، ومنها أخلاق ملوكهم ومراكب الصين الى عمان وسيراف ، ومنها أنهار الصين وظباء المسك . وكل

---

(1) Ferand : Vol . 1 . P , 69 .

ما ورد فى مروج الذهب، له قيمة علمية، سواء أكانت منقولة عن غيره، أو من مشاهداته نفسه. ولقد اعترف جميع العلماء بهذه القيمة العلمية، واتخذوها فى أبحاثهم حجة على غيره، عند ما يتكلمون عن الصين والأمم الشرقية فى الأيام الغابرة وسنعود اليه عند ما نبحث عن معلومات العرب عن الصين.

أبو دلف الينبعى - (٩٤٠ م). بعد المسعودى، كتب أبو دلف الينبعى شيئا غير قليل عن الصين. وكان شاعرا معروفا، بأبى دلف مصعار بن مهلهل، المولود بينبوع، على ساحل البحر الأحمر. سافر الى خراسان واتصل بآل سامان فى القرن العاشر من الميلاد. وله رحلات من خراسان الى الصين، وقد دون مشاهداته فى كتاب سماه (عجائب البلاد) وقال الاستاذ فران فى (علاقات الاسفار)، أن كتابه هذا، قد نشر لأول مرة فى ترجمة ألمانية، ملحقا بعجائب المخلوقات للقزوينى فى سنة ١٨٤٥ م. فنعتقد أن هناك نسخة مخطوطة بألمانيا، لا يتمتع بها إلا العلماء المتخصصون. لكننا لسنا محرومين من معرفة ما ورد فى هذا الكتاب. لاننا على كل حال، نجد طرفا منها فى ياقوت، والقزوينى، وابن النديم. قال السير ايليوت، أن القزوينى يشير اليه كثيرا فى كتابه (عجائب المخلوقات)[1]. وأما ياقوت فيروى عنه بعض الشىء، عند التكلم عن الأحوال فى تركستان، وكان سفر أبى دلف الى الصين فى حكم السلطان نصر بن أحمد المتوفى سنة ٩٤٣ م، ليخطب ابنة ملك الصين لأحد أبنائه. وأما ماورد فى ابن النديم، فستراه فى موضع آخر.

الادريسى — من الشخصيات البارزة فى عالم العلم، أبو عبدالله محمد بن الادريسى المولود بسبتة المراكش سنة ٤٩٣ هـ المتوفى سنة ٥٦٠ هـ. قد جال هذا السياح الجغرافى بلاد الغرب فرجع واستوطن بجزيرة صقلية حيث كتب كتابه الشهير المعروف، بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق،. ولا يخفى على أحد من العلماء أن لهذا الكتاب قيمة علمية، خصوصا فى جغرافيا الممالك الاسلامية والشرقية لكن المسلمين لم يعتنوا بهذا الكتاب كما ينبغى ولم يخرجوه للباحثين بطبعة جديدة

(1) Sir Elliot: History of India. Vol. 1. P. 96

أنيقة ، سليمة من الاغلاط ، مقرونة بالاصطلاحات الحديثة فى أسماء الجغرافيا ، خلافا لعلماء أوربا فهم قد نقلوا هذا الكتاب إلى لسانهم ، استفادة وإفادة . وأما الترجمة الفرنسية فوضعها الاستاذ يانبر (Janbert) وطبعها فى باريس بين ١٨٢٦ و ١٨٤٠ م .

كان هذا المؤلف يتكلم فى ذلك الزمان البعيد ، عن مدن الصين وطرقها والمسافة بين كل مدينة وأخرى ، وأحوال الترك وتجارتهم مع الصين ، وطريق رفع الشكاوى إلى ملك الصين ، ولقد كتب كل هذا وهو مقيم بصقلية ولم يسافر الى بلاد الصين ، أو إلى البلاد المجاورة لها . أما من أين جاءته هذه المعارف وكيف حصلها ؟ فذلك مالا سبيل إلى معرفته فى الوقت الحاضر . إلا أننا نقيس بمقياس الظن ، أنه اقتبس بعضها ، من الكتب القديمة لمؤلفين قبل زمنه وبعضها الآخر كان يستفيده من كل من ورد من بلاد الصين من التجار والرحالين ، كما فعل أبو زيد الحسن السيرافى من قبل . لأن حصول المعارف بهذه الطريقة ، لم يكن مستحيلا ، إذ كان أهل الأندلس والمغرب يعرفون شيئا كثيرا عن الصين فى القرن الرابع الهجرى . ويظهر من ابن النديم أن الأندلس كانت لها علاقة تجارية مع الصين وقد تردد تجارها على الصين مع إخوانهم فى الاسلام من العرب أو الايرانيين . وأول من ذكر ذهاب أهل الأندلس إلى الصين هو أبو دلف الينبعى الذى ذكرته آنفا (١) .

الغرناطى ـ لا شك أن اسم الادريسى يجرى دائما على ألسن العلماء فيعتبرونه ركنا من أركان المفاخر التى أنجبها الدهر للعرب والاسلام . فلا يذكرونه إلا بالاحترام لمعارفه الواسعة ، ولا يتحدثون عنه إلا بالتعظيم والتقدير لنبوغه العـــلمى ، ولا يتكلمون عن منزلته العلمية ، إلا ويعتبرونه من طبقة البيرونى وابن الأثير والمسعودى وابن بطوطة وابن خلدون ، لــكن قليلا من القراء يعرفون شيئا عن شخصية محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن الربيع الغرناطى

---

(١) الفهرست . ص ٤٩١

الأندلسى من معاصرى الادريسى لأن هذا العالم الجليل ، مع تركته العلمية فى اللغة العربية . لا يزال مجهولا عند كثير من العلماء ، وكأنه ليس له وجود فى العالم بالنسبة إلى الشهرة العالمية التى أحرزها الادريسى مع أنهما متعاصران وكاتبان فى موضوع واحد .

وقد عثرت على هذا الكتاب لصاحبه الجليل من غير قصد ، إذ كنت أطالب كتابا يحمل عنوان « جغرافية المأمون » وهو منسوب إلى عالم مجهول فى فهرست الكتب الجغرافية بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١١ ش من فهرست التاريخ فأخرجته . فاذا هو نسخة مخطوطة بخط مغربى .

لقد اطلع قبلى على هذا المخطوط عالم اسمه أحمد محمد الأقدمى فكتب على أول ورق الكتاب هذه الكلمات « وأن هذه المخطوطة لكاتب من أهل غرناطة فى أوائل القرن السادس من الهجرة ، اسمه محمد بن عبد الرحمن بن سليمان بن الربيع الغرناطى الأندلسى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ واسم الكتاب الأصلى (تحفة الألباب ونخبة الأرباب) » .

وقعت هذه النسخة المخطوطة فى جزءين وفى الجزء الأول ذكر فى مواطن مختلفة أشياء كثيرة عن الصين وعجائبها . ومن هنا نفهم أن هناك فى المغرب والأندلس علماء غير الادريسى وابن بطوطة ، كانوا يعرفون الصين ودونوا معلوماتهم عنها إلى درجة الصحة والقبول . وما ذكر الغرناطى فى كتابه ، من سعة أرض الصين وعدل ملكها وصناعة الصين كالفخار والديباج ، وعبادة الأصنام ، كما يفعل أهل الهند ، واختصاص الصين بالظروف والقراطيس ، والجزائر ببحر الهند والصين ، منها مسكونة ومنها غير مسكونة ، سواء أكانت من المنقولات أو من المسموعات ، كلها مقبولة حتى عند العلماء فى الوقت الحاضر . ويظهر من كلام هذا المؤلف ، أن مسموعاته أكثر من منقولاته لأنه يقول « وكنت بمصر سنة ٥٩٢ هـ واجتمعت بها بالشيخ أبى العباس الحجازى وكان ممن أقام بأرض الصين والهند أربعين سنة

سنة (١) . وكان الناس يحدثون عنها بالعجائب وقالت له : يا أبا العباس ، أنى سمعت عنك أشياء كثيرة من العجائب . والآن أريد أن أسمع منك شيئا من عجائب خلق الله . وكان الشيخ الامام أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى حاضرا . فقال أبو العباس : رأيت أشياء كثيرة ولا يمكننى الأخبار بها ، لأن أكثر الناس يحسبونها كذبا وقال الشيخ الامام أبو بكر . ذلك يكون من العوام الجهال . أما العقلاء وأهل العلم فانهم يعرفون الجائز من المستحيل .

فقص عليه ما رآه من الغرائب والعجائب ، منها طير الرخ وكبر أرياشها ، وذكر أن رجلا من التجار ممن سافر الى الصين وأقام بها مدة ، ووصل الى بلدة بالمغرب بأموال عظيمة وكان عنده ريشة من جناح الرخ ، تتسع لقربة ماء ! وكان الناس يتعجبون من ذلك وكان يعرف هذا الرجل بعبد الرحيم الصينى بسبب سفره الى الصين وإقامته بها (٢) .

ولأن طير الرخ من الطيور الخيالية التى ذكرت فى « ألف ليلة وليلة » وفى « كتاب الحيوان » للجاحظ ، ولأن علماء العصر الحاضر يعترفون صراحة ، بعدم علمهم عن هذا الطير العجيب فلا نصر على التمسك بصحة هذا القول . غير أننا ، مع هذا ، نقول — إذا سلمنا بكذب قوله عن الرخ ، فذلك لا يكون دليلا قاطعا على عدم صحة الأقوال الأخرى عن عجائب الصين والهند التى قلما رأوها فى بلاد المغرب والأندلس . ولا نعجب أيضا من رجل يلقب « بالصينى » كما ورد فى الغرناطى لأننا إذا نظرنا إلى معجم البلدان لياقوت ، فاننا نجد فيه كثيرا من تجار الأندلس والمغرب يلقبون بالصينى للسبب المذكور . وهذا دليل على علاقة الأندلس والمغرب بالصين ، وسفر تجارهما اليها بين حين وآخر . ثم عادوا بمعلومات جديدة عنها مع ثروة طائلة قد كسبوها فى الصين . فأخبروا علماءهم بها فدونوا ما سمعوا عنهم فى الكتب . كذا فعل صاحب « تحفة الألباب ونخبة الأرباب » الذى توفى فى سنة ٥٦٥ هـ أى بعد وفاة الادريسى بخمس سنوات فقط

(١) الغرناطى ج ١ — ص ٣١ (٢) الغرناطى ج ١ — ص ٣٧

ياقوت — من علماء الاسلام البارزين فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد وهو ياقوت بن عبد الله الرومى الذى عاش بين ١١٧٩ و ١٢٢٩ م وكان أول من سلك مسلكا جديدا فى ترتيب كتابه (معجم البلدان) على الحروف الأبجدية وبهذا الترتيب المبنى على القاعدة العلمية الصحيحة ، سهل السبيل الى أقصى حد لمن أراد أن يراجع كتابه ، والناس يرون أن طريقة ياقوت فى معالجة معجمه الجغرافى ، الذى يتعلق بالعالم الاسلامى فى ذلك الوقت طريقة نموذجية لمن يقصد معالجة أى علم من العلوم الأخرى . لأن طريقته طريقة علمية مبنية على أصول علمية منظمة ، فيسهل لمن يريد الاستفادة منه ولا يحتاج الى تعب أو مشقة فى المراجعة ، خلافا لمن قد ألفوا قبل ياقوت . ولو أنهم قد جمعوا فى مؤلفاتهم معارف جمة ومعلومات قيمة لا توجد فى كتب أخرى ، فأنهم لم يضعوا نظاما علميا فى ترتيب كتبهم . فكثيرا ما تراهم يخلطون مباحثهم بعضها ببعض . فليس من السهل أن تخرج ما تريد من النقط المخصوصة من كتبهم ، إلا بعد قراءة أكبر جزء منها . وفى بعض الأحيان لا تجد ما تريده من الأبحاث حتى تنتهى من مراجعة الكتاب من أوله الى آخره إنك تنفق ساعات طويلة فى التنقيب راجيا أن تعثر على ما تريد . وأخيرا لا تجد ما تريد . لأنك قد دخلت فى البحث ولا تعرف عن محتوياته شيئا ، وكان هذا شأن المؤلفات قبل زمن ياقوت . لكنك لا تحتاج إلى هذا التعب فى معجم البلدان لحسن ترتيبه الذى يمكنك من استخراج ما تريد منه فى دقيقة واحدة . مثلا ، إذا أراد أحد أن يعرف شيئا عن الصين فى كتاب ياقوت ، فكل ما ينبغى أن يفعله فى هذه الناحية هو إخراج كلمة (الصين) ثم ينظر ما كتب تحت هذه المادة . فيعرف عندئذ كل ما كتب عنها فى لمحة واحدة . وهذا الترتيب الذى سلكه ياقوت هو الذى يسير عليه العلماء المحدثون الى يومنا هذا .

أما ياقوت فله علاقة بموضوعى . لأن مادة الصين فى كتابه تنفعنى فى أبحاثى والصين فى رأيه ، وقع فى الأقاليم الأول طولها من المغرب مائة وأربع وستون درجة وثلاثون دقيقة . ويظهر مما كتب فى هذه المادة ، أن معلوماته عن الصين كلها منقولة عن غيره . لكنها جديدة لم ترد فى الكتب الأخرى من قبل . وكلامه

عن الذين يلقبون ألقاب (الصينى) وليسوا من أهل الصين ، من المعلومات الجديدة التى لم نقف عليها حتى عصره . ثم حديثه عن مدن تركستان ومسافاتها وحاصلاتها ومصاهرة أبنة ملك الصين بابن السلطان نصر بن أحمد ، استنادا الى أبى دلف الينبعى الذى قد سبق الكلام عنه ، يكشف لنا أن التجارة بين الصين والممالك الاسلامية ، بطريق البركانات تجرى على قاعدة منظمة ويؤكد هذا القول ما كتبه الايرانيون فى كتبهم عن هذا الزمن وسنعود إلى هذه النقطة عند ما نبحث طريق التجارة الى الصين برا فى الباب الخاص بالعلاقة التجارية .

ابن البيطار - وهذا عالم عربى ليس من علماء الجغرافيا ، ولا من علماء التاريخ . لكنه على كل حال من العلماء الذين قد تكلموا عن الأشياء التى أصلها من الصين . نذكره هنا لنشير اليه فى المواضع التى تتطلب ذكره فيما بعد .

واسمه الكامل، عبد الله بن البيطار، المولود بمالغة فى سنة ١١٩٧م عل أغلب الظن . وهو كما قلت ليس جغرافيا ولا مؤرخا ، ولا لغويا أيضا ، بل هو عالم من علماء النبات قد سافر إلى مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، بصفة أنه عالم النباتات ، لحقق النباتات التى وجدها بالبلاد التى سافر اليها .

يروى الأستاذ فران فى كتابه « علاقات الأسفار » أن ابن البيطار ، قد دخل فى خدمة الملك الكامل بدمشق كرئيس علماء النباتات بها . فلما مات الملك الكامل ، عاد الى القاهرة لكنه ظل يختلف الى دمشق ، إذ كان الملك الصالح دعاه اليها . فذهب وأحرز ثقة الملك الجديد . فصار مكرما معززا لديه ومات فى عاصمة الشام سنة ١٢٤٨ م .

ولقد ترك هذا العالم النباتى ، كتابين باللغة العربية ، «المغنى» و «جامع المفردات» ولكل واحد منهما ترجمة ألمانية بقلم الأستاذ فون زون ثائمر (Von Son Theimer) وترجمة فرنسية (١٨٧٧م) بقلم الأستاذ (ل لكليرك L. Leclerc) وأنه ذكر فى جامع المفردات أشياء كثيرة صينية الأصل ، منها بيش ، وجزع ،

« وتوتيا، وراوند، والمسك وكل هذه الأشياء مفيدة فى مداواة بعض الأمراض وسنشير اليها فيما بعد، عند ما نتكلم عن علم العرب من الصين.

القزوينى — (١٢٠٣ – ١٢٨٣م). هو محمد زكريا، المولود فى سنة ١٢٠٣م بمدينة القزوينى بآذربيجان، من بنى أنس بن مالك قدم الى دمشق سنة ١٢٢٢م وتعرف بابن الاعرابى وتوفى سنة ١٢٨١ م. وله كتابان — ١ آثار البلاد وأخبار العباد، و٢ — عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وكان جغرافيا كبيرا، ذكر فى كتابيه، الجزائر التى فى بحر الصين والهند منها جزيرة الزنج على حدود الصين، فيها ملك يقال له: (مهاراجا)[1]. ثم نقل عن زكريا الرازى وابن الفقيه وزكريا بن يحيى بن خاقان، فيما قالوا عن هذه الجزيرة.

ثم ذكر جزيرة الرامنى (سماطرة) وعجائب المخلوقات فيها، مثل الفيل والأفاعى، ونقل عن ابن الفقيه وزكريا الرازى فيما قالا عن هذه الجزيرة والحيوانات فيها. ومن العجيب أنه ذكر جزيرة وقواق بقرب الجاوة مع أن سالفيه ذكروها بشرق الصين. وزاد بيانا عن جزيرتين فى بحر الصين، جزيرة الينان، (هاى ناى) وجزيرة أطوران (تاى وان). وما قاله عن جزيرة سيلا، منقول عن سالفيه. لكنه زاد بعض البيان عنها وقال: من بين الأشياء الغريبة أن ملوكها يتبادلون الهدايا مع ملوك الصين وبلادهم تشكو قلة الماء لأن المطر هناك ليس بكثير. ثم ذهب إلى الكشف عن المخلوقات الغريبة التى توجد فى بحر الصين. وأما التفاصيل فتجدها فى كتابه «عجائب المخلوقات» وذكر الأستاذ فران، بعضها فى «علاقات الأسفار»[2].

ابن سعيد — هو أبو الحسن على بن سعيد المولود سنة ١٢٠٨ م، على رواية وفى سنة ١٢١٤ م، على رواية أخرى، بقرية يحصوب بغرناطة. وقد تعلم

---

(١) (مهاراجا) لقب لملوك الهند القديم ولا يزال مستعملا عند أمراء الهنادك حتى الآن، فكلمة (مهاراجا) مركبة من كلمتين: مها — وراجا، فمعنى (مها) كبير، ومعنى (راجا) الملك.

(2) Belations des Vavages: Vol. 11. PP. 302-303.

بأشبيلية وكان يرافق أباه فى سنة ١٢٤٠م الى مكة المكرمة . لكن أباه توفى فى الطريق بأسكندرية فامتنع عن الذهاب الى مكة واستوطن القاهرة . ثم سافر إلى بغداد ومكث بها ١٢ عاما فعاد عن طريق دمشق وزار مكة عند عودته . وبعد وصوله إلى المغرب ، دخل فى خدمة الأمير أبى عبد الله المستنصر بالله صاحب تونس (١٢٥٤ م) ، ثم رحل الى الشرق ينوى أن يتصل بهلاكو ببغداد . لكنه بعد وصوله الى أرمنيا ، علق بذيل أميرها ثم تركه ورجع الى تونس ومات بها سنة ٢٨٦ . م على رواية السيوطى والمقريزى ، وبدمشق سنة ١٢٧٤ م على رواية ابن تغريبردى .

وقد جمع عالم فرنسى معروف باسم (فولر Vollers) بعض أوراق شتى لكتاب ابن سعيد المسمى (بالمغرب) ونشرها على نفقته الخاصة وله كتاب آخر فى علم الجغرافيا ، سماه (بسط الارض) ذكر فيه أشياء كثيرة عن بلاد الصين وهو مثل سالفيه ، من علماء العرب والاسلام ، ذكر (حمدان) ، و (لوقين) و (خانفو) و (الزيتون . لكن ببيان يختلف عن هذا البيان وكان سلفه ، مثل المسعودى والادريسى ، وابن الفقيه وغيرهم ، لم يذكروا هذه الأسماء مصحوبة بذكر الأنهار . بخلاف ابن سعيد . فانه يقول : أن نهر حمدان ، أكبر أنهار الصين ، وفى غربه تقع مدينة حمدان ، أشهر مدن الصين . . ومدينة الزيتون معروفة عند التجار المسلمين الذين سافروا الى الصين والمراكب التى جاءت من بحر الصين ، قد تتوغل ١٥ ميلا فى نهر الزيتون . . وعلى نهر لوقين وهو خامس أنهار الصين ، توجد مدينة لوقين ، مشهورة من بين موانى الصين وبشرق لوقين يوجد نهر حمدان ، وفوق هذا النهر مدينة خانفوه ، التى تذكر كثيرا فى الكتب .

ويقول أيضا : والصينيون يشبهون ، أهل الخطا وهؤلاء يستوطنون بين بلاد الأتراك والهنود ويقول أن فغفور ، أى ملك الصين يسكن فى مدينة (تاجة) [1] .

---

(١) ذكر الادريسى هذه المدينة باسم باجة بالباء . انظر الادريسى ص ١٤٩ .

وأما مدينة (الصينية) ، فهى عاصمة قديمة يسكن فيها الملك قبل (تاجة) ومدينة (منزى) هى عاصمة (صينية الصين) .

رشيد الدين فضل الله المتوفى سنة ٥ ١٣ م .

من الشخصيات التى لا نستطيع أن نغفلها ، عند ما نتكلم عن تاريخ الاسلام فى الصين، رشيد الدين فضل الله مؤلف (جامع التواريخ) باللغة الفارسية، وكانت تجتمع فى شخص هذا العالم ، صفات كثيرة محمودة وكان مشهورا بالطب ، وفعل الخيرات وبالسياسة والتاريخ ولد بمدينة حمدان ببلاد الفرس فى سنة ١٢٤٧ م ، وكان جده موفق الدولة على معاصرا لأكبر عالم فلكى أنجبه الاسلام وهو نصير الدين الطوسى ، الذى بنى مرصدا بحكم هلاكو ، بمدينة مراغة ، والذى ترك لنا زيجا ، قارن فيه بعض المدن الصينية مثل خانبالق ، وبانجو ، مع البلدان الاسلامية فى درجات الطول والعرض ، كما أنه كان معاصرا لسعد الدين صدر الدولة المغولية بالعراق . وكان ثلاثتهم قد دخلوا فى خدمة هلاكو بعد فتح المغول لبغداد .

كان رشيد الدين من حيث أنه طبيب النصر، يتمتع بنصيب عظيم من الامتيازات ونال جانبا عظيما من التعظيم والاحترام ؛ أثناء عهد عباقا خان لكن فضائله المتنوعة لم تشتهر إلا فى عهد غازان خان الذى ارتقى العرش فى سنة ١٢٩٥ م . وبعد ثلاث سنوات من قتل صدر الجهان ، صدر الزنجانى استوزره غازان خان مع إشراك سعد الدين فى أعمال الوزارة .

لقد رافق رشيد الدين غازان خان فى غزوته الى الشام بصفة كاتم السر له . وفى هذه الايام إذ كان المغول يتخذون مدينة (آنة) وهى على ضفة الفرات عاصمة لهم ، قدم رشيد الدين الى غازان خان عالما كبيرا ، وهو مؤلف تاريخ الوصاف الشهير فعرفه به فى ٣ مارس ٢ ١٣ م .

أثناء عهد أرلجا تتوخان (خـــدابندة) ، مازال رشيد الدين يتمتع بتلك الامتيازات التى كان يتمتع بها أيام أبيه . فأقره فى مركزه الذى كان فيه . فنال على يد السلطان الجديد مكانة ممتازة لم ينلها أحد من وزرائه وذلك لمواهبه الفذة وصفاته الحميدة .

وفى أوائل سنة ١٣١٢ م ، سقط زميل رشيد الدين من السلطة الوزارية فسيق الى فم الموت بسبب دسائس على شاه الذى قد حصل مركزه فى الوزارة الآن ، وعلى اثر سقوط سعد الدين ، وجهت الى رشيد الدين تهمة خطيرة كادت تسقطه من الوزارة أيضا .

وظهر نزاع شديد فى سنة ١٣١٥ م ، بين رشيد الدين وعدوه على شاه ، فانتهز الثانى كل فرصة لعنائه . فأراد أن يوقعه فى مشكلة ، عند نظر المسألة المالية التى تتعلق بمرتبات الجيش ، لكنه نجا هذه المرة من الخطر المحدق به ، بعد مقاساة مظالم شديدة

فلما ارتقى أبو سعيد العرش بعد وفاة خدابندة ، وجه على شاه دسائسه القديمة الى رشيد الدين فحرمه أولا من الوظيفة الرسمية فى أكتوبر ١٣١٧ م ثم قتله بعد تسعة أشهر وكذلك ابنه الذى لم يتجاوز عمره ستة عشر عاما ، بتهمة أنه قتل السلطان الراحل بالسم ، وقد صودرت ممتلكاته ، واضطهد أقاربه ، ونهبت أمواله وحرمت مؤسساته الخيرية من الأوقاف ثم هدمت و (ربع الرشيدية) التى أنفق رشيد الدين فى بنائها ستين ألف دينار تعرضت للسلب والنهب ، وهكذا مضى هذا العالم الكبير من الدنيا دون أن يرثى له أحد .

وقد كان غازان خان كلفه بتدوين تاريخ المغول ، ولو أنه كان مشغولا بأمور الدولة ، لكنه نجح فى تخصيص بعض الاوقات لهذه المهمة العلمية ، قد روى عن دولة شاه أن رشيد الدين كتب كتابه الشهير المسمى بجامع التواريخ ، بين صلاة الفجر وطلوع الشمس .

مات غازان خان قبل أن يتم رشيد الدين كتابه فى تاريخ المغول . لكن خليفة أولجائتو خان أمره أن يكمله وينسبه كما كان فى الأصل الى غازان خان فلذا يسمى أول الجزءين من كتاب رشيد الدين تاريخ الغازانى

كان أولجائتو أيضا من محبى العلم وأنصاره فكلف رشيد الدين أن يكتب جزءا آخر عن بلاد الاسلام ، وجزءا ثالثا عن الجغرافيا ولكننا لم نعثر على الجزء

الثالث أما لأنه فقد أو لم يكتب . فلذلك وجدنا اليوم ، أن كتاب رشيد الدين ، كما هو المعروف عند العلماء ، يشمل جزءين فقط . والجزء الأول فى تاريخ المغول والثانى فى التاريخ العام ولقد فرغ منه ، كما حقق الأستاذ « بروان » فى سنة ١٣١٠

ويظهر أنه كان يعرف كثيرا من اللغات الشرقية كالعربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والكشميرية وغيرها من الألسن التى كانت تساعده على إتمام هذا الكتاب الجليل . فجاء بأجمع كتاب فى التاريخ . فيعتبر العلماء ، ولا سيما المستشرقون أن كتابه هذا ، من أهم المصادر التى لا يستغنى عنها الباحثون فى تاريخ آسيا ، ونفوذ الاسلام فى الصين فى عهد المغول .

وليس من الصعب أن نعثر على نسخة أو نسخ مخطوطة من هذا الكتاب ، لقد عرفنا أن فى دار الكتب الأهلية بباريس نسخة مخطوطة ، فيها عدة من الصور رسمها المؤلف نفسه ، وقد طبع لأول مرة فى مدينة لندن سنة ١٩١٥ م ، متنا وحاشية ، ووضع له الأستاذ بلوشة (Blochet) مقدمة مستقلة عن الكتاب الأصلى باللغة الفرنسية فطبع فى سلسلة المطبوعات التذكارية لجيب (Gibb) .

وأما محتويات الكتاب فكما يلى على سبيل الاجمال . الجزء الأول ، القسم الأول منه ، فى بيان القبائل التركية والمغولية ، والقسم الثانى فى بيان نسب جنكيز خان وآبائه وأولاده إلى غازان خان ، وفى أول الجزء الثانى ، مقدمة فى بيان انتشار البشر على وجه الأرض ، ثم أحوال الأنبياء ، وقصصهم ، والقسم الأول من هذا الجزء ، فى بيان ملوك الفرس قبل الاسلام ، وفى القسم الثانى ذكر صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين ، ثم خلفاء بنى أمية وبنى العباس إلى سقوط بغداد فى أيدى المغول ، ثم حكومات إسلامية فى بلاد الفرس كالغزنويين والسلجوقيين وآل خوارزم شاه ، وآل بويه والصفدية وأتابك ، ثم الاسماعيليين فى الشرق والغرب ثم أوغوز وأولاده ، ثم الاتراك الآخرين ، ثم الصينيين ، ثم اليهود ، ثم الافرنج وملوكهم وباباواتهم ، ثم الهنود والبوذا ومذهبه .

من هذا الأجمال الوجيز ، تعرف أهمية هذا الكتاب فى تاريخ الاسلام خصوصا فيما يتعلق بالمغول فى بلاد الفرس والصين .

الدمشقى ، أبو الفداء ، ابن الوردى .

لقد عاش هؤلاء العلماء الثلاثة ، فى زمان واحد على التقريب ، لأن شمس الدين أبا عبد الله الصوفى المعروف بالدمشقى عاش إلى سنة ١٣٢٥ م ، وأبا الفداء إلى ١٣٣١ م ، وابن الوردى إلى ١٣٤٠ م ، وكان أبو الفداء أشهر الثلاثة ولعل ابن الوردى أشهر من الدمشقى بدرجات فى عالم العلم .

أما الدمشقى فكان إماما بقرية ربوة ؛ بقرب دمشق ، كتب بها كتابا معروفا باسم (نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر) ، وابن الوردى وهو زين الدين أبو حفص عمر بن الوردى ، ولد بمعرة النعمان فى بلاد الشام ، تعلم الفقه بحماة ، فنال رتبة الكاتب للقاضى ابن نقيب بحلب ، وقد ترك لنا كتابا سماه (خريطة العجائب وفريدة الغرائب) وكل واحد منهم ذكر فى كتابه أشياء عن الصين ، لكن معلوماتهم غير مبتكرة ، بل منقولة عن العلماء السالفين . فأسماء وقواق ، وقمار وجزيرة السيلاز وخانفو ، وحمدان ، ومدينة الصينية ، وأبواب الصين ، والصنف وسرنديب وصندر فولات وجاوه وجين ما جين فى كتاب الدمشقى ، قد ذكرها سالفوه كلهم ، فنقلها كما وردت فى كتبهم ، إلا أن جزيرة الداميات (اندامان) ومعبر ؛ اسمان جديدان فى كتابه ، فأن الداميات جزيرة بين بورما (Burma) ومدراس (Madras) الآن . وأما المعابر فحققها بأنها البقاع التى تمتد من مدراس إلى جزيرة سيلان .

وما قاله أبو الفداء عن بحر الصين بأنه بحر وحدوده غير معروفة — يشتمل على جزائر كثيرة ، حيث توجد مدن لا تعد ولا تحصى ، وفى مسيره إلى الغرب يمر بجبال القامرون التى تقع بين الصين والهند . وعن جزيرة شيلا ، بأنها واقعة فى آخر الصين ، وكل هذه الأخبار غير جديدة ، بل نقلها عن ابن الفقيه ، أو ابن خرداذبه ، أو المسعودى وغيرهم من الكتاب السالفين ، نعم أعتقد أن ما روى كتابه

عن الجلي ، عن جزيرة (سريبوزة) ، قول جديد لم يرد فى كتب أخرى وقال إن هذه الجزيرة ، مملكة تحت حكم الصين [1] . وأضاف إلى ذلك أنها عامرة ذات رفاهية وأن السفن إذا كانت ذاهبة إلى الصين ، تمر فى مائها ، وفى بحرها جبال ممتدة طولا ، يحتاج إلى ستة أيام فى قطعها [2] فاذا وصل المسافرون إلى هذه الجبال يجدون وسائل النقل والركوب مستعدة لحمل كل من يقصد أى بلد من بلدان الصين .

وبيان ابن الوردى عن بحر الصين يختلف عن بيان غيره وقد أطلق على بحر الصين أسماء شتى ، وفى رأيه أن بحر الصين وبحر الصنف ، هذه الأسماء لبحر واحد والحقيقة أن البحر أيا كان لا يعرف له حد يميزه من بحر آخر ، لكن الناس يسمونه باسم يتصل بالمكان الأقرب . فعرف بعد ذلك بذلك الاسم ، إذن لا عجب أن كل من قبل ابن الوردى كان يفرق بين بحر الصين وبحر الهند وبحر الصنف اعتبارا بالمكان الخاص الذى يتصل بجزء من البحر الواسع . فيسمون جزء البحر الذى يتصل بالصين ، بحر الصين ، والذى يتصل بأرض الهند بحر الهند ، غير أن الوردى لا يفرق بين هذا وذاك ، لأنه رأى بعينيه أن ماء بحر الصين لا ينفصل عن ماء بحر الصنف ، ولا ماء بحر الصنف عن ماء بحر الهند .

وأما مازاد على هذه الأقوال من البيان عن أحوال الصين ومدنها وجزائرها والمخلوقات العجيبة فيها ، فهو منقول عن الجيهانى وعن الجاحظ وعن ياقوت وعن ابن الفقيه وغيرهم . فلا حاجة بنا الى تكراره هنا ، غير أن ما ورد فى تاريخه المعروف بتاريخ ابن الوردى عن أمة الصين يستحق الذكر ، وسنرجع اليه فى موضع آخر .

ابن بطوطة :

أشهر رحالة فى القرن الرابع عشر من الميلاد ، هو ابن بطوطة الذى قد بدأ رحلته العالمية ، فى سنة ١٣٢٥ م من مدينة طنجة بمراكش فى بشمال أفريقيا ،

(1) Ferand : P. 404 .

(٢) هذا هو وصف لأبواب الصين

مصر ، فلسطين ، شمال بلاد العرب إلى مكة . ثم سافر إلى استنبول ووصل إلى الهند عن طريق جنوبى روسيا وخراسان وبخارى وقندهار . فارتحل من دهلى ، عاصمة الهند إلى قاليقوط بملابار ، وأبحر من ذلك الميناء سفيرا لتغلق شاه ، صاحب دهلى ، إلى الخان الأعظم بخانبالق (الصين) . فمر فى طريقه إلى أول مرافىء الصين بجزائر سيلان ، ومالديب ، وسماطرة ، جاوة . فنزل الزيتون أولا ، ثم سار من مدينة الى مدينة حتى وصل الى خانبالق (مدينة خان) وهى بكين الآن .

وله ملاحظات قيمة عن أحوال الصين وعادات أهلها نهتدى بها إلى معرفة الصين أيام حكم المغول فيها .

ولقد صرف ابن بطوطة ٢٤ عاما فى السياحة والجولة فى الممالك الاسلامية بالشرق الأدنى والشرق الأقصى . لكن هذا السفر الطويل لم يتعبه بعد رجوعه إلى وطنه الأصلى ولم يقنع نفسه الكبيرة التى تحب الاستطلاع والكشف بما شاهده فى الشرق . حتى استأنف رحلة أخرى الى بلاد الاندلس ، ثم الى أواسط أفريقيا ؛ التى لم يحلم أحد من رحالة أوربا بالسفر اليها . ثم عاد الى فاس وتوفى بها سنة ١٣٧٧ م بعد مشاهدة ثلثى الربوع المسكونة من كرة الأرض .

أما رحلة ابن بطوطة وهى كتاب دون فيه مشاهداته الأمم ، وملاحظاته على البلاد التى مربها ، فى سياحته ، فهى أوثق مصدر للكتاب والباحثين الذين يريدون أن يعرفوا شيئا عن أحوال العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر للميلاد . وعلاوة على هذه القيمة العلمية ، فالجزء الرابع من طبعة أوربا من كتابه ملىء بالمعلومات الوثيقة عن الصين وأحوال المسلمين فيها . ثم ماذكره من مراكب الصين وأنواعها وصناعة الفخار ودراهم الكاغذ فى معاملة البيع والشراء والرقابة على الفنادق وحفظ الطرق ، من المشاهدات القيمة التى قلما يلتفت إليها سياحو القرون الوسطى . فكتابه من هذه الناحية يعتبر من أهم المصادر التى سنستند إليها فى أبحاثنا عن موضوعات شتى .

الاصطخرى ، الباكوى ، الجلبى .

ومن علماء الاسلام الذين يوجد فى مؤلفاتهم ذكر أحوال الصين .

الاصطخرى من أهل أصطخر ببلاد الفرس وهو صاحب أقليم الأرض يتكلم فيه قليلا عن طريق البحر إلى الصين . لكنه أتى فيه ببعض معلومات هامة عن طريق البر إليها وعن حالات الترك والتتار . وبين أن مملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الاتراك والتبت ولم يذكر هذا القول ، أحد من قبل العلماء .

أما الباكوى فاسمه عبد الرشيد بن صلاح بن نورى المعروف باسم الباكوى المنسوب إلى باكوه . مدينة على ساحل بحر الخزر ، عاش إلى ٨٠٦هـ — ١٤٠٤م وذكر فى كتابه « تلخيص الآثار وعجائب الممالك القهار » ، جزيرة جاوه وبحر الصين وبعض الأنواع من بضائع التجارة ، مثل العود والكافور فيها ، وجزيرة الرامنى ، وجزيرة الزنج وجزيرة القصر ، وجزيرة النساء ، وجزيرة وقواق وسيلا الواقعة فى آخر الصين . وبناء على ماجاء فى كتاب الباكوى . أن سيلا ، بلاد صحية جدا حتى لا يقع سكانها فى المرض .

أما حياة الجلبى فقلما يعرفها أحد من علماء الاسلام ، إلا أن المستشرقين ، لم يغفلوا هذا الشخص فذكروه فى كتبهم . ومن هؤلاء ، الأستاذ فران الذى ذكر فى كتابه « علاقات الاسفار » ، عن حياة الجلبى ما يأتى :

قال رينان : أن المركب الذى بعثه السلطان سليمان العثمانى فى سنة ١٥٥٣م إلى برتغال سد طريقه ، عاصف هائل ، حتى حول مسيره إلى ساحل الهند وكان ربان السفينة هو سيدى على الجلبى . وكان قبل ذلك معروفا بأنه شاعر وأديب . وقد قيل أنه زار جميع المدن الشهيرة فى الشرق ، واجتمع برجال العلم والفضل ، وقرأ الكتب العربية والفارسية والتركية التى تتعلق بفن الملاحة ، فجال استنبول وشمال الهند ، وبدخشان ، وماوراء النهر ، وخوارزم وإيران . أنه كان كاتبا بليغا باللغة التركية . ألف كتابا يتعلق بمهمته وسماه « مرآة الممالك » له ترجمة ألمانية وأخرى فرنسية . ولسيدى على الجلبى كتاب آخر ، وهو أكثر أهمية من الأول ، لأنه فى موضوع الملاحة فى الأبحر الشرقية « مسمى » بالمحيط » . لقد عثر على نسخة من هذا الكتاب فى أحمد آباد بكجرات فى سنة ١٩٦٢ — ١٥٥٤ م . وبالنظر إلى أهمية

ماجاء فى هذا الكتاب ، كتب الأستاذ همر (Hommer) عنه مقالات عديدة ونشرها فى مجلة الجمعية الآسيوية ببنغال (Bengal) فى الجزء الثالث (١٨٢٤م) والجزء الخامس (١٨٣٦م) والجزء السابع (١٨٣٧م) والجزء الثامن (١٨٣٨م)

وبناء على ما ورد فى علاقات الأسفار للأستاذ فران ، أن الجلبى قد بين الطريق من سنغافوره إلى الصين بما يلى — من سنغافوره إلى بناغة (Benught) ومنها إلى صورا ، عند خليج كول ، ثم إلى شهرنو ، ثم إلى كنبوسا ، ثم إلى شنبا ، ثم إلى خليج كيوجة ، أى توكين . ويمكن الذهاب من شنبا إلى آنام (Annam) ومن آنام إلى أبواب الصين ، ومنها إلى الجنوب الشرقى . حيث يوجد هناك دار الصينى وراوند ، وأحسن الأصناف من الفخار . يقال له « بايه تحت جين » ، وهذا يوجد فى شهرنو ، وفغفور ، وأغلى البضائع يقال له « بايه تحت فغفورى » [1]

الأصفهانى ، والهمذانى :

من العلماء الايرانيين الذين عرضوا فى مؤلفاتهم لذكر الصين ، الأصفهانى والهمذانى ، وكان ميرزا صادق الأصفهانى المتوفى سنة ١٦٨٠ م ، هو ابن محمد صالح الزبيدى الآزادانى من أهل آزادان ، ضاحية من ضواحى أصفهان وقد ذكر فى كتابه « تحقيق الاعراب » جزيرة (آجين) وقال آجين يساوى ما يسمونه (ماجين) وهى جزيرة معروفة بالصين ، وتكلم عن الخطا أيضا . وقال : إن الخطا يكتبها العرب بالطاء ، والايرانيون بالتاء ، أى الختا . وهى بقاع واسعة بالشرق وعاصمتها خانبالق ، ثم قال : آخر البلدان للخطأ ، سقاول بما وراء النهر وذكر شهرنو كما جاء فى كتاب الجلبى ، ثم تكلم عن ماجين وقال أنها بلاد ممتدة إلى حدود الصين ويسمونها ماجين ، على اسم ماجين بن يافث بن نوح (والله أعلم) وعاصمة الماجين يقال لها « تنكتاش » وروى عن جامع رشيدى أن اسم ماجين مقلوب من (مهاجين) وفى اللغة السنسكريتية (مها) معناه « كبير » ، إذن فهى

---

(1) Ferrand : P. 501

(ماجين) الصين الكبرى ، وإن شئتم فقولوا « صينية الصين » كما ورد فى الادريسى وهى عين « حين كلان » فى ابن بطوطة .

وأما الهمذانى فهو أبو الخير مؤلف تاريخ المغول المعروف بتاريخ الغازانى باللغة العربية ولا أعرف — هل طبع هذا الكتاب لأول مرة ، أولا ؟ . لكن على كل حال ، لم تقع عينى على نسخة مطبوعة ، والنسخة التى رأيتها فى دار الكتب المصرية ، هى نسخة فوتوغرافية ، عن نسخة أصلية بآستانة ، يتخللها بياض فى بعض أوراقها ، وهى نسخة ناقصة ، فـلا تجد فيها أحوال غازان خان وعلاقته بالخوانين بالصين .

ومن خصوصيات هذا الكتاب ، أنه يوجد فيه ذكر أنساب التتار وأحوالهم من قديم العهد إلى زمن غازان خان وأحوال أويغور ، أول من أسلم من أمراء التتار ، وأما المغول فما هم إلا شعب من شعوب التتار فى نظر جميع المؤرخين ، فلذلك تجد الحديث عن هؤلاء إجمالا أو تفصيلا فى الكتب الفارسية ، مثلا فى طبقات الناصرى لعمر سراج ، وجامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله ، وتاريخ الوصاف وأوىماق مغول لآغان جان محمد خان ، ويتكلم آخر الحديث كثيرا عن التتار والمغول فى الصين وفى أواسط آسيا ، وقد راجعته ، حينما كتبت عن انتشار الاسلام فى تركستان الصينية فى كتابى « الاسلام وتركستان الصينية » .

القلقشندى — من علماء الاسلام البارزين الذين تكلموا عن الصين ، القلقشندى وأن هذا العالم الجليل معروف فى العالم الاسلامى ، وكتابه « صبح الأعشى » كفيل بتخليده إلى ما شاء الله . وأنه ذكر فى الجزء الرابع من هذا الكتاب ، شيئا غير قليل عن مملكة الصين وترتيبها فى عهد المغول وحالة المسلمين فيها ، وعقائد جنكيز خان وأتباعه وعاداتهم واحترامهم رجال الدين . وأما مأخذ معـلوماته فمن العلماء الذين سافروا إلى بلاد الصين ، مثل تاج الدين السمرقندى ، أو من المؤلفين الفارسيين المعتبرين ، مثل علاء الدين بن عطاء الملك الجوينى .

قال فى ترتيب مملكة الصين وهو يروى عن الشريف تاج الدين السمرقندى أن لهذا القان (الخان الأعظم) أميرين كبيرين ، هما من الوزراء ، يسمى كل من

ويكن فى هذه الرتبة «جنكهان» 中相 ودونهما أميران آخران يسمى كل منهما «بنجار» 平章 ودونهما أميران آخران يسمى كل منهما «يرجين». ثم قال: وله كاتب هو رأس كتابه يسمى «لنجون» 中丞 وهو بمنزلة كاتم السر فى بلادنا.

ثم ذكر عن الشريف أبى الحسن الكربلائى، وكان ممن اجتمع بالقان فى بلاد الصين، أن له أربعة وزراء، يصدرون الأمر فى مملكته كلها ولا يراجع القان إلا فى القليل النادر. قال فى مسالك الأبصار: ذكر لى الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطيارى البوسعيدى، أنهم (المغول) على ما هم عليه من الجاهلية، على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكتهم ومن يرد اليها، ثم تكلم عن لسان الشريف تاج الدين السمرقندى. ومن عجائب مارأيت فى مملكة هذا القان أنه مع كفره فى رعاياه من المسلمين أمم كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ومتى قتل أحد من الكفار مسلما قتل القاتل الكافر هو وأهل بيته ونهبت أموالهم. وإن قتل مسلم كافرا، لا يقتل به، بل يطالب بديته. ودية الكافر عندهم، حمار لا غير[1].

الشيخ بيرم التونسى:

لم أعثر على كتاب لعلماء الاسلام من أهل القرن الثامن عشر للميلاد، يوجد فيه شىء عن أحوال الصين أو أحوال الاسلام فيها. ولعل السبب فى ذلك أن العلماء فى هذا القرن، أقل اهتماما بشئون المسلمين فى البلاد القريبة والبعيدة بالنسبة إلى العلماء الذين فى القرون السالفة. ثم أن القرن التاسع عشر ليخلو أيضا من العلماء الذين يهتمون بشئون المسلمين فى الصين، وقد هدتنى دائرة المعارف للبستانى إلى معرفة كتاب الشيخ محمد بيرم التونسى المولود فى سنة ١٨٤٠ م بمدينة تونس، المتوفى بمدينة حلوان سنة ١٨٨٩ م. ولقد أشار البستانى فى مادة الصين، إلى كتاب «مستودع الأمصار» للشيخ المذكور قائلا — أن فيه مقالا مبسوطا — عن العرب والاسلام فى الصين وأصل هذا الكتاب ليس «مستودع الأمصار»،

---

(١) . . صبح الأعشى ج ٤ — ص ٤٨٦.

كما هو المذكور فى دائرة المعارف للبستانى ، بل صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، وقد طبع مرتين ، بالقاهرة ، فى أربعة مجلدات كبيرة ، وفى الجزء الأول منها ، فصل تكلم فيه عن الاسلام فى الصين .

وكلام الشيخ التونسى ، فى هذا الموضوع ، ليس مثل ما قاله غيره من العلماء من قبل أنك لا تجد فى كتابه حديثا عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخرى ، أو أحوال التجارة وأسماء البضائع التى كانت تصدر من الصين أو تستورد من الخارج . وإنما تجد فيه نوعا آخر من البيان — عن دخول الاسلام فى الصين ، ومذاهب المسلمين فيها . وهو أول عربى أتى فى كتابه بأخبار عن ثورة يعقوب بك فى تركستان الصينية ، وثورة محمد سليمان (توون ششوى 杜文秀) فى يوننان . وهو أيضا أول عالم إسلامى ، ذكر اسم (هوى هوى 回回) أى المسلم باللغة الصينية (وخواى خواى تانغ 回回堂) ، أى معبد المسلمين و (لاوجوفو محرفة عن (لاوشيفو 老師夫) أى المعلم و (ايطاسوا) لم أستطع تمييز هذه الكلمة والرجوع بها إلى أصلها ـ و (لى باى سى 禮拜寺) أى المسجد و (تسين جسن جو) أى الدين الطاهر الخالص .

من هذه الكلمات نعرف أن للشيخ بيرم التونسى علما واسعا بأحوال العالم الاسلامى فى زمانه . ويظهر أنه قد نقل أشياء كثيرة عن مؤلفات الأوربيين فلذا نجده يتكلم عن (هوى هوى) و (خواى خواى تانغ) و (لاوشيفو) و (ليباى سى) . ولم يتكلم عنها إلا الأوربيون الارساليون الذين فى الصين أوسافروا إلى الصين ، ومن هنا نعرف أيضا أن كاتب الشرق الأمير شكيب أرسلان ليس أول من كتب من علماء العرب عن الاسلام فى الصين ، كما ادعاه هو فى عدد من أعداد جريدة (الفتح) الأسبوعية (القاهرة) لأن هذا الشيخ قد سبقه بالتكلم عنه ، على الأقل بخمسة عشر عاما ، وأن كلامه فى هذا الموضوع ، أوجز من كلام الأمير

الأمير شكيب أرسلان :

لا يخفى على القراء أن الأمير المذكور ، من العلماء الأجلاء الذين أنجبهم القرن

الحاضر للعروبة والاسلام . فانه مؤرخ عظيم ، وأديب كبير ، وشاعر بليغ ، وفوق كل هذا عامل ليس لبلاد العرب فقط ، بل للعالم الاسلامى . وهو رجل صادق الايمان ، قوى العاطفة ، فعطفه على البلاد النائية ، كعطفه على البلاد العربية . لكن مما يؤسف له ، أن هذا الخادم للاسلام ليس له حق الاقامة بوطنه ، وهى بلاد الشام ، ولم يستطع الحصول على حق الاقامة فى البلاد الاسلامية الأخرى . فاضطر إلى اتخاذ عاصمة سويسرا ملجأ ، حيث يعيش غريبا ويقتل أوقاته مع الغرباء .

ولهذا العالم الجليل تآليف كثيرة فى موضوعات شتى ، منها التعليقات على حاضر العالم الاسلامى للاستاذ ليتوروب ستودارد . وما علق على الصين يشتمل على معلومات هامة مدهشة لم يستطع غيره أن يأتى بها . وقد نشر هذه التعليقات فى صورة مقالات مستقلة فى مجلة « المقتطف » قبل عشرات من السنين . ثم جمعها وزاد فيها معلومات جديدة مفيدة . فألحقها بكتاب « حاضر العالم الاسلامى » عندما ظهرت ترجمته العربية . نعم أنه أخذ هذه المعلومات عن المصادر الفرنسية ، لكنه لم ينقلها من حيث أنه ناقل ، بل من حيث أنه محقق وناقد . وفيما كتبه عن الاسلام فى الصين تعليقا على حاضر العالم الاسلامى ، غنية عما جاء فى « تقريرات بعثة دولون » (D'ollone) وفى « المحمدية فى الصين » لميسودابرى تيرسان ، وفى « مسلمو يوننان » لميسوكوردية ، من أبحاث وأقوال . فتعليقاته على هذا الكتاب ، كلها من المعلومات الاسلامية المفيدة التى غفل عنها علماء الاسلام والباحثون . وحبذا لو طالع كل مسلم هذه التعليقات واستفاد منها من جهة الحقائق والعلم .

ولقد طبع هذا الكتاب مرة ثانية فى أربعة مجلدات فى سنة ١٣٥٢ هـ — سنة ١٩٣٣ م ، بمطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة وزاد الأمير فى هذه الطبعة بعض المعلومات الجديدة التى لا وجود لها فى الطبعة الأولى .

أتربى أبو العز باشا :

آخر عالم من علماء الاسلام ، أريد أن أكتب كلمة عنه ، هو الاستاذ أتربى أبو العز باشا ، ولد فى أغسطس سنة ١٨٨١ م فى بلدة ميت أبى غالب من مركز شربين

بمديرية الغربية (مصر) ، تعلم أولا فى مدارس مصر الأميرية ثم سافر الى فرنسا وتخرج فى سنة ١٩٠١ م من كلية مونسيلية فى الحقوق . وهو الآن يشغل منصب رئيس محكمة الاستئناف بمصر .

كتب رسالة صغيرة عن الصين ، ساهم فى ترتيبها ، الاستاذ عبد العزيز حمد بك سماها (نبذة عن الصين) . وقد طبعت للمرة الأولى فى سنة ١٣١٨ هـ سنة ١٩٠٠ بمطبعة اللواء بالقاهرة وهذه الرسالة الصغيرة ، لا تجاوز ٧٧ صفحة من القطع الصغير من أفيد الرسالات التى كتبت عن الصين بلغة الضاد والذى يريد أن يعرف شيئا صحيحا عن الصين يجده فى هذه الرسالة الصغيرة ، لحالات الصين الغابرة . وقد وقعت فى ثمانية فصول :

(١) المقدمة (٢) جغرافية الصين (٣) تاريخ الصين
(٤) الاسلام فى الصين (٥) نظام الحكومة (٦) المدنية الصينية
(٧) الديانة واللغة (٨) الاخلاق والعادات

ويظهر أن للأستاذين مطالعة واسعة عن أحوال الصين الماضية ويدا بارعة فى تركيز مواد العناوين وتلخيصها . فأسلوب الكتابة بليغ ، سهل الفهم وهو أغنى كتاب مصغر عن الصين من جميع نواحيها كما رأيت ذلك من عناوين الفصول . فجوهر قابليتهما ظاهر لامع فى ترتيب الفصول واختيار العناوين ، وجمع خصوصيات المباحث فى هذه الرسالة . أنهما لم يتركا شيئا إلا تكلما عنه كلمة أو كلمتين ، مع الافادة التامة

والفصل الذى يهمنى هو فصل الاسلام فى الصين . ومن كلامه عن ابتداء دخول الاسلام فى الصين ، أن رجلا من الصحابة ، يدعى (وهب بن رعشة) ، سافر الى بلاد الصين ، بعد هجرة النبى (ص) الى المدينة . فوصلها بعد جهد جهيد وتعلم لغة الصينيين ، ودرس عاداتهم وأخلاقهم ، ثم أخذ ينشر دينه الحنيف . فقوى شأنه والتف حوله خلق كثير وقد قابل الامبراطور (تانغ تاى جونغ) عام ٦٢٨ م . فلق منه مزيد الرعاية . ثم مات بعد أن عاش طويلا مبجلا محترما . فأقام له الصينيون تذكارا تخليدا لذكره . . . الخ .

ولقد نقل الاستاذ فريد وجدى صاحب دائرة المعارف العربية هذه الأقوال عن الاستاذ أتربى أبى العز الى دائرة المعارف — دائرة العشرين — بدون أى نقد ولا أى تعليق . فجاء عالم كبير من الصين الى القاهرة سنة ١٩٢٣ م (١) ، واطلع على ما نقل الاستاذ فريد وجدى فى كتابه . فاعتقد صحته فنشأ بعض النزاع حول موضوع دخول الاسلام فى الصين بين الكتاب الصينيين المسلمين وغير المسلمين . فمنهم من يقول أن الاسلام قد وصل الى الصين فى زمن رسول الله (ص) واستند فى قوله الى دائرة المعارف لفريد وجدى ، ومنهم من يشكر ذلك بحجة أن الكتب العربية القديمة لم تذكر ذهاب رجل من الصحابة أيام النبى (ص) الى الصين وإلا لنسج حوله أقاصيص كثيرة ، مثل ما نسج حول الذين قد ذهبوا الى بلاد الحبشة والفرس .

فلما هممت بالبحث فى هذه النقطة الدقيقة وتحقيق صدقها أوكذبها ، لم أجد وهيب بن رعشة بين الصحابة ، ولم أعثر حتى الآن عـــلى أية أشارة من المصادر الأخرى الى ذهاب هذا الرجل الى الصين أيام صاحب الرسالة (ص) فعزمت على مراجعة الاستاذ أتربى أبى العز باشا وهو مصدر القول . فقابلته بمنزله بالمعادى بضواحى القاهرة ، الساعة الرابعة بعد الظهر ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٦ م وسألته عن المأخذ لهذه النقطة التاريخية التى يدور حولها النزاع ولا نجد لها حلا معقولا حتى الآن . فأجاب بنسيان المأخذ غير أنه وعدنى بالبحث عنه فى أوقات الفراغ .

ولقد طال الأمد على هذا الوعد فكتبت اليه مرة ثانية فى ١٩/ ٢/ ١٩٣٧ م راجيا أن يفيدنى بالمطلوب . فجاء الجواب بعد بضعة أيام قائلا أنه كتب هذه الرسالة بمناسبة ثورة بوكسرز (Boxers Rising) أى من نحو ٣٧ عاما أو يزيد ولقد اطلع على كتب كثيرة من مؤلفات العرب والأفرنج . عند ترتيبها ولمرور

---

(١) هو الاستاذ الياس وانجن تساى ، مترجم القاموس العصرى — العربى الانكليزى — الى اللغة الصينية.

هذا الزمان الطويل على تأليفه ، لا يستطيع الآن ، أن يذكر بالضبط فى أى كتاب عثر على هذا النبأ العظيم ، أى نبأ ذهاب وهب بن رعشة الى الصين لكنه يتمسك بصحة ما نقله فى هذا العدد .

وليس من المعقول ، أن نؤمن بقول كاتب لا يزال حيا (أطال الله حياته) ولا يقدر على رواية مأخـــذه ، كما لانؤمن بما يخالف القول من أقوال العلماء الغابرين ، ولو وجدنا هذا القول فى كتب القرون الاولى للهجرة لفصل فى النزاع وحسم الخلاف بين هذه لآراء المتناقضة ويا ليت الاستاذ المذكور أشار الى المأخذ الأصلى ، فيستطيع الباحث أن يصل الى القائل الأول بهذا القول ويعرف حقيقته غير أن نسيان الأستاذ الفاضل اضطرنى الى الوقوع فى الشكوك والتردد فى قبول قوله كقول فاصل فى هذه المسألة التاريخية . فلا أزال أتساءل من وهب بن رعشة ، ومن ذكره قبل الاستاذ الفاضل . هل من مجيب .؟

٢ / ٨ / ١٩٤١

معلومات العرب عن الصين

حاولنا فيما سبق الوقوف على سلسلة الاخبار عند كتاب الاسلام عن الصين فجئنا بأكثر من عشرين اسما من الكتاب الأجلاء والعلماء المشهورين، من أهل القرن الثامن للميلاد الى الوقت الحاضر. فمن هؤلاء من جاء بأخبار أصلية تبنى على التجارب والمشاهدات، مثل سليمان التاجر السيرافى وأبو دلف الينبعى، ورشيد الدين فضل الله وابن بطوطة وسيدى الجلبى، ومنهم من جاء بأخبار مبنية على مشاهدات من ناحية، وعلى روايات من ناحية أخرى، كأبى زيد الحسن السيرافى والمسعودى وابن خرداذبه، ومنهم من جاء بأخبار معتمدة على تحقيقات صحيحة مثل ابن الفقيه والادريسى واليعقوبى وياقوت والأمير شكيب أرسلان وأترى أبى العز باشا. ومنهم من نقل الأخبار عن السلف، نقلا محضا وهذه الجماعة الأخيرة ليست مهمة للمراجعة إلا فى مواضع نادرة.

وأما الجماعة الأولى والثانية فكتبهم من أهم المصادر التى نستند اليها فى هذا الفصل والذى يليه من الابحاث وأما الجماعة الثالثة فمؤلفاتهم من المصادر الضرورية التى نرجع اليها فى النقط الخاصة التى لم يذكرها غيرهم من قبل.

ويظهر من مطالعة كتب هؤلاء المؤلفين، أن مشاهداتهم وتحقيقاتهم لم تكن منحصرة فى ناحية من المعلومات عن الصين، بل شاملة نواحى شتى — من جميع الأمور التى قد خطرت ببالهم من جهة المشاهدة أو من جهة الرواية. ولم يجدوا مجالا فى ترك ذكرها فأوردوها فى كتبهم، إفادة لأهل عصورهم والعصور التى بعدهم. وإذا نظرنا نظرة عامة الى مؤلفاتهم، نرى أنهم قد تكلموا فى جغرافية الصين، ومناخها ومدنها وأنهارها، كما أنهم قد تكلموا فى أحوال الصينيين وعاداتهم ثم نجد أنهم قد بحثوا عن حياة الصين الاجتماعية والدينية والاقتصادية والصناعية ثم نجد أنهم قد دونوا ملاحظاتهم على نظام الحكومة وحفظ الأمن فى البلاد

ومعاملة الحكام للاجانب . وفى هذه النقط نورد كلام هؤلاء العلماء الذين سبق ذكرهم . ولا نذكر شيئا عنهم إلا ما نراه يوافق الواقع ويقبله العقل . فلا ينكره عالم محقق فى الأمور التى تتعلق بالصين فى القرون الوسطى . والغرض من هذه النقول ، هو لفت أنظار العلماء الى هذه الكتب العربية والفارسية التى هى من مفاخر الاسلام . لكن علماء الاسلام لم يعتنوا بها فى هذا العصر العلمى ، كما يعتنى بها علماء الغرب . فلعل المتعلمين يجدون فى عملى تشويقا لأذهانهم واستنهاضا لهممهم الى تحقيق العلاقات بين العرب والأمم الشرقية — موضوع قلما يفكر فيه العلماء والباحثون — من المصادر العربية والفارسية التى هى كنوز لا تقدر بقيمة عند المستشرقين لكن المسلمين أنفسهم يغفلون عنها .

والنقط التى أريد أن أقتبسها من هؤلاء العلماء الأجلاء الذين ذكرتهم فى الفصل السابق إثباتا لمعارفهم الواسعة وآرائهم السديدة وتحقيقاتهم الصحيحة عن الصين فى القرون الغابرة إنما هى الصين ، حدودها ، ومدنها وملوكها ، عادات الصينيين فى الملابس والمناكح والأكل والشرب وصناعاتهم ومهارتهم فيها ، وديانة الصين وعبادة أهلها للاصنام ، ونظام الحكومة ودرجات وظائفها ، وتعليم الخط والكتابة ، وطريق نقل الكتب ، وطريق رفع الشكاية الى الملك ، وحالات المعاملة مع الأجانب والمحافظة على أموالهم وحياتهم ؛ وغيرها من الأقوال فى فلوس الصين ودراهم الكاغذ . وبناء على هذا الاجمال . فاليك أولا ، ما قالوا عن بلاد الصين ومدنها .

أول من كتب فى هذا الموضوع من علماء العرب ، هو ابن خرداذبه ، (٨٤٨ م) قال : أن الصين ثلثمائة مدينة عامرة كلها ، منها تسعون مشهورة . وحد الصين من البحر إلى التبت والترك وغربا إلى الهند ، وفى مشارق الصين بلاد وقواق وهى كثيرة الذهب ويأتى أهلها بالثياب الموشاة بالذهب للبيع [1] .

قال سليمان التاجر السيرافى (٨٥١ م) — والصين كلها عمارة ، أهلها أجمل

---

(١) ابن خرداذبه ص ٦٦

من أهل الهند وأشبه بالعرب فى اللباس والدواب ، وهم فى هيئتهم فى مواكبهم شبيهون بالعرب يلبسون الأقبية والمناطق [١] ، وقال فى موضع آخر بلاد الصين أنزه وأحسن ، وأصح وأقل أمراضا وأطيب هواء ، لا يكاد يرى بها أعمى ، ولا أعور ولا من به عاهة ، وأهل الصين فى كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة ، وعطاؤهم كعطاء العرب [٢] .

قال ابن النديم عن راهب من أهل نجران الوارد من بلاد الصين فى سنة ٣٧٧هـ - أن الصين ثلثمائة مدينة كلها عامرة ، وعلى كل خمسين مدينة ، ملك من قبل البغبور [٣] وكان ابن خرداذبه ذكر البغبور أيضا فانه قد قال : لقب ملك الصين بغبور [٤] .

قال القزوينى فى « آثار البلاد وأخبار العباد » الصين بلاد واسعة فى المشرق ، ممتدة من الأقليم الأول إلى الثالث ، عرضها أكثر من طولها ، قالوا نحو ثلثمائة مدينة فى مسافة شهرين وأنها كثيرة الماء ، كثيرة الأشجار ، كثيرة الخيرات ، وافرة الثمرات ، ومن أحسن بلاد الله وأنزهها [٥] .

قال ابن بطوطه . « اقليم الصين » متسع ، كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه فى ذلك إقليم من أقاليم الأرض ويخترقه النهر المعروف (بآب حياة) ، معناه « ماء الحياة » ، ويسمى أيضا نهر الصين كاسم النهر الذى بالهند ومنبعه من جبال بقرب (خانبالق) يمر فى وسط الصين إلى أن ينتهى إلى صينية الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النوافير الكثيرة [٦] .

---

(١) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٥٦
(٢) سلسلة التواريخ ص ٥٨
(٣) الفهرست ص ٤٩١
(٤) ابن خرداذبه ص ١٦
(٥) القزوينى ص ٣٥
(٦) ابن بطوطة ص

قال الادريسى فى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » فى الصين ثلثمائة مدينة كلها عامرة وفيها عدة ملوك لكنهم تحت طاعة (اليغبوع) و (اليغبوع) يقال له ملك الملوك[1].

قال الأصطخرى فى إقليم الأرض — أما مملكة الصين فشرقها وشمالها البحر المحيط، وأما جنوبها فمملكة الاسلام والهند[2]. ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت ومن دان بدين أهل الأوثان منهم[3]. فاذا قطعت من القلزم إلى الصين على خط مستقيم كان مقداره نحو ١٠٠ مرحلة[4].

من هذه الكلمات التى اقتبستها هنا من كتاب العرب، من ابن خرداذبه فى القرن الثامن للميلاد، الى ابن بطوطة فى القرن الثالث عشر، نفهم الصين وحدودها لتلك القرون فهما تاما، غير محتاج إلى إيضاح مزيد أو تعليق مفصل. لأنك تعرف الصين فى قول ابن خرداذبه، إذ قال: « وحد الصين من البحر إلى التبت والترك، وغربا إلى الهند وفى مشارق الصين بلاد وقواق (أى اليابان) وفى قول الأصطخرى، حيث يقول = « شرق مملكة الصين وشمالها البحر المحيط وأما جنوبها فمملكة الاسلام والهند. ومملكة الصين تدخل فيها سائر بلدان الأتراك وبعض التبت. ويظهر من عبارة الأصطخرى أنه بنى نظريته فى موقف الصين على نظرية ابن حوقل.

وابن حوقل هو أول عربى رسم خريطة لصورة الأرض، وجعل مكة فى وسطها وأفرقيا وآسيا متقابلين وجها لوجه ولم يذكر شيئا عن جزائر (فلبائين) وملايا، كما هى معروفة الآن وجعل المحيط الباسفيكى فى شرق الصين

(١) الادريسى ج — ص ١٦٦
(٢) الاصطخرى ص ١١
(٣) الأصطخرى ص ١٠
(٤) الأصطخرى ص ١٢

وشمالها وبلادها الأتراك فى غربها ، وبلاد الهند والاسلام فى جنوبها . فنظرية ابن حوقل تختلف قليلا عن نظريات الجغرافيين فى هذه القرون ، لأنهم جعلوا المحيط فى شرق الصين وروسيا فى شمالها . لكنهم على كل حال لم يخرجوا على الأصول التى بنى عليها ابن حوقل تحقيقاته عن مواقف الأقاليم . فجاء بعد بلاد العرب بلاد الفرس ، ثم السند ثم الهند ، ثم التبت ، ثم الصين وهذا الترتيب تجده أيضا فى ابن حوقل .

وأما ملاحظات سليمان السيرافى عن أهل الصين « بأنهم أجمل من أهل الهند وأشبه بالعرب فى اللباس ، إلى آخر ذلك ، وبلاد الصين أنزه وأحسن ، لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور . فى كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة ، « وأقوال الادريسى فى الصين ، بأن فيها عدة ملوك لكنهم تحت طاعة البغبوع والبغبوع هو ملك الملوك . « وأقوال ابن بطوطة فى الصين ، بأن نهر الصين تكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر ، إلا أن هذا ، أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة « فكلها من الأقوال التى لا نشك فى صحتها . فان ملابس رجال الصين ، حتى اليوم تشابه عباءات العرب فى الارسال والطول ، ومدن الصين لا تزال محصنة كما كانت فى تلك القرون الخالية . وكانت الصين تنقسم إلى تسع ولايات فى كل ولاية منها نائب الملك وفوقهم الامبراطور . فقول الادريسى « فيها عدة ملوك ، لكنهم تحت طاعة البغبوع » يريد به النظام الذى كان بالصين فى وقته . والبغبوع فى الادريسى هو يعبور وكذا فى ابن النديم وابن خرداذبه .

فالنهر الذى ذكره ابن بطوطة ، هو نهر (يانغ تز) أو (يانغ تز كيانغ) .

ومن الملاحظات الدقيقة التى نجدها فى كتاب سليمان السيرافى قوله « لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور » . وقد كنت لا أعير هذه الملاحظة أى اهتمام حتى قدمت إلى مصر فاذا بها عمى وعوران وذووا عاهات لا يحصون كثرة فى القرى والمدن

ولعلماء الاسلام كلام طريف عن مدن الصين والمسافة بين كل مدينة وأخرى ؛ فابن خرداذبه يقول فى القرن الثامن من الميلاد « أن من (لوقين) إلى (خانفو)

وهى المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام فى البحر وعشرين يوما فى البر . وفيها الفواكه على اختلاف أنواعها ، والبقول والحنطة والشعير وقصب السكر . ومن (خانفو) إلى (جانجو) ، مسيرة ثمانية أيام وفيها مثل ما فى ذلك ولكل مرفأ من مرافىء الصين نهر عظيم تدخله السفن ، ويكون فيه المد والجزر[1] .

ويروى ابن النديم عن أبى دلف الينبعى الذى عاش فى الشطر الأول من القرن العاشر الميلاد ، أن اسم مدينة الملك الأعظم فى الصين ، يسمى (حمدان) ومدينة التجار والأموال (خانفو) . وطولها ٤٠ فرسخا ومن مدن الصين (ورصو) و (بانصو) و (أرمائيل) ، منها إلى (بانصو) مسيرة شهرين و (بانصو) تتصل بناحية التبت والترك والتغزغز (يونان) . ومن التبت إلى خراسان على استدارة يكون ٣٠٠٠ فرسخ ، وفى بلاد الصين ، (سيلا) بلاد (كوريا) ، وهى من أطيب المدن وأجلها وأكثرها ذهبا[2] .

لقد ذكر الادريسى كثيرا من مدن الصين التى قد تغيرت أسماؤها ، فلا نعرف مواقعها الجغرافية ولا أسماؤها الأصلية الآن ، لكن ما ذكر من أحوال المدن ينطبق تماما على مدن الصين فى القرون الوسطى .

ومن المدن التى ذكرها الادريسى فى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مدينة (سوسة) وسعدا وطرغما ، وصينية الصين (وذكر ابن بطوطة والمسعودى صينية الصين أيضا) . وأسحدا ، وسرخو ، وباجا ، ويشهبار ، وفاسا ، وحامكو ، وخانفو .

وقال أن مدينة سوسة ، مدينة مشهورة معلومة مذكورة ، كثيرة العمارات جامعة الخيرات ، وأموال أهلها كثيرة ، وتجارتهم مباركة موفورة وقرضهم معترف به فى الآفاق ، ومتصل بكل الامصار ويصنع بها الغضار الصينى الذى لا يعدله شىء من فخار الصين جودة ، (وبها طرز كثيرة مشهورة) ويعمل الحرير الصينى الرفيع القسمة ، المحكم الصنعة الذى لا يقرن به غيره .

---

(١) ابن خرداذبه ص ٦٦

(٢) الفهرست ص ٤٩١

وصينية الصين على شق نهر حمدان الكبير ، ومنها إلى مدينة قابطو ، أربع عشرة مرحلة ، وإلى سقلا ثمانية أيام ، ومدينة سقلا عامرة بالسكان، حسنة المساكن كثيرة التجارات ، موفورة العمارات وإليها مقصد التجار من كل الأقطار المجاورة لها ، المتباعدة عنها بضروب البضائع وأنواع الأمتعة ، ويعمل بها ثياب حرير وغضار.

ومن سقلا إلى صينية الصين ٧، مرحلة وإلى طوغما ، ثمانى مراحل ، وطوغما مدينة كبيرة لاحصن لها ، لكنها عامرة وبها حمل وبضائع ويتجهز منها بأصناف من التجارات ، ومنها إلى صينية الصين ثمانى مراحل وهى فى أقصى الصين ولا تمدلها مدينة فى الكبر وترامى الأطراف ، وكثرة البضائع واجتماع التجار إليها من سائر الأقطار ومن بعض المدن الهندية المجاورة للصين . ومن صينية الصين إلى مدينة سنجو ، ثمانى مراحل وهى مدينة على بطحاء الأرض ممتدة لا ينبت بها شىء إلا الزعفران غرسا ، أو من غير غرس ، ومنها يجهز الزعفران إلى سائر أقطار الصين ، ويباع بها منه ما يعم الكل كثرة وطيبا وقد يعمل بهذه المدينة الحرير والغضار ، ومن مدينة سنجو ، إلى باجه ، مراحل وهى مدينة اليغبوع[1] وبها دار ملكه ، وموضع رجاله ، وخزائن أمواله ، ومصون حربه ، وهذه المدينة على ضفة نهر حمدان ومنه يصعد إلى المدينة من خالقو وخابكو ، وعبرها من راق الصين المشهورة ومن مدينة باجه إلى مدينة شوخو أربع مراحل ، ومدينة شوخو على نهر صغير يقع فى البحر الشرقى ، وبين مدينة شوخو والبحر أربع مراحل ، ومن شوخو إلى مدينة شيهار تسع مراحل ومدينة شيهار بها رئيس من قبل اليغبوع له خيول ورجال وحشم وعبيد ، والملك عظيم وهو يقاتل الترك الداخلين إليه ممن يجاوره منهم[1] .

ويقول فى موضع آخر - وفى (لوقين) وهى أول مرافىء الصين طرف الديباج والحرير ومنها يخرج إلى جميع البلاد التى تتصل بها وتبعد عنها ، وبها أرز وحبوب ونارجيل وقصب . ومن مدينة (لوقين) إلى مدينة (خانفو) مسيرة ، أربعة أيام

---

(١) الادريسى ج ١ ص ٥٧

فى البحر وعشرين يوما فى البر . ومن أعظم مرافىء الصين ، وبها ملك مهاب ، له ملكة سمحة وفيلة ، كثيرة وأجناد وأسلحة ، وأهلها يأكلون الأرز والنارجيل والالبان وقصب السكر والفل . وهى على خور تطلع فيه المراكب مسافة شهرين إلى مدينة باجه .

ومن مدينة الصين الساحلية إلى جزيرة (شامل) أربعة أيام وهى فى آخر البحر الصينى معمورة بالسكان ، وفيها حنطة وأرز وأوزة وقصب السكر وبها سمك كبير العظم لذيذ الطعم ومن جزيرة (شامل) إلى جزيرة (عاشورة) ، أربعة أيام وهى جزيرة قليلة العمارة ، وأرضها أرض موحشة ، كثيرة العقارب والأفاعى [١] وأما مدينة (خامكو) فمدينة جليلة بديعة ، رائجة الأسواق ، حسنة البساتين والرياض كثيرة الفواكه ، ويصنع بها الغضار الصينى وثياب الحرير ، وعلى الجملة فيها ما فى مدينة (خانفو) وهى على خور كبير يحيط بها ويصعد فى هذا الخور إلى عدة من مدن الصين [٢] .

ولعلماء العرب ملاحظات قيمة على ملك الصين وأوصافه وهى طريفة جدا . ننقل هنا بعضا منها . يقول المسعودى فى « مروج الذهب ومعدن الجوهر » أن ملوك الصين ذووا آراء ونحل ، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم ، غير خارجين عن قضية العقل والحق فى نصب القضاة والحكام وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك وزعموا أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فان العدل ميزان الرب وأن من العدل الزيادة فى الاحسان مع الزيادة فى العمل (٣) .

يروى سليمان التاجر السيرافى ، فى كل مدينة شىء ، يدعى « الدرا » (٤) وهو جرس على رأس الملك مربوط بخيط ممدود ، على ظهر الطريق للعامة كافة . وبين

(١) الادريسى ج ١ — ص ٥٧

(٢) الادريسى ج ١ — ص ١٦٦

(٣) المسعودى ص

(٤) « الدرا » كلمة فارسية معناها « جرس » .

الملك وبينه نحو فرسخ . فاذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة ، تحرك الجرس منه ، على رأس الملك ، فيؤذن له بالدخول حتى ينتهى إليه ، ويشرح له ظلامته وجميع البلاد فيها مثل ذلك(١) .

وقد روى سليمان السيرافى قصة تاجر خراسانى بالصين ، وكيف أنصفه الملك ونكل عن ظلمه وهذه القصة تهديك إلى معرفة أوصاف ملك الصين فى ذلك الوقت فانظر ماذا ورد فى سلسلة التواريخ :

كان فى هذا التاجر بخل وشح ، فوقعت مشاجرة بينه وبين خصى الملك بخانفو من أجل أمتعة العاج وغيره ، امتنع عن بيعها حتى ظهر الأمر بينهما وحمل الخصى نفسه على انتزاع خيار الأمتعة التى كانت مع هذا التاجر الخراسانى فذهب التاجر إلى (حمدان) مستخفيا وشكا إلى الملك ظلامته فسأله بوساطة الترجمان عن أمره فلما ثبت الصدق للتاجر بعد التحقيق الطويل ، قبض على الخصى وصادر أمواله وطرده من الوظيفة التى كان بها ، وقال له : كان حقك القتل ، إذ عرضتنى لرجل قد سلك من خراسان وهى على حد مملكتى وصار إلى بلاد العرب ومنها إلى ممالك الهند . ثم إلى بلدى طلبا للفضل ، فأردت أن يعود مجتازا بهذه الممالك ومن فيها . فجعله فى مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها ويقول له الملك : أوليك تدبير الموتى ، إذ عجزت عن تدبير الأحياء (٢) .

وإذا قرأت « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، تجد فيه كلاما طويلا عن أوصاف ملك الصين . أن الادريسى قد أخذ أخباره عن سليمان السيرافى ، لكننا لا نعرف بأية طريقة ، لأن سليمان السيرافى قد عاش فى منتصف القرن التاسع من الميلاد بالعراق والادريسى فى القرن الحادى عشر بصقلية . والظاهر أنه لم يزر بغداد ولا البصرة طوال حياته فليس من المعقول اذن أنه حصل عليه عن هذه النقطة بالعراق ، لكن من الممكن أن بعض التجار قد ذهبوا بنسخة من سلسلة

---

(١) سلسلة التواريخ ص ٤٢

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ ص ١٠٦

التواريخ الذى كتبه سليمان فى سنة ٨٥١ م ، وأضاف إليه أبوزيد الجزء الثانى فى سنة ٨٨٠ م ، إلى صقلية حيث كان الادريسى يشتغل بأعماله العلمية ، لكن من الممكن أيضا أنه حصله بطريق آخر ليس له علاقة بما فى سلسلة التواريخ. بسؤال التجار الواردين من بلاد الصين . لأن تجار المغرب والأندلس كانوا يترددون بين الصين وبلادهم قبل زمن الادريسى على الأقل بقرن ونصف قرن ، كما أشار ابن النديم فى الفهرست ، استنادا إلى أبى دلف الينبعى الذى عاش إلى ٩٤٠ م (١) وقد كثر هذا التردد من تجار الأندلس والمغرب إلى الصين فى العصر الذى عاش فيه الادريسى، حتى تلقب كثير منهم «بالصينيين» بسبب سفرهم إلى الصين وإقامتهم بها (٢)

فلذلك نرى اختلافا فى البيان عن الأمر فى سلسلة التواريخ ونزهة المشتاق اختلافا ليس فى العناصر الجوهرية ، بل فى كيفية تقرب المظلومين إلى الملك وكيفية انصاف الملك لهم . فكلام سليمان كما أوردناه آنفا ، وجيز مجمل . لكن الادريسى يذهب إلى التفاصيل التى ترى فيها صورة تمثل مجلس العدل والانصاف وتولى رياسة هذا المجلس الملك نفسه . وذلك ما تقرؤه فى السطور الآتية :

واليغبوغ يقال له ملك الملوك وهو ملك حسن السيرة وعادل فى رعيته ، رفيع فى همته ، قادر فى سلطانه مصيب فى رأيه ؛ حازم فى اجتهاده ، شهم فى ارادته لطيف فى حكمه ، حليم فى تحكيمه : وهاب فى عطائه ، ناظر فى الأمور القريبة والبعيدة ، بصير بالعواقب تصل أمور عبيده المستضعفين اليه من غير منع ولا توسط . وأن له فى قصره مجلسا قد أتقن بنيانه ، وأحكم سمكه ، وأبدعت محاسنه له فيه كرسى من ذهب يجلس فيه ، ويجمع حوله وزراءه فى كل أسبوع مرة وعلى رأس الملك جرس معلق ، تمتد منه سلسلة ذهب الى خارج القصر ، مهندمة الوضع ومتصل أسفل السلسلة الى أسفل القصر . فاذا جاء المظلوم ، بكتاب مظلمته ، أخذ طرف السلسلة فاجتذ بها . فيتحرك الجرس، فيخرج الوزير يده من الطاق . وتلك علامة يفهم منها المظلوم الاذن بالصعود؛ فيصعد المظلوم الى المجلس على درج خاص

---

(١) الفهرست ص ٤٩

(٢) ياقوت ج ٥ ص ٤٠٨

بصعود المظلومين عليه حتى يقف بين يدى الملك . فيسجد المظلوم ؛ ثم يقف فيمد الملك يده الى المظلوم ويأخذ الكتاب منه وينظر فيه . ثم يرفعه الى وزرائه ويحكم له بما يجب له الحكم به ، بما يقتضيه مذهبه وشرعه من غير تسويف ولا تطويل ولا وساطة وزير ولا حاجب ومع ذلك فانه مجتهد فى دينه مقيم لشريعته ، كثير الصدقة على الضعفاء ودينه عبادة البدود[١] . وبين مذهبه ومذهب الهندى خلاف يسير . وأهل الهند والصين لا ينكرون الخالق بل يثبتونه بحكمته وصنعته الازلية ولا يقولون بالرسل ولا بالكتب ، وفى كل حال لا يفارقون العدل والانصاف[٢] .

أهل الصين وعاداتهم: ننتقل الآن الى الحديث عما قال علماء العرب فى أهل الصين وعاداتهم وننظر هل ما جاء فى كتبهم يوافق الحقيقة أولا يوافق .

قال القزوينى فى آثار البلاد وأخبار العباد : أهل الصين أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الدقيقة ، قصار القدود، عظام الروس، لباسهم الحرير وحليهم عظام الفيل ، ودينهم عبادة الأوثان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات[٣] .

وقال ابن بطوطة : أهل الصين أعظم أحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها . وذلك مشهور من حالهم قد وصفهم الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيها (٤).

وقال المسعودى : أهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم[٥] .

---

(١) والمراد منه عبادة الاصنام ويظهر أن الادريسى أخذ هذه الكلمة من الفارسية (بت) فبدل التاء بالدال وجمعها على (البدود) . وإلا فهى محرفة من كلمة (Buddha) مؤسس الديانة البوذية بالهند .

(٢) الادريسى ج ١ — ١٦٦

(٣) آثار البلاد ص ٣٥

(٤) ابن بطوطة ص

(٥) مروج الذهب ص ١٧٧

وقال ابن الوردى : أهل الصين أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلا ، وأحذقهم فى الصناعات قصار القدود ، عظام الرءوس ، مذاهبهم مختلفة : مجوس ، وأهل أوثان وأهل نيران . وهم حذاق بالنقش والتصوير ، يعمل الصبى منهم ما يعجز أهل الأرض .(١)

ولا يرتاب أحد من المؤرخين فى مهارة الصينيين وحذاقتهم فى بعض الصناعات الخاصة ببلادهم فى القرون الوسطى وسنورد بعض أقوال العرب ، فى هذا الصدد ، عندما نتكلم عن صناعات الصين .

وأما عادات الصين التى لاحظها علماء الاسلام والعرب من سليمان التاجر السيرافى إلى ابن بطوطة ، فجديرة بالذكر هنا . ومن هذه الملاحظات ما يتعلق بالملابس والمآكل والمشارب ومنها ما يتعلق بالزواج ودفن الموتى إلى غير ذلك من العادات الحسنة أو السيئة . قال سليمان السيرافى : لباس أهل الصين الصغار والكبار ، الحرير فى الشتاء والصيف . فأما الملوك ، فالجيد من الحرير . ومن دونهم فعلى قدرهم وإذا كان الشتاء لبس الرجل السراويلين والثلاثة والأربعة وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم ، وإنما قصدهم أن يدفئوا أسافلهم لكثرة الندى وخوفهم منه . فأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك ولا يلبسون العمائم .

ثم تكلم عن أكل الصين قال : وطعامهم الارز . وربما طبخوا معه (الكوشان) . فصبوه على الأرز فأكلوه ، فأما الملوك منهم فيأكلون خبز الحنطة واللحوم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها ولهم من الفواكه ، التفاح والخوخ والاترج والرمان والسفرجل والكمثرى والموز وقصب السكر والبطيخ والتين والعنب والقثاء والخيار والنبق والجوز واللوز والجلوز والفستق والاجاص والمشمش والغبيراء وليس لهم فيها كثير نخل إلا النخلة فى دار أحدهم .

(١) تاريخ ابن الوردى ج ١ - ص ٨٥

ثم تكلم عن شرب الصين وقال : وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز وليس فى بلادهم خمر ولا تحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها، ويعمل من الأرز الخل والنبيذ والناطف وما أشبه ذلك إلى أن قال : وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه فى كل مدينة بمال عظيم . ويقال له (الساخ) و هو أكثر ورقا من الرطبة وأطيب قليلا وفيه مرارة فيغلى الماء ويذر عليه فهو ينفعهم من كل شىء وجميع ما يدخل بيت المال، الجزية ، والمأخوذة من العرب ، والملح وهذا الحشيش [١] .

ولا حاجة بنا إلى التعليق على ما قال سليمان السيرافى فيما يتعلق بلباس الصينيين وأكلهم وشربهم فى القرن الثامن أو التاسع من الميلاد لأن كل من له أدنى معرفة عن تاريخ الصين يعرف أن الصين القديمة كانت هى المملكة الوحيدة التى يصنع فى مدنها الحرير ويصدر منها إلى سائر العالم . وكانت لها علاقة تجارية بالدول الخارجية ، مثل الامبراطورية الرومانية ، وبلاد الفرس والشام ومصر وبلاد الأندلس والعراق وغيرها من الجزائر التى بين خليج فارس وأول مرافىء الصين . فلا عجب إذن أن رجال الصين كبارهم وصغارهم ، كانوا أكثر الناس لبسا للحرير فى عصر سليمان السيرافى فى أيام الصيف والشتاء على حسب قدرتهم وقدرهم . أما الأكل فمن المعلوم أن أمة الصين أمة الأرز غذاء ، لأن الأرز هو أهم حاصلات أرضها ، خصوصا بجنوبى الصين التى زارها هذا التاجر السيرافى ورآها بعينيه .

ومن اللحوم التى يأكلها الصينيون لحم الخنزير ، كما ورد فى سلسلة التواريخ ويؤكد هذا الأمر ، ابن بطوطة بقوله : « كفار الصين يأكلون لحوم الخنازير ويبيعونها فى أسواقهم » . ولا نتنازع فى هذا الكلام ، بل نقول أن كفار الصين يميلون إلى هذا اللحم أكثر من أى لحم آخر . ورغبتهم فيه أشد من أية أمة من الأمم على وجه الأرض .

والخمر المصنوع من العنب ، كما كان معروفا فى بلاد العرب ، فى القرون الوسطى ، لم يكن معروفا عند الصينيين ، إلا فى الأيام الأخيرة . لكن كان عندهم

---

(١) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٤٠ .

نوع من المسكرات يعمل من الارز . لكنه أخف تأثيرا من خمر العنب وهذا العصير من الأرز ، ويقال له « النبيذ » ، كما ورد فى سلسلة التواريخ لسليمان ، غير أنه إذا مكث فى الدن مدة طويلة تخلل .

وسليمان السيرافى أول من عرف من العرب أن عند الصينيين شرابا ، يؤخذ من نوع من الحشائش يقال له (الساخ) . وما كلمة (الساخ إلا محرفة عن أصلها ( ) . فدخلت فى الفارسية والأردية والتركية والروسية وبعض اللغات الأخرى فى صورة (چاه) وفى العربية الحاضرة فى صورة (الشاى) . وطريق صنعها قديما وحديثا هو كما وصفه سليمان وبينه فى كتابه . والحقيقة أن الشاى من أهم مشروبات الصينيين ومن أهم الايرادات لخزانة الحكومة فى القديم والحاضر معا . وفى موضع آخر تجد بعض التفصيلات عن ترويج الشاى فى الممالك الاسلامية

ولسليمان ملاحظات أخرى فى عادات الصينيين قال فى الزواج :

« أهل الصين إذا أرادوا التزويج تهانوا بينهم ثم تهادوا ثم يشهرون التزوج بالصنوج و الطبول وهديتهم من المال على قدر الامكان [1] » . وأضاف أبوزيد ما يأتى — « فأما المناكح ببلاد الصين فهم شعوب وقبائل كشعوب بنى اسرائيل وبطونها يتعارفون ذلك بينهم ولا يزوج احد منهم قريبا ولا ذا نسب فلا تتزوج القبيلة من قبيلتها مثال ذلك أن بنى تميم لاتتزوج فى تميم ، وربيعة لاتتزوج فى ربيعة ، إنما تتزوج ربيعة فى مضر ويدعون أن ذلك أنجب للولد [2] » .

وأما ما جاء فى المسعودى عن الزواج فى الصين ، فغير صحيح ، ذلك أنه يقول أن أهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها إلى أن قال : ولا يتزوج كل فخذ إلا من فخذهم . مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر ، فلا يتزوج فى ربيعة أو من ربيعة فلا يتزوج فى مضر ، أو من كهلان ، فلا يتزوج فى حمير ، أو من حمير

---

(١) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٥٢

(٢) سلسلة التواريخ ج ١ ص ١١٥

فلا يتزوج فى كهلان ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية وأنه أصح للبقاء وأتم للعمر[١] والصحيح هو ما قال أبو زيد فى هذه المسئلة ولا يزال الصينيون محافظين على هذا النظام الاجتماعى. فلا يتزوجون إلا فى قبائل غيرهم. ليس كما قال المسعودى. واعتقد أنه أخطأ فى مأخذه، وقلب ما جاء فى أبى زيد ظهرا لبطن فانعكست القضية.

ومنها ما قال فى بيوت الصين: أن بيوتهم هناك من الخشب ومن قنا مشقق وبسبب هذا يكثر الحريق، ويقول: أهل الصين لا يختتنون، والرجال يغطون رءوسهم بشىء يشبه القلانس[٢].

ومنها ما قال فى العلم والتعليم: قال، والطب بالهند وكذلك الفلسفة. ولأهل الصين أيضا طب وأكثر طبهم الكى ولهم علم بالنجوم وفى كل مدينة كتاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون[٣]. ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقرا فى الحجر ذكر الأدوية والأدواء فلكل داء دواء، فاذا كان الرجل فقيرا أعطى ثمن الدواء من بيت المال.

هذه الملاحظات القيمة التى دونها تاجر من تجار العرب فى القرن الثامن من الميلاد، والتى لا نجد فيها ما يخالف الواقع أو الحقيقة بالنسبة إلى حالة كفار الصين فى تلك القرون، أصبحت الآن أدلة قوية لجميع الباحثين الذين يريدون أن يعرفوا حياة الصين الاجتماعية فى العصور الوسطى. فيرون أن الصين من هذه الناحية لم تتغير كثيرا، لأن بيوتهم ما عدا ما فى (المدن العصرية الحديثة)، أكثرها من الخشب. فيأتى عليها الحريق من حين لآخر. وأما الاختتان فكفار الصين حتى الآن لا يشعرون بضرورته على وجه عام. غير أن بعضا منهم وقد تأثروا بعلم الصحة الغربية، فبدءوا فى إجراء هذه العادة الحسنة بين أطفال المدارس لأنهم وجدوها خير طريق لاتقاء بعض الأمراض التناسلية.

وأما الحجاب فلا تعرفه نساء الصين، وما نراه الآن فى أحياء المسلمين فى

(١) مروج الذهب (٢) سلسلة التواريخ ج ١ — ص ٢٤

(٣) سلسلة التواريخ ج ١ ص ٥٧

ولايات شمال الصين وغربها ، ليس من أيام بعيدة . وتاريخه كما أعتقد ، لا يرجع الى أكثر من مائة سنة وهذا الحجاب يختلف كثيرا عما نراه فى الهند ومصر والحجاز وسنعود الى البحث عنه ، ان قدر لى أن أكتب كتابا فى تاريخ الاسلام فى الصين فى فصل عادات المسلمين وآدابهم .

وما قاله سليمان السيرافى عن العلم والتعليم فى الصين ، لم يكن من المبالغة ، لأن العهد الذى زار سليمان فيه الصين ، كان عهد (تانغ) . وكان عهدا ذهبيا فى تاريخ الصين . فملوكها كانوا أكثر الناس اهتماما بنشر العلم وتعميم التعليم ، كما كانوا أشد الناس اهتماما بترقية الصناعة وتوسيع دائرة التجارة . فلذلك نرى أن الصين فى ذلك الوقت - وكانت أقدم الأمم فى الشرق - أصبحت أقواها وأكثرها حياة ونشاطا فى سبيل التقدم الانسانى . فاهتمت بالعلم . ولا سيما علوم الفلك والنجوم والطب كما فعل ذلك أمراء المغول من سلالات جنكيز خان فيما بعد ذلك .

وكتاب العرب من أهل تلك القرون لم يتركوا ذكر موتى الصينيين أيضا . ولقد أشرت فى مكان سابق إلى ما قال أبو زيد فى هذا الصدد . وذكر الموتى يوجد فى الفهرست أيضا . قال ابن النديم فيما رواه عن أبى دلف الينبعى أن أهل الصين ، اذا مات أحد منهم بقى فى منزله فى نقر من الخشب سنة . ثم يدفن فى ضريح بلا لحد ويحزن عليه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات واليوم الذى يحمل فيه الميت الى قبره ، يزين الطريق بأنواع الديباج والحرير بحسب حال الميت وعظم قدره [1] .

ومن عادات الصين قديما : أن يوضع جسم الميت فى صندوق طويل من الخشب ويختم بالشمع ويحكم غطاؤه بالجبس ، حتى لا تخرج منه الرائحة الكريهة . فيبقى فى البيت مدة طويلة تكون فى بعض الأحيان أكثر من سنة ، وكان الحزن عليه من أهله وأولاده ، الى ثلاث سنوات أمرا عاديا . وكان هذا من العادات المحمودة التى يمتدحها أدباء الصين ويروجون لها ، وهذا هو السيرافى يقول أن الأدب الصينى يفيض بهذه العادة من قديم الزمان حتى الثورة الكبرى فى سنة ١٩١١ م . فلما

---

(١) ابن النديم ص ٤٩١

انقلب نظام الحكومة من الامبراطورية الى الجمهورية ، ظهر التغيير فى أذهان الناس نحو هذه العادة الحسنة فأخذت تختفى شيئا فشيئا عن الحياة العامة ، مستورة فى أعماق أوراق التاريخ والروايات .

ننقل الآن إلى نقطة أخرى فيها كلام طويل لعلماء العرب القدماء ، تلك هى ديانة الصين التى كانت سائدة فيها فى عصور هؤلاء الكتاب . ويحسن أن نقتبس شيئا من أقوالهم .

وقد كان أول من تكلم من العرب فى ديانة الصين هو سليمان السيرافى قال : « أهل الصين يعبدون الأصنام ، ويصلون لها ويتضرعون » . ثم قال أصل ديانة الصين من الهند (١) .

وكلامه هذا يشير إلى الديانة البوذية التى أصلها من الهند ودخلت الصين فى القرن الثانى من الميلاد .

كان سليمان كما تعرف تاجرا فلم يقدر على الاتيان بمعتقدات الصينيين على وجه التفصيل . والحق أن ديانتهم لم تكن منحصرة فى البوذية وهى ديانة دخيلة ليست لها علاقة بمعتقدات الصين الأصلية ، بل هم يعتقدون بالسماء والقوات السماوية ، كما أنهم يعتقدون بأرواح الآباء والأجداد . فكانوا يعملون لها تماثيل من الأحجار والأشجار والحديد والذهب والفضة . ولقد بين المسعودى هذه المعتقدات فى كتابه « مروج الذهب ومعدن الجوهر » وفصلها تفصيلا جديرا بنظر القارىء ليفهم ماذا فهم علماء العرب فى القرن التاسع من الميلاد عن معتقدات الصين . وإليك ما قال المسعودى عن اعتقاد الصينيين بالقوات السماوية (٢) .

كان كثير من أهل الصين يعتقدون أن الله جسم وأن الملائكة أجسام ، لها

(١) سلسلة التواريخ ج ١ - ص ٥٧

(٢) أنظر إلى فصل (الصين ودياناتها الأولية) فى كتاب الصين والأديان للأستاذ باركر (E. H. Parker: China and Religions) وقارن بين ما أورده المسعودى وبين محتويات هذا الفصل .

أقدار، وأن الله وملائكته احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى اتخاذ التماثيل والأصنام على صورة البارى وبعضها على صورة الملائكة، مختلفة القدود والأشكال، ومنها على صورة الانسان وعلى خلافها من الصور يعبدونها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور لشبهها عندهم بالبارى وقربها منه. وأقاموا على ذلك برهة من الزمان، حتى نبههم بعض حكمائهم إلى أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة قد يقع خلاف بينهما وبين الله وأن كل ما يحدث فى هذا العالم إنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب على أمر الكواكب تختفى بالنهار وفى بعض أوقات الليل لما يعترض فى الجو من السواتر. أمرهم بعض من كان فيهم من الحكماء أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها. فجعلوا لها أصناما وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة، وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها ويقرب لها نوعا من القرابين خلاف ما للآخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام، تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا مفردا وسموا تلك الهياكل بتلك الكواكب (٢).

وكان الصيئيون يعبدون أرواح آبائهم أيضاً، وقد بدأ ذلك من زمن ملكهم «عرون» على رواية المسعودى. فلما توفى والده جعل جسده فى تمثال من الذهب الأحمر، مرصع بالجواهر، وجعل مجلسه دونه وأقبل يسجد لأبيه. فهلك وجعل ابنه «عرور» فى تمثال من الذهب الأحمر وجعل دون مرتبة جده على حرير من الذهب ورصعه بأنواع الجواهر. وكان يسجد له، يبدأ بالأول ثم بأبيه وأهل مملكته يسجدون له، وأحسن السياسة للرعية، وساواهم فى جميع أمورهم، وشملهم بالعدل والانصاف، فعمت هذه العادة فى الأسرة المالكة جيلا بعد جيل. فكان فى أول الأمر يأمر الخواص من أهل مملكته أن يعظموا تلك التماثيل وأخبرهم أن من رأيه جمع الناس على ديانة يرجعون اليها لجمع الشمل واتحاد العقيدة فانه متى

(١) على هوامش نفح الطيب ج ٣ ١٣٧ ١٢٨

عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ، ودخول الفساد والزلل . فرتب لهم سياسة شرعية وفرائض عقلية وجعلها رباطا ، ورتب لهم قصاصا فى الأنفس والأعضاء ومستحلات مناكح يستباح بها النساء وتصح بها الأنساب وجعلها مراتب . فمنها لوازم موجبة يأثم من تركها ، ومنها نوافل يتنفلون بها وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقربا لمعبودهم . منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود فى أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود فى أوقات من السنين فى شهور محدودة ورسم لهم أعيادا وجعل على الزناة منهم حدا ، وعلى من أراد من نسائهم البغاء ، جزية مفروضة[1] .

ويقول فى موضع آخر — ودينهم مثل دين قريش قبل مجىء الاسلام يعبدون الصور والأصنام ويتوجهون نحوها بالصلوات ، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ويقيم التماثيل من الأصنام مقام القبلة . والجاهل منهم يعبدها ظنا منه أنها تقربه إلى الله زلفى ، وأن منزلتها فى العبادة تنقص عن عبادة البارىء لجلالته وعظمته وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة اليه . وهذا الدين كان بدأ ظهوره فى خواص الهند لمجاورتهم إياهم وهو رأى الهند فى العالم والجاهل على حسب ماذكرنا فى أهل الصين . ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثانوية وأهل الدهر فتغيرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا إلا أنهم ينقادون فى جميع أحكامهم إلى مانصب لهم من الشرائع ، ومن حيث ان ملكهم متصل بملك الطغوغر صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانونية والقول بالنور والظلمة وقد كانوا فى جاهلية وسبيلهم فى الاعتقاد سبيل أنواع الترك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانونية . فزخرف لهم كلاما ، يريهم فيه تضاد مافى هذا العالم من حياة وموت ، وصحة وسقم وضياء وظلام ، وغنى وفقر ، واجتماع وافتراق ، واتصال وانفصال ، وشروق وغروب ووجود وعدم ، وليل ونهار ، وغير ذلك من سائر المتضادات ، وذكر لهم أنواع الآلام التى تعرض لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم مما ليس بناطق من البهائم

(١) على هوامش نفح الطيب جـ ٢ ص ١٦١

وما يعرض للاطفال والبله والمجـانين وأن البـارى جل وعز غنى عن إيلامهم .

ولقد ذكر المسعودى سبعة بيوت بنيت على أسماء الكواكب من المعابد القديمة المشهورة فى العالم وها هى ذى :

الأول هو البيت الحرام بمكة بناه ابراهيم عليه الصلاة والسلام . والثانى معظم على رأس جبل بأصفهان يقال له مارس ، والثالث يقال له « مندوساب » ببلاد الهند ، والرابع «بدبهار» بناه منوشهر بمدينة بلخ على اسم القمر ، والخـامس بيت (غمدان) الذى بصنعاء بناه ضحاك على اسم الزهرة وخربه عثمان بن عفان ، (رض) والسادس (كارشاشاه) بناه كارش الملك بناء عجيبا على اسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية وهو الشمس ، بمدينة فرغانة ، خربه المعتصم بالله ، وأما السابع فهو بأعلى الصين بناه ولد عابور بن بعويل بن يافث بن نوح وأفرده للعلة الأولى إذ كان منشأ هذا الملك ومده وباعث الأمور إليه . وجعله سبعة أبيات فى كل بيت منها سبع كوى يقابل كل كوة صورة من الخمسة والنيرين من أنواع الجواهر المضافة إلى تأثير تلك الكواكب من ياقوت وزمرد على اختلاف ألوان الجواهر ولهم فى هـذا الهيكل سر يتناقلونه فى بلاد الصين مما يزخرف لهم الشيطان [١] . من بيان .

وذكر ابن النديم فى الفهرست : من سنة الصين تعظيم الملوك وعبادتها ، على هذا أكثر العامة ، ولها بيت عظيم فى مدينة « بغران » يكون نحو عشرة آلاف ذراع فى مثله ، مبنى بأنواع الصخر والآجر والذهب والفضة ، وقبل الوصول إلى هذه ، يشاهد القاصد إليها أنواعا من الأصنام والتماثيل والصور والتخيلات التى تبهر عقل من لا يعرف كيف هى وأى شىء موضوعها وقال لابن النديم راهب من أهل نجران أنفذه الجاثليق إلى الصين ومكث هناك ست سنين ولقيه ابن النديم

---

(١) على هوامش نفخ الطيب ج ٢ - ص ١٤٣

بدار الروم وراء البيعة والله يا أبا الفرج ، لو عظم أحدنا من النصارى واليهود والمسلمين الله عز وجل تعظيم هؤلاء لصورة ملكهم ، فضلا عن شخصه نفسه ، لأنزل الله له القطر . فانهم إذا شاهدوها وقع عليهم الأفكل والرعد والجزع حتى ربما فقد الواحد عقله أياما . فقال ابن النديم — ذلك لاستحواذ الشيطان على بلادهم وعلى جملتهم يستغويهم ليضلوا عن سبيل الله قال يوشك أن يكون ذلك [1].

وخلاصة كلام المسعودى وابن النديم فى ديانة الصين ، محصورة فى النقط الآتية :

١ — كان أهل الصين يعتقدون بخالق له جسم ، وبالكواكب السماوية التى تؤثر فى حياة بنى الانسان فى خيرهم وشرهم . فنصبوا لها الهياكل والتماثيل وقربوا لها القرابين ونذروا لها النذور .

٢ — كان أهل الصين يعتقدون بأرواح الآباء وعملوا لهم التماثيل بعد وفاتهم وأقبلوا يعبدونها ظناً منهم أن هذه العبادة تفيدهم فى حياتهم الدنيا .

٣ — دخلت الديانة البوذية الصين من الهند كما دخلت الديانة المانوية من إيران فانتشرتا فيها .

٤ — كان خواص المملكة يعظمون الملك بالسجود فقلدهم العوام فى هذه العادة حتى أصبحت جزءا من معتقداتهم فيما بعد .

بقطع النظر عن الأسماء المفروضة التى وردت فى المسعودى وابن النديم ، مثل « عرون » و « عبرور » و « بغران » ، نوافق على بيانهما فى نشأة هذه المعتقدات وانتشارها فى الصين وأننا لنجد اليوم أن بعضها لا يزال باقيا على حالته الأولى ، فمثلا الاعتقاد بتأثيرات الأجسام السماوية فى حياة الانسان وبأرواح الآباء ونصب التماثيل لها وإنشاء الهياكل . والمراد من الآباء فى عرف الصين السلف الصالح وكفار الصين يبنون الهياكل لأسلافهم الكبار فقط ، بل لزعماء المسلمين أيضا .

---

(١) الفهرست ٤٩٣

ولقد بنوا هيكلا للسيد الأجل عمر شمس الدين بولاية يونّا[١] وهيكل الناخدا بجزيرة هاى نان (Hainan) [٢]. وقرأنا من أيام قريبة فى جريدة إسلامية صينية خبرا أن عضوا من أعضاء لجنة التعمير والتنظيم التابعة للحكومة المركزية، قد اقترح بناء هيكل لقائد مسلم معروف فى تاريخ الصين باسم (جان يو جون Chang Yu-Chun) تذكارا للخدمات الجليلة التى قام بها فى أثناء ثورة الصينيين على المغول فى الشطر الثانى من القرن الرابع عشر للميلاد فرمى فيها سهما مصيبا ناجحا[٣].

والديانة البوذية لا تزال سائدة فى الصين فى صورة شبه رسمية، وأما ديانة المانوية فقد تسربت إلى الصين عند فتح العرب لبلاد الفرس وفرار يزد جرد إلى جانغ آن كما بينا من قبل لكن ليس لهذه الديانة وجود فى الصين الآن كما أن انتشارها فى الصين لم يكن نافذا بالغا فى القرن السابع من الميلاد. وأما عبادة الملوك والسجود لهم فظلت باقية إلى آخر عهد (مانشو). فقضى الانقلاب السياسى فى سنة ١٩١١ م على هذه العادة الخبيثة من أصلها.

وعند العرب معلومات وافرة عن صناعات الصين المختلفة مثل الحرير والتصوير والفخار وغيرها ونورد هنا بعض ما قالوا فى هذا الصدد.

قال القزوينى وهو من معاصرى ابن بطوطة: لأهل الصين يد باسطة فى الصناعات الدقيقة ولا يستحسنون شيأ من الصناعات غير صناعتهم. وأى شىء رأوا أخذوا عليه عيبا ويقولون: أهل الدنيا ما عدانا عمى إلا أهل بابل، فأنهم عور وبالغوا فى تدقيق صنعة القرش حتى أنهم يصورون الانسان الضاحك الباكى ويفصلون بين ضحك السرور والخجل والشماتة[٤].

من هذه الكلمات نفهم أن الصينيين كانوا يفتخرون بما لديهم من الصناعات

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ٢ - ص ٢٣٣.

(2) Chao Ju-Kua : P. 188

(3) Tuh Chuh Magazine, Nanking. Vol. 111. No. 5. p. 54

(٤) آثار البلاد ص ٣٦.

الدقيقة ولا يرون لهم نظراء فى الدنيا، غير أنهم اعترفوا بصناعة أهل بابل فى النقوش والتصوير واعتقدوا أن صناعاتهم أرقى وأبرع من جميع الأمم الأخرى غير أمة الصين . لأنهم يخاطبونهم ، كما جاء فى القزوينى بالعور وغير أهل بابل بالعمى ومعنى ذلك أنهم هم أولوا الأبصار فقط .

لم يكن القزوينى أول من تكلم فى هذا الأمر . لأن المسعودى قد تكلم قبله بقرون ، وله قول شائق فى هذا الموضوع . فاقرأ ما يلى فى كتابه « مروج الذهب ومعدن الجوهر » ، حيث يقول : « أهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده ما غيره يعجز عنه ، فيقصد به باب الملك ينصبه على بابه من وقته إلى سنة . فان لم يخرج أحد فيه عيبا أجاز صانعه وأدخله فى جملة صناعه ، وأن أخرج أحد فيه عيبا أطرحه ولم يجزه » .

كان ملك الصين ، بهذا الطريق ، يجمع أبرع الصناعين وأمهرهم من ناحية ، ويشجع صناعة الفنون الجميلة بالانعام الجزيل من ناحية أخرى ، فترقى هذا الفن وكثر صانعوه حتى نافس بعضهم بعضا فى براعة الفن لدى الملك وكماله . واجتهد كل واحد فى إخراج عيب من مصنوعات الآخر . لقد روى المسعودى وأن رجلا من صناع الصين صور سنبلة سقط عليها عصفور فى ثوب حرير . فلم يشك الناظر فى أنها سنبلة حقيقية سقط عليها عصفور . فبقى الثوب عند باب الملك مدة حتى اجتاز به أحدب فعاب العمل ، فأدخل إلى الملك وأحضر صاحب العمل . فسأل الأحدب عن العيب فقال — : المتعارف عند الناس جميعا أنها، وقد صور هذا المصور السنبلة قائمة لا ميل فيها . وأثبت العصفور فيها منتصبا فأخطأ . فصدق الأحدب ولم يثب صاحبه بشىء ، وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وأعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد بيده [١] .

وأقوال ابن بطوطة الذى زار بلاد الصين فى أوائل القرن الرابع عشر من

---

(١) مروج الذهب ص ١٧٧

الميلاد ، وشاهد يد الصينيين فى هذا الفن ، تؤكد ما ورد فى المسعودى والقزوينى فانه يقول ـ وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى إحكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتداراً عظيما ، ومن عجيب ماشاهدت لهم من ذلك أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ، ثم عدت اليها ، إلا ورأيت فيها صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغذ ، موضوعة فى الأسواق . ولقد دخلت الى مدينة السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين . فلما عدت من القصر عشيا ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الكواغذ وقد ألصقوه بالحائط . فجعل كل منا ينظر الى صاحبه ، لا تخطىء شيئا من شبهه (١) .

وكانت صناعة الحرير فى الصين مشهورة عند العرب قبل ظهور الاسلام ، وعرفوا قيمته بعد اتصالهم بها مباشرة . فأكثر كتاب العرب فى كتبهم من الحديث عن هذه الصناعة . وأقدمهم من أهل القرن التاسع للميلاد . ويظهر من كلام علماء العرب ، أن أمهر العمل فى صناعة الحرير هو رقته وأحسن الحرير أرقه ، وقد كان الأمراء يفاخر بعضهم بعضا فى عمل الثياب من هذا الصنف من الحرير فى أيام الصيف . وهو من أغلى صنف لا يحمل مثله إلى بلاد العرب أيام سليمان السيراف . وما ورد فى الجزء الثانى من « سلسلة التواريخ » ، يهديك إلى إبداع الصينيين فى صناعتها وتفننهم فى رقتها فقد روى أبوزيد عن رجل من وجوه التجار قد صار إلى خصى من خصيان الملك ، انفذه إلى مدينة خانفو ، لتخير ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب . فرأى هذا التاجر على صدر ذلك الخصى خالا يشف من تحت ثياب حريرية كانت عليه . فقدر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها . فلما ألح فى النظر ، قال له الرجل ، عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب . فضحك الخصى . ثم طرح كم قميصه إلى الرجل وقال له : أعدد ما على منها ، فوجدها خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها .

---

(١) ابن بطوطة ص

والذى هذه صفته من الحرير ، خام مقصور الذى يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب [١] .

أما الفخار الصينى فقد وجدت ذكره فى ابن الفقيه وذلك يدل على أن العرب كان لهم علم بهذه الصناعة على الأقل فى القرن التاسع من الميلاد ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجار العرب كانوا يستوردونها إلى بغداد فى زمن العباسين وعندنا شهادات تاريخية فى المحفورات التى أخرجها المنقبون بمدينة « سامرا » ومن هذه المحفورات قطع من الغضار الصينى الذى يرجع تاريخه إلى عصر (تانغ) وسنعود إلى التكلم فى هذه النقطة ، عند ما نتكلم فى العلاقات الصناعية .

فى زمن ابن بطوطة كان الفخار الصينى يحمل إلى بلاد المغرب ، وأما طريق صنعها فلابن بطوطة ملاحظة دقيقة كما تلى :

قال ابن بطوطة : — أن هذه الصناعة تكون بمدينة الزيتون وبصين الكلان ، أو صينية الصين كما جاء فى الادريسى قال : الفخار الصينى يصنع بمدينة الزيتون وبصين الكلان وهو من تراب جبال تتقد فيه النار كالفحم وهذا التراب كالطفل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتى الفيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا . فيشعلون فيه النار ويوقدون النار عليه ثلاثة أيام ، وإذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى وكانوا قبل ذلك يخمرون التراب فالجيد ما خمر شهرا كاملا ولا يزاد على ذلك . والدون ما خمر عشرة أيام وهو هناك بقيمة الفخار ببلادنا . وأرخص ثمنا ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار .

ومن صناعات الصين التى ذكرها كتاب الاسلام ، طريقة نقل الكتب وحفظها . وذلك يوجد فى تاريخ البناكيتى وهو أبو سليمان داود ، ولد بمدينة

---

(١) سلسلة التواريخ ص ٧٥

بنا كيت بما وراء النهر ، كان شاعرا ممتازا فى قصر غازان خان وألف كتابا معروفا باسم تاريخ البنا كيتى فى سنة ٧١٧ ﻫ - سنة ١٣١٧ م .

وقد أشار إلى هذا الكتاب الأستاذ براون ، فى الجزء الثالث من أدبيات ايران وبين فيه طريقة نقل الكتب عند الصينيين فى تلك القرون . ورواية تقول أن البنا كيتى قد نقل قوله فى هذا الصدد من رشيد الدين فضل الله ، وعلى كل حال نعتقد أن ما جاء فى تاريخ البنا كيتى أكثر تفصيلا مما ورد فى جامع التواريخ .

قال البنا كيتى : « من عادات للصينيين أنهم استنسخوا ولا يزالوان يستنسخون الكتب القديمة التى يريدون حفظها ، بطريقة خاصة ليس للتبديل فيها سبيل ، ولا للتغيير فيها طريق ذلك أنهم إذا أرادوا أن ينقلوا كتابا ذا أهمية كبيرة فى نظرهم ، واستبقوه صحيحا سليما من التغير ، أو من الوقوع فى الاغلاط يأتون بأمهر النساخين ويأمرونه أن يستنسخ صفحة صفحة من ذلك الكتاب ، بخط واضح جميل على وجه من لوح خشبي . ثم اجتمع العلماء الكبار ونظروا فيها بكل دقة واهتمام . فصححوها وضبطوها حتى اطمأنوا الى خلوها من الخطأ . ثم وقعوا بأسمائهم على ظهر ذلك اللوح ، شاهدين على صحة الصفحة المنقولة . ثم أمروا الاخصائيين من النقاش أن ينقشوا ذلك اللوح حتى يبرزوا الحروف منه إبرازا تاما . فاذا انتهوا من نقل جميع الصفحات بتلك الطريقة وضعوا الأرقام ، على كل لوح من الألواح المنقوشة ، ثم حفظوها فى الصناديق كما يحفظون نقود الفضة والذهب فى الخزائن . ثم ختموا على أغطية الصناديق بالشمع الأحمر ، ثم سلموها إلى رجل أمين ، منتخب من بينهم ، محافظ على هذه الصناديق فى مكتبته ، ومقعده يكون بطرف الصناديق الذى عليه الختم فاذا جاء أحد يطلب نسخة من الكتاب ، يجب عليه أولا أن يذهب إلى اللجنة ويدفع ما يلزم من الرسوم المقررة من الحكومة . ثم يؤتى الأمر بفك الختم وإخراج الالواح المنقوشة واحدا بعد الآخر . فطبعوا بها على أوراق القرطاس كما يفعلون فى ضرب السكة بالقالب . فلما أتموا طبعتها ، سلموا جميع الأوراق المطبوعة إلى الطالب . فلذا

لا يمكن أن يقع شيء من التغييرات بزيادة حرف أو نقصانه من أية نسخة من الكتب (١) .

وكان عند علماء الإسلام علم ببعض الأدوية الصينية منها « ماميران Mamiran » ولقد ذكر أبو منصور مؤلف « كتاب الابنيات عن حقائق الأدويات » فى القرن العاشر من الميلاد ، خاصية دوائية فى « ماميران » أصلها من الصين وتوجد فى تركستان بهذا الاسم أيضا وهو نوع من العقاقير سماه أطباء العرب « ماميرون » ويقول ابن البيطار الذى تقدم ذكره فى فصل كتاب الاسلام والصين ، على رواية الجافكى ، أن « ماميرون » يستورد من الصين وخاصيته مثل الذى فى كوكوم وهو يوجد فى الأندلس وبلاد البربر واليونان ، ويروى الشيخ داود أن أحسن ما جاء من الصين ، أصفر اللون . ولقد ذكر ابن بطوطة استيراد « ماميرون » من الصين قائلا ، أن لهذه الجذرة خاصية كوركوم . ويقول الحاج محمد فى بيانه عن بلاد الخطا ، أن هناك جذرة ، تنبت بجبال قانصو ، حيث تنبت راوند ، ويسمونها « ماميرون » صينى ، وهو غال جدا ، واستعماله على الأغلب فى علاج الامراض خصوصا فى علاج العيون الملتهبة . فطحنوها مع ماء الورد ومسحوا بها عين المريض فتأتى بنتيجة عجيبة . لقد ذكر علماء الغرب ما قال علماء الاسلام فى خاصية هذه الجذرة ، فأن رو وولف (L. Heart Row wolf) يذكر فى سنة ١٥٨٣ م ، أن الماميرون الصينية التى تعالج بها العيون ، من نوع أصفر ، مثل كوركوم . لاشك أن ماميران ، نوع من العقاقير ، مشهور فى علاج العيون ، يستورد إلى الهند عن طريق سنغافوره فى كمية كبيرة . وكان الصينيون يستعملونها فى علاج أمراض كثيرة وفى تطهير العيون الملتهبة (٢) .

ومنها ورد الصين ـ قد تكلم ابن البيطار عن نوع من الورد أصله من الصين ويسمونه « كسرين » وكل چينى باللغة الفارسية ، هو ترجمة معنى لورد الصين فى

---

(1) E. Browne : Literary History of Persia. Vol. 111. p. 102

(2) Sino-Iranica : p. 547 .

العربية . وله كلام عن « شاه صيني » أيضا . ووصف أنه قرص صغير رقيق أسود اللون مصنوع من لبن نبات ، يفيد في تبريد وجع الرأس الحامي ولسعة ملتهبة في الجلد فيسحق ويوضع على محل الداء . لقد شرح الأستاذ ستانجس (Steignes) في معجم الفارسية ، وأن شاه صيني ، عصير من نبات « جي » من الصين يفيد في علاج وجع الرأس [1] .

ومنها (السوك) . والسوك في العربية ، نوع من العقاقير مركب من عدة عناصر نباتية . وبناء على ما قاله ابن سينا ، فانه في الأصل علاج سري معلوم عند الصينيين فقط باستعمال الاملاج وسماه أهل الصين (Aumlai) . إذن ، فاملاج في ابن سينا ، كلمة محرفة من (أوملائى) ، صينية الأصل .

وللعلماء العرب كلام عن نباتات أخرى في الصين ، قلما يلتفت إليها أهل الصين أنفسهم ، لشذوذها . فمثلا « عنبا » وهو « مانجو » معروف عند المصريين الآن . أصله من الهند ويعتبر في تلك الديار ، ملك الفواكه ، وتجد الحديث عن هذه الفاكهة في رحلة ابن بطوطة ويعتقد الهنود أن المانجو لا توجد في البلاد الأخرى ، غير بلاد الهند والبلاد المجاورة لها مثل بورما وبحرين . ويظهر أن زراعة أشجار المانجو في مصر لم تكن إلا من عهد قريب . ولعلها قد بدأت في عصر محمد على الكبير . لكن هذه الفاكهة كانت توجد في الصين في القرن الثالث عشر من الميلاد . وهجرتها من الهند إلى الصين ، قد وقعت بدون شك قبل هذا الزمان . لأن ابن البيطار ، وهو عالم عربي في النباتات ، ذكر في جامع المفردات ، أن عنبا ، توجد في بلاد الهند والصين . ولا يزال يغرس هناك بجنوب الصين — كانتون ، ويوننان ولوفي مقدار قليل .

لقد تكلم ابن البيطار عن نبات آخر ، صيني الأصل ، وهو « بيش » . ويروى عن ابن سمجون ، أن بعض الأطباء ، يقولون ، أن « بيش » ، ينبت في الصين على حدود الهند ، وله ساق أطول من ذراع ، وأوراقه مثل أوراق الخس الأفرنجي ، أو أوراق

---

(1) Sino-Iranica : p. 552.

الشكوريا (Chacorea) الهندى والناس يأكلونه مثل الخضراوات فى تلك الناحية من الأرض (١) .

ومن المعلوم أن بلاد الصين كثيرة الجبال ، خصوصا على حدودها ، فيصعب المرور بسبب الجبال الشاهقة ، أو الأودية العميقة . لكن عقل الانسان لا يفر من هذه الصعوبات الطبيعية ، ولايعجز عن التغلب عليها . فأوجد الصينيون جسرا معلقا ، على تلك الأودية ، ممتدة بين الجبلين الشاهقين . وهذا النوع من الجسور ، كانوا يعملونها بالحبال المتينة ويربطون عليها شيئا مثل زنبيل كبير ، طويل الشكل يصلح لأخذ الانسان والبهائم فيه . فوضعوا على كل طرف من الزنبيل حبلا ، يتصل إلى عمود الجسر بالجبال . وعينوا الناس بكل طرف من الجسر ليساعدوا العابرين عليه ، وكان ذلك إذا جاء المارون من الجنوب مثلا ، وأرادوا جهة الشمال ، يركبون ذلك الزنبيل عند حد الجسر ، فيجره الناس الذين بالشمال حتى يصلوا سالمين وكذلك يفعلون بالبهائم فى مرور تلك الأودية .

وهذه الحالة لا تزال موجودة فى بعض مقامات ولاية سى جلوان ، ويونتان على حدود التبت والبرما . لكنها لم يذكرها أحد من علماء الغرب ، ولا من علماء الصين ، إلا الدكتور (سون يات سين) إذ تكلم عن حكمة الصينيين فى كتابه (الأصول الثلاثة) ، وقال ذلك فى هذا القرن - القرن العشرين .

لكن العرب قد لاحظوا هذه الطريقة العجيبة فى المرور ببلاد الصين قبل ألف سنة وذكروها فى كتبهم ، ولعل أول من ذكر هـــذا الأمر من العرب ، هو أبو دلف اليونبعى ، فنقل عنه ابن النديم وعما أورده ، فى الفهرست ، ماذا عمل الصينيون فى التغلب على صعوبات الطبيعة فى تلك القرون وهو يقول : بين التبت والصين واد لايدرك غوره ، ولا يعرف قعره ، مهول موحش ، من جانبه الغربى إلى جانبه الشرقى ، نحو خمسمائة ذراع وعليه جسر من عقب عملته حكماء الصين وصناعها وعرضه ذراعان ولا يمكن تجويز الماشية عليه من الدواب وغيرها

---

(1) Ferand: p. 246.

إلا بالشد والجذب ، فانه لا يتهيأ ولا تستقر عليه البهيمة وكذلك أكثر الناس يجعل البهيمة والانسان فى مثل الزنبيل ويسحبه الرجال الذين قد تعودوا العبور عليه (١) .

نكتفى بما أردناه من الكتب العربية ، شهادة على معلومات علماء العرب والاسلام عن الصين فى القرون الوسطى. وسنستأنف البحث عن العلاقة التجارية فى الباب الآتى :

(١) الفهرست ص ٤٩٢ .

الباب الرابع

فى العلاقة التجارية

إن العلاقة التجارية بين الصين والعرب ، قد بدأت قبل الاسلام بعدة قرون وكان ذلك كما أسلفنا ، بطريق البر والبحر معا ، إلا أن طريق البر كان أكثر تنظيما فى ذاك الوقت. وقدكان التجار يحملون بضائعهم بالمراكب إلى الصين أيضا، وذلك قد بيناه من قبل . فلا نرى حاجة إلى إعادة الكلام فيه . ونخصص هذا الباب لبحث العلاقة التجارية بين بلاد الصين والعرب فى زمن الاسلام .

يظهر من الكتب التاريخية والرحلات القديمة ، للكتاب المعتبرين فى الثقة والصحة، مثل ابن خرداذبه، وسليمان السيرافى ، وابن بطوطة ، وغيرهم من العلماء، أن التجارة بين الصين والعرب ، قد أصبحت منظمة فى القرن الثامن من الميلاد . ثم ازدهرت فى التاسع إلى القرن الرابع عشر ، أى بعد انقراض حكومة المغول فى الصين وكان ذلك فى سنة ١٣٦٧ م . ودليلنا على ما قلناه أن كتاب العرب الذين قد كتبوا عن الصين ، عاش أكثرهم فى غضون هذه القرون وأولهم ابن خرداذبه ثم سليمان التاجر السيرافى ومعاصريه كأبى زيد الحسن السيرافى والمسعودى . وبفضل وجود هذه التجارة واستمرارها بين موانى الصين و موانى بلاد العرب ، زاد علم العرب عن الصين من ناحية ، وزاد علم الصينيين عن بلاد العرب من الناحية الأخرى . انظر إلى ما يأتى ، فستجد أن هاتين الامتين كانتا مرتبطتين بصلات وثيقة من الناحية التجارية أيضا .

أما طريق التجارة بين هذين البلدين ، فى زمن الإسلام فهو مثل ما كان فيما قبله . وكان ذلك بالبر والبحر معا إلا أن طريق البحر فى عصور الاسلام ،

صار أكثر استعمالا ، بخلافه قبل الاسلام، فلذا نرى أن أكثر الكتاب كانوا يهتمون بطريق البحر أكثر من طريق البر فجاءوا أوفر بيان عنه فى كتبهم. وأما طريق البر فلا تجد عنه بيانا فى كتب العرب ، إلا ما جاء فى «عجائب البلدان» لأبى دلف الينبعى. وما كتبه الياقوت والقزوينى منقول عنه. وسنعود إلى أبى دلف عند ما نتكلم عن طريق البر إلى الصين.

وهنا نريد أن نلقى نظرة، على طريق البحر ، والمراسى التى بين خليج فارس والصين. لأن معرفة أحوال التجارة ، متوقفة على معرفة هذه الأمور. ومما لا شك فيه ، أن أول موانى العرب فى التجارة البحرية فى زمن الاسلام ، مع الصين، هو مدينة البصرة ، التى أنشأها الخليفة الثانى من الخلفاء الراشدين، وكانت تنافس سيراف فى التجارة والعمران فى القرون الوسطى. لكن الدهر قد أخنى على مدينة سيراف ومحا آثارها من الوجود. غير أن البصرة لا تزال مزدهرة بين المدن العصرية فأصبحت الآن من أهم المراكز التجارية فى العالم.

فالمراكب التجارية التى كانت تنقل البضائع من البصرة ، الى الصين ، تمر بطبيعة الحال ببلاد عمان ومسقط، وجزيرة البحرين وأبلة وهرمز بخليج فارس. وكانت عدن أيضا من أهم المدن التجارية بجنوب العرب ، لأنها قد وقعت موقع مركز التجارة فى البحر الأحمر بين مصر وسواحل خليج فارس. ولقد روى الأستاذ هيرت Hirth، عن كوزمو الهندى، أن تجارة الصين مع المدن، كانت موجودة فى القرن السادس من الميلاد، ومن الأشياء التى ذكرها كوزمو، حرير الصين الذى كان يأتى إلى سيلان أولا ، ثم يحمل إلى عدن. وابن خرداذبه لم يترك عدن أيضا، فانه قال أنها من المرافىء العظام، لازرع بها ولا ضرع، وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين [1]. ويؤيد هذا القول الادريسى، إذ قال : ان مدينة عدن صغيرة، لكنها مشهورة بأنها مرسى لسفن

---

(1) Chào Ju-Kua: pp. 3 - 4.

التجارة التى تبحر منها إلى السند والهند والصين، وتأتى من الصين أنواع من البضائع مثل الحديد والمسك والكاغذ والفخار والكافور والدار الصينى وغيرها من الأشياء الأخرى (١) .

فالمراسى التى كانت المراكب التجارية تقف بها فى طريقها إلى الصين ؛ هى ملابار ، وسيلان ، ومآبد ، ومعبر ، وسماطرة ، وجاوة ، وتونكين . وأما المدن الصينية التى كانت مفتوحة لتجارة العرب وغيرهم من الايرانيين والروم ، فهى كانتون ، وجوان جو ، ويانجو ، وهانغ جو ، ومما لا شك فيه ، أن جزيرة سيلان ، قد وقعت موقعا مركزيا للتجارة بين الصين وخليج فارس فى زمن الاسلام ، كما كان فى زمن قبله . وعندنا أدلة من كلام كوزمو ، الذى عاش فى القرن السادس الميلادى . لقد نقل كلامه الأستاذ ولسن ، مؤلف « خليج فارس » ، وهو يقول : من بين التجار الذين يشتغلون فى مبادلة البضائع بين الصين وخليج فارس فى القرن السادس للميلاد ، العرب والايرانيون والأحباش ، وكان مركز اجتماعهم فى تلك الأيام جزيرة السيلان (٢) .

أما فى زمن الاسلام ، فأقدم مصدر للعلاقة التجارية ، هو ما كتب ابن خرداذبه ، عن طريق البحر من البصرة إلى خانفو (كانتون الآن) . ثم سلسلة التواريخ لسليمان السيرافى ، فالمعلومات التى وجدت فى الكتب الأخرى عن هذه التجارة ، مأخوذة من هذين المصدرين . غير أن ابن بطوطة قد ذكر جانبا من هذه التجارة فى زمانه . لقد أشرت فى فصل « كتاب الاسلام والصين » ، إلى ما نقل المتأخرون من السالفين من البيان عن أحوال الصين واختلاف بعض أقوالهم فى بعض الأمور . وهنا لا نريد أن نكرر ما قلناه سابقا ، بل نرجع رأسا الى ابن خرداذبه وسليمان ، لننظر ماذا قالا فى القرن التاسع الميلادى عن طريق البحر إلى الصين ، حينما كان أهل أوربا لا يشعرون بأهمية التجارة البحرية وتأثيراتها فى العلاقات الدولية .

---

(1) Wilson: The Persian Gulf. p. 57.

(٢) ابن خرداذبه ص ٦١ .

كان طريق البحر إلى الصين كما جاء فى ابن خرداذبه ، عن سرنديب ثم تيمومة (وجاء فى ابن الفقيه قيومة) ، وذكر ابن خرداذبه أن فى تيمومة ، العود الهندى والكافور ومنها إلى قمار مسيرة خمسة أيام ، وبقمار العود القمارى وأرز ومن قمار إلى الصنف على الساحل مسيرة ثلاثة أيام وبها العود الصنفى وهو أفضل من القمارى لأنه يغرق فى الماء لجودته وثقله وبها بقر وجواميس[1] .

ومن الصنف إلى لوقين (تونكين) وهى أول مرافىء الصين مائة فرسخ فى البر والبحر ، وفيها الحجر الصينى والحرير الصينى والغضار الجيد الصينى وبها أرز ومن لوقين إلى خانفو وهى المرفأ الأكبر ، مسيرة أربعة أيام فى البحر ومسيرة عشرين يوما فى البر ، وفيها الفواكه كلها والبقول والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر ، ولكل مرفأ من مرافىء الصين نهر عظيم تدخله السفن يكون فيه المد والجزر[2]

وما كتب ابن خرداذبه ، عما يتعلق بالصين من الناحية التجارية هو عن مجرد علم بخلاف سليمان السيرافى ، فانه سافر إلى الصين مرارا . والجزء الأول من سلسلة التواريخ من مشاهداته التى حصلها فى رحلاته البحرية ومنه نعلم أن السفر البحرى من خليج فارس إلى الهند والصين إذا كان فى الحالة العادية ، كان يضم عددا كبيرا من التجار الذين يترددون بين الهند والعراق ، أو بين الصين والعراق . ومن أقواله المتعلقة بالموانى التى تقف بها السفن وتشحن البضائع أو تفرغ بها ، أن أكثر السفن الصينية تحمل من السيراف وأن المتاع قد يحمل من البصرة وعمان وغيرها اليها فيعبأ بها فى السفن الصينية . وذلك لكثرة الأمواج فى هذا البحر وقلة الماء فى مواضع منه ؛ والمسافة بين البصرة وسيراف فى الماء ١٢٠ فرسخا فاذا عبىء المتاع ، يقلعون إلى مسقط والمسافة اليها نحو ١٢٠ فرسخا وفى شرق هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد ، سيف بنى الصفاق وجزيرة ابن كاوان ، وفيه جبال عمان . وفيها الموضع الذى يسمى الدودور ، وهو

---

(١) ابن خرداذبه ص ٦٨ .

(٢) ابن خرداذبه ص ٤٩

مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه السفن الصينية لكبرها وضخامتها .

ثم إلى صحارى عمان وإلى بلاد الهند وتقصد المراكب إلى كولم ، وإلى كولم ملى تجىء السفن الصينية . ثم الى هركند ، وكلاه بار ، ثم تيومه (جاء فى ابن خرداذبه تيمومة) . ثم كندرنج ، ثم صنف ، ثم صندر فولات ، ثم الى أبواب الصين ، وهى جبال فى البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب فاذا سلم الله من صندرفولات ، خطف المراكب إلى الصين فى شهر ، إلا أن الجبال التى تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام [١] . فاذا جازت السفينة الأبواب ودخلت الخور ، صارت إلى ماء عذب والى المرضع الذى ترسى اليه من بلاد الصين وهو خانفو [٢] .

ومما كتب « يران تشو » فى أوائل القرن التاسع من الميلاد عن سفر (وجرابودهى) من السيلان إلى الصين فى سنة ٧١٧ م ، نفهم أن إيران كانت لها سفن تجارية تتنقل بين موانىء الصين وخليج فارس ، لأن (وجرابودهى) حينما وصل من شمال الهند إلى السيلان ، وجد هناك سفينة ايرانية مشحونة بالبضائع والأمتعة التى منها الأحجار الكريمة فسافر إلى (بالم بانغ (Palembang) مع التجار الايرانيين ، بعد الاقامة بها شهراً . فمن بالم بانغ وصل إلى كانتون فى سنة ٧٢٠ م [٣] .

ويظهر من التاريخ أن بحر الهند كان تحت نفوذ ملاحة إيران قبل الاسلام . فلما ظهر الاسلام فى جزيرة العرب وانتشر إلى الممالك المجاورة فى بضعة عقود من السنين ، وقويت سيطرته فى البر والبحر ، حلت ملاحة العرب محل ملاحة الايرانيين فى خليج فارس ، كما أنها قد حلت محل ملاحة الروم فى البحر الأبيض . إنما القوة التى

---

(١) تجد هذا البيان فى ابن الفقيه الذى نقل عن سليمان كما أشرت إلى ذلك فى صفحة

(٢) سلسلة التواريخ ص ٢٠ — ٢١

(3) Hadi Hasan: History of the Persian Navigation. p. 98.

كانت تنافس قوة العرب فى البحر بالشرق فى الفترة التى بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر من الميلاد ، هى قوة الصين تحت أبناء السماء . نعلم حقا أن نفوذ العرب البحرى فى الشرق كان قويا جدا لا يكاد يساويهم فيه أمة من الامم ، لكن الصينيين ما كانوا متأخرين عن العرب فى الملاحة البحرية ونفوذهم البحرى لم يكن أقل من نفوذ العرب ، خصوصا بسواحل الهند وخليج فارس . وعندنا شهادات من الكتب العربية ، تؤكد ما قلناه فى هذا الصدد . أولا نفهم من كلام سليمان السيرافى أن مراكب الصين إلى خليج فارس فى زمنه ، كانت أكثر من مراكب العرب إلى الصين ، لأنه ذكر مراكب الصين بسيراف ولم يذكر مراكب العرب بكانتون أو بجاوة . ومع هذا ، لا نشك فى أن السيرافيين كانت لهم سفن من عندهم تتنقل بين سواحل الهند والعراق من جهة وبين خليج فارس والبحر الأحمر من جهة أخرى وقد لاحظ أبو زيد السيرافى ، سفر السفن السيرافية إلى البحر الأحمر وإن كانت لم تذهب بعيدة عن جدة [1] .

فأقوى الأدلة التى تدل على نفوذ الصين البحرى بخليج فارس فى القرن التاسع من الميلاد ، هو وجود فلوس الصين بسيراف . ولقد ذكر أبو زيد الحسن السيرافى فى الجزء الثانى من سلسلة التواريخ ، أن هذه الفلوس مصنوعة من نحاس وأخلاط من غيره ومعجونة به ، والفلس منها فى قدر الدرهم البغلى وفى وسطه ثقب واسع يدخل الخيط فيه ، وقيمة كل ألف فلس منها ، مثقال من ذهب وينظم الخيط منها ألف فلس على رأس كل مائة عقدة . فاذا ابتاع المبتاع ضياعا أو متاعا أو بقلا ، فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن . وهى موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم [2] (رسم الفلس الصينى الذى ذكره سليمان التاجر السيرافى فى سلسلة التواريخ) .

---

(1) Wilson : The persian : Gulf. p. 58.

( ) سلسلة التواريخ ص ٧١ .

وإذا نظرنا إلى ما كتب المسعودى فى مروج الذهب ومعدن الجوهر، نجد أن بعض أقواله يوافق ما قال سليمان السيرافى . فان المسعودى الذى اجتمع مع أبى زيد الحسن بالبصرة فى سنة ٨٨٠ م ، قد حكى عن تاجر سمرقندى خرج من بلاده ، ومعه متاع كثير إلى العراق بطريق البر . فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان وإلى بلاد كلة تنتهى إليها مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين فى ذاك الوقت . فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم . وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك . لأن مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة .

اتفق المسعودى مع سليمان فى أن مراكب الصين كانت تأتى إلى بلاد عمان وسيراف، واختلف معه فى أن «كلة» صارت ميناء للمراكب الواردة من سواحل فارس والبصرة وسيراف فى وقته . ولم يكن لكله مكانة فى التجارة البحرية فى زمن سليمان . وقولهما على كل حال لا يخرج عن الاشارة إلى نفوذ الصين البحرى فى خليج فارس ، سواء كانت مراكبها ترسى على سيراف أو على كلة .

ويظهر من قولهما أن السفر من خليج فارس إلى كانتون فى ذلك الوقت ، كان بمراكب الصين لكثرة ورودها إليه . فظل هذا النفوذ إلى زمن ابن بطوطة . لأنه لما وصل إلى كاليقوط (Calicut) بسواحل ملابار ، وجد أن وقت وصوله غير موسم سفر المراكب الصينية ، فاضطر إلى الانتظار هناك ثلاثة أشهر حتى تسافر مراكب الصين . فى هذا يقول : « أقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر وبحر الصين لا يسافر فيه إلا مراكب الصين [1] » وقوله هذا يكشف لنا عن أن الصينيين كانوا قابضين على زمام الملاحة فى البحر الهندى وإن كان يشاركهم غيرهم فى بعض الأحايين .

فالمراكب الصينية التى كانت تختلف إلى سواحل الهند وخليج فارس ، من أنواع مختلفة ، فالنوع الكبير منها يقال له «جنك» (Junk) ، والمتوسط يقال له

---

(١) ابن بطوطة ج ٢ — ص ١٨٧ (بولاق)

(زو) والصغير منها ، ككم . ويكون فى المركب الكبير منها اثنا عشر قلعا ، فما دونها إلى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران ، منسوجة كالحصر ، لا تحط أبدا ، ويديرونها بحسب دوران الريح وإذا أرسوا تركوها واقفة فى مهب الريح ، ويخدم فى المركب منها ألف رجل منهم ستمائة من البحارة ، ومنهم أربعمائة من المقاتلة يكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفى والثلثى والربعى . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كلان وهى صينية الصين . وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب ، يصلون ما بينهما بأخشاب ضخمة جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسمار منها ثلاثة أذرع ، فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوهما فى البحر وأتموا العمل . وعلى جوانب تلك الخشب ، تكون بجاذيفهم . وهى كبار كالصوارى يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويجذفون وقوفا على أقدامهم ويجعلون للمراكب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت والسنداس ، وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل فى مصريته ، لا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا ، إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحارة يسكنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل فى أحواض من خشب ووكيل المركب كأنه أمير كبير . وإذا نزل إلى البر ، مشت الرماة والحبشان بالحراب والسيوف والطبول والأبواق والأنفار أمامه ، وإذا وصل إلى المنزل الذى يقيم فيه ، ركزوا رماحهم على جانبى بابه ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد ، وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين [١] » .

نفهم مما ورد هنا ، نظام المراكب الصينية التى كانت تتنقل بين كانتون وخليج فارس وحياة البحارة مع عائلاتهم فيها . فلا نحتاج إذن إلى مزيد بحث فى هذا الأمر .

---

(١) ابن بطوطة ج ٢ — ص ١٨٧ و ١٨٨ (بولاق) .

فنتجه فى السطور الآتية إلى المراسى الشهيرة التى كانت ترسى بها المراكب فى سيرها بين موانى العراق والصين .

ومن هذه المراسى، هرمز . ولقد خصص الأستاذ ولسن ، مؤلف «خليج فارس» ، فصلا طويلا لهرمز، وبحث فيه من الناحية التاريخية، ومن ناحية الموقف الجغرافى وإذا أنت أحببت أن تعرف هذه المدينة القديمة ، تستطيع أن ترجع إليه فيما كتب فى هذا الباب . لكن مولانا السيد سليمان الندوى ، أحد مشاهير الهند اليوم ، لا يكون أقل من الأستاذ ولسن فى البحث عن هذه المسألة التاريخية . فانه خصص عدة صفحات فى كتابه (هند وعرب كى تعلقات) بلسان الأردو ، لمرفأ هرمز وما جاء به من البحوث عنها ، كله مستند إلى أمهات الكتب العربية . ولأقتبس بعض الأقوال من السيد الفاضل ، إذ كان كتابه فى متناول يدى فى الوقت الحاضر لكننى أكتفى بما وجدت فى (مطلع السعدين) لعبد الرزاق السمرقندى الذى عاش فى أوائل القرن الخامس عشر الميلاد ومن كلامه نعرف أهمية هذه المدينة من الناحية التجارية والعلاقات الدولية فى القرون الوسطى .

قال عبد الرزاق: لما وصل إلى هرمز فى بعثة دبلوماسية من قبل شاه رخ، صاحب إيران وتوران إلى ملك الصين، « أن هرمز مرفأ عظيم بخليج فارس ليس له نظير على وجه الأرض، ولهذا المرفأ اسم آخر ويسمونه (جروم) ، حيث يجيء التجار من الأقاليم السبع ، من مصر والشام ومن العراقين وبلاد الفرس ، ومن خراسان وما وراء النهر ، من تركستان وبلاد قفجاق وقدوك وجميع الممالك الشرقية ، مثل الصين وما صين (ماجين) وخانبالق ، وهنا أناس يقطنون على شواطىء البحر ويأتون بالمتاجر من الصين وجاوة والبنغال والسيلان ومن بلاد زرباد وديبا مهل (جزيرة مالديب) وملابار والحبشة وزنجبار وبيجانغر وجلبرك وكجرات وكانباى وعدن وجدة وينبع ، والجوالون يأتون هنا من أقطار العالم ويفرغون بدون صعوبة ماجاءوا به من البضائع استبدالا بما هو نظيرها ثمنا أو متاعا[1]

(1) Elliot : 1 V. P. 95.

لقد كثر الحديث فى الكتب العربية عن سواحل ملابار وسرنديب، وأحوالها التجارية معروفة عند طبقات العلماء. ومما لا شك فيه أن هذه البلاد كانت من أهم المراكز التجارية بين الصين والعرب كما عرفنا ذلك من ابن خرداذبه، وسليمان السيرافى والمسعودى وابن بطوطة وغيرهم من الكتاب المشهورين فى التاريخ والأمم ان ملابار، كانت مجتمعا للتجار الصينيين والايرانيين كما أنها كانت مجتمعا للتجار اليمنيين والأحباش، وأما التفاصيل فتجدها فى كتاب السيد سليمان الندوى فى باب التجارة التجـارية بين الهند والعرب. وهذا الكتاب يضم خمسة أبواب فى أكثر من ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير. وخليق بمن يهتم بهذه المسائل، من علماء الاسلام، أن ينقل هذا الكتاب وهو بلسان الاردو، إلى اللغة العربية، فقد حوى من الفوائد ما لا يحصى.

ومن بين المراسى التى ترسى بها المراكب الصينية والعربية، (مآبد) وهى على جنوب الهند، مواجهة جزيرة السيلان. ولقد ذكرها المسعودى والادريسى فى علاقتها بالصين من الناحية السياسية والتجارية. فمن قول المسعودى ما يأتى: «ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة وملوكهم تستعمل الخصيان فى عمالات بلدانهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين. والمآبد مجاورون لمملكة الصين، والرسل تختلف بينهم بالهدايا وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة. وأهل المآبد، ناس عظماء البطش والقوة. وإذا دخل رسل ملك المآبد مملكة الصين وكل ملك الصين بهم ولا يتركهم ينتشرون فى بلادهم خيفة أن يقفـوا على طرقهم وعورات بلادهم، لكبر المآبد فى نفوسهم»[1]

ومن قول الادريسى: «إن أهل المآبد أشبه بأهل الصين من غيرهم». أعنى كل من جاور الصين من الأمم وملوكها عبيد خصيان حسان وخدم بيض وبلادهم

---

(١) مروج الذهب ص ١٠٨

وجزيرتهم تتصل بالصين. وهم يراسلون ملك الصين ويهادونه، وبهذه الجزيرة مراكب الصينيين الجارحة من جزائر الصين واليها تقلع وبها تحط ومنها تخرج الى سائر النواحى[1].

من هذه الكلمات، يتجلى نفوذ الصين فى هذه الجزيرة من نواح كثيرة.

أولا أن صاحب المآبد كان يقلد الصين فى بعض العادات مثل استخدام الخصيان فى العمالات ولم يكن هذا معروفا فى الهند القديم.

وثانيا كان يرسل رسله الى الصين بالهدايا والتحف لتحسين العلاقة السياسية والتجارية. وأخيرا أنها قاعدة التجارة البحرية التى اليها تقلع المراكب الصينية وبها تحط ومنها تخرج الى سائر النواحى كما ترى ذلك فى الادريسى.

هناك مرسى آخر بين الصين والسيلان يقال له (پالم بانغ) بشرق سماطرة ويسميه العرب (جزيرة الرامنى) فى كتبهم من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادى. لكن ما جاء فى كتاب (جوبوكوا) من معلومات عنها، لم يذكر فى كتب العرب. لأنهم لم ينظروا الى هذه الجزيرة إلا على سبيل الاجمال. نعم يتجلى من كلامهم أهمية هذه الجزيرة فى التجارة البحرية والمواصلات البحرية، غير أن أنواع الصادرات والواردات لم تذكر أبدا. وتستطيع أن تقرأ هذا فى (جوفانكى) أو التذكرة عن البلاد الأجنبية، يقول فيه (جوبوكوا) علاوة على حاصلات خاصة لهذا البلد، منها الصدف والكافور والعود والقرنفل والصندل والقاقلى وجميع الأنواع من الأعواد الطيبة هناك، تجد لؤلؤا وماء الورد، والكندر والمر والصبر والحنتيت واصطرك والعاج والمرجان وعيون الهرة والعنبر ومنسوجات القطن الأجنبية. وكل هذه من واردات البلاد التى تحت سيطرة العرب.

أما الأجانب الذين اجتمعوا بهذه الجزيرة لأجل التجارة، فيستبدلون هذه الأمتعة بالذهب والفضة والفخار والغضار وثياب الكمخاب والسندس والاستبرق والسكر والحديد والأرز والراوند والكافور وغيرها من الأشياء.

---

(١) نزهة المشتاق ج٢ - ص ٦١

لجاوة أيضا من المراسى التى ترسى بها مراكب التجارة الصينية ، وهى معروفة عند علماء العرب والاسلام منذ زمان قديم ، وكان لها اتصال بالصين فى الشرق وبالعرب فى الغرب من ناحيتى التجارة والسياسة، وللقزوينى كلام فى هذا الصدد إذ قال : أن الجاوة وهى بلاد على ساحل بحر الصين مما يلى بلاد الهند ففى زماننا لا يصل التجار من أرض الصين إلا إلى هذه البلاد ، والوصول إلى ماسواها من بلاد الصين متعذر لبعد المسافة [١] واختلاف الأديان . فالتجار يجلبون من هذه البلاد العود الجاوى والكافور والسنبل والقرنفل والبسباسة والغضائر الصينية منها يجلب إلى سائر البلاد (٢)

لقد زار هذه الجزيرة ابن بطوطة وذكر بعض حاصلاتها مثل العود والقرنفل والكافور وشجرة اللبان وهى شجرة (لستك) المعروفة الآن . وكانت الصين تستورد هذه الأشياء منها لقربها .

وللمؤلف « التذكرة عن البلاد الأجنبية » ملاحظة خاصة عن هذه الجزيرة ، غفل عنها جميع الكتاب العرب ، وهى أن أهل جاوة كانوا يضربون النقود من سبيكات النحاس والفضة والتنكار وكان الستون من هذه النقود ، تساوى مثقالا من ذهب و ٣٢ منها نصف مثقال منه ، ولقد تكلم الأستاذ هيرت ، مترجم التذكرة عن البلاد الأجنبية ، فى هذه المسألة ، استنادا إلى (تاريخ كراوفولد — History Of Crawfold ص ٢٨١ من الجزء الأول) وقال : من بين الآثار القديمة العجيبة التى اكتشفت بكثرة بجاوة ، أنواع مختلفة من النقود المعمولة من النحاس والتنكار ، لكن نقود الذهب للعصور القديمة ، لم تكتشف حتى الآن ولو مرة واحدة ، وأما نقود الفضة ، فتوجد مرة أو مرتين فقط . ومن رأى الأستاذ هيرت ، أن المسلمين الأولين الذين سيطروا على زمام هذه البلاد ، قد

---

(١) وقول القزوينى هذا غير صحيح لأن مراكب الصين كانت تصل إلى البصرة فى القرن التاسع للميلاد .

(٢) آثار البلاد ص ١٨

علموا أهاليها استعمال الذهب نقدا ، والدليل على هذا ، أن جميع الأنواع من النقود الذهبية ، التي قد اكتشفت في جاوة إلى الآن ، توجد عليها نقوش عربية وأسماء السلاطين المسلمين الذين عملت لأجلهم . ولقد اكتشفت في جاوة سكة نحاسية عليها عدة صور خيالية وعليها حروف عجيبة ، متعذرة القراءة والفهم الآن ، واعتمد علماء الآثار أنها من أقدم العملات في جاوة وهي من عملات الملوك البوذية الذين كانت (ماجيباهيت) عاصمتهم . فلما جاء المسلمون وورثوا أرضهم باذن الله ، عملوا نوعا من النقود من هذا المعدن أصغر مما كان في عهد البوذيين . وفي زمن ابن بطوطة كان عليها الملك الظاهر شافعي المذهب ، وكانت المعاملة في التجارة بقطع قصدير وبالذهب الصيني ، التبر غير المسبوك [١] .

وأما الأرض التي بعد جاوة ، فكلها الصين ، وسنذكر مرافئها ، إن شاء الله تعالى بعد أحوال التجارة بطريق البر عن آسيا الوسطى في زمن الاسلام .

وقد قلنا من قبل أن طريق البر بين الصين والعراق ، كان عن تركستان وماوراء النهر والمدن التي بهذه الطريق ، هي كاشغر وفرغانة وسمرقند وبخارى وخيوا . فمدينة صغد كانت نقطة مركزية في هذه التجارة قبل الاسلام . فلما بلغ الاسلام تلك البقاع القاصية وقامت الدول الصغيرة أمام قوة العرب ، سقطت مكانتها التجارية لأن مدينتي بخارى وسمرقند ، قد نهضتا وانتشرت آثارهما إلى المدن المجاورة فكسحتا عظمتها حتى أصبحت صغد لا مكانة لها أمام هاتين المدينتين الناهضتين .

لا نشك في أن زمام التجارة في آسيا الوسطى في القرون الأولى للهجرة ، كان في أيدي العرب الذين قد فتحوا هذه المدن أو أكثرها ، فاستحكم حكمهم هناك . لكن الخلافة العباسية ، بعد عصر هارون الرشيد والمأمون أخذت تفقد قوتها في تلك الولايات القاصية بآسيا الوسطى ، وكان ضعف نفوذها في أمور خراسان

---

(١) ابن بطوطة ج ٢ — ص ٢٣٧ (بولاق)

وما وراء النهر بسبب نهضة قواد الأتراك من قبائل مختلفة . فأسس الطاهريون وبنو بويه والسامانيون دولهم فى خراسان وبخارى وسمرقند والغزنويون فى أفغانستان ولو لم تطل هذه الأسرات فى الحكم والنفوذ ، لكن ظهورها فى آسيا الوسطى ، أفاد تلك البلاد من بعض النواحى .

ومن المعلوم أن الأدب كان يزدهر فى خراسان تحت بنى بويه ، وفى غزن تحت محمود بن سبكتكين ، وفى بخارى تحت السلاطين السامانيين . وأما التجارة فقد نهضت إلى حد كبير خصوصا فى المملكة السامانية ، حتى رأى كتاب العرب من الضرورة أن يدونوا هذه الحركة فى كتبهم لكى يعرفها الأجيال اللاحقة ومما ذكر فى الكتب العربية عن الحركة التجارية نفهم أن المملكة السامانية كانت مركزا عظيما لتجارة العالم الاسلامى ، إليها ترد البضائع من كل ولاية بعيدة أو قريبة ، ومنها تصدر إلى جميع الجهات من أقطار العالم الاسلامى .

وها هو ذا ما نقل الأستاذ برتولد (Berthold) عن المقدسى فى هذا الصدد . قال : « أن البضائع التى كانت تصدر من مدينة ترميذ ، صابون ، وحلتيت ومن بخارى المنسوجات البديعة والسجاجيد الجميلة والمفروشات الثمينة والمصابيح النحاسية وثياب طبرستان والسروج ومنسوجات أشمونية (مصر) والشحم وجلود الضأن والدهون والعطور . ومن أورمانية المناديل ، ومن دابوسية وودهار ، المنسوجات الودهارية التى تصبغ بصبغة واحدة ويسميها خلفاء بغداد ، أطلس خراسان . ومن رحيم جان ثياب الشتاء من الصوف الأحمر والسجاجيد والجلود والأوانى التنكية والقنب والكبريت . ومن خوارزم ، السيلاب وجلود السمور والقاقوم وفروة الثعالب والفنك وجلود كلاب الماء والأرانب المتلونة وجلود المعز والشموع وقشور القان والنبال والقلانسة المرتفعة الشكل ، المصنوعة من الثروة ، وغروية السمك وأسنانها وزيوت الخروع والعنبر وجلود الخيول المدبوغة والعسل والنسور والسيوف والأسلحة والعود الخالنجى . ومن السلافيا العبيد ومن بلغاريا الضأن والانعام . ويصدر من خوارزم أيضا العنب والزبيب واللوز والسمسم والسجاجيد والبطانية والأطلس والغطاءات والمنسوجات والأقواس الابية التعويج إلا فى أيدى الأبطال والزبدة والخمرات والأسماك والأحذية ومن سمرقند المنسوجات المطرزة بخيوط

الفضة الملونة وأوانى النحاس الكبيرة والجرارات الجيلة والخيام والركاب واللجام والأسار. ومن ديناق الاصواف، ومن بناكيت مصنوعات تركستان، ومن الشاش السروج المصنوعة من جلود الخيل والأوراق والخيام والجلود الواردة من بلاد الأتراك، والمصليات وقلانسة الجلد والفروة والأقواس البديعة والأبرة والقطن للأتراك والمقص. ثم تصدر من سمرقند الأطلس إلى بلاد الترك والمنسوجات الحمراء المعروفة باسم «ممرجل» هناك، وثياب السينيز (ببلاد الفرس) والحرير والمصنوعات الحريرية والبندق وغيرها من أنواع الجوز، ومن فرغانة واسفياب عبيد الترك ومنسوجات بيضاء، والأسلحة والسيوف والنحاس والحديد، ومن تراز جلود المعز ومن شلجى الفضة. وإلى هذه الأمكنة تساق الخيول والحمير من تركستان ومن الخطل أيضا. وأما اللحوم التى ببخارى، أو البطيخ الذى يقال له (الشق) هناك فليس له نظير وكذلك الأقواس بخوارزم والفخار بالشاش والكواغد بسمرقند.[1]

ونظرا إلى كثرة الأمتعة التى عددتها آنفا، نعتقد أن الأصطخرى كان صادقا فيما قال عن ثورة أهل ما وراء النهر وغناهم. ومن كلامه أن أهل ما وراء النهر أغنياء فى كل شىء، غير محتاجين إلى حاصلات بلاد أخرى حتى قال: أما نزاهة ما وراء النهر فانى لم أر ولا بلغنى فى الإسلام، بلد أحسن خارجا من بخارى، لأنك إذا علوت من قلعتها، لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة يتصل خضرتها بلون السماء. فكأن السماء بها مكتبة خضراء مكتوبة على بساط أخضر يلوح القصور فيما بينها كالرأس وأراضى ضياعهم مقوم بالإستواء كأنها المرآة[2]

من شواهد استغناء ما وراء النهر عن غيرها من البلاد، أنها تملك أكثر من عشرة آلاف رباط فى كثير منها إذا نزل النازل، أقيم، علف دابته، وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك[3] ويؤكد القزوينى رفاهية العيش وهناء أهل ما وراء النهر بقوله

---

(1) Turkistan Down to the Mongol Invasion . pp . 235 - 236 .

(٢) أقاليم الأرض ص ٢٦١

(٣) أقاليم الأرض ص ٢٥٨

أنها من أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيرا وليس بها موضع خال عن العمارة من مدن أو قرى أو مزارع أو مراع ، دواؤها من أصح الأدوية ومياهها أعذب المياه وأخفها وبلادها بخارى وسمرقند وجند وخجند وأهلها أهل الخير والصلاح فى الدين والعلم والسماحة فان الناس فى أكثر ما وراء النهر ، كأنهم فى دار واحدة وما ينزل أحد بأحد إلا كأنه نزل بدار نفسه من غريب وبلدى ، وهمة كل امرىء منهم على الجود والسماح فيما ملكت يده من غير سابقة معرفة أو توقع مكافأة [١] ثم كانت هى أقوى الولايات فى عهد نوح بن أسد من ناحية الجيوش والعساكر وذلك قد علمناه مما كتب نوح بن أسد الى عبدالله بن طاهر ، إذ كان المعتصم يهدده قال : بما وراء النهر ثلاث مائة الف قرية ليس من قرية إلا خرج منها فارس وراجل [٢]

أما الصناعة فلا شك أن نهضتها ، بما وراء النهر ، كانت متأثرة بصناعات الصين التى قد حدث عنها ابن الفقيه وقارن بين صناعات خراسان وصناعاتها . وكان العرب الفاتحون قد وجدوا مصنوعات الصين بهذه البلاد وفى أسواقها . ومن الجائز أن استهلاكها قد نقص إلى حد ما ، إذ نهضت الصناعات المحلية فى عصر العباسيين تحت رعاية السامانيين ولقد ترقت هذه الصناعات إلى درجة بالغة حتى تمكن أهل ما وراء النهر من تصدير أشياء كثيرة إلى الصين فيما بعد ، ولقد تكلم الادريسى فى هذا الصدد قائلا : يحمل أهل ما وراء النهر إلى الصين كثيرا مما عندهم من الصناعات والجواشن والأتراس والمقاصع والثياب والمسك ونحو ذلك مما يحتاجون اليه ويتصرفون به [٣] . اثر الصناعة الصينية فى صناعات المسلمين بما وراء النهر كان واضحا جدا ، فبدأ العرب يسمون فعلا ، جميع الأوانى التى تجلى فيها جمال الفن أو كمال الصناعة الصينية مع أنها من مصنوعات ما وراء النهر [٤]

---

(١) آثار البلاد ص ٣٧٤ (٢) اقاليم الارض ص ٢٥٩
(٣) نزهة المشتاق ج ٢ ٢٩٧
(4) Turkistan Down to the Mongol Invasion. p. 256 .

وأما الشيء الذى أحرز أعظم الشهرة من بين صناعات ما وراء النهر ، فى العالم الاسلامى فهو منسوجات الحرير والقطن ، التى كانت تصنع بوادى زرفشان ، ومصنوعات الحديد التى بفرغانة ، خصوصا الأسلحة التى تباع فى بغداد فاشتهرت فى أسواقها . لا نشك فى أن العامل الذى أثر فى ترقية هذه الصناعة المعدنية ، بفرغانة ، هو وجود مناجم الفحم التى توجد بكثرة ببلدة إسفارة . فوجود الفحم هناك سهل الطريق لصناعات الحديد حتى استطاعت فرغانة تصدير كمية كبيرة من الأسلحة إلى الصين شرقا وإلى بغداد غربا .

تأثرت صناعة ما وراء النهر إلى أعظم حد بصناعة الصين من ناحية ، وأما من الناحية الأخرى ففيها تأثير مصر أيضا . وذلك ظهر فى اسم منسوجات الدبيقية (المنسوبة الى دبيق) التى كانت تصنع بنواحى خوارزم ، ومن الثياب الأشمونى كما ذكره المقدسى ، مع أنها لم تكن من مصنوعات أشمون بمصر .

بعد هذه الحاصلات التى تحتاج إلى الكسب على حسب مساعى الناس ، وتتهيأ بقوة الأيدى واجتهاد الأفراد ، هناك فيما وراء النهر أشياء طبيعية ، لا تحتاج إلى الجد فى كسبها ولا الكد فى تحصيلها . فان قدرة الله ، وفطرة الأرض ومزاج الجو ، قد أعدتها لأهل تلك البقاع فى وقتها وعلى طلبهم . ومن هذه الأشياء الطبيعية التى يتمتع بها أهل تركستان وما وراء النهر بلا تعب ولا مشقة ما ينتج من الأشجار وما ينتج من الانعام ، أنظر الى تلك الجبال الخضر الممتدة بين فرغانة وبلاد الأتراك ، تجد فيها من أعناب وجوز وتفاح وسائر الأنواع من الفواكه الأخرى التى لا نعرف أسماءها ، وورود وبنفسج وياسمين وزعفران وغيرها من الرياحين — كل ذلك مباح لا مالك له[1] ثم انظر الى بلاد الاتراك بخلف نهر جيحون تجد أن أهلها من أصحاب الابل والأغنام والخيول والأبقار وعندهم وفرة من السمن واللحوم وكثرة من الزبد والألبان وزيادة عن الحاجة من الفرو والأصواف ، كل هذه نعمة الحياة وأقوات تغذية ، فيأخذون ما يسد حاجاتهم

---

(١) أقاليم الأرض ص ٢٦٣

ثم يبيعون ما زاد عندهم من حاصلات وماشية الى التجار الذين حضروا بلادهم من الصين والهند والعراق والروس .

ففى عهد السامانيين كان الطريق بين حدود الصين وخراسان آمنا وكان السفر بينهما على مرحلة ، والمرحلة كانت تسمى فى تلك الأيام برباط وذلك نعرفه من أبى دلف الينبعى الذى سافر الى سندابل ، فى بعثة دبلوماسية الى ملك الصين ، ثم رجع الى بخارى بأميرة صينية لتزويج ابن نصر أحمد السامانى الذى كان عظيم الشأن ، كبير السلطان ، فيستصغر فى جنبه أهل الطول ، وتخف عنده موازين ذوى القدرة والحول فدون ما رآه فى هذا الطريق فى « غرائب البلدان » ، ونقل عنه القزوينى وياقوت ، وقالا عن لسانه : فأول قبيلة وصلنا اليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الاسلام ، قبيلة فى بلد يعرف بالخركاه فقطعناها فى شهر . ثم خرجنا الى قبيلة تعرف بالطخطاخ ، ومررنا فيها ٢٠ يوما فى أمن ودعة يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ويؤدون الأتاوة الى الخركاه لقربهم الى الاسلام . ثم انتهينا الى قبيلة يقال لها الخرخيز (قرقيز) ولهم بيت عبادة وقلم يكتبون به . ولهم رأى ونظر ولهم كلام موزون يتكلمون به فى أوقات صلاتهم ، وأعلامهم خضر ، ويصلون الى الجنب ويعظمون زحل والزهرة . ثم انتهينا الى موضع يقال له « القليب » ، فيه بوادى عرب ممن تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين ويتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا . ويعبدون الأصنام ولهم أحكام ، وحظر الزنا والفسق وملكهم يهادى ملك الصين ثم انتهينا الى مقام الباب وهو بلد الرمل تكون فيه حجبة الملك وهو ملك الصين . ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم .

فسرنا فيه ثلاثة أيام فى ضيافة الملك ، يغير لنا عند رأس كل فرسخ ركوب . ثم انتهينا الى وادى المقام ، ثم أشرفنا على مدينة سندابل وهى قصبة الصين وبها دار المملكة ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع الى دار الملك وبها بيت عبادة عظيم ، أعظم من بيت المقدس وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبد عظيم .

وعلى طول الطريق وجد أبو دلف الينبعي كثرة البر والشعير والأرز والدخن والبقول الصحراوية والفواكه وأصناف اللحوم من البقر والضأن والمعز وتغذى بها بدون دفع ثمنها. وذلك دليل على رخاء العيش وكرم الرجال وسلامة الحياة هناك.

وبعد السامانيين جاء قوم يقال لهم (قراخطاى) على مسرح تركستان وأصلهم غير معروف عند طبقات المؤرخين. ولقد خصص الاستاذ برتولد فصلا طويلا لتاريخهم، لكنه لم يأت برأى قاطع فيما يتعلق بأصلهم. ففى عهد (قراخطاى)، كانت التجارة بين الصين والممالك الاسلامية برا تجرى فى مجراها الطبيعى إلى أن ظهر الخلاف بينهم وبين خوارزم شاه وكان ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر من الميلاد. فدامت بينهم الحروب المتداولة حتى انتهت بابرام معاهدة صداقة بين خوارزم شاه ورؤساء قراخطائيين فى سنة ١٢٠٩ م. وعلى أثر هذه المعاهدة، سافرت قافلة تجارية من ايران إلى تركستان الشرقية وهى تركستان الصينية بعينها وكان مع هذه القافلة الشيخ السعدى الشيرازى، صاحب كلستان وبوستان فزار كاشغر وتحدث الى أبنائها عن الاسلام ومحاسن هذا الدين الحنيف.

فى أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، كانت التجارة البرية قد كسبت أهمية أعظم من التجارة البحرية لأن التجارة عن طريق البحر كانت مختلة مضطربة بسبب الحوادث التى ظهرت فى خليج فارس. وقد وقع خلاف بين صاحب هرمز وصاحب كيش فسعى كل جانب فى منع تجارة بلده من الخروج من مملكته الى مملكة غيره، فأصحاب السفن التجارية التى وصلت من الهند والصين، وأرسيت على المرسى لهذا أو لذاك، كانوا بطبيعة الحال غير أحرار فى الخروج من المرفأ، فامتنعوا حينا من الدهر من التجارة برا عن طريق هرمز وكيش، فبسبب هذا الاضطراب فى التجارة البحرية، نهضت تجارة البر فكثر الرواد بين غرب الصين والبلاد الاسلامية عن طريق تركستان.

ويظهر من التاريخ أن هذه التجارة قد اصطبغت فى القرن الثالث عشر من

الميلاد بالصبغة الحكومية حين نافس خوارزم شاه ، فى القوة والسلطة ، جنكيز خان الذى ظهر فى منغوليا وفتح نصف بلاد الصين . فبعث محمد خوارزم شاه وفدا برياسة بهاء الدين الرازى إلى الصين ليحقق ما وقع هناك من التطورات والتغيرات ثم سافرت فى أثره قافلة تجارية من مملكة خوارزم شاه ، وتوغلت إلى منغوليا عن طريق شمال (تيان شاه) . وأما التفاصيل عن هذه القافلة ، فمذكورة فى كتاب الجوينى . وكانت بقيادة ثلاثة التجار الكبار وهم أحمد الخجندى وابن أمير الحسن وأحمد البلخى . وكان هؤلاء حملوا معهم المنسوجات المزركشة بخيوط الذهب والقماش الزنجانى . فحضروا قصر جنكيز خان بقراقرم فى مرافقة بهاء الدين الرازى وطلبوا ثمنا أكثر مما يلزم لكن على كل حال ، أمر جنكيز خان بتعويض «بالش» ذهب عن كل قطعتين من المنسوجات المزركشة و «بالش» فضة عن كل قطعتين من القماش الزنجانى وقد لاحظ الجوينى ، أن المغول فى هذا الوقت نظروا إلى المسلمين بعين الاحترام والتعظيم ، فنصبوا لهم خياما بيضاء وأنزلوهم منازل التكرمة والاحترام . فحرمانهم من هذا الاكرام فيما بعد ذلك قد نشأ من الخطايا التى جناها المسلمون على أنفسهم .

كان جنكيز خان فى بادىء الأمر مجاملا المسلمين . فقد بعث رسولا منه وقافلة تجارية إلى غرب آسيا ، ردا لزيارة وفد خوارزم شاه وبناء على ماورد فى النساوى كان محمود الخوارزمى وعلى خواجة البخارى ويوسف كنكا الأفرارى ، على رأس هذا الوفد فحملوا الهدايا الثمينة إلى شاه باسم جنكيزخان ، والتمسوا منه أن يحافظ على الصداقة القديمة التى كانت بينهما لكن الحادثة التى وقعت سنة ١٢١٨ م بمقام أترار ، قطعت حبل هذه الصداقة وحولتها إلى عداوة مستحكمة بين خوارزم شاه والعباسيين كان من أبرز نتائجها سقوط بغداد فيما بعد .

لكن التجارة بطريقة البر بين الصين والبلاد الإسلامية فى عهد المغول الذين تمكنوا من توحيد ممالك آسيا تحت سيطرتهم بعد تخريب بغداد وغيرها ، لم تكن منقطعة ، لأننا نقرأ بعض التفاصيل فى تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله الذى

ذكر فى كتابه غير مرة ، قدوم التجار المسلمين لخانباليق ، بالمرصعات والمزركشات والجواهر للبيع إلى أغنيائها وأمرائها . وكان فى تردد التجار المسلمين إلى عاصمة الصين ، زيادة ملموسة فى إيرادات خزانة الدولة . فلما اشتد قبلاى خان على المسلمين فى عهده ، بسبب نميمة (ماركوبولو) الرحالة البندقى ، الذى أحرز بعض الثقة فى تلك الأيام عند هذا العاهل المغولى فى خانبالق وحرمهم من أكل الذبيح والزواج على طريقة شرعية إسلامية وأكرههم على العمل بقوانين « يساق » ، وهى مجموعة من أحكام جنكيزية ، امتنع التجار المسلمون عن زيارة عاصمة الصين حينا من الدهر فنشأ من ذلك نقص عظيم فى الايرادات ولم يلغ هذا الحكم القاسى إلا بعد شعوره بقلة الايرادات وكساد التجارة إلى حد بالغ [١] .

وأما الطرق المؤدية إلى عاصمة الصين ، فهى تبتدىء كما نقل ذلك ، السير اليوت عن رشيد الدين فضل الله ، من كابول إلى بنجاب ، ثم إلى دهلى ، ثم إلى بنغال . ومنها تدخل الصين عن طريق التبت [٢]

وأما التجارة بعد عهد المغول . فذكرها صاحب « خطاى نامه » باللغة الفارسية كتب فى أواخر القرن الخامس عشر من الميلاد . لقد نقل الأستاذ شيفر وهو عالم فرنسى ، بعض الأبواب لهذا الكتاب القيم الى اللغة الفرنسية وأتم بها بحثه عن علاقات المسلمين بالصين (Les Relations des Musulmans avec Chinois) وروى عن تاجر مسلم قولا . أن هناك ثلاث طرق لدخول الصين طريق عن منغوليا ، وآخر عن ختن وثالث عن كشمير ، فلا شك أن طريق منغوليا هو الذى كان تجار تركستان وما وراء النهر يمرون به وأما الذى عن كشمير أو عن ختن ، فكان للتجار الذين وردوا من بلاد الهند . وأنا متأكد أن هذا الكتاب يحوى بعض البيان عن جميع المتاجر والبضائع التى كانت تباع فى الصين فى القرن الخامس عشر من الميلاد ومن العجيب أن الأسود والفهود كانت أيضا من سلع التجارة

---

(1) H. Howorth : History of the Mongols. P. 245.
(2) Elliot : Vol. 1. P 72.

فى تلك الأيام وكان أسد واحد يساوى ثلاثين ألف قطعة من القماش فى أسواق الصين [١].

أما تجارة العرب فى الصين فعندنا أدلة كثيرة وافرة فيما يتعلق بها من المصدرين العربى والصينى .

فن المصدر العربى نعرف أن من أهم مدن التجارة للعرب فى الصين ، لوقين وخانفو وحمدان وسوسة وصينية الصين وسيلا . ولقد ذكر ابن خرداذبه عن لوقين وهى (تونكين) الآن ، أنها أول مرافىء الصين ، فيها الحجر الصينى والحرير الصينى والغضار الصينى الجيد وبها أرز (٢) . ثم تكلم عن خانفو وهى (كانتون) الآن قائلا : « أنها المرفأ الأكبر فيها الفواكه على اختلاف أنواعها والبقول والحنطة والشعير وقصب السكر » . ولسليمان السيرافى ، كلام عنها أيضا . فانه قال — أنها مرفأ السفن ومجتمع تجارات العرب [٣] . وقال أبو دلف الينبعى مدينة التجار والأموال خانفو ، طولها أربعون فرسخا (٤) . وجاء الأدريسى فأكد ما قال السابقون بقوله — أنها من أعظم مرافىء الصين وبها ملك مهاب ، له مملكة حميدة الخصال وقبيلة كثيرة وأجناد وأسلحة وأهلها يأكلون الأرز والنارجيل والألبان وقصب السكر والفل [٥] . ويظهر أن ابن بطوطة لما ذهب إلى الصين لم يرد هذه المدينة الكبيرة . لأنه لم يذكرها فى رحلته ، لا صراحة ولا إشارة .

ولقد ذكر كثير من كتاب العرب مدينة حمدان ، منهم المسعودى والأدريسى وذكر ابن بطوطة هذه المدينة تحت اسم « الزيتون » ، وهى أول مدن الصين التى

---

(١) تمدن عرب ، ترجمة بلكرامى ص ٥٠٥

(٢) ابن خرداذبه ص ٦٦

(٣) سلسلة التواريخ ص ١٣

(٤) ابن النديم ص ٤٩١

(٥) نزهة المشتاق ج ١ — ص ١٤٩

نزل بها . فالضبط فى ابن بطوطة ، أقرب إلى الصحة . لأن الاسم الأصلى هو (Tche-Tung) وهى مدينة جوان شو الآن . ولقد رأى ابن بطوطة هذه المدينة وقال عنها هى : مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخاب والأطلس وتنسب إليها ، ومرساها أعظم من أعظم مراسى الدنيا أو هو أعظمها . رأيت بها نحـو مائة جنك كبار . وأما الصغار فلا تحصى كثرة .

واجتمع بها كثير من تجار المسلمين والعلماء المشهورين ، وسنذكرهم فى محل آخر .

وأما مدينة سوسة ، فى نزهة المشتاق للادريسى ، فلم أستطع تحقيق إسمها الأصلى فى المراجع الصينية . ويظهر أن المراد بها هو مدينة (سوجو Su-Chow) وذكر أنها مدينة مشهورة معلومة مذكورة ، كثيرة التجارات ، متصلة العمارات ، جامعة الخيرات ، وأموالها كثيرة وتجارتها مباركة موفورة ، وقراضها معترف به فى الآفاق ومتصل بكل الأمصار ويصنع بها الغضار الصينى الذى لا يعدله شىء من فخار الصين جودة وبها طور كثيرة مشهورة ومعمل الحرير الصينى الرفيع التقسيم ، المحكم الصنعة الذى لا يقرن به غيره .

وأما صينية الصين التى وردت فى كتب العرب ، فهى اسم غير صينى وضع لمدينة فى الصين ، ويظهر أنها محرفة عن كلمة فارسية وهى « مهاچين » ، كما جاء فى تحقيق الأعراب لصادق الأصفهانى المتوفى سنة ١٦٨٠ م . و « مها » ، فى السنسكريتية وفى الفارسية القديمة ، معناه « كبير » . فهـ اچين معناه « الصين الكبرى » . وقول ابن بطوطة يؤكد هذه النظرية . فانه قال : أنه سافر إلى مدينة صين كلان ، من الزيتون ، فى ٢٧ يوما . وصين كلان ، هى صين الصين . (أو صينية الصين فى الادريسى) . فكلمة « كلان » معناها كبرى فى العربية بالضبط . وبناء على ما جاء فى « المغرب » لابن سعيد المغربى الذى عاش فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، أن صين الصين ، هى عاصمة بلاد « منزى » ، أى ولاية فوكين الحاضرة [1] .

---

(1) Ferand : P. 352

لقد زار ابن بطوطة هذه المدينة وذكر أنها من أكبر المدن وأحسنها ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن .

ومن المدن التي يوجد ذكرها في الكتب العربية القديمة ، مدينة سيلا ، ويفهم من وصفها أن المراد بها مدينة بكوريا الحاضرة بآخر الصين وكانت مراكب التجارة من العرب ومن إيران تتردد اليها وكانت لها مكانة عظيمة في التجارة البحرية وذلك نفهمه من قول ابن خرداذبه فيما يلي :

والذي يجيء في هذا البحر الشرقي من الصين ، الحرير والفرند ، والكمخاب والمسك والعود والسروج والسمور والغضار والصليبج والدار الصيني والخولنجان ومن وقواق الذهب والآبنوس ومن الهند الأعواد والصندلان والكافور والماء كافور ، والجوزبرة والقرنفل والقاقلة والكبابة والنارجيل والثياب المتخذة من الحشيش والثياب القطنية المخملة والفيلة . ومن سرنديب الياقوت على اختلاف ألوانه وأشباهه والماس والدر والبلور والسنباذج الذي يعالج به الجوهر . ومن كولم ملي الفلفل . ومن كلة الرصاص القلعي ومن ناحية الجنوب البقم والداذي ومن السند القط والقنا والخيزران والذي يجيء من اليمن الوشي وسائر ثيابهم والعنبر والورس والبغال والحمير [١] .

هذا وأما المصدر الصيني الذي يتعلق بتجارة العرب في الصين ، فيرجع تاريخه إلى القرن الثامن من الميلاد ، أي قبل زمن سليمان السيرافي ، بقرن على التقريب . ونعرف مما جاء في الكتب الصينية لهذا القرن ، أن المراكب التي كانت تشتغل في نقل المتاجر وتختلف إلى خانفو ، من ، البلاد الأجنبية ، عظيمة تعلو عن الماء بكثير حتى يحتاج إلى السلالم في الصعود إلى سطح المراكب [٢] فالربانون الأجنبيون ، الذين كانوا يقودون تلك المراكب إلى مرافىء الصين يلزمهم أن يحضروا إلى إدارة المراقبة للتجارة البحرية ، لتسجيل أسمائهم . وكانت هذه الادارة

---

(١) ابن خرداذبه ص ٧١

(2) Chao Ju-Kua; P. 9

التي كان وجودها بـكانتون ، وجوانشو ، وهانغ جـو ، يدل على اهتمام الحكومة الصينية بهذه التجارة ، قبل الترخيص لأى مركب بالسفر أو تفريغ شحناته ، تطالب من الربان، أن يقدم كشف المتاجر بالمركب إلى ناظر الادارة المذكورة . فتجبى عليها الضرائب ورسومات النقل فى مياه الصين ، وكانت البضائع الثمينة أو النادرة ، ممنوعة التصدير ، وكان العمل على تهريب البضائع ، موجبا العقاب بالسجن على قدر الجريمة .

ويجب على الربان أن يسلم جميع ما فى المركب من المتاجر والبضائع إلى المأمورين بادارة المراقبة عندالوصول إلى مرفأ خانفو ، ويودعها فى مخازن الحكومة حتى وصول آخر المراكب لموسم التجارة ، فحينئذ تؤخذ ثلاثون فى المائة من البضائع ، ضريبة أو رسوما للجمرك ، ويرد الباقى منها إلى أصحابها . ولسليمان التاجر السيرافى ملاحظات فى هذه النقطة أيضا . قال :

وإذا دخل البحريون من البحر ، قبض الصينيون متاعهم وصيروه فى البيوت وضمنوه الدرك إلى ستة أشهر ، إلى أن يدخل آخر البحريين . ثم يؤخذ من كل عشرة ، ثلثها ، ويسلم الباقى إلى التجار (١) .

وقبيل القرن التاسع من الميلاد ، انتقل قسم كبير من التجارة البحرية إلى مدينة (جوان شو) فى ولاية فوكين ، بقرب آموى الحاضرة . وكانت لهذه المدينة من قبل ، علاقة تجارية مع اليابان وكوريا وجاوة وغيرها من جزائر ملايا . فالعرب الذين وصلوا هناك فى أواخر القرن التاسع من الميلاد ، وجدوا بها البضائع لبقاع الصين النائية ، التى لم يكن من السهل الحصول عليها بخانفو . وبعد زمن قليل نهضت (جوانشو) إلى الدرجة الأولى من بين المرافئ البحرية ، فكثر الرواد من العرب والايرانيين اليها بوجود هؤلاء التجار بهذه المدينة ، اشتهرت فيما بعد ، فى العالم الإسلامى إلى نفوذ البرتغاليين فى الشرق بالاسم الذى وصفها به ابن بطوطة فى رحلته وهو الزيتون ، المحرف من اسمها الأصلى (Tche- Tung) .

---

(١) سلسلة التواريخ ص ٣٦

ولعل الحوادث التى ظهرت فى الصين فى أواخر القرن التاسع من الميلاد، حين ثار الثوار على الامبراطور (هى جونغ Hi— Chung) ٨٧٤ - ٨٨٩ م ، ونهبوا سوجووجانغ شو ، عطلت هذه الحركة التجارية حينا من الدهر . فاجتنب التجار الأجانب الذين كانوا يقيمون بخانفو وجوان شو ، مقامات الفتنة ولجأوا بأموالهم وأنفسهم إلى سواحل جزائر ملايا ، حيث تأتى المراكب من سيراف وبلاد عمان ومن مدن الصين أيضا .

وأما المراكب التى كانت تنتقل بالبضائع بين الصين وخليج فارس فمنها ما هى صينية ومنها ما هى عربية . لأن سليمان والمسعودى وابن بطوطة ، قـد ذكروا مراكب الصين بخليج فارس ، بالبصرة وسواحل الهند . ومراكب العرب إنما ذكرت فى بعض الكتب الصينية ، خصوصا فى « جوفانكى » أو « التذكرة عن البلاد الأجنبية » لجويوكوا ، الذى عاش فى أوائل القرن الثانى عشر من الميلاد . وأنه قد دون ما رأى وما سمـع ، فى تذكرته عن الأجانب ، إذ كان مشتغلا فى منصب المراقب العام للتجارة الأجنبية بولاية فوكين . فكلامه فى هذا الصدد حجة لا ترد . ولم يكن حديثه مقصورا على المراكب ، بل تعداه إلى نفوذ تجارة العرب فى الصين أيضا .

وقد تجددت تجارة العرب فى الصين بعد تلك الفترة من الفتنة والفساد التى ذكرها ابن الأثير وأبو زيد ، فجاءوا ببضائع شتى إلى كانتون وجوان شو . وإننا نقرأ فى تاريخ الصين لهذا العهد ، أنهم كانوا يتعاملون مع العرب فى القرن العاشر من الميلاد ، كما يتعاملون مع أهل جزائر ملايا وسيام والجاوة وسماطرة وجزيرة نيكوبار والهند . فأتوا ببضائع البلاد التى مروا بها فى طريقهم إلى الصين ، كما أنهم قد حملوا المنتجات من بلادهم . فالواردات الرئيسية من بلاد العرب كما ورد فى سلسلة التواريخ ، كانت : العاج والكندر والنحاس والصنف والكافور وقرون الكركدن .

فتاريخ سونغ (Sung) قد ذكر أسماء الواردات والصادرات التى حصلت

بوساطة العرب أو الايرانيين فى أواخر القرن العاشر من الميلاد ، وهى الذهب والفضة والفلس الصينى والمسكوكات والرصاص والمنسوجات على اختلاف ألوانها وأشكالها والفخار والغضار والأعواد والعطور وقماش القطن والصدف وقرون الكركدن والعقيق والبلور والعاج والمرجان والعنبر وقلائد اللؤلؤ والآبنوس .

وكان لحكومة الصين اهتمام عظيم بهذه التجارة وزادت أهميتها فى القرن العاشر حتى وضعت الحكومة يدها على زمام التجارة وجعلتها نوعا من احتكاراتها ولتنشيط الأعمال التجارية بعث أمبراطور الصين وفودا إلى الخارج وكانوا يحملون معهم الخطابات المختومة بخاتم الأمبراطور ومقدارا عظيما من الذهب والفضة لنفقات الدعاية بين التجار الأجانب بسواحل بحر الجنوب (Nanhai) وترغيبهم فى زيارة الصين ووعدهم برخصة خاصة لبضائعهم . فكانت النتيجة التى ظهرت من مساعى الحكومة فى تنشيط التجارة الخارجية واضحة جدا حتى امتلأت مخازن الحكومة فى غضون أيام قلائل بالعاج وقرون الكركدن واللؤلؤ واللازورد والأعواد وجميع الأنواع من المتاجر التى وردت من الهند وخليج فارس والجزائر التى فى بحر صنف . ولايجاد الأسواق لهذه البضائع الواردة فى مملكة الصين ، كان الناس يرغبون تحت تأثير الدعايات المنظمة فى شرائها بالذهب والفضة أو بالقماش الصينى والحرير والأرز وغيرها من منتجات الصين وكانت التجارة الخارجية موردا من موارد الدولة ؛ لذلك اهتمت بها ونظمتها تنظيما دقيقا .

ولقد قلنا فيما سبق أن المراقبة على التجارة البحرية كانت قائمة بكانتون منذ القرن الثامن من الميلاد ، وقد ذكرها سليمان السيرافى فى كتابه . ثم اتسعت هذه الادارة فيما بعد وأطلق عليها اسم إدارة الجمرك فى سنة ٩٨١ م بسبب التقدم التجارى وتطور العلاقات التجارية بالخارج . ولتحصيل أوفر حظ من منافع التجارة ، أسست دار الجمرك فى تلك السنة وبعد بضع سنين أعلنت احتكارها التجارة الخارجية . وبناء على هذا الاعلان ، أصبحت التجارة مع الأجانب عن غير طريقها موجبة العقاب بالنفى إلى جزائر مجهولة .

يقول «جويوكوا» اتسع هذا النظام إلى مرفأ آخر بعد عدة سنوات ، فأنشئت الجمارك العامة بعاصمة (كيانغ سو) وصدرت الأوامر إلى جميع المرافىء ، أن العطور والبضائع العظيمة القيمة القليلة الورود ، يجب أن تودع مخازن الحكومة بعد ورودها إلى الصين، أما بكانتون، وأما بجوان شو ، أو بتونكين ، أو بليانغ شو ففي سنة ٩٩٩ م أسست إدارة فرعية جمركية فى كل من مدينة هانغ شو ، (وهى الخنساء فى ابن بطوطة) ومنغ شو . وقد قيل أن هذا قد جاء بناء على طلب المأمورين الأجانب ، ترويجاً لأعمالهم وتخفيفاً لمسئولياتهم [١] ، وفى عهد « تاى جو » وعهد « تاى جونغ » ، (٩٦٠ — ٩٩٧ م) من أسرة سونغ (Sung Dynasty) أنشئت وظيفة جديدة يقال لها « زى به شى » أى مراقب التجارة البحرية وكان من واجباته ، تفتيش مشحونات السفن وجمع الضرائب وهى عشرة فى المائة بالنسبة إلى قيمة البضائع [٢] .

من المعلوم أن مدن (كانتون) فى (كانغ تونغ) و (منغ شو) و (هانغ شو) فى (جيكيانغ) و (جوان شو) فى (فوكين) ، كلها على شواطىء البحر . فطبيعى أن تأتى اليها السفن من جميع البلاد التى كانت لها علاقة تجارية بالصين . وفى بادىء الأمر كانت إدارة الجمرك قائمة بمدينة (كانتون) فقط . فلما اتسع نطاق التجارة وكثر ورود السفن من الخارج ، عجزت هذه الادارة عن مراقبة التجارة الخارجية التى تقدمت سريعاً فزاد النشاط وكثرت الحركة . فدعا الحال الى إنشاء ادارات أخرى بجميع المرافىء وعين فيها المأمورون المستقلون عن ادارة المراقبة بكانتون وخير لهم تنظيم شؤونها . فعند ورود السفن ، كان المراقبون ووكلاء التجارة ، يصعدون اليها ويختبرون ما فيها من الشحونات والبضائع فقدروا قيمتها على كلمة التجار أنفسهم . ثم يأخذون رسوم التفريغ على أساس عشرة فى المائة بالنسبة إلى القيمة الأصلية . وأما ضرائب اللؤلؤ والكافور وجميع الانواع من

---

(1) Chao Ju-Kua. P. 20

(٢) يظهر من هذا القول أن رسوم الجمرك قد خفضت منها ٢٠ فى المائة بالنسبة إلى زمن سليمان

البضائع النفيسة، فتؤخذ من جنسها على قاعدة سابقة. فالتجار يستطيعون بعد ذلك أن يبيعوا متاجرهم فى أسواق الصين بحرية كاملة.

ويظهر من كلام (جوبوكوا). أن هذه المراقبة، كانت شديدة جدا، حتى اذا كان أحد من التجار يجترىء على نقل شىء من سفنهم قبل دفع الرسوم المطلوبة فقد عرض بضاعته للمصادرة، ونفسه للعقاب.(١)

فالمراقبة الشديدة التى تجرى فى هذه الايام، لم تكن مقصورة على السفن الواردة، بل تعدتها إلى السفن الصادرة أيضا. وكانت هذه المراقبة تنفذ على المراكب الصينية فقط، لأن مراكب العرب ومراكب غيرهم، إن لم تتوقع عودها إلى الصين ثانية، فلا يؤاخذ أصحابها، ولا سبيل إلى مؤاخذة أصحابها، إن أرادأولو الأمر ذلك. وإن عادوا فرضا، فالمراقبة للسفن الواردة، تنفذ فيهم كما تقدم أما المراكب الصينية، التى تسافر إلى البلاد الأجنبية، فيقيد كل ما فيها من الرجال والبضائع فى دفتر خاص فى مكتبة المراقبة. ويؤاخذ أصحابها عند العودة، إن وجدوا شيئا مفقودا منهم وليس عند أصحاب السفن بيان واضح مقبول عن الشىء المفقود. ولقد بقيت هذه المراقبة الى زمن ابن بطوطة (ولعلها بقيت الى وقت قدوم البرتغاليين الى بحر الهند)، فقيدها فى رحلته، بالعبارات الآتية.

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر، صعد إليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر. فاذا عاد الجنك إلى الصين، صعدوا إليه أيضا، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس. فاذا فقدوا أحدا ممن قيدوه طالبوا صاحب الجنك به، فاما أن يأتى ببرهان على موته، أو فراره، أو غير ذلك مما حدث له، وإلا أخذ فيه. فاذا فرغوا من ذلك، أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم تفسيرا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها. ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم. فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم، عاد الجنك بجميع ما فيه مالا من الحكومة(٢)

---

(1) Chao Ju-Kua. P. 20

(٢) ابن بطوطة ص

وأما الملاحة فى القرن الثانى عشر من الميـلاد، فقد تقدمت تقدما عظيما باستعمال ابرة المغناطيس، كما يسميها العرب. وكانت هذه الابرة معلومة عند الصينيين من عهـد قديم باسم (الابرة المشيرة الى الجنوب). فتعلم العرب منهم فى أسفارهم البحرية إلى الصين وسنتكلم عن هذا فى آخر باب من هذا الكتاب، حين نبحث فى نتائج العلاقات، وهنا نكتفى بهذه الاشارة فقط. وقد أفادت هذه الابرة المغناطيسية السفر البحرى افادة كبيرة، وسهلت السير فى البحار، وأمنت التجار من الضلال، وكانت النتيجة الطبيعية أن تقدمت التجارة البحرية بين الصين والعرب وذلك ما نراه فى زيادة الرسوم والضرائب والايرادات الحكومية. فلقد أخبرنا «جو يو كوا» أن الضرائب على الواردات فى سنة ١١٧٥ م، وفى السنين اللاحقة قد بلغت ٥٠٠,٠٠٠ مثقالا من الذهب. وأما ما أخذ من أجناس البضائع، ضريبة عليها، فغير محسوب فى هذا المبلغ.

وبناء على ما ذكر فى «جوفانكى» من أن العرب كانوا يستوردون الكندر من مريد وصحار وحضرموت، والمرة من جنوب العرب وعدن، وبلاد السوماليين، والقاطر من جنوب العرب وسماطرة، والبخور من اليمن والاشياء الآتية من الممالك التى تحت حكم العرب الستركـ السائل، وبخور الايران، والاعواد، والقرنفل، وجوزة العفص، والحلتيت، والصبر والمرجان، والمزجاج، والبلور، واللؤلؤ، والعاج.

كان للتجار المسلمين حرية مطلقة فى الانتقال بين بلدة وأخرى فى داخل بلاد الصين، كما لهم حرية فى الاقامة، بأى مرفأ من المرافىء. ولحفظهم من الوقوع فى الخطر وتأمين أموالهم وأنفسهم، وكانت الحكومة الصينية، قد وضعت قانونا خاصا يقضى بتسجيل المسافرين فى داخل حدود الصين وما معهم من الأمتعة والأموال، وقانونا آخر يقصد به مراقبة الفنادق بجميع المدن. فكانت حكومة الصين ساهرة على حفظ أموال الاجانب وحياتهم، وتعنى عناية خاصة براحتهم وتأمينهم إذا انتقلوا من مدينة إلى مدينة أخرى ومدة أقامتهم بها. وكل ذلك تستطيع أن تعرفه من الكتب العربية. فسليمان السيرافى الذى ذكرته غير مرة، قد تكلم

فى سلسلة التواريخ ، عن تسجيل المسافرين وما معهم من الأمتعة وكان النظام فى ذلك أن من أراد سفرا فى بلاد الصين من بعضها إلى بعض ، يجب عليه ، أن يأخذ كتابين من الملك والخصى[١] . أما كتاب الملك ، فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره ، وعمر من معه ومن أى قبيلة هو وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لابد أن ينتموا إلى شىء يعرفون به ، وأما كتاب الخصى ، فبالمال وما معه من المتاع ، وذلك لأن فى طريقهم موظفين ينظرون فى الكتابين فاذا ورد عليهم الوارد ، كتبوا : ورد علينا فلان بن فلان الفلانى فى يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا . لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شىء ضياعا فتى ذهب منه شىء ، أو مات ، علم كيف ذهب ورد عليه أو على ورثته من بعده[٢]

وهذا يشبه جواز السفر فى الوقت الحاضر بجميع لوازم وحقوق صاحبه فى البلاد التى يسافر إليها .

وكانت التجارة فى الصين تجوز بعقد الدين ، وأصحابه قلما أنكروا حق ذوى الحق عند النزاع . لأن الحكومة كانت تنكل بالمنكرين بعقوبة جسمانية ومالية معا وطريق عقد الدين عندهم فى ذلك الوقت ، كما ورد فى سلسلة التواريخ ، أن أحدا إذا كان له على رجل دين كتب عليه كتابا ، وكتب الذى عليه الدين أيضا كتابا . وعلمه بعلامة بين أصبعيه الوسطى والسبابة ، ثم يجمع الكتابان ويطويان جميعا ثم يكتب على فصلهما ثم يفرق فيعطى الذى عليه الدين كتابه باقراره ، فتى جحد أحدهما غريمه ، قيل له ، أحضر كتابك ، فان زعم الذى عليه الدين ، أنه لا شىء له ودفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق ، قيل للجاحد الذى عليه الحق ، أحضر كتابا بأن هذا الحق ليس عليك فتى ما بين عليك صاحب الحق الذى جحدته ، فعليك عشرون خشبة على الظهر وعشرون ألف فكوج فلوسا . والفكوج ألف فلس ، يكون ذلك قريبا من ألفى دينار والعشرون من الخشبة فيها موته .

---

(١) ويراد بالملك هنا حاكم البلد وبالخصى وكيل التجارة .

(٢) سلسلة التواريخ ص ٤٥

فليس يكاد أحد ببلاد الصين يعطى هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال، ولم نر أحداً أجاب إلى ذلك، وهم يتناصفون بينهم، وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين [١] .

وأما مراقبة الفنادق فكانت للأغراض السامية التي قلما تلتفت إليها أمم العصر الحاضر، وهي منع التجار من الوقوع في الفساد. وكان تدبير الحكومة في ذلك كما ورد في ابن بطوطة، أن التاجر المسلم إذا قدم على بلد من بلاد الصين، خير في النزول عند تاجر من المسلمين المستوطنين، أو في الفندق. فان أحب النزول عند التاجر، حصر ماله وضمنه التاجر المتوطن وانفق عليه منه بالمعروف فاذا أراد السفر، بحث عن ماله، فان وجد شيء منه قد ضاع غرمه التاجر المستوطن الذى ضمنه وأن أراد النزول بالفندق، سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشترى له ما يحب ويحاسبه. وأما انفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل إليه ويقولون لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا [٢]

هذا ما كان عند ورود التاجر من الخارج. وأما سفرهم في داخل الصين، فشهد ابن بطوطة بما يلى، أن بلاد الصين، آمن البلاد، وأحسنها حالا للمسافرين. فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة، فلا يخاف عليها. لأن نظام المراقبة على الفنادق كفيل بحفظ المسافرين من مدينة إلى مدينة. وكان الترتيب في ذلك، كما جاء في ابن بطوطة، أن لهم في كل منزل، ببلادهم فندقا، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال، فاذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم. فاذا كان الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه وكتب بها تفسيرا، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالى له. ويأتى ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا اليه، وأن لم

---

(١) سلسلة التواريخ ص ٤٥

(٢) ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٥١ (بولاق) .

يفعل ، طالبه بهم وهكذا العمل فى كل منزل ببلاد الصين . وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافرون من الأزواد واللوازم .

وقدر البيع والشراء والأخذ والعطاء فى زمن ابن بطوطة ، فى الصين بالأوراق المالية التى سماها ابن بطوطة « دراهم الكاغد » . وكل قطعة ، منها على قدر كف مطبوعة بطابع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان حملها إلى دار السكة فأخذ عوضا عنها جددا ودفع تلك ، ولا تعطى على ذلك أجرة ولا سواها . لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان . وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء ، وكانت الأوراق المالية فى ذلك العهد أوثق فى المعاملة من الدراهم والدنانير عند الجماهير فى الصين ، وكلام ابن بطوطة شاهد عيان إذ قال « وإذا مضى الانسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه[1]

(١) ابن بطوطة ج ١ — ص ١٤٩ (بولاق) .

الباب الخامس

فى العلاقة الدينية

كان للصينيين دين قبل وصول الديانات الأجنبية اليهم ، مبنى على الأوهام والخرافات ، كما كان شأن كل أمة من الأمم فى جاهليتها الأولى . وكانوا يتخذون الأجسام السماوية والظواهر الطبيعية معبودة لهم ، غير معتقدين بخالق جبار ، تحت تصرفه كل شيء من الموجودات والكائنات . فتعددت آلهتهم وتفرق طريق عباداتهم [1] .

فالحكماء الذين ظهروا فى أرض الصين بعد زمن الخرافات ، مثل (لوتس) و (كانفوشيوس) و (مانى تس) و (مونشيوس) ، لا احد منهم قد أتى بكتاب سماوى ، أو نظام دينى يسلك فيه الصينيون كافة ، إلا أن كلامهم يدل على عقيدة ، بذات ما وراء الطبيعة . فالطريقة عند (لوتس) شىء ليس بصوت ، ولا بصورة ، تبقى دائما ولا تفنى إلى الأبد ، ووجوده قبل كل شيء غيره ، وهو أصل لجميع الموجودات ، وروح جارية فيها .

فهذا التعريف لطريقته يوافق ما نعتقد بصفات الله ، وأما « السماء » فى عقائد (كانفوشيوس) فهو صاحب السلطة العليا الذى إذا غاظه الإنسان بارتكاب الكبائر ، فلا سبيل له إلى النجاة حتما . فلذلك يقول : « أين الدعاء من أغاظه السماء » .

ليس هناك فرق كبير بين « سماء » كانفوشيوس و « سماء » مونشيوس ، لأن الثانى كان تلميذ الأول ، فحذا حذوه فى التفكير والبحث المنطق وأما (مانى تس)

---

(١) إلهيات الصين ص ١٢

فدينه دين المحبة ، والاخاء . يحب الأمن والسلم ، ويكره الحرب والقتال . ومبادىء حبه ، تشبه مبادىء الحب المسيحى ، وأصول إخائه مثل أصول أخاء الاسلام . لكنه لم يضع نظاما لاظهار هذا الحب أو هذا الاخاء ، فالكف عن القتال والامتناع عن نهب مال الناس ، وعدم السرقة وتحريم الحسد ، هو كل ما يعتقده من دواعى التحاب ومثوبات التآخى . ولا نرى غير هذا فى دينه .

هذه الديانات تختلف كلها عن الاسلام فى مسألة الحشر والنشر والحياة بعد الموت من ناحية الاعتقاد ، وفى مسألة المظاهر الدينية من ناحية العبادة . لأن أهلها لا يعتقدون بالحشر والنشر ولم يأتوا بنظام خاص للعبادات . ولعل هذا هو السر الذى بقى به أهل الصين فى عقائدهم القديمة ، مع أن أغلبهم قد اعتنقوا الديانة البوذية التى أصلها من الهند ولم تحدث فيهم أى تغيير من جهة الاعتقاد ، مع أنها قد أثرت فى أدبهم وفلسفتهم تأثيرا واضحا . فالرجل الدينى من أهل الصين ، هو مجموع لهذه العقائد والمبادىء التى ترجع إلى ديانات مختلفة ، منها ما هو مبادىء كانفوشيوس ، ومنها ما هو من عقائد لوتس ، ومنها ما هو من الأصول البوذية ومنها ماهو من المسيحية . فشخص واحد يمكن أن يعيش على هذه العقائد المختلفة فى مختلف أوقاته فى الحياة بدون إحداث أى تصادم روحانى فى حياته العقلية . فالصينى المتدين اليوم ، هو بوذى ، مسيحى ، كانفوشى ، وتووى فى وقت واحد . أى أنه حر فى عباداته الدينية ، يختار هذا أو ذاك ، متى شاء ، غير مقيد بدين .

ومن الديانات الأجنبية التى تسربت إلى الدين قبل الاسلام . المانوية والمجوسية والنسطورية . فدخول المانوية إلى الصين كان فى القرن السابع من الميلاد عن طريق تركستان ، لأن أكثر أهلها قد اعتنقوا هذا الدين قبل الاسلام . فانتشر فى شمال الصين حتى أسس الهياكل لهم فى الشطر الأول من القرن الثامن فى بعض المدن الشهيرة ولهم معابد كثيرة فى ولايات هانا ، وشانسى ، وكثرة أتباع هذا الدين يمكن أن نقدرها من الواقعة التى وقعت فى عهد (ووجونغ Wu-Chung) ٨٤١-٨٤٦ م) إذ كان هذا الأمبراطور متشبثا بطريقة لوتس ، ومتعصبا لها . فأمر

باضطهاد الديانات الأخرى . فهدم معابد المانوية والمجوسية والنسطورية . فقتل في عاصمة الصين وحدها ٧٢ نسمة من راهبات المانوية ، ثم فنيت هذه الديانة من الصين [1] .

أما المجوسية - كما أشار سليمان السيرافي والمسعودي وغيرهم من كتاب العرب - فقد دخلت الصين قبل الاسلام ، على الأقل بقرن . لكنها لم تنتشر في دائرة واسعة النطاق . فلما فتح العرب بلاد ايران ، وقضوا على دولة كسرى ، فر يزد جرد الى الشرق ولجأ الى عاصمة الصين . فأنشأ فيها معبدا للمجوسيين . ثم جاء بعض علماء المجوسية وبثوا دعوتهم في شمال الصين . لكن هذه الديانة لم تكن مقبولة عند الصينيين . فالذين دخلوا في هذه الطائفة ، قليلون جدا ، لا يكادون يستحقون الذكر . وقد محيت آثارهم في سنة ٨٤٦ م كما أسلفنا .

أما الديانة النسطورية ، فوصولها الى الصين كان في سنة ٦٣٥ م وكان ذلك بناء على ما ثبت في كتابة تاريخية وجدت بمدينة (جانغ آن) [2] . فأول من جاء الى الصين للدعاية الى النسطورية كان رجلا يدعى (أولوبن : Oloben) . ويظهر من تاريخ الصين ، أنه استوطن بجانغ — آن ، وبنى معبدا للنسطوريين فيه واحد وعشرون راهبا ، وكان أولوبن ، رئيسا لهم ، ثم انتشرت هذه الديانة الى بعض المدن الصينية الأخرى وأنشأوا فيها معابد ، فنقشوا أعمالهم على ألواح الحجر ونصبوها في المعابد ، تخليدا لذكراهم إلى ما شاء الله ، وأما النصوص التي توجد في هذه الشواهد الحجرية فمدونة الآن في تاريخ الصين العام [3]

ويوجد ذكر ذهاب النسطوريين إلى الصين في بعض الكتب العربية أيضا . فقد روى ابن النديم . في الفهرست ، أن الجاثليق قد بعث ستة من علماء النسطورية إلى الصين للدعاية . فمات خمسة منهم ورجع سادس وهو من أهـل نجران الى الروم بعد الاقامة بالصين نحو ست سنين ، في سنة ٣٧٧ م .

---

(1) Yung Tung Chiang : Outline of the Chinese Civilization.P.267
(2) Hirth China and the Roman Orient . P .286 .
(3) Yung Tung Chiang : Outline of the Chinese Civilization.p.267

وكان لهذه الديانة قدم ثابتة فى أرض الصين ، وكادت تؤثر فى حياة الصينيين لولا أن الحظ لم يكتب لها فى الشرق فأخرج المبشرون بها، وهدمت معابدها فى أواخر القرن التاسع من الميلاد . وحكاية الراهب من أهل نجران تشير الى ذلك .[١]

ولقد أطلت الكلام فى ذكر هذه الديانات الأجنبية قبل الإسلام ، مع أن الاسلام هو محور بحثى فى هذا الباب . لأن الأغلاط التاريخية التى تتعلق بوصول الاسلام ، لا يمكن أن تصحح إلا بسرد نبذة عن الأديان التى سبقته . ولقد قيل أن الاسلام وصل إلى الصين فى عهد (كائى وانغ Kai Wang) من أسرة (صوى Sui) . ومعنى هذا أنه دخل الصين بين ٥٨٩ و ٦٠٥ م وهذا مستحيل ؛ لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكلف بالرسالة إلى العالم كافة إلا سنة ٦١٠ م .

والذى أراه أن القائل بهذا القول ، قد التبس عليه الأمر ، فحسب المجوسية التى دخلت الصين فى أواخر القرن السادس الميلادى ، دين الاسلام الذى دعا إليه صاحب الرسالة بعد نبوته مغالطا فى الأدلة والحجج ، إذ قال أنها ديانة جاءت من « الغرب » [٢] . ففهم من « الغرب » « العرب » ، ووقع فى الخطأ دون أن يتنبه إلى أن الاسلام لم يكن له وجود فى جزيرة العرب ، حتى السنة العاشرة بعد ستمائة من تاريخ الميلاد . والذى يتمسك بأن وصول الاسلام إلى الصين قد وقع بين ٥٨٩ و ٦٠٥ م ، يتمسك برأى يخالف الواقع والتاريخ فالحقيقة أن الديانة التى قد وصلت إلى الصين فى عهد (كائى وانغ) ، هى الديانة المجوسية ، لا الاسلامية . وعندنا أدلة نقلية فى الكتب الصينية ، عدا تلك الأدلة العقلية ، التى أشرنا إليها آنفا

---

(١) ابن النديم ص ٤٩١

(٢) والمراد من « الغرب » فى اصطلاح كتب الصين القديمة ، ما وقع فى غرب الصين إلى البحر الأبيض واستنبول .

تشهد بوصول المجوسية فى هذا العهد، فاننا نعرف تماما أن بعض المجوسيين قد وصلوا إلى (جانغ - آن) فى أول عهد (كائى وانغ) وأنشأوا المعابد هناك وعمروها وكانوا يتغنون فى صلواتهم بأناشيد دينية. ومن هذه الأناشيد نوع يقال له «موفوتس» (穆護子) يوجد ذكره فى ديوان لغات الصين [١]. وفسر صاحب الديوان هذه الكلمة بأنها نوع من الأغانى الدينية للمجوسيين الذين وردوا الصين فى (عهد كائى وانغ). وهذا دليل قاطع على خطأ من ادعى دخول الإسلام الصين فى هذا العهد.

وأما اتصال الإسلام بالصين، فكان ذلك عن طريقين: طريق البر، وطريق البحر. ولقد بيت فى باب العلاقة السياسية، أن قتيبة بن مسلم الباهلى الفاتح لكاشغر، هو أول من بعث وفدا من العرب عن طريق البر إلى إمبراطور الصين فى أواخر سنة ٧١٥ م (٩٦ هـ) فعرضوا عليه أحد أمور ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، وذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى زيادة بيان؛ وأما تحديد الوقت الذى وصل فيه الإسلام بحراً إلى الصين، وعلى يد من كان ذلك؟ فقد اختلفت فيه كلمة المؤرخين من عرب وصينيين كما سيأتى ذلك قريبا.

ولا شك فى أن الصينيين قد سمعوا كثيرا عن العرب قبل الإسلام، بوساطة التجار الذين كانوا يتنقلون بين (جانغ — آن) والعراق وبين كانتون وخليج فارس، كما كان العرب قد عرفوا كثيرا عن بلاد الصين، إذ كان الاسلام لا يزال فى مهده يكافح جهالة قريش وعنادهم [٢]، وبفضل هذا التعارف العلمى، كان الصينيون على علم بالتغيرات التى ظهرت فى بلاد العرب فى أوائل القرن السابع الميلادى، حين علت كلمة الحق على جبل الفاران، وأشرق نور الهداية فى غار حراء. فلذلك

---

(١) ديوان لغات الصين ج ١ . باب ص ٢١٣ .

(2) Les Relations des Musulmans aves Chincis. p.2.

رأينا الكتب الصينية أخذت تعرض لذكر الانقلابات التي ظهرت في بلاد العرب في عدة مواضع . ومن رأى الأستاذ بريش نائدر [١] ، أن الأقوال في مؤلفات الصين القديمة عن البلاد الأجنبية ، أصحها هو ما قيل عن العرب وأحوالهم ، وقال إن القراء يكونون مغتبطين بقراءة تاريخ (تانغ) وتاريخ (سونغ) وتاريخ (يوان) في أبوابها عن العرب ، لأن الصينيين في تلك العصور كانوا مطلعين جيد الاطلاع على أحوال الخلافة التي كانوا يسمونها مملكة (تاشي) في كتبهم وأما أصل كلمة (تاشي) في كتب الصين ، فللأستاذ نيومان (Neumann) البيان الآتي : « من اليقين أن العرب كانوا معروفين في المؤلفات المنسوبة إلى زرادشت وفي « دساتير » (Desatir) باسم « تازي » (Tazi) .

ومن المعلوم أن العرب منذ ظهور صاحب الرسالة في أواخر القرن السادس الميلادي بدأوا في النهضة والتقدم . وبسبب هذه النهضة كانوا يذكرون في تاريخ الصين لعهد تانغ العظيمة (٦١٨ — ٩٠٧ م) التي كانت تحكم مملكة الصين الواسعة بالشرق ، كما كان الخلفاء يسيطرون على غرب آسيا . وإنما الحديث عن العرب يوجد في « جيو تانغ شو » أي كتاب تانغ القديم ، وفي « شين تانغ شو » أي كتاب تانغ الجديد ، كما يوجد في « تهونغ ديان » (Thong Dian) فيه باب خاص للعرب . وإليك بعض ما ورد في هذه الكتب دلالة على أن الصينيين كان لهم علم بظهور الاسلام في بلاد العرب وانتشاره إلى البلاد المجاورة لها ، مثل الشام وإيران ومصر وغيرها .

يقول « كتاب تانغ القديم » : إن بلاد (تاشي) أي العرب ، بغرب إيران منهم بنو قريش ، والسيادة في أيديهم فتفرع من قريش بطنان ، بنو هاشم ، وبنو أمية . ومن بني هاشم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان شجاعا ، ذا علم واسع ، فانتخب ملكا عليهم . وقد قاتل من خالفه حتى غلب عليهم وسلط على يثرب

---

(١) كان طبيبا بالسفارة الروسية في بكين وله كتاب باللغة الانكليزية سماه « معلومات الصينيين عن العرب » طبع لأول مرة في سنة ١٨٧١ م بلندن .

وفى كتاب تانغ الجديد ، ما يأتى : « إن بلاد العرب شاملة الأرض التى كان قسم منها تحت حكم الايرانيين ولرجالها أنوف شامخة . ولحى سود ، يحملون السيوف برباط الفضة . لا يشربون الخمر ولا يعرفون موسيقى . ونساؤهم بيضاء يتقنعن ، حينما يخرجون من البيوت . وفى بلاد العرب معبد عظيم ، فيه يخطب ملكهم مرة كل أسبوع قائلا : إن الذين يقاتلون فى سبيل الله . وقتلوا من أيدى الأعداء ، يرفعون إلى الجنة، ومن غلب على أعدائه يكون سعيدا. فلذا أهل العرب كلهم محاربون مقاتلون شجعان ويصلون خمس مرات كل يوم وأما أرض بلادهم فكثيرة الحجارة ، غير ملائمة للزراعة ، فالسكان يشتغلون بالصيد والقنص والرعى ويعيشون على اللحوم والألبان ، وعندهم جواد يقطع ٤٠٠ ميل فى يوم واحد ، وعندهم الابل أيضا (١) .

ويذكر تاريخ الصين أيضا أن هناك حاكما جبارا من بنى أمية يسمى معاوية ، الذى وسع سلطته إلى بلاد الحيرة . وكان الرابع عشر من ملوك هذه الأسرة ، هو مروان الذى قتل أخاه ، وغصب منه زمام الخلافة وفى هذا الوقت ، كان أبو مسلم الخراسانى يتفق مع عبد الله بن عباس على إسقاط بنى أمية، فدعوا الناس إليهما ، وأعلنا أن من يتحزب بحزبهما ، يجب عليه أن يلبس اللباس الأسود . وأما الذين قبلهم ، فعرفوا بالعرب ذوى الملابس البيضاء ، فجمع أبو مسلم جماعة عظيمة من الناس وقتلوا مروان آخر الخلفاء من بنى أمية . وبعد ذلك انتخب أبو العباس ـ وهو من بنى هاشم ـ ملكا ثم خلفه أبو جعفر المنصور بعد وفاته (٢) .

هذه أدلة قوية تشهد بأن الصينيين لم يغفلوا عن أحوال العرب والاسلام الذى قد أخذ سبيله إلى آسيا الوسطى ، وإلى الهند فى عصر بنى أمية .

---

(1) Chang Shin - lug Ancient China,s Relation with the Arabs. p. 45 Breitschneider: p. 7.

(2) Breitschneiber: p. 9 . ; The Old Tang Shu : p. 198. ; The new Tang Lhu: p. 221. ; Ancient China's Relation with the Arabs. pp. 10 & 46.

أما وصوله إلى الصين بحرا فاختلفت فيه آراء العلماء، وخصوصا فيما يتعلق بسنة الوصول وبالشخص الذى جاء برسالة الإسلام، بطريق البحر إلى الصين. يقول «جيو تانغ شو»، وكتاب تانغ القديم، أن وفدا من العرب قد وصلوا إلى عاصمة الصين فى السنة الثانية لعهد (يونخوى)، أى فى سنة ٦٥١ م. فمثلوا بين يدى الامبراطور يقولون: إن ملكهم يلقب بأمير المؤمنين، وحكومتهم قد أسست من ٢٤ سنة وقد مضى منهم ثلاثة ملوك حتى الآن [١] وهـذا المصدر يذكر وصول وفد آخر من العرب بعد أربع سنوات فى سنة ٥٥ م. ويوجد حديث عن هذا الوفد فى كتاب تانغ الجديد أيضا فيؤكد هذا القول، ما ورد فى «تهونغ ديان» ببيان عن العرب قائلا: إن وفدا من العرب قد ورد عاصمة الصين أيام (يونخوى) فوصف بلادهم بما يلى: إن بلادنا بغرب إيران وغلبنا عليها وعلى بلاد الشام. وعندنا نحو ٠٠٠ و ٤٢٠ مقاتل، لاشىء يستطيع أن يسد طريقنا أينما نتوجه. ولنا حكومة قد مضى عليها ٣٠ عاما بعد التأسيس. وعلى العرش الآن الملك الثالث [٢].

وقد ورد فى «منغ شو (Merg shu) وكتاب عن ولاية فوكين، أن فى شرق (جوان شو) الجنوبى جبلا دفن فيه شيخان من أهل المدينة، وهم أبناء المسلمين يحكى المسلمون من أهل مدينة (جوانشو)، على لسان الرواية السائرة أن المدينة كان بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وولد فى أول عهد (كائى وانغ) فحكم عليها عشرين عاما وهو صاحب الكتاب، يحب الحسنات ويكره السيئات. فيدعو الناس إلى الحق بأمر الله، ينشر الإسلام على حسب الوحى، وكان له أصحاب بعث منهم أربعة إلى الصين أيام (ووته - ٦١٨ - ٦٢٦ م). أحدهم استوطن بمدينة (كانتون) فبث الدعاية هناك. والثانى بمدينة (يانغ شو — Yang shaw) فوقف حياته لنشر الإسلام بها، وأما الثالث والرابع فسافرا إلى (جوان شو)

---

(1) The Old Tang Shu: p. 198.
(2) Ancient China's Relation with the Arebs. P. 53.

فلما توفيا إلى رحمة الله، دفنا بذاك الجبل ... ومن المشهور بين الأهالى أن صاحبي المقبرتين، كانا من العرب، قدما إلى الصين فى عصر تانغ، وبمدينة جوان شو جامع تاريخ بنائه غير معروف بالضبط (١).

وذكر الأستاذ هيرتت، مترجم «جوفلنكس»، عن و. ف. مائرز (W. F. Mayers)وهو مستند إلى تاريخ منغ (Ming)، أن الإسلام قد وصل إلى الصين بحرا بين ٦١٨ و ٦٢٦ م. لأن أربعة من الصحابة، قد جاءوا بدين الإسلام فى غضون تلك السنوات، وواحد منهم كان يبث دعوته فى كانتون، والثانى فى يانغ شو والثالث والرابع فى جوان شو (٢)

ويقول مؤلف «هوى هوى يوان لاى (Hui-Hui Yuan Lai) أى أصل المسلمين فى الصين: إن الإسلام قد وصل إلى الصين فى سنة ٦٢٨ م. وكان السبب فى ذلك، أن الامبراطور (تسنغ كوان: Tcheng Kuan) قد رأى فى منامه، أن شيخا معمما يدفع عنه وحشا مفترسا غريب الشكل، وقد هاجمه ولم يجد مفرا منه. فلما أصبح وسأل الوزراء عن التعبير. قال قائل منهم: إن الشيخ المعمم هو العرب (بالغرب)، عندهم قوة وبسطة، والوحش المفترس الغريب الشكل الذى هاجم الامبراطور، هو عنصر اعتدائى، أو شخص ثائر فى البلاد، فلا يمكن قمعه إلا بقوة المسلمين. فبعث الامبراطور سفيرا إلى بلاد العرب، ملتمسا من ملكهم، أن يرسل عدة فرق من الجيوش إلى الصين. فبودل ثلاثة آلاف من جنود المسلمين بثلاثة آلاف من جنود الصين فكان هؤلاء الآف الثلاثة من العرب هم آباء المسلمين فى الصين. وكان الوفد الذى جاء إلى الصين ردا لزيارة الوفد الصينى، مكونا من ثلاثة أشخاص وهم الفيس والأويس والوقاص، فمات الأولان فى الطريق، متأثرين من حرارة الجو ورداءة الهواء. وأما الوقاص فقد قدم إلى الصين معافى سليما. فأكرمه الامبراطور إكراما فائقا فقال لدى

(1) Ancient China's Relation with the Aros. p. 84.

(2) China Review Vol. VIP. 276. ; Chao Ju - Kua : - . 15

الامبراطور : إن الكتاب المقدس الذى نزل من السماء عليهم هو (الفرقان) — واتفق معه مؤلف « النسل من العرب (Si-Lai Chun-Puh) » فى النقطة المذكورة ، وزاد عليها أن الوقاص الذى وصل إلى عاصمة الصين ، كان عن طريق بخارى وحامى (Hami) فعاد إلى بلاد العرب عن طريق البحر ثلاث مرات، فى المرة الأولى للكتب الدينية، وفى الثانية لنسخة من القرآن الكريم ولاستشارة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى مسألة الدعوة والارشاد فى الصين . فقال له رسول الله خذ معك ما نزل من الآيات ، وأما الآيات التى سألقاها من الوحى فانى أبعثها إليك إذا نزلت . وفى المرة الثالثة لعيادة رسول الله ، حين سمع أنه مرض ولزم الفراش. ثم رجع إلى الصين بنسخة كاملة من القرآن، وهى فى ثلاثين جزءا و ١١٤ سورة و٦٦٦٦ آية . فمات بكانتون وله مقبرة هناك باقية إلى الآن . . .

ومؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » قد نقل متنا مرسوما ، عن أسقف رومى اسمه « آرشيا ندريت بالاديوس (Archimandrite Palladius) » ، الذى اكتشف هذا المرسوم ببكين فى سنة ١٨٧٨ م . وهو باللغة الصينية . فكان من قول الأسقف إن المرسوم الأصلى كان باللغة العربية . ثم نقل إلى لغة الصين . فمن هذه النسخة الصينية ، نقله الأستاذ مورجان الانكليزى ، إلى اللغة الانكليزية ، فنشره فى مجلة « دى فونيكس » فى عدد مارس سنة ١٨٨٢ م . وأما مؤلف «علاقة الصين القديمة بالعرب » فلم يعثر منه على نسخة صينية الأصل . وما يرد هنا منقول عن مجلة « دى فونيكس » وهاهو ذا : « وقد ورد فى السنة السادسة لعهد (تسنغ كوان : ٦٣٢ م) ، ابن حمزة ، خال النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى الصـــين مع نسخة من القرآن وكان يصاحبه ثلاثة آلاف من الجند . وكان رجلا متدينا ، جميل السيرة ، جميل الأخلاق . فسر برؤيته تانغ تائى جونغ ، وأكرم أصحابه جميعا وأبقاهم فى العاصمة (جانغ - آن) وبنى لهم جامعا فيها . فكثر أتباعهم واتسع نطاق دعوتهم حتى أنشىء مسجدان آخران ، بكيانغ نينغ (نا نكين) وكانتون . ثم بحث ابن حمزة مع أصحابه فى أركان الدين وأحكام الاسلام ونظامه وقوانينه . فرتب

الرجال الدينيين على ثلاث درجات : الامام ، والخطيب ، والمؤذن . ووظائفهم نشر مبادىء دين الاسـلام ودعوة الناس إلى الفلاح والخير، وحثهم على التمسك بالفضائل ، وإنذار من لا يحترمون الدين بالعقاب .

فقرروا أربعة عشر قرارا فى ترويج الآداب الاسلامية العامة :

١ — آداب الزواج .

٢ — منع زواج بنت المسلم بغير المسلم ، واعتبروا حدوث ذلك إثماً كبيرا، والوسطاء وأولو الأمر يعتبرون مشتركين فى الجريمة والاثم .

٣ — آداب الميت عند الاحتضار .

٤ - طريق دفن الموتى .

٥ - آداب تشييع الجنازة .

٦ — تلاوة القرآن على الموتى والتصدق على الأيتام والفقراء .

٧ - وجوب التمسك بالفضائل واجتناب الرذائل ، لأن يوم الحشر ليس ببعيد وإن طالت حياة الانسان، فيجزى الله على العمل الصالح ويعاقب على العمل السيء، وذلك يكون شديداً لا مفر لأحد منه .

٨ منع الخمر والتدخين ، لأن الدخان يضر الرئة ، والخمر يقتل النفس.

٩ - منع البغاء والميسر . لأن البغاء فاحشة يسلب رداء الحياء ، والميسر يؤدى إلى إفلاس الأخلاق ، فيسقط صاحبه إلى الدرك الأسفل من الرذيلة .

١٠ - منع الربا ، لأن الشريف يكره أن يشرب من دم أخيه .

١١ - جمع الزكاة والصدقات على حسب درجة الغنى والثروة . والفقير لا يجبى منه شيء ، بل يحث على الكسب والاستقلال فى المعيشة .

١٢ — إنشاء المدارس نشراً لمبادىء الاسلام .

١٣ — تحديد آداب الأعياد محافظة على النظام .

١٤ — إلزام الرجال الدينيين تأدية واجباتهم، وأما المعابد والمساجد، إذا هدم منها شيء ، فيصلح من تبرعات خيرية .

وحاصل الكلام ، أن كتاب الصين القدماء لم يتفقوا على سنة وصول الاسلام بحرا إلى الصين كما أنهم لم يستطيعوا الاتفاق على من هو الأول الذى قد جاء بالاسلام عن طريق البحر إليها . وبناء على ما ورد فى كتاب تانغ القديم والجديد وفى « تهونغ ديان » ، أن الاسلام قد وصل الى الصين فى سنة ٦٥١ م . ويذكر « منغ شو » ، أنه وصل بين ٦١٨ و ٦٢٦ م . وكذلك يقول تاريخ منغ . لكن المرسوم الذى اكتشفه الاسقف آرشيما ندريت بالاديوس ، يدعى أن وصول الاسلام قد وقع سنة ٦٢٢ م . ويزعم مؤلف « أصل المسلمين فى الصين » ، أن الاسلام وصل فى ٦٢٨ م وكذلك مؤلف « النسل من العرب » ، حتى ذهب بعض الكتاب إلى أنه وصل فى عهد (كائى وانغ) من أسرة صوى ، أى بين سنة ٥٨٩ و ٦٠٥ م وهذا الأخير باطل من غير شك . لأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكلف بالرسالة إلا بعد هذا التاريخ بخمس سنوات ، وأما ما جاء فى « منغ شو » وفى « تاريخ منغ » ، فليس مقبولا عند الباحثين المحققين . لأن السنوات التى بين ٦١٨ وبين ٦٢٦ م ، هى المدة التى اشتغل رسول الله (ص) فى دعوة كفار قريش الى الدين الحنيف . وكانت هذه الدعوة لم تتجه الى خارج بلاد العرب ، إلا فى أواخر السنة السادسة للهجرة وهى توافق ٦٢٧ م .

ومن المعلوم أن هـذه الدعوة محدودة فى إرسال البعثات إلى إيران والامبراطورية البزنطينية والحبشة . وأما سنة الوفود فقد وقعت فى السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠ م) وقد ذكر هذه الوقائع ابن هشام فى كتابه بالتفصيل . وعدم ذكره وفد الصين يفهم منه أن الصين لم تدع إلى قبول الاسلام فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم هناك غلط واضح فى « منغ شو » لا يحتمل أدنى شك . وهو أن محمدا (ص) ولد فى أول عهد (كائى وانغ) وهـو يوافق سنة ٥٨٩ م [١] . مع أن بعض الكتب الأخرى تدعى أن الاسلام قد دخل الصين فى هذا العهد [٢] .

---

(١) ولد النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة ٥٧٠ م

(2) Kin Chih-Tang: Studies on the History of Islam in China, P. 43.

ولا أعرف مبلغ الصحة فيما ذكر فى المرسوم الدينى الذى اكتشفه الأسقف آرشيما ندريت بالاديوس إذ قال إن ابن حمزة، خال النبى (ص)، ذهب إلى الصين مع ثلاثة آلاف جندى عربى فى سنة ٦٣٢ م. لأنها هى السنة التى مات فيها صاحب الرسالة، وانتخب أبو بكر (رض) خليفة للرسول على المسلمين. وكان نفوذ العرب السياسى، حتى عهد أبى بكر (رض)، لم يتسع، إلا الى العراق والشام وتاريخ العرب لم يذكر قائدا اسمه ابن حمزة فى عهد رسول الله (ص) أو فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ولا نجد خالا للنبى (ص) اسمه ابن حمزة، ولا نجد هذا الاسم بين الصحابة أيضا. ثم ادعاء أن نسخة كاملة من القرآن الذى لم يجمع فى صورة الكتاب إلا فى عهد عثمان (رض)، ذهب بها الى الصين قبل جمعه، مما لم يقم عليه دليل. ثم القوانين التى ذكرت فى المرسوم، بعضها من اختراعات الفقهاء بعد زمن رسول الله بكثير مثل آداب الميت عند احتضاره، وما يتعلق بالجنازة، وآداب الأعياد وانشاء المدارس ونعتقد أن هذا المرسوم ليس فى زمن الخلفاء الراشدين. وليست له قيمة تاريخية يعتد بها.

وأما ماذكر فى «أصل المسلمين» فلا نجد فيه شيئا يدعونا إلى الاعتقاد بصحته لعدة أسباب:

أولا إن رؤية الامبراطور (تسنغ كوان)، لا تدل إلا على الأوهام والخرافات، التى كانت مسيطرة على أذهان الصينيين. فيعتقدون بصحتها، والحقيقة أن قصة هذه الرؤيا، تشابه تماما، الرؤيا التى رآها (هان منغ تى Han Ming-Ti) قبل خمسة قرون. إذ رأى فى منامه، تمثالا ذهبيا لامعا بالأنوار فبعث رسولا إلى الهند فأتى بتمثال (بوذها) وجعل يعبدها فيتبعه أناس آخرون. هذا هو أصل دخول الديانة البوذية. فغير كاتب «أصل المسلمين» هذا التمثال الذهبى، إلى شيخ معمم ونسج حوله قصة تخالف الدلائل العقلية والنقلية معا.

وثانيا: إن هذا الكتاب كما ثبت فيما تقدم، ألف فى سنة ١٦٦٢ م. وهو حديث العهد بالنسبة إلى كتاب تانغ القديم أو الجديد، الذى قد سبقه كتابه بستمائة سنة على الأقل. فانتشر هذا الكتاب لأول مرة فى عساكر المسلمين، وكان

ذلك ، كما ذكر فى نفس الكتاب ، أن الامبراطور (كانشى (Kang-Si) وهو عاهل ثان لأسرة مانشو (Manchu Dynasty) ، حينما عاد فى سنة ١٦٩٧ م ، من غزوته قبيلة (قرطان) فى منغوليا ، مر بقانصو ، وبات ليلة عند أكما المعروف بـ « ما » ، وهو مسلم . فدار الحديث بينهما فى الأديان فسأله الامبراطور (كانشى) عن وصول الاسلام الى الصين وسبب وصوله . فأجاب بالسلب والجهل فقال الامبراطور : عندى ، كتاب تجد فيه ما يجب أن تعرفه ، قال الحاكم : أنا أمى لا أعرف القراءة ، لكنى أتقبله بالشكر الجزيل ، وأريه لمن يحسن القراءة واستفسره عن محتوياته [١] .

فأمر من تحته من الأمراء أن يستنسخ كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب [٢] فشاع فى عساكره وانتشر . وأما اسم المؤلف ـ فكما ثبت فى مقدمة الكتاب ـ هو « لى جيلى » غير معروف فى طبقات العلماء ، فنقل عنه (بايونجو pei yang-Chu) مؤلف « النسل من الغرب » فى سنة ١٠٧٦ م . فالمسلمون من بعدهما ينسجون على منوالهما عند ما يبحثون عن مسئلة دخول الاسلام فى الصين بدون تدقيق ولا تحقيق ، بل يمعنون فى تصديق هذا القول الذى يخالف التاريخ والواقع ، من كل وجه ، إلا قليلا ممن رحم الله .

وثالثا : إن صاحب « أصل المسلمين » ذكر أن إمبراطور الصين ، بعد ما رأى فى المنام ، وما سمع من التعبير لرؤياه ، بعث سفارة إلى بلاد العرب ملتمسا من رسول الله (ص) أن يرسل عدة دعاة إلى الصين ، مبشرين ومنذرين . وأن هذا الافتراء صارخ على التاريخ . لأنه إذا وقع مثل هذا فذهب وفد من الصين إلى بلاد العرب ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذكر فى السيرة النبوية أو على الأقل فى تاريخ العرب . ثم ذكره رجلا من الصحابة اسمه سعد بن وقاص ، إذا كان المراد به هو سعد ابن أبى وقاص ، فاتح القادسية ، فذلك لا يوافق الواقع ، لأنا

---

(١) أصل المسلمين ص ٤٤

(2) Ancient China's Relations With the Arabs P. 15.

نعرف من المصادر العربية ، أن سعد بن أبى وقاص ، لم يذهب إلى الصين أبدا .
فان حياته معروفة فى تاريخ الاسلام ، خلاصتها أنه حضر غزوة بدر والحديبية ،
وكان أحد أعضاء مجلس الشورى ، ، والقائد الأعلى فى واقعة القادسية . فبقى محايدا
حينما ظهر النزاع بين على وبين معاوية رضى الله عنهما . فمات بالعقيق على عشرة أميال
من المدينة المنورة فى ٨٠ من عمره المديد فى سنة ٥٤ ه كما ذكر فى الواقدى فصلى عليه
مروان بن الحكم ودفن بالبقيع . واتفق على هذا صاحب الاستيعاب ، وصاحب أسد
الغابة ، والواقدى .

وهنا سؤال عند المسلمين الصينيين لا يجد جوابا إلى اليوم . وهو من صاحب
القبر الذى بكانتون ، إن لم يسافر سعد بن أبى وقاص إلى الصين ومات هناك ؟ فان
المسلمين فى الصين جميعاً يعتقدون أن الجامع الذى اشتهر فى كانتون ، باسم « واى
شن تزى » ، أى جامع الذكرى للنبى (ص) من مؤسسات سعد بن أبى وقاص .
ولقد بناه كما يقولون ، عندما وصل إلى كانتون ، فاستوطن هناك داعيا ومبلغا .
فمات بكانتون ودفن بخارجها . وعلى قبره شاهد من الحجر منقوش عليه ما يأتى :

« هو زعيم ملقب بوقاص من أهل (تيان فان) (١) ، خال النبى رسول الله
(ص) من ناحية الأم . أمر باتيان نسخة من القرآن إلى الصين . وكان وصوله إلى
(جانغ — آن) فى السنة السادسة لعهد (تنغ كوان) من دواهل أسرة (تانغ)
(٦٣٢م) . فوجده (تانغ تائى جونغ) رجلا عالما ، صالحا واعظا عميقا فى العلم .
فأسكنه فى (جانغ آن) ، ولأجله أسس أول بيت لله بها ، وعمرها بأتباع دينه
والمسلمين . فقام بالدعوة والارشاد ونشر تعاليم القرآن فاعتنق كثير من الناس ،
دين الاسلام على يده حتى انتشر الاسلام ، وكثر أتباعه . فأمر (تانغ تائى جونغ
بعد سنين قلائل ، بانشاء جامع فى كل مكان من مدينة نانكين وكانتون لجمع كلمة
المسلمين فيها . فركب البحر بعد ذلك من كانتون ، يريد بلاد العرب . فاذا

---

(١) والمراد من هذه الكلمة هو بلاد العرب .

(بجين شي [١] ، خطر بباله ، أنه مأمور بالاقامة فى الصين للدعوة ونشر الاسلام وأنه غير مطالب بالعودة، ولى وجهه نحو الصين مرة ثانية. غير أنه توفى إلى رحمة الله فى المركب . وكانت جثته المباركة سالمة عند وصول المركب إلى كانتون . فدفنت بخارجها » [٢] .

نسأل الآن ، هل صحيح ما جاء فى هذا الشاهد ؟ وهل هناك أدلة تشهد بصحتها ؟ نقول : لا نعرف مبلغ صحة مانقش فى هذا الشاهد الحجرى بناء على عدة أسباب :

أولا : إننا لا نجد النصوص الأصلية التى نقشت فى الحجر على قبر أول داع لدين الاسلام بمدينة كانتون . وما نقل صاحب « علاقة الصين القديمة بالعرب» من العبارات لهذا الشاهد التاريخى ، هو عن مؤلف « علوم الاسلام القويمة » الذى كتب كتابه فى سنة ١٨٥٢ م ، وهو مشكوك فى صحته ، لأن المؤلف لم يذكر سنة نصب الشاهد . ومن الظاهر أن مؤلف « علوم الاسلام القويمة » ، لم يستند إلى مرجع ولا أصل . والدليل على ذلك ، أنه قد ذكر شاهد ضريح النبى (ص) فى كتابه أيضا . فيقول فيه : أن (صوى وين تى (Sui Wen Ti) ، قد بعث سفيرا إلى رسول الله (ص) ، يدعوه إلى الشرق فامتنع واعتذر . فاكتفى بارسال سعد ابن وقاص مع أكثر من مائة عربى إلى الصين ثم عادوا بعد سنة [٣] .

لا نسلم أن هناك شاهدا لضريح النبى (ص) قد كتب باللغة الصينية ، وليس لنا علم بشاهد عربى لضريحه المبارك ، وفيه العبارات المذكورة التى استند اليها هذا المؤلف . ثم كلمة « چين » تدعونا الى الاعتقاد بأن « مؤلف « علوم الاسلام القويمة» ، قد تأثر بمؤثرات اللغة الفارسية التى كان لها بعض الأثر فى الصين منذ عهد المغول .

---

(١) (جين شى) هى ميناء ببحر الهند على ١٨ محطة إلى مكة على ما ورد فى بعض الكتب الصينية .

(2) Ancient China' Relations With the Arabs . p. 78.

(3) Ancient China's Relations With the Arabs. p. 76 .

استنتج اذن ، أن هذه الأقوال ، إذا لم تكن من اختراعاته ، بناء على حسن الظن به وحسن العقيدة فيه ، بدون نظر إلى الواقع وحقيقة الأمر فلا شك أنه نقلها من الكتاب الذين قد عاشوا فى زمن قبله فى عهد المغول ـ العهد الذى كانت الكلمات الفارسية مثل «بيغمبر» (النبى) و «چين» (الصين) و «فرمان» (القرآن) تستعمل فيه فى مجتمعات المسلمين بكل حرية حتى أصبحت جزءا من لهجاتهم العامة .

ثانيا أن هذا الشاهد يدعى بأن سعد بن أبى وقاص ، قد ذهب الى (جانغ آن) أولا فانشأ الجامع هناك بأمر الامبراطور . ثم أنشأ مسجدين آخرين ، أحدهما بنانكين ، والثانى بكانتون . لكن الكتابة التاريخية (Inscriptions) التى توجد فى جامع (جانغ — آن) ، وهى تحمل تاريخ ٧٤٢ م ، لم يذكر كما سترى ، اسم سعد بن أبى وقاص . والأمر الذى يتفق عليه المؤرخون جميعا ، أن هذه الكتابة هى أقدم شهادة كتابية ، لدخول الاسلام فى الصين ومن المذكور فيها ، أن هذا الجامع قد ابتدىء فى بنائه فى الشهر الثالث من السنة الأولى لعهد (تيانغ باو (Tieu-pao) ٧٤١ م ، فتم فى اليوم العشرين من الشهر الثامن فى السنة التالية فكان الامام هناك « بدر الدين » وتشهد هذه الكتابة بأن الجامع ليس من مؤسسات ابن أبى وقاص ولا من الآثار الاسلامية قبل سنة ٧٤٠ م . واذا سلمنا أن هذه الجوامع الثلاثة من مؤسسات رجل واحد ، فلا مندوحة لنا أن نسلم أيضا أن الجامع بكانتون ، كان بناؤه بعد بناء جامع (جانغ آن) . فمؤسسه الذى مات بكانتون ودفن بها غير سعد بن أبى وقاص المعروف فى تاريخ الاسلام ، وصاحب الضريح رجل آخر (لا يزال مجهولا عند المؤرخين) ، ليس له أية علاقة بعصر النبى (ص) ولا بعصر الخلفاء الراشدين .

ثالثا — أن الكتابة التى فى جامع (جانغ — آن) لم تذكر اسم سعد بن أبى وقاص وكذلك جميع الكتابات القديمة . فمثلا ، الكتابة التى توجد فى جامع (جوان شو) ، وقد كتبت ونقشت على لوحة من الحجر فى سنة ١١٣١ م ، مع

أنها ذكرت بعد ظهور الاسلام فى بلاد العرب وانتشاره الى الشرق . والكتابة التى فى جامع (هانغ شو) ، بناه علاء الدين بين سنة ١٣١٤ و ١٣٢٠ م ، أيضا ساكتة عن سعد بن أبى وقاص . ثم الجامع الذى بكانتون قد أجريت فيه عدة مرات من التصليحات والترميمات . مرة فى سنة ١٣٥٠ م ، اذ كان الحاج حسن تولى أمامة الجامع (وقد نصب شاهدا لهذه التصليحات . غير أنه لم يذكر اسم سعد بن أبى وقاص .

والحاصل أن جملة الكتابات التاريخية التى قبل وجود « أصل المسلمين » و « علوم الاسلام القويمة » و النسل من الغرب » بقرون ، سواء كانت منقوشة فى لوحات الأحجار ، أو مكتوبة فى صدور الكتب ، لم تعرض لسعد بن أبى وقاص ولم تشر أدنى أشارة الى سفره الى الصين ولم يذكر لأول مرة الا فى « أصل المسلمين » (١٦٦٢ م) بدون أشارة الى مرجع أو مصدر . ثم فى هذا الكتاب تجد أشياء كثيرة تنكرها العقول ؛ منها اجابة سعد بن أبى وقاص بالشعر الصينى للامبراطور حين سأله عن الاسلام وحقيقته .

وبناء على ما أوردناه من الأدله والبراهين ؛ نقول موقنين أن صاحب الضريح فى كانتون غير سعد بن أبى وقاص ؛ بطل القادسية ومن الممكن أن أحدا ممن سموا بذلك الاسم قد سافر الى الصين فى أواخر القرن الثامن الميلادى . فمات هناك ودفن بها . ويظهر أنه كان زعيما من زعماء العرب المستوطنين فى الصين وكانت له مكانة عظيمة لدى الامبراطور وفى أعين المسلمين هناك ، فلذلك كانوا ولا يزالون يعظمون قبره ، لكن نأسف أن التاريخ لم يخبرنا باسمه الحقيقى ، ولا نعرف هل يظل هذا الاسم مجهولا هكذا الى الأبد ؛ أو يصبح معلوما يوما من الأيام فى المستقبل .

ومع هذه الاختلافات فى تاريخ وصول الاسلام ومع هذه الاختلافات فى أول شخص جاء بالأسلام إلى الصين ، نقول مطمئنين ، أن وصول الأسلام ، بحرا أسبق من وصوله برا . لأن التجارة البحرية التى قد بدأت قبل النبى (ص) تساعد على إيصال الأسلام إلى موانى الصين التى كان العرب يترددون عليها ولو بصفة غير رسمية . وأما وفد العرب الذى وصل إلى عاصمة الصين ، رسميا فكان فى

سنة ٦٥١ م ، كما أثبتنا ذلك سابقا عن المصادر الصينية . نعم لا نجد حديثا عن هذا الوفد فى الكتب العربية القديمة ، لكن الخبر الذى وجدناه فى «تانغ شو» القديم والجديد ، بأن وفدا من العرب ، قد وصل إلى الصين فى السنة الثانية لعهد «يونخوى» ، وهى توافق سنة ٦٥١ م ، لا يخالف الحقائق التاريخية ؛ لأن السنة الحادية والخامسين بعد المائة السادسة للميلاد ، توافق سنة ٣٠ للهجرة فى عهد عثمان (رض) [١] وقوة العرب العسكرية قد وصلت إلى أواسط آسيا ، من ناحية ، وإلى السند من ناحية أخرى ، [٢] . ثم الأحوال التى ذكرها هـذا الوفد لدى امبراطور الصين ، عن بلاد العرب ، صحيحة على الأقل إلى ثمانين فى المائة من الصحة . فكلمة «أمير المؤمنين» ذكرت لأول مرة فى الكتب الصينية فى صورة محرفة إلى (Kami momnie) فقال أعضاء الوفد أن ملكهم يقال له «أمير المؤمنين» وحكومتهم قد أسست منذ ٣٤ سنة . وأما الآن فعلى العرش الملك الثالث [٣] .
وأما قوله (منذ ٣٤ سنة) فلعل ذلك ، أما من الأغلاط الطبيعيه فى «تانغ شو» وأما لحن من المترجم الذى قام وسيطا للتفاهم بين الوفد وامبراطور الصين . لان الكلمة الصينية التى تقابل «ثلاثين» فى العربية هى «سان شيه» . فاذا لحن المترجم فى القطعة الثانية من الصوت أى فى «شيه» ، فليس بعيدا أن تصبح «سان شيه سى» أى «أربعة وثلاثين» . فأثبت فى تاريخ تانغ بكلمة «سانشيه سى» بدلا من كلمة «سان شيه» . وهـذا محتمل قريب فى جميع الشهادات التاريخية غير انى لا أصر على صواب رأيى هذا ، ان ظهر دليل جديد على هذا الخطأ التاريخى

فبناء على ما ورد فى «تانغ شو» القديم والجديد ، فيما يتعلق بوصول الاسلام الى الصين بحرا وقد حقق هذه النقطة مستشرق كبير هو الاستاذ (برتش نائدر) انى على جانب من الثقة التى يؤكدها التاريخ والواقع فى اصدار حكم على هذه

---

(١) انتخب عثمان (رض) خليفة ، غرة المحرم سنة ٢٤ هـ — ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م

(2) Ameer Ali : Short History of Saracens. p. 47. ; Gibb : P. 15.

(3) Breitschneider: P. 8. ; Ancient China's Relations with the Arabs. pp. 9 & 46.

المسألة التاريخية التى اختلف فيها كثير من الباحثين ، بسبب اختلاف الأقوال التى وجدت فى المصادر الصينية ، بأن أقول : أن الاسلام قد وصل إلى الصين بحرا بصفة رسمية فى سنة ٦٥٠ م . وأصر على ابقاء هذه النظرية ، مادمنا لم نعثر على شهادات تاريخية أقوى مما ذكرناه فيما تقدم . وأقول أيضا أن هذا الوفد لم تكن له علاقة بالجامع الذى بجانغ – آن أو بكانتون . لأننا نعتقد أنهما من مبانى السنوات المتأخره عن زمن الخلفاء الراشدين .

ومعنى هذا أن وصول الاسلام إلى الصين بحرا ، أسبق من وصوله برا ، عن طريق تركستان بست وستين سنة هجرية ، أو أربع وستين سنة ميلادية . لأن فتح قتيبة بن مسلم لمدينة كاشغر ، كان فى سنة ٩٦ هـ — ٧١٤ م .

وكانت السنة الحادية والخمسون بعد المائة السادسة للميلاد ، أو السنة الثلاثون للهجرة ، هى فاتحة الوفود بين العرب والصين وبين البلاد التى كانت تحت حكم العرب حتى آخر عهد منغ . (Miug) . وكل ذلك سنبينه فى باب العلاقة الدبلوماسية أن شاء الله تعالى .

وأما انتشار الاسلام فى موانىء الصين فى القرون الأولى للهجرة ، فكان ذلك يرجع إلى فضل التجار العرب الذين منهم من أقاموا هناك إلى وقت معلوم ، ثم رجعوا إلى أوطانهم ، منهم من استوطنوا فى الصين حتى آخر يوم فى حياتهم . نعم أن التاريخ لم يحدثنا عن حياتهم الدينيه فى الفترة التى بين سنة ٦٥١م وسنة ٨٥١ م ، لكن وجود القبور للعرب وجامع الذكرى للنبى (ص) بكانتون ، يشهد على أن عدد المسلمين بتلك المدينة لم يكن قليلا . وهذا الجامع القديم ، ولو أننا لانجد سبيلا الى معرفة من بناه ، وفى أى سنة بنى وهل هو أقدم من مسجد (جانغ — آن) ، أو الذى بجانغ آن ، أقدم منه ، لكن الرأى المعقول ، أن تاريخ بنائه لايبعد كثيرا عن تاريخ بناء المسجد الذى بجانغ — آن ، سواء أكان ذلك قبله أو بعده ، وفى الشطر الأول من القرن التاسع الميلادى لما سافر سليمان السيرافى الى كانتون (خانفو) للأعمال التجارية ، وجد بها كثيرا من المسلمين ، يولى عليهم القاضى منهم ، مأمورا

من صاحب الصين فأذا كان العيد، صلى بالمسلمين وخطب، ودعا لسلطان المسلمين [١].

ونفهم من هذا القول، أن حياة المسلمين هناك من الناحية الدينية، أصبحت منظمة فى الشطر الأول من القرن التاسع للميلاد، وكانت حالها كما هى فى الممالك الاسلامية الأخرى.

ويظهر من عمارة الجامع، أن المسلم الذى بنى هـذا المسجد، بناه على شكل هيكل الصينيين لأننا لا نجد أى فرق بين عمارة المسجد وعمارات الهياكل الصينية الأخرى فى الشكل الظاهرى. وأما المنارة التى نراها قائمة بجانب المسجد، فلاشك أنها شيء خاص بالعمارة العربية، لكن بناءها لم يكن فى وقت واحد مع بناء المسجد. ويقول الدكتور كار Dr. Kare فى « دليل كانتون »: أنها بنيت فى سنة ٩٠٠ م على التقريب. وكانت هى الجزء الباقى الذى لم تصبه النار، إذ كانت تذهب بعمارة المسجد كلها الى بطنها فى سنة ١٣١٣ م [٢] ».

فبنيت للمرة الثانية بين ١٣٤٩ و ١٣٩١ م بعد حادثة النار، بحكم الامير محمود حاكم كانتون حينذاك. وكان الامام هو الحاج حسن فكان من الذين اشتركوا فى هذا العمل الخيرى والدين سيد ميش التركى الأصل وكان من أمراء كانتون فنصبوا لوحة حجرية نقشت فيها أعمالهم الخالدة مع ذكر تاريخ تجديد البناء. وهذه اللوحة لا تزال باقية فى الجامع حتى الآن فى حالة جيدة. فنقل عباراتها، مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » فى كتابه وكذلك مؤلف « الدراسات عن تاريخ الإسلام فى الصين [٣] ».

جددت الترميمات فى هذا الجامع فى سنة ١٢٦٩ م، فى عصر (منغ)، على

---

(١) سلسلة التواريخ ص ١٤

(2) Broomhall: P. 110.

(3) Ancient China's Relation with the Arabs. P. 87.
Studies on the History of Islam in China. P. 53.

نفقات مسلم كبير موظف بكانتون ، معروف باسم (هونغ بونغ) فى تاريخ الصين.
وكان وفد من العرب قد وصل الى كانتون فى هذه السنة برياسة عبد الله فقدم الهدايا الى أمبراطور الصين وبعد الانتهاء من مهماته الرسمية ، عاد مع رفاقه الى كانتون فاختاروا سكناهم بداخل هذا المسجد وبعد أيام قلائل أصبح عبد الله هذا زعيما لأخوانه المسلمين فى تلك المدينة .

وأما مقبرة العرب التى فى كانتون ، فهى واقعة بخارج باب الشمال على نصف ميل ، فيها أكثر من أربعين قبرا ومبانيها على الطرز العربى كما هى الحال فى البلاد الأخرى من الممالك الاسلامية . وقد ضربت عليها القباب التى تشير بلسان حالها الى أن أصحاب تلك القبور ، كانوا من ذوى المكانة العالية فى عصورهم . وبين هذه القبور ، قبر ينسب الى سعد بن أبى وقاص ، وهو فى الحقيقة لغيره كما أثبتنا ذلك آنفا .

وهنا دفن حاجى محمود ابن الحاجى محمد افندى الرومى الذى زار هذه القبور فى اليوم العشرين من ذى القعدة ، من السنة الرابعة بعد الف ومائة وستين للهجرة (١٧٥١ م)

وكان انتشار الاسلام فى عهد (تانغ) لم ينحصر فى مدينة كانتون . بل توغل الى مدن أخرى ، منها جزيرة (هاى نان Hainan) المواجهة لولاية (كوانغ تونغ) . وقد استولى الصينيون على هذه الجزيرة قبل الميلاد بقرنين على الأقل . لكنهم لم يهتموا بها من الناحية التجارية والسياسية حتى أوائل القرن السابع الميلادى فقسمت فى سنة ٦٢٧ م ، الى ثلاثة مديريات فعين على كل مديرية رئيسا يدبر شئونها وفى سنة ٧٨٩ م زيد فيها رباط عسكرى .

وأما العادات واللهجات فى هذه الجزيرة ، فهى تختلف كثيرا عن أهل الصين حتى عن سكان كوانغ تونغ مع أنهم أقرب الناس مجاورة لهم . فالسكان فى هذه الجزيرة من أصحاب الصدق والوفاء يجتهدون فى العمل والكسب ، ويتحملون ضروب الألوان من التعب والمشقة . ويشتغل أكثرهم فى صيد السمك . ثم

لا يوجد فيهم غنى كبير أو مثر عظيم ، غير أنهم رجال اقتصاد فى المعيشة ومن ذوى الاعتدال فى النفقات فلذا لا ترى فيهم فقيرا ولا متـولا حتى فى السنة السوداء [1]

هذه الصفات الحميدة التى رويت عن أهل (هاى نان) فى الكتب والابحاث، قد تكون من أثر الاسلام الذى وصل هناك بوساطة التجار العرب فى عهد (تانغ). لأن الكتب القديمة تشهد بوجود تجار العرب فى هذه الجزيرة. فى بعض الاحيان تعرضوا فيها للصوص البحر ونهبت أموالهم.

وفى الكتب الصينية القديمة توجد بعض الاسماء لهؤلاء اللصوص، منهم « جن ووجين » من سكان (جن شو Tsisnchow) وهى غاى مين الآن. كان هذا اللص يملك ثروة عظيمة وعد من أغنى الناس فى الجزيرة وكانت عنده مخازن قد ملئت من قرون كركدن والعاج وغيرها من البضائع الثمينة. وكان أصل ثروته من تجار العرب، وذلك أنهم لما كانوا غرقى فى البحر، وضع يده على أموالهم ولقد روى فى بعض الكتب الصينية، أن سكان تلك الجزيرة كانوا يعرفون السحر. فتجار العرب أو المسلمين الذين كانوا يتاجرون فى بحر الصين، لما ضلوا سبيلهم فى البحر بسبب العاصفة أو الطوفان، يرسون مراكبهم فى ساحل (جن شو) فصعد هذا اللص الى جبل قريب ومنع مراكبهم من الخروج بوسيلة السحر الذى عرفه، فنهب أموالهم فأصبح عندئذ غنيا [2]

ويقول مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » فى موضع آخر وهو ينقل عن تذكرة غزوات (تانغ تانى هاءو) الى الشرق، أن (هانيوفانغ) وكان لصا مشهورا فى عصر (تيان باو)، كان ينهب عادة ثلاث سفن إيرانية كل سنة فأخذ ما فيها من البضـــائع والأموال والجوارى وذهب بها الى القرى بشمال المدينة على مسافة ثلاثة أيام، أو الى جنوبها على مسافة خمسة أيام [3]

---

(1) Ency. Brit. Art. Hainan

(2) Ancient China's Relation with the Arabs. P. 99.

(3) Ancient China's Relation with the Arabs. P. 99

نفهم من هذه الأقوال ، أن العرب والايرانيين ـ وهم مسلمون بدون شك ـ ، قد وصلوا إلى (هاى نان) فى عهد (تانغ) بغض النظر عما أصابهم من الغرق والنهب وما إلى ذلك من المصائب والآفات

ويوجد فى كتاب « جو فانكى » ما يأتى : أن الصينيين قد أنشأوا معبدا لربان مسلم فى جهة الشرق من مدينة (غاى شو) ليصلوا فيه . واليه يأتى أصحاب المراكب ليقدموا النذور لروحه ، إذا مروا هناك . ويقال لهذا المعبد ، « بيجو تو كان ميو » قال الأستاذ هيرت وهو يستند الى مدونات كانتون الرسمية بأن فيها ذكرا عن معبد يقال له جوان ميو Chao Yin Miao والمعبود فيه هو بيجو أى الربان وهذا المعبد معروف بين الأهالى بمعبد المعبود الاجنبى. ولحم الخنزير محظور فيه النذر(١)

ويقول مؤلف علاقة الصين القديمة بالعرب أن هــذا المعبد على ٣٥ ميلا من المدينة بجهة الشمال الشرقى على خور يسمى بحيرة نيلوفر فالمعبود الذى يقدسونه هو ربان ، وفى سنة ١٣٧٠ م فى عهد الامبراطور (هونغ — وو Hung - Wu رفع درجة هذا المعبود الى درجة آلهة الميناء ، وحظر لحم الخنزير فيه قربانا . فكان أصحاب السفن يأتون الى هذا المعبد ، يقدمون القرابين والنذور وهو مشهور الآن بمعبد الربان الاجنبى .

قلت فيما سبق أن الصينيين يعتقدون بأرواح الصالحين . وأثرها فى دفع الآفات وتحقيق السعادات ، فينشئون المعابد والهياكل لها ويقربون لها القرابين وينذرون لها النذور . فليس عجيبا أنهم قد بنوا هذا المعبد لربان كبير من العرب ، مات هناك ليعبدوا روحه تقربا وتفاؤلا كما يفعلون مع السيد الأجل فى ولاية يوننان . والدليل على أن الربان كان مسلما ، هو حظر لحم الخنزير فى النذور والقرابين . والحقيقة أن لحم الخنزير فى الصين من قديم الزمان الى الآن ، يعد حدا فاصلا بين المسلم وغير المسلم . فالمسلم الصينى يتجنب هذا الشىء الخبيث كل الاجتناب ، بل يكره النظر اليه ويظهر أن كراهة لحم الخنزير أمر غير خاص بالمسلمين الصينيين بل ينتظم جميع

(1) Chao Ju Kua : P. 188 .

المسلمين فى جميع الأوطان لأن دينهم يحرمه، وقد نعى ابن بطوطة على الصينيين عرضهم لحوم الخنازير فى الأسواق واليوم نجد فى (غاى شو) قبيلة أجنبية الأصل وقد روى أن آباءهم وردوا هناك فى عهد سونغ (٩٦٠ — ١٢٨٦ م) وعهد يوان (١٢٧٧ ١٢٦٧ م) من خليج فارس فى المراكب، فاستوطنوا فى سواحلها والذين يسكنون بسوسانيا، كلهم من ذريات أولئك الأجانب، ويلقبون فى أسمائهم بأبى فـلان ويحظرون لحوم الخنزير على منابذ أرواح آبائهم، كما هو الحال فى بيوت غير المسلمين ولهم معبد عام يصلون فيه ويتعبدون، فهيئاتهم الجسمانية وأصواتهم اللسانية كلها تشابه العرب غير أنهم قد تعودوا بعض عادات الأهالى فتراهم يتغلبون فى صيد الأسماك ويخرجون عشرها، ومنهم من يملك عقارات عظيمة نتيجة اجتهاده وكسبه، وهم فى الزواج لا يجتنبون أهل القبيلة وانما يحظرون الزواج من المحارم. ولا يتزوجون من غيرهم، ولا يتزوج غيرهم منهم، يقطنون بالأمكنة الساحلية، يهب عليهم الريح دائماء، وأما بيوتهم سواء كانت خصوصية أو عمومية، فليست من مبان عالية فالعوام منهم يسكنون الاكواخ، وأما الادارات فن هذه الأكواخ أيضا. فمن يسكن بقرب الماء؛ يصبح فى الأمواج ويمسى فى العواصف، وأما الذين يبعدون عن الماء فمساكنهم من أكواخ حقيرة، والأمراء منهم لا يتبرجون فى الزخارف والزينات، بل يقتنعون بمنازل قوية البناء متينة الاركان وفى (غاى شو) ست لهجات منها لهجة أجنبية يتكلم بها أهل سوسانيا (١)

نجد فى وغاى شو، الآن، نحو ألفى عائلة من المسلمين، أكثرهم أجانب باعتبار أصلهم، وبها أربع مساجد جوامع يجتمعون فيها أيام الجمع والأعياد. ولا شك أن دم العرب لا يزال يجرى فيهم مع اختلاطهم بالسكان الأصليين. وأعتقد أنهم من أهل سواحل عمان أو من حضر موت. لأن اليمانيين كانوا يحبون ركوب البحر ولهم عائلات فى سائى غون حتى الآن (٢)

---

(1) Ancient Chineo,s Relation with the Arabs. P. 100

(٢) سائى غون Saigon ميناء كبير شهير ببلاد آنام التى يقال لهـا الهند الصينية الآن

إن الاسلام قد وصل الى (جوانشو) والى (يانغ شو) والى « هانغ شو » أيضا. وكان ذلك على أغلب الظن قد وقع فى عهد (تانغ). لأن هذه المدن، كانت من الموانى الشهيرة التى قد فتحت أبوابها لتجارة العرب والايرانيين منذ القرن الثامن الميلادى غير أننا نعجز عن الاتيان ببعض التفصيل للحالة الدينية فى هذه المدن فى ذلك الوقت وذلك لعدم الأدلة المكتوبة فى تاريخ الصين القديم. وأما ما ذكر فى « تذكرة فوكين » وتاريخ « نغ عن وصول الاسلام إلى (جوانشو) و (يانغ شو) فى السنة العاشرة للهجرة ، فليس من البيان الصحيح ، كما أشرت إلى ذلك من قبل . لأن وصول الاسلام الى الصين ، قبل تعميمه فى بلاد العرب نفسها وقبل انتشاره إلى سواحل الهند ، إن لم يكن مستحيلا ، فعلى الأقل من غير المقبول عقلا . ومع هذا ، أعتقد أن وصول الاسلام إلى تلك الموانى فى أيام متأخرة من عهد (تانغ) يكون من أمور واقعة يؤكدها تاريخ (سونغ ٩٦٦ - ١٢٧٦ م) . أنك تجد الحديث عن وجود المسلمين بجوان شو ، فى عهد (سونغ) ، فى « تذكرة جوانشو » وكان من بين أشهر المسلمين ، أبو الشوقين ، وهو من العرب الذين وصلوا إلى الصين واستوطنوا بكانتون للتجارة . فانتقل أبوه إلى (جوانشو) فى آخر القـــرن الثانى عشر للميلاد ، وبناء على ما ورد فى « تذكرة جوانشو » ، أن أبا الشوقين مع أخيه الأصغر كانا يشتركان فى تأمين سواحل فوكين ، حين كثر لصوص البحر فيها وهددوا سلامة أموال التجار وحياتهم . فترقى بسبب هذه الخدمة الجليلة ، الى منصب مراقب سواحل فوكين . ثم إلى منصب أمين الأمور البحرية على ولاية (كانغ تونغ) و (فوكين) وهـــو منصب مراقب عام عـــلى السفن والمراكب [1] .

فى « جوفانكى » أو « التذكرة عن البلاد الأجنبية » ، نجد بيانا عن مسلم آخر استوطن بجوان شو ، فيما يلى - « كان تاجرا معروفا باسم السيراقى ، أصله من بلاد العرب واستوطن بضاحية جنوب (جوان شو) وكان ذا ثروة عظيمة

(1) Ancient China's Relation with Arabs. p. 234

مطلق اليدين ، فاعل الخيرات ، ساهرا على المكارم التى امتاز بها قومه . فاشترى أرضا ووقفها لمدافن مواطنيه الذين قد لقـوا حتفهم بهذه الديار الغريبة فدفنوا فيها (١) » .

فلنفرض أننا لم نجد هذه البيانات فى الكتب الصينية ، شهادة على وصول الاسلام إلى تلك المدينة فى ذاك الزمان . إذن فمن يستطيع أن ينكر وجود الجامع الطاهر الذى أنشىء فى سنة ١١٢١ م بجوان شو . ألا يكفى هذا الجامع دلالة على كثرة المسلمين بتلك المدينة العظيمة ، فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ؟ لقد قام هذا المسجد فى ضاحية الجنوب التى كانت مستوطنا لتجار العرب وإيران وتوجد فيه لوحة حجرية مكتوبة بيد عالم اسمه « ووكان » . ويقول مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » — « أن ووكان ، كان عالما من علماء يوان ، عاش فى عـهد (كى جينغ Ki-Cheng ١٣٤١ – ١٣٦٧ م . فانه قد ترك كتابا فى تقويم البلدان فى عشرين جزءا . وأما ووكان فذكر فى هذه اللوحة التذكارية بعد بيان وجيز عن حالة الاسلام فى بلاد العرب قائلا : « أن نجيبا مظهر الدين جاء فى مركب تجارة من سيراف إلى (جوانشو) فى سنة ١١٢١ م) فأنشأ مسجدا بضاحية جنوبها واشترى الأراضى ووقفها للمسجد وعمره بالصلاة والعبادات حتى زمن متولى أحمد الذى غفل عن واجباته وترك المسجد خربا حتى سنة ١٣٥٠ م . قدم فى هذه السنة ، خضر ، رئيس محكمة (فوكين) ، فدعا إليه شيخ الاسلام برهان الدين والخطيب شرف الدين وجماعة من المشهورين . فسألهم عما يشكون منه . فذكروا له تخريب المسجد وعدم اهتمام الناس بأمور الدين . فوكل تارو خواجة الذى قدم من طوغان أن ينظر فى هذا الأمر فاجتمعوا وتبادلوا الرأى فاختاروا إصلاح ما خرب من المسجد . ففرح الناس جميعا سواء أكانوا من طبقة العوام أم من طبقة الخواص . فكان بتلك الضاحية مثر عظيم معروف باسم على من عائلة (كين) فأخذ على عاتقه جميع النفقات اللازمة لأعمال الترميم . فتم الأمر ولله الحمد .

---

(1) Chao Ju-Kua : p. 199.

ويقول (ووكان) فى آخر اللوحة التذكرية — «أن برهان الدين قد بلغ ١٢٠ عاما من العمر وكان عالما عميقا فى العلم، حسن المعاملة، قوى الجسم، كرجل فى مقتبل العمر. وكان رئيسا دينيا بالجامع وأما المتولى فهو أحمد»[1].

لقد زار هذا الجامع، ابن بطوطة، فاجتمع فيه بأكابر العلماء المستوطنين بمدينة (جوانشو) مثل تاج الدين الأردويلى وكمال الدين عبد الله الاصفهانى وبرهان الدين الكازرونى. ومن قوله أن كمال عبد الله هو شيخ الاسلام، وشرف الدين التبريزى من كبار تجارها وبرهان الدين من مشايخها الفضلاء) وأما ترمم المسجد فقد وقع بعد رجوع ابن بطوطة بعدة سنين فقط.

ومن المدن التى دخلها الاسلام فى عهد (تانغ) مدينة (جانغ — آن، عاصمة الصين حينئذاك، فتاريخ العرب شاهد على ذلك مع غض النظر عما جاء فى الكتب الصينية، فالبعثة التى بعثها قتيبة بن مسلم الباهلى إلى عاصمة الصين برياسة هبيرة بن مشمرج، فى سنة ٧١٥ م — ٩٦ هـ، من الحقائق التاريخية التى اتفق عليها جميع المؤرخين. وقد ذكرتها بالتفصيل فى باب العلاقة السياسية ولا حاجة بى الى إعادة ذكرها هنا. وأما الكتب الصينية فقد ذكرت وصول وفد العرب رسميا إلى (جانغ —آن) فى سنة ٦٥١ م. فقالوا للامبراطور أن حكومتهم قد أسست منذ ٣٤ سنة وعلى العرش الملك الثالث الآن. وذكر (تانغ شو الجديد)، أن وفدا آخر من العرب وصل إلى عاصمة الصين فى سنة ٧٠٣ م.

وأتى بالجياد والخيول والسروج الجميلة، هدايا إلى الامبراطور (يونغ جونغ) فلما مثلوا بين يديه رفضوا أن يسجدوا له سجدة التعظيم، كما كان الوفود من البلاد الأخرى يفعلون، متعللين بأنهم لا يعبدون فى بلادهم إلا الله القهار. وكان وزير المراسيم يتميز من الغيظ وهم بقتلهم، لكن وزيرا من وزراء الدولة تقدم، وشفع

---

(١) تستعمل كلمة (متولى) فى الهند وإيران فى معنى (مدير المسجد) وهو المراد هنا.

لهم بحجة أن آداب الدولة تختلف باختلاف الأمم فلا ينبغى أن يعتبر رفضهم للسجود للامبراطور، ذنبا من الذنوب التى يعاقب عليها بالقتل فى بلاد الصين [1].

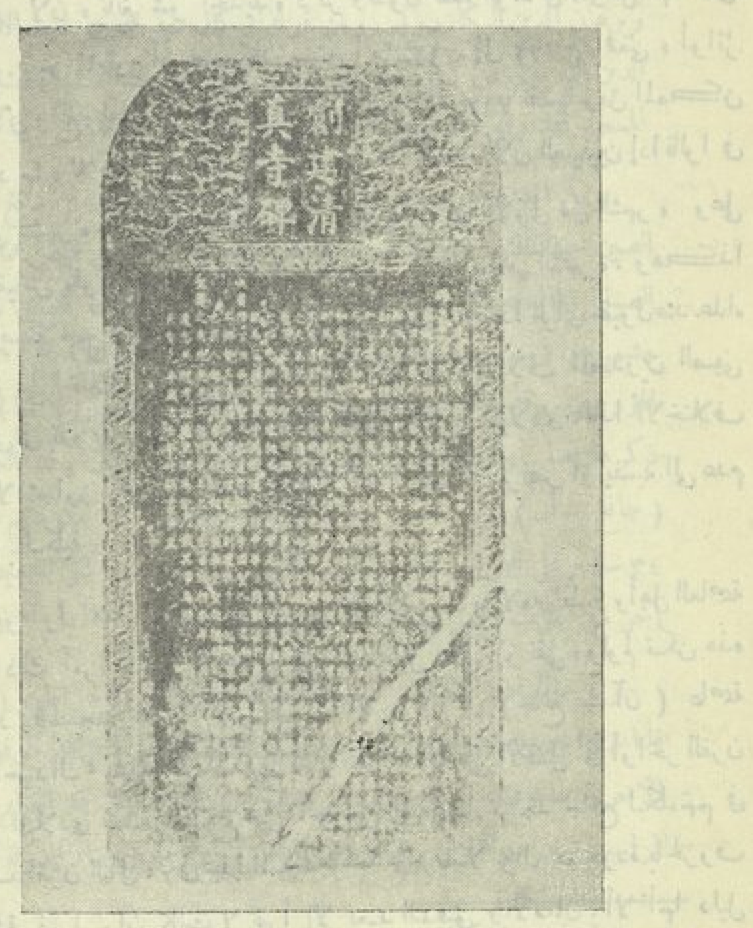
ويرى المحققون فى تاريخ الصين، أن الوفد الذى وصل إلى عاصمة الصين سنة ٧١٣ م كما ذكر فى «تانغ شو الجديد»، هو الوفد الذى بعثه قتيبة بن مسلم فى سنة ٧١٥ م. لأن «تانغ شو الجديد» ذكر وصول هذا الوفد فى «أوائل عهد كائى وانغ». ومن المعلوم أن عهده كان مستمرا من ٧١٣ إلى ٧٢١ م. فمعنى «أوائل عهد كائى وانغ» ليس من الضرورى أن يراد به سنة ٧١٣ نفسها ومن الممكن أن يراد بها «ثلاث السنوات الأولى» من هذا العهد. لأن الصينيين إذا قالوا فى «أوائل الشهر»، فالمراد منه عادة، هو «الايام العشر الأولى من الشهر». وعلى هذا القياس يكون تعبيرهم فى «أواسط الشهر» أو «أواخر الشهر». وهكذا يكون اصطلاحهم فى الأمور التى تتعلق بالزمان. ويظهر أن هذا الرأى مقبول عند علماء التاريخ على اختلاف جنسياتهم وطبقاتهم، ثم أن اختلاف المصدرين الصينى والعربى فى تدوين واقعة تاريخية تتعلق بالقرن الثامن الميلادى، هذا الاختلاف الذى لا يتجاوز سنتين، لا يكون اختلافا كبيرا يجب أن يرفض أو ينسبه الى عدم الصحة بالكلية.

وبوصول هذا الوفد، بلغ صوت الاسلام مسمع الامبراطور وأهل العاصمة وكان ذلك أمرا بدهيا لا يحتاج إلى أى دليل عقلى أو نقلى، ولولم تكن هذه الوفود، فالمسجد الذى أسس فى سنة ٧٤٢ م، فى (جانغ — آن) عاصمة الصين حينذاك، يشهد بأن المسلمين قد وصلوا هناك على الأقل فى أواخر القرن السابع الميلادى فكثر عددهم حتى احتاجوا إلى إنشاء مسجد جامع لكلهم فى منتصف القرن التالى، وفى هذا المسجد لوحة حجرية لا تزال موجودة بالحروف المنقوشة فيها وإن كانت لا تقرأ إلا بعد التدقيق والامعان. إلا أنها دليل على ما نقول.

---

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 46.

وأكثر المؤرخين ينكرون صحة النصوص الموجودة فى هذه الكتابة التاريخية فينسبونها إلى اختراعات الأيام المتأخرة عن تأسيس المسجد بقرون. وذلك بناء على عدة أدلة علية. وهذه صورة فوتوغرافية لهذه الكتابة التاريخية الموجودة فى جامع (جانغ — آن) باللغة الصينية طبعا والآن نحاول أن نحقق هذه الكتابة ونحللها بعد نقل معانيها إلى اللغة العربية.



أقدم كتابة (Inscription) إسلامية باللغة الصينية منقوشة فى الحجر.
يقال أنها كتابة تذكارية لتأسيس جامع (سى — آن) سنة ٧٤٢ م

١ — صدر الكتابة : « تذكار لتأسيس المسجد »

٢ — السطر الأول من اليمين « كتابة التذكار لتأسيس المسجد »

٣ — السطر الثاني من اليمين : إختار نصوص الكتابة (وانغ كونغ) Wang Kung الدكتور فى القانون ، ورئيس إدارة المالية والاحصاءات .

٤ — وأما نصوص الكتابة فكما يلي :

« الذى لاشك فيه إلى الأبد ، هو الحق ، والذى يحس به فى كل وقت هو القلب . فكان الانبياء متفقين على الحق باتفاق شعور قلوبهم ، فيجمعون على عدم التصديق للمشرك وإن اختلفت عصورهم ، أما الانبياء ، فقد بعثوا فى كل مكان ، فيعرفون بتأكيدهم لكلمة الحق ودعوتهم إلى فهمه بالعقل ، ومن المعلوم أن ظهور محمد النبي العربى (ص) قد وقع فى بلاد العرب ، بعد (كانفوشيوس) بزمن بعيد وفى مكان قاص ، فى بيئة غريبة ، ولغة غير مفهومة عندنا . لكن ما هو السبب الذى جعلهما متحدين فى المبادىء ، وما هو الداعى الذى قد دعا إلى توافق تعاليمهما إنما ذلك هو اتحاد شعور القلبين وفى رفع لواء الحق كانا متفقين . لقد صدق القائل فى سالف الزمان — إذ قال أن قلب الانبياء لا يختلف بكثرة الأشخاص ، والحق لا يتفاوت بتفاوت الأزمان .

لاريب أن زمنه قد مضى ، وشخصه قد فنى : لكننا نعرف من الكتاب والأحاديث أنه ولد عالما على خوارق العادة ، عارفا بدقائق ما تحت الأرض وما فوق السموات ، وحقائق التخليق وأحوال الكائنات ، مطلعا على أسرار الحياة والممات ، ضليعا بمعلومات عن فوائد طهارة الابدان ومبادىء تربية الأخلاق ، فيعلم الناس قتل النفس الامارة بالصوم ، وإظهار الاخلاص بايفاء العهود ،

وقهر الشهوات بأفعال الخيرات، وتطهير القلوب بشعور مصير المخلوق ، والتعاون بالزواج والتعاطف بالاشتراك فى الأحزان والمآتم

حاصل الكلام أن شئون الحياة ، كبيرة كانت مثل مسائل الأخلاق ، أو صغيرة مثل حركات المآكل والمشارب ، كلها موضوعة فى نظام مقيدة بحكم دينى ، نظرا إلى الخوف من غضب الله ورجاء رحمته .

نعم هناك بعض التفاصيل يتفرع من هذا التعليم ، لكنها تسوق إلى غاية واحدة إجلالا لله خالق الكائنات والموجودات ، كفى بهذا الدين الذى لا يدعو إلا إلى كلمة الوحدة، ويرشد العقول إلى فهمه، فان أصوله توافق قول الامبراطور (يو—Yao) « هللوا للسماء الأعلى » وقول الامبراطور (شانغ Shang) أصلحوا أمور دنياكم بالعبادة، وقول (وين وانغ — Wen Wang) « إنما العبادة للخالق » وقول (كانفوشيوس) « أين الدعاء من إغاظة السماء » ، فواضح أن هذه الأقوال من منبع واحد، فان الأنبياء يتحدون فى الشعور والايمان

ولا يخفى على القارىء أن إيمان الأنبيا لا يتفاوت، وشعورهم لا يتباين، فتجد فى تعليم أحدهم تعاليم الآخر ، غير أن تعاليم محمد (ص) التى شاعت فى بلاد العرب ، لم تكن مسموعة عند الصينيين ، فوصلت إلى الصين فى عهد (كائى وانغ) ، ثم انتشرت فى جميع أرجائها حتى عهد (تيان باو —Tian Pao) ، فلما رأى دين النبى العربى (ص) يتفق مع ديانات حكماء الصين فى إرشاد الناس إلى صراط مستقيم، أمر رئيس المهندسين واسمه (لوتيانجو) فى عمل الترتيب لتأسيس مسجد يجمع شمل عامة المسلمين، كما أمر بدر الدين أن يدير أمور الدين فيه وهو عالم ضليع بالعلوم ، فقبل وظيفة الامامة فى المسجد للجماهير فى الصلاة والعبادة

لقد بدأ العمل فى يوم مبارك من الشهر الثالث فى السنة الأولى لعهد (تيان باو) وتم بناؤه فى اليوم العشرين من الشهر الثامن ، ثم اقترح الامام بدر الدين نصب لوحة حجرية تخليدا لذكرى هذه الأعمال الخالدة لكيلا تكون نسيا منسيا

بمرور الزمان ، ولكى يستطيع الباحثون أن يهتدوا الى معرفة أحوالها السابقة وحقيقتها الغابرة

. . . . منصوبة فى فصل الخريف سنة ٧٤٢ م .

ويقول الذين ينكرون أصل هذه الكتابة ، أن هناك عدة دلائل فى الكتابة نفسها ، تدل على عدم صحتها

أولا: أن نص الكتابة تدعى دخول الاسلام فى الصين فى عهد (كائى وانغ) أى بين سنة ٦٠١ و ٥٨١ م ومعنى هذا أن الاسلام قد دخل الصين قبل النبوة[١] وهذا مستحيل . لأنه يخالف الواقع والحقيقة ، وهذا رأى مارشال بروم هال .

وثانيا: أن كلمة تيانفان مذكورة فى هذه الكتابة وتاريخ الصين يشهد بأن هذه الكلمة لم يستعملها فى معنى بلاد العرب إلا كتاب عصر (منغ Ming ١٢٦٨ — ١٦٤٢ م) لأن العرب كانوا معروفين فى تاريخ (تانغ) باسم (تاشى) وهى كلمة محرفة عن تازى الفارسية . وتعرف بلاد العرب فى عهد (يوان) باسم (بلاد تيان فان) أى بلاد الكعبة ، وعلى هذا يعتقد الدكتور ديريه Deuérie أن تاريخ هذه الكتابة لا يكون أقدم من ١٣٥١[٢] .

ثالثا : أن عبارة الكتابة من ناحية الأسلوب لا تشابه الأسلوب الذى كان شائعا فى عصر (تانغ) وكبير من كبار المؤرخين قد حقق عبارات هذه الكتابة فلم يجد فرقا بين أسلوبها وبين أسلوب الأدباء فى عصر (سونغ) ثم ترجمة صوتية على أقرب الصوت لكلمة محمد ، تدل على أنها من صناعة أهل عصر (منغ) (١٣٦٨ — ١٦٤٢ م) ومن رأى هذا العالم أن العبارة الموجودة فى الكتابة غير العبارة الأصلية ، يعتقد ذلك الى درجة اليقين غير أنه يقول من الممكن أن لوحة التذكار قد نصبت فى سنة ٧٤٢ م ، ولها عبارة أصلية كتبها الدكتور (وانغ كونغ) غير المكتوبة الآن لأن ترجمة الدكتور المذكور توجد فى تاريخ الصين

(١) سنة النبوة ٦١٠ م

(٢) الاسلام فى الصين لمارشال بروم هال ص ٨٨

لهذا العهد وكان من الادباء البارزين وإنما وقع التغيير فى الكتابة وكان ذلك بمحو العبارة الأصلية من اللوحة فى عصر (منغ) إذ كانت الترميمات والتصليحات قد أجريت فى المسجد من حين لآخر ، فوضعت فى محلها عبارة أخرى لأهل هذا العصر ثم نسبت الى الدكتور (وانغ كونغ) كما كانت وكذلك أبقـوا تاريخ التأسيس كما كان فلذا نرى أن الكتابة الموجودة تغاير أسلوب عصر (تانغ) مع أنها منسوبة الى هذا العصر واسم الدكتور (وانغ كونغ) لايزال منقوشا فى لوحة التذكار وكذلك تاريخ التأسيس

هذا رأى الأستاذ (جين بوان) أستاذ التاريخ فى جامعة بكين

ولا شك أن الترميمات قد وقعت فى هذا المسجد التاريخى عدة مرات وقد سجلت هذه الترميمات وقائع شنس الرسمية فى السنين الآتية

أجرى ترميم هذا المسجد لأول مرة فى سنة ١١٢٧ م فى عهد (سونغ) على نفقات الأمير عبد الله ، وللمرة الثانية والثالثة فى عهد (يوان) . فكانت إحداهما على نفقة السيد الأجل فى سنة ١٣١٥ م ، وأما المرة الرابعة فكانت فى عهد (منغ) إذ كانت الصين تحت حكم السلطان (هونغ — وو : Hung-wu) على نفقة الحاج جهان الخصى الشهير عند هذا الأمبراطور .

ولوقوع هذه الترميمات فى عصور مختلفة ، يميل كل باحث فى نصوص هذه الكتابة التاريخية إلى الاعتقاد بأن التغيير قد وقع فى عبارة الكتابة الأصلية ولعلها فى المرة الثالثة أو المرة الرابعة . قال « يسوتيرسان دابرى ، صاحب « المحمدية فى الصين » باللغة الفرنسية — « أن هذا المسجد كان يحمل أسماء شتى فى عصور مختلفة . وبناء على رأيه وهو يتكلم عن المراجع الصينية بدون ذكر اسم الكتاب أو اسم المؤلف ، أن هـذا المسجد يسمى باسم « تسنغ جيوتزى أى معبد الدين الطاهر . ثم غير إلى اسم « تانغ منغ تزى — 寺明堂 » أى معبد النور المشرق . لكن السيد الأجل الذى رمم هذا المسجد فى سنة ١٣١٥ م ، باذن الأمبراطار ، بـدل هـذا الاسم إلى « تسنغ جـين تزى

أى معبد الدين الطاهر الحقيق . ولأن الكتابة تحمل الاسم الأخير فى صدور سطورها ، ذهب المارشال بروم هال إلى ترجيح أن لوحة التذكار نفسها قد نصبت فى سنة ١٣١٥ م .

وأنى لأرى أن رأى الأستاذ جين بوان ، أستاذ التاريخ فى جامعة بكين أقرب إلى الصواب. لأن وقوع الصينيين فى الأغلاط التاريخية لا يستبعد للجهالة أو لحسن الظن . وأما الافتعال قصدا ، فذلك من صناعات المستشرقين ، كما فعلوا بتاريخ الاسلام وتاريخ الأمم الشرقية ، وكل ما وقع من الأغلاط التاريخية فى « أصل المسلمين » والنسل من الغرب ، وفى الكتابات التى تحمل تاريخ منغ ، قد نشأ لأحد السببين .

وأما الكتابة التى فى مسجد (جانغ - آن) ، وقد بنى فى القرن الثامن الميلادى ، فيظهر من الدلائل العلمية ، أن التغيير قد وقع فى نصوصها . وعلاوة على الدلائل التى أدلى بها ، مؤرخ الصين « جين يوان » ، عن هذه الكتابة ، أجد فيها أدلة أخرى فى تأييد نظريته .

أولا - أن جميع الكتب القديمة من عهد تانغ الى عهد يوان ، لم تذكر وصول الاسلام إلى الصين فى عهد كائى وانغ (٥٨١ - ٦٠١ م) بخلاف كتب عهد منغ . فانها تذكر ذلك . فلذا نجد أن كثيرا من المؤلفات لهذا العهد ، قد ذكرت وصول الاسلام فى عهد (كائى وانغ) ؛ ولعل لهذا سببا غير معلوم عندنا حتى الآن .

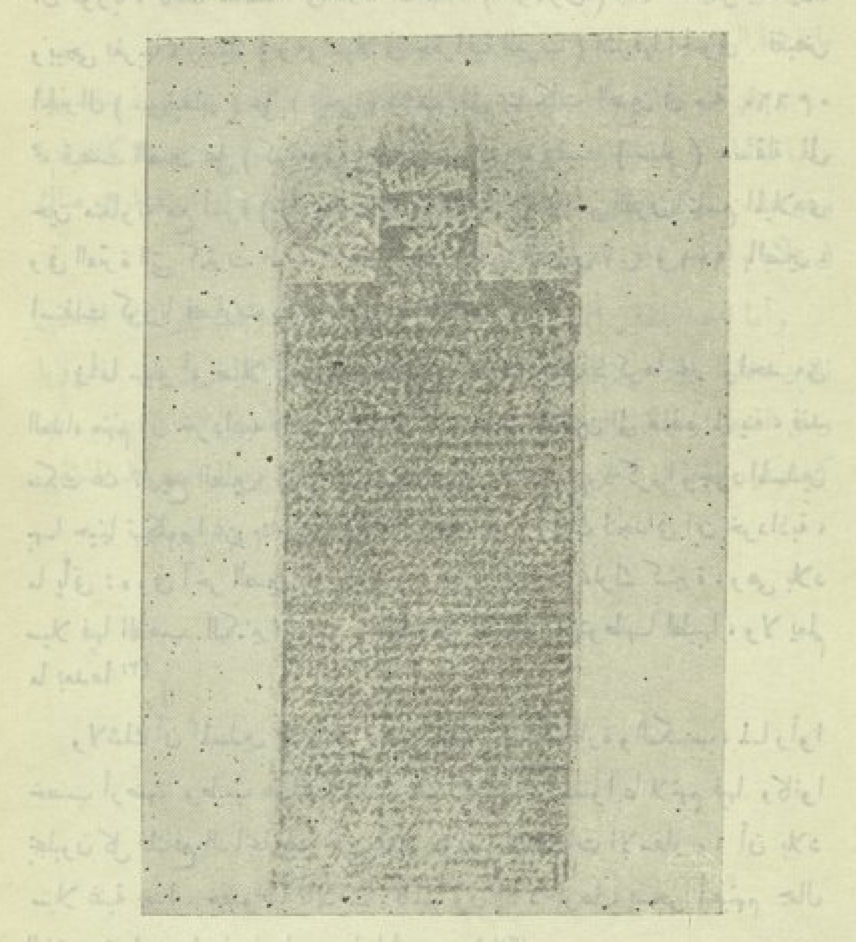
ثانيا أن عبارة الكتابة من ناحية المعانى تشبه كثيرا التصانيف التى ألفها المسلمون فى عصر منغ ، مثل « تيانفان ديانلى » و « تيانفان شلى » و « جى شن شيلو » وغيرها من الكتب التى أخرجها الكتاب المسلمون ، فلا نرى هذه للمعانى المشتركة بين تعاليم كانفوشيوس وتعاليم الاسلام فى الكتابات التى بكانتون أو بهانغ شو ، أو نجوان شو .

ثالثا - وهو أقوى الأدلة عندى فى أثبات وقوع التغيير فى نصوص الكتابة التى بمسجد (جانغ - آن) ، أن هذه الكتابة قد ذكرت اسم الامام وهو بدر

الدين» (樞部丁的) ومن الشاذ أن تجد اسما لعالم عربى الأصل يضاف إلى «الدين» وهذه العادة لم تكن شائعة فى القرون الأولى للهجرة بين العرب وقلما يستعملون اسما كهذا أو أمثاله من كل ما يضاف الى «الدين» — لأبنائهم حتى اليوم ، ولا شك أن هذه العادة من خصائص أهل خراسان وبلاد الفرس وما وراء النهر بعد دخولهم فى حظيرة الاسلام ، وأنهم كانوا مولعين بتسمية أبنائهم باسم شطره الآخر يحمل كلمة «الدين» مثل «سراج الدين» «وتاج الدين» و «آفتاب الدين» و «برهان الدين» وهلم جرا.

نعم ، من الممكن أن بدر الدين هذا ، المذكور فى الكتابة الصينية من أصل عجمى ، جاء إلى عاصمة الصين فى القرن الثامن الميلادى . فكان من الممكن أن نعتقد هذا لو لم نعثر على شهادة تثير الشك فى هذا الاعتقاد وهذه الشهادة هى كتابة عربية وجدت فى مسجد (جانغ آن) نفسه ، ومن عجيب الاتفاق أن هذه الكتابة العربية ، قد نقشت على ظهر تلك الكتابة الصينية التى بحثنا عنها آنفا إذا ألقينا نظرة إلى وجهة هذه الكتابة ، نرى أنها مكتوبة بالخط العربى الجميل ، وهذه الكتابة تحمل تاريخ ٩٥٢ هـ — ١٥٤٥ م . وأما عباراتها فواضحة جدا ، تستطيع أن تقرأها بسهولة من أولها إلى آخرها ، ويظهر من محتوياتها أنها شاهد لشيخ من الصالحين ، ولعله كان إماما بالمسجد يسمى «بدر الدين بن شمس الدين السونكانكى مات بجانغ آن ودفن هناك ، فنصب أهل المدينة له شاهدا يدعى أنه من سلالة أهل البيت وليس بينه وبين صاحب الرسالة (ص) سوى ثلاثين أبا فلما وجدنا اسم «بدر الدين» مثبتا فى هذه الكتابة العربية فطنت الى «بدر الدين» الذى ذكر فى الوجه الثانى من الشاهد ، وإذا كان الأستاذ «جين يوان» مصيبا فيما زعم من وقوع التغيير فى عبارات الكتابة التى يرجع تاريخها إلى ٧٤٢ م ، فى عهد (منغ) (١٣٦٨ م — ١٦٤٢ م) ، وإذا سلمنا أن هذين الاسمين لرجل واحد جاء ذكره فى الكتابتين — العربية والصينية ، فمما لا شك فيه أن التغيير قد وقع فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، إذ كان بدر الدين إماما فى جامع (جانغ - آن).

ومع اعتقادى بهذا التغير فى عبارات الكتابة ، أعتقد أيضا أن الكتابة نفسها ، وكانت لها عبارة أصلية من آثار الاسلام التى يرجع تاريخها الى سنة ٧٤٢ م وهى شهادة صامتة ناطقة بوجود المسلمين بعاصمة الصين فى ذاك الوقت .



كتابة عربية على ظهر الكتابة الصينية ، السابقة الذكر بجامع (سى - آن) وهى شاهد للشيخ الامام بدر الدين بن شمس الدين السوكاكى المتوفى سنة ٩٥٢ هـ - ١٥٤٥ م

ويحسن أن أختم هذا الباب بكلمة عن وصول المسلمين فى عهد (تانغ) الى سيلا ، ميناء قديم فى كوريا . يقول مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » ، أن كوريا ، كانت مقسمة الى ثلاثة ممالك : (كوجولى) بشمالها تتصل بالصين ، وبيجى بغربها ، وسيلو (وهو سيلا فى جغرافية العرب) بشرقها الجنوبى . فقبض الجنرال (سوتيفان) على (بيجى) وضمها الى ممتلكات الصين فى سنة ٦٦٠ م . ثم قبضت الصين على (كوجولى) فى سنة ٦٨٠ م ، فبقيت (سيلو) مستقلة الى حين متعاونة مع أسرة (تانغ) ثم زال استقلالها فى أواخر القرن التاسع الميلادى وفى الفترة التى كثرت فيها الاضطرابات والثورات بين ٩٠٢ و ٩٢١ بالصين ، استقلت كوريا فصارت دولة ذات سيادة مختارة [١] .

وأما سيلو أو سيلا كما ورد فى الكتب العربية ، فقد ذكرها غير واحد من العلماء منهم ابن خرداذبه والقزوينى . وأما وصول المسلمين الى هذه المدينة ، فقد سكت عنه تاريخ الصين ، لكن علماء العرب قد لاحظوه وذكروا وجود المسلمين بها حينما تكلموا عن مناخها وتجارة العرب ، فيها وإنك لتجد فى ابن خرداذبة ، ما يأتى : « وفى آخر الصين بازاء قالصو ، جبال كثيرة وملوك كثيرة ، وهى بلاد سيلا فيها الذهب الكثير ، ومن دخلها من المسلمين استوطنها لطيبها ، ولا يعلم ما بعدها [٢] .

ولاشك أن المسلمين الذين قد دخلوا هذه البلاد للتجارة والكسب ، لما رأوا خصب أرضها وطيب هوائها ، استوطنوا هناك وأسسوا عائلاتهم فيها وكانوا يجلبون كل المنافع السانحة لهم حتى يقول مؤلف « علاقات الاسفار » ، أن بلاد سيلا غنية جدا ، خصوصا بالذهب . فالمسلمون إذ دخلوها ، يسحر أعينهم جمال البلاد حتى استوطنوا بها ولم يرضوا بالخروج منها [٣]

---

(١) والحديث عن هذه الاضطرابات فى ابن الأثير والمسعودى وسليمان السيرافى

(2)Ferand : 33

(٣) ابن خرداذبه ص ٧٠

فان بيان ابن خرداذبة الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى عن وجود المسلمين بتلك البلاد دليل على وصولهم هناك قبل ذاك الوقت . إذا قلنا أنهم وصلوا هناك فى أوائل القرن الثامن ، ولا نظن أننا نتهم بالمبالغة فى البيان والتقدير . اذا أكدنا ما ذهبنا اليه

ويظهر من التاريخ ، أنهم ولو وصلوا هناك فى تلك الايام ، لكنهم لم يتخذوها وطنا دائما ، كما فعل العرب فى جزيرة (هاى نان) و (جواشو) و (كانتون) وغيرها من موانى الصين . فلذلك لا نجد فى أى مصدر إشارة الى استقرارهم هناك فى الأيام المتأخرة الى القرن العاشر للميلاد

وأما العدد القليل الذى بكوريا الآن ، فليس من ذريات أولئك المسلمين الذين دخلوا بلاد سيلا فى القرن التاسع الميلادى ، بل من المهاجرين من منشوريا ومن الصين ، وحالتهم الدينية ضعيفة جدا ، حتى لا تجد الفارق الظاهر بينهم وبين كفار كوريا إلا فى التحرج من أكل لحم الخنزير . والله يهديهم الى الصراط المستقيم .

١٩٤١/٨/١٨

الباب السادس

فى العلاقة الدبلوماسية

(١) . . . . . من عهد (تانغ) إلى عهد (منغ)

أن المراد بالعلاقة الدبلوماسية فى هذا الباب، هو السفارات التى تبودلت بين العرب والصين فى عصور مختلفة لأغراض شتى، منها ما يتعلق بالدين، ومنها ما يتعلق بالتجارة، ومنها ما يتعلق بإيجاد حسن الجوار. يختلف هذا الباب عن باب العلاقة السياسية فى أنه مقصور على البحوث التى تتعلق بالحروب والحركات العسكرية. وأما هنا فنذكر حركات السفراء والوفود، سواء أكانوا من العرب إلى الصين أو من الصين إليهم كما سنرى كل هذا فى الصفحات الآتية:

لا يخفى على القراء، أن هذا النوع من العلاقة، قد بدأ فى زمن الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين لأن تاريخ الصين يشهد بوصول وفد من العرب إلى عاصمة الصين فى السنة الثانية من عهد «يونخوى»، وهى توافق سنة ٦٥١ م. وكان غرض هذا الوفد، كما رأى القارىء فى الباب السابق، إخبار أمبراطور الصين ببعثة محمد (ص) رسولا من بين العرب، داعيا إلى التوحيد، وفهم معانى الحياة بالعقل. فاقتفى أثرهم وفود آخرون فيما بعد. ولاشك أن تاريخ العرب والاسلام قد سكت عن حركة أكثر هذه الوفود، غير أن تاريخ الصين لم يتركها؛ بل ذكرها فى كتب مختلفة لعصور مختلفة. يوجد ذكرها فى تاريخ الصين لعهد تانغ.

لقد سجل مع كتب الصين القديمة وصول أربعة وثلاثين سفارة من بلاد «تاشى» (العرب) فى قرن ونصف قرن من ٦٥١ إلى ٨٠٠ م. وكان مع وفود العرب، وفود من البلاد الأخرى، مثل فرغانة وسمرقند ومن بلاد الأواغرة — ومن

آرمنيا وسرنديب وبلاد الفرس . ومعنى هذا أن سفرهم كان عن طريق البر ، كما كان عن طريق البحر .

ولقد بحثنا فى المصادر العربية ، عن هذه السفارات وأغراضها وأسماء رؤسائها فلم نعثر إلا على قليل من المعلومات ، ولا ندرى إن كان ذلك ناتجا عن جهل الكتب التى ادخرت فيها المعلومات الضرورية عن هذه السفارات ، أو عن عدم تدوينها أصلا . ونعتقد أن قلة نجاحنا فى هذه الناحية من البحث ترجع الى السبب الثانى لا إلى الأول . ولو أن لدينا تصديقات من المصادر العربية لهذه السفارات التى ذكرت فى الكتب الصينية ، لكان سهلا علينا أن نهتدى إلى معرفة حقيقتها وحقيقة ماذهب تاريخ الصين اليه من الادعاء بأنهم قد جاءوا لتقديم الهدايا وحاصلات بلادهم وفى بعض الأحيان لتقديم الخراج . إنك تقرأ كل هذا فيما يلى .

وهناك مسألة أخرى نشأت عن سكوت المصادر العربية ولم نجد سبيلا إلى معرفة حقيقتها حتى الآن . ألا وهى ، كم سفارة جاءت من الخلفاء ، وكم أميرا من العرب الذين كانوا مسيطرين على زمام الحكم وبأيديهم مقاليد السلطة بما وراء النهر وخراسان؟ والظاهر أن السفارات الرسمية التى تبودلت بين أباطرة الصين والخلفاء الأمويين لم تكن كثيرة لأن الكتب العربية لم تذكر إلا عدة بعثات، منها ما بعث فى حكم قتيبة بن مسلم ، ومنها ما بعث من أبى الجعفر المنصور، وأما العلاقة الدبلوماسية بين الصين والخلفاء العباسيين ، فلا نشك فى وجودها ، لأن الأخبار عن وصول الوفود من «العرب ذوى الملابس السود» قد وردت فى مواضع عديدة فى كتب الصين القديمة وإن نقصت منها بعض التفاصيل .

ومن تاريخ (تانغ) ، نعرف أن سبع عشرة سفارة قد وردت من العرب إلى عاصمة الصين فى زمن الأمويين ، وخمس عشرة فى زمن العباسيين . فالسفارات العباسية ابتدأت من سنة ٧٥٢ م ، وما قبلها من الوفود قد وقعوا فى زمن بنى أمية

إن السفارات التى بعثت الى عاصمة الصين فى عصر بنى أمية ، كما وجدناها فى جفويوانكوى 册府元龜 كانت فى السنين الآتية .

٦٥٥ و ٦٨١ و ٧٠٣ و ٧١١ و ٧١٦ و ٧١٩ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و ٧٢٨ و ٧٢٩ و ٧٣٣ و ٧٤١ و ٧٤٤ و ٧٤٥ و ٧٤٧ م .

ويقول هذا المصدر ، أن السفارة التى وردت فى سنة ٦٥٥ م ، كان معها وفد من آرمنيا ، والتى فى سنة ٦٨١ م ، معها وفد من فرغانة ، والتى فى ٧١١ م ، ليست من بلاد العرب بل من مدينة الرى ، وفى هذه السنة نفسها وصلت سفارة من سرنديب وفى سنة ٧١٩ م ، جاء وفد من العرب ، كما جاء من فرغانة ومن سمرقند وجنوب الهند . وفى سنة ٧٢٥ وصلت سفارتان « الأولى فى الشهر الأول والثانية فى الشهر الثالث ، وكان سليمان رئيسا لهاتين السفارتين ، رافقه ١٣ عضوا من العرب فكان الغرض فى المرة الأولى هو التهنئة بعيد أول السنة الصينية ، وفى المرة الثانية تقديم حاصلات بلاد العرب ومنها الخيول ومنسوجات صوفية .

ولا نستطيع أن نعرف من المصـادر الصينية كم سفارة وردت من الخلفاء الأمويين إلى عاصمة الصين ؟ لأن كلمة (تاشى) فى تاريخ (تانغ) ولو أن المراد منها « العرب » ، لكن ليس من الضرورى أن يراد بها العرب الذين بدمشق أو بالعراق . ومن المحتمل أن يطلق على العرب الذين استوطنوا آسيا الوسطى أو غرب الهند . ويظهر أن السفارات التى جاءت فى حكم أمراء العرب بما وراء النهر وخراسان ، كانت أكثر مما بعث خلفاء بنى أمية فى دمشق . فالسفارة التى نعتقد إلى درجة اليقين أنها بعثت من دمشق ، كانت فى سنة ٧١٦ م لأن تاريخ الصين ذكر هذه السفارة بوضوح جدا حتى رفع كل الشكوك فى عدم صحتها . يقول « جفو يوانكوى » — فى الشهر السابع من السنة الرابعة لعهد (كاى يوانغ) وهى توافق سنة ٧١٦ م ، وردت سفارة من بلاد العرب مبعوثة من أمير المؤمنين سليمان ، لتقديم الهدايا إلى أمبراطور الصين ، وكانت مشتملة على عباءات منسوجة من خيوط الذهب ، والعقيق ورشاشات العطور وأشياء نفيسة خاصة ببلاد العرب . فوصفوا بلادهم وقدموا اليه بيانا كافيا عنها . فأنعم الامبراطور على السفير برتبة

الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه بفائق الاحترام ومزيد الاكرام (١) .

ولا نعرف سفارة أخرى ، غير هذه السفارة جاءت من دمشق رأسا ، لأن السفارات التى قبل سنة ٧١٧ م ولو نسبها تاريخ الصين إلى بلاد « تاشى » (العرب) لكنها غير معلومة من أين وصلت وأغلب الظن أنها وردت من العمال أو القواد الذين وصلوا إلى ما وراء النهر ، يحملون لواء الفتوحات والانتصارات . وأما ما وصل من وفود العرب بعد سنة ٧١٧ م ، فكلها من عمال العرب الذين بآسيا الوسطى . لأنك إذا نظرت إلى البيان الذى يوجد فى تاريخ الصين عن سفارة سنة ٧١٩ م ، فطن ذهنك بالبديهة بأن العرب الذين وردوا فى هذا البيان ، غير الذين بدمشق . لقد أدعى تاريخ الصين أن وفودا من العرب قدموا فى هذه السنة ، لتقديم الخراج . كما كان يفعل وفود فرغانة وسمرقند وجنوب الهند (٢) ومن المعلوم أن العرب فى زمن الأمويين لم يدفعوا الخراج لأية دولة من الدول . ثم الخراج لا يدفع إلا من دولة مغلوبة على أمرها، إلى دولة مسيطرة عليها . فالعرب لم يكونوا مغلوبين أمام القوات الصينية فى أواسط آسيا . فلا معنى إذن ، لكلمة « الخراج » هنا . بيد أنه من الممكن أن بعض العمال فيما وراء النهر قد أهـــدوا أشياء إلى أمبراطور الصين، وبعثوا بعثات خاصة لهذه الأغراض،أو لأغراض أخر كجس نبض سياسة الصين وأحوالها الداخلية . فادعى تاريخ الصين أن هذه الهدايا هى الخراج من العرب . والله أعلم بالصواب .

وأما السفارة التى وردت فى سنة ٧٢٥ م ، فمن قائد من قواد العرب بما وراء النهر بدون شك . وقولنا هذا ، بعض الأدلة . وبناء على ما جاء فى تاريخ الصين نفهم أن وفد العرب ، قد ورد مرتين فى هذه السنة . فكانت المرة الأولى فى الشهر الأول والأخرى بعد شهر . ويذكر أيضا أن رئيس الوفد فى كل مرة ، هو سليمان يرافقه ١٣ رجلا من العرب ، ومن اليقين أن مدة وجيزة نحو شهرين ،

(1) Ancient China's Relation with the Arabs. p. 61
(2) Ancient China's Relation wth the Arabs. p 61.

لا تكفى لفارس أو راجل أن يقطع تلك المسافة البعيدة بين عاصمة الصين وهى (جانغ — آن) وبين دار الخلافة وهى دمشق . فهاتان السفارتان إذن لم تكونا إلا من بلدة قريبة من حدود الصين . وذلك لا شك فيه .

أما رئيس الوفد سليمان ، فمن كان وما علاقته بالعرب فيما وراء النهر ؟ ويظهر من تاريخ العرب فى آسيا الوسطى ، أنه سليمان بن أبى السارى الذى اشترك فى محاصرة خجند ، بلدة قريبة من كاشغر ، تحت قيادة سعيد بن عمر الحراشى وكان ذلك فى سنة ٧٢٢ م[1] ولعل أسد بن عبد الله بعثه الى الصين فى سنة ٧٢٥ م[2] لكسب الصداقة من أمبراطور الصين وترغيبه عن مساعدة رئيس الاتراك الذين كانوا يعوقون طريق العرب فى فتوحاتهم الى الشرق ، ويقلقون مضاجع حكوماتهم التى لم تستقر ، بسبب النزاع القائم بين اليمنيين والمضريين فى تلك البقاع من أرض الله .

يخبرنا تاريخ الصين بورود وفود العرب فى سنتى ٧٢٨ و ٧٢٩ م . ولا أظن أن الوفد الذى قدم فى سنة ٧٢٨ م ؛ كان من بلاد العرب . لأن اسم رئيسه ؛ وهو « ديدو » ، كما ثبت فى المصادر الصينية ، لايدل على عروبة صاحبه . قال « جفويوانكوى » ، أنه قائد من قواد العرب ، جاء إلى عاصمة الصين مع ثمانية آخرين من أصحابه فأنعم الأمبراطور عليه برتبة الفارس من الدرجة الأولى ثم ودعه مع أصحابه بالحفاوة والاكرام ومن المحتمل أن هذا القائد تركى الأصل كان تحت حكم قائد من قواد العرب ببخارى أو سمرقند . وكان من بين عمال تلك البلاد وقتئذ ، نصر بن سيار وأسد بن عبدالله وسعيد بن عمر الحراشى ، ولم أستطع أن أصل إلى معرفة من كان يشتغل معه ديدو من هؤلاء القواد الثلاثة ، لأن سكوت المصادر الصينية والعربية حال بيننا وبين ذلك فاكتفينا بما أوردناه هنا

فالسفارة التى وقعت فى سنة ٧٣٣ م ، كانت من جنيد ، قائد من قواد العرب تحت إمارة نصر بن سيار فى عهد الخليفة هشام الأموى وكان من بين الذين قد

(1) Gibb: Arab Conquest on Central Asia. p. 63.
(2) Gibb: Arab Conquest on Central Asia. p. 67.

اشتركوا فى فتح بخارى وسمرقند للمرة الأخيرة ، وبناء على تحقيقات الأستاذ « جب » ، أن جنيدا قد اتصل بأمبراطور الصين فى آخر عهده بسمرقند فى سنة ١١٥ هـ ٧٣٣م . ويظهر من اسم رئيس هذه البعثة ، وهو مسلم ترخان ، كما ورد فى « فتوحات العرب لآسيا الوسطى » للأستاذ جب ، أن أصله من الترك[1] وأغلب الظن أن زملاءه الذين رافقوه إلى الصين أيضا من الترك .

فالسفارات التى وردت إلى عاصمة الصين فى سنوات ٧٤١ و ٧٤٤ و ٧٤٧ م ، كلها من عمال العرب بأواسط آسيا . فالتى ترأسها حسين ، كما جاء فى تاريخ الصين فى سنة ٧٤١ م ، كانت من الشاش[2] ولعل حسينا هذا كان أحد الشخصيات البارزة التى تحت سيادة نصر بن سيار فى آسيا الوسطى لأنه كان موصوفا بزعامة العرب فى تاريخ الصين ، فأنعم عليه الأمبراطور ، برتبة « القائد اليمين » ، وخلع عليه خلعة سنية مع منطقة منسوجة بخيوط الذهب ، ويقول الأستاذ جب — « أن نصر بن سيار بعد أن استقر فى سمرقند ، بعث عدة سفارات الى الصين ، واحدة منها فى سنة ٧٤٤ م ، وكان ذلك لتنظيم العلاقة التجارية تنظيما متقنا ، وكان مع هذه السفارة ، وفود من الصغد وتخارستان والشاش وزابلستان ، وأما السفارتان اللتان فى سنتى ٧٤٥ و ٧٤٧ م ، فكانتا أيضا منه ، لأنه أول من شعر بأن أركان الحكومة بما وراء النهر ، تحتاج الى دعم الطبقات المتوسطة ، خصوصا طبقات التجار والزارعين[3] ولقد فعل بقدر استطاعته كل ما يلزم لانهاض التجارة فى الولايات التى كان واليا عليها .

وبقيام الخلافة العباسية فى سنة ٧٥٠ م ابتدأت العلاقة الدبلوماسية بين خلفاء بغداد وأباطرة الصين وأهم السفارات التى وقعت فى هذه الأيام ما كان مبعوثا من قبل أبى العباس مؤسس الدولة العباسية ، وأبى جعفر المنصور ، مؤسس دار السلام ، وهارون الرشيد بطل العهد الذهبى ، وكان العباسيون فى تاريخ الصين ،

---

(1) Gibb : P. 79.
(2) Gibb : P. 80.
(3) Gibb : P. 92

معروفين باسم «خئ تاشى» أى العرب ذوى الملابس السود تميزوا عن الأمويين الذين عرفوا باسم «بئ تاشى» أى العرب ذوى الملابس البيض، وقد سجل تاريخ الصين خمس عشرة سفارة من العباسيين فى نصف قرن بين ٧٥٠ و ٨٠٠ م لكنه لم يذكر أغراضها ولم يلم بتفصيلها سوى أنه قال أنها جاءت إلى الصين لزيارة ودية أو لتقديم الهدايا. وبناء على ما ورد فى «جفويونكوى» أن هذه السفارات وقعت متتابعة فى سنة ٧٥٢ و ٧٥٣ (و ٧٥٤ و ٧٥٥ ٧٥٦ و ٧٥٨ و ٧٦٠ و ٧٦٢ و ٧٦٩ و ٧٧٢ و ٧٩١ و ٧٩٨ م). ويروى هذا المصدر أن ثلاث سفارات قد وصلت فى سنة ٧٥٣ م فى الشهر الثالث لتقديم الحاصلات وفى الشهر الرابع لزيارة ودية وفى الشهر الثانى عشر، لتقديم ٣٠ جوادا هدية الى أمبراطور الصين. وأما السفارة التى جاءت فى سنة ٧٥٦ م فكانت مشتملة على ٢٥ عضوا ورئيسها من زعماء العرب الكبار.

ومن المصادفة الغريبة أن سفارة العباسيين التى وردت الى عاصمة الصين فى سنة ٧٥٨ م وكانت مشتملة على ستة أعضاء، اجتمعت مع سفارة من بلاد الأواغرة وكانت مكونة من ثمانين عضوا فكانت كل جماعة تريد أن تدخل قاعة التشريفات قبل غيرها فتنازعتا عند الباب، فاذا بأمين التشريفات، يصلح ما بين الجماعتين بادخال كل جماعة من باب مستقل

هذا هو كل ما نستطيع أن نحصل عليه من المعلومات عن أحوال هذه السفارات وأغراضها من، المصادر الصينية وأما المصادر العربية فلم تتكلم فيها أبدا، وما ذكره الشيخ بيرم التونسى فى كتابه «صفوة الاعتبار فى مستودع الأقطار والامصار»، عن ارسال أبى جعفر المنصور أربعة آلاف من صناديد المسلمين الى الصين[1]، لا يدل الا على حضور سفراء الصين لبغداد وكانت هذه البعثة العسكرية من نتائج زيارة وفد الصين لبغداد ثم لا نستطيع أن نقطع، بماذا فعل الخليفة المهدى فى رد وفود الصين الذين وفدوا عليه (٢) من قبل الامبراطور (ته جونغ Teh - Chung

(١) صفوة الاعتبار ج ١ — ص ٢٢
(٢) مروج الذهب ص ١٢٣

بين ٧٨٠ و ٧٨٥ م ومن المظنون أنه قد اكتفى بأرجاع هذه الوفود بالهدايا الى امبراطور الصين ، بدلا من ارسال بعثه خاصة لرد هذه الزياره ونستقر على هذا الرأى ، بناء على عدم ذكر ورود الوفود من بغداد فى تاريخ الصين بين ٧٧٤ و ٧٩١ م وقد انتهى عهد خلافة المهدى قبله بسنوات . قليلة [١]

أننا هنا نواجه مشكلة تاريخية كانت أمامنا عند البحث عن العلاقة الدبلوماسية بين الصين والخلفاء الأمويين لا نعرف كم سفارة قد وردت من بغداد وكم عاملا من عمال العرب بآسيا الوسطى؟ ونميل الى الاعتقاد بأن هذه السفارات التى ذكرناه، آنفا كلها من الخلفاء العباسيين لولا أن هناك بعض أدلة على ورود سفارة الى عاصمة الصين من عمال العباسيين بماوراء النهر فمثلا أبو مسلم الذى قبض على زمام خراسان ، بعد وفاة نصر بن سيار وكان أكبر الدعاة للدولة العباسية فى تلك الولايات قد ارسل عدة بعثات الى الصين فذكر الاستاذ جب عن هذه البعثات قال :

من الظاهر أن ابا مسلم قد شعر بأهمية الاتصال بقصر امبراطور الصين ، لأن تواتر السفارات من العرب ذوى الملابس السود يذكر فى تاريخ الصين ابتداء من السنة التى بعد واقعة تالاس وهى سنة ٧٥١ م وقد حضرت ثلاثة وفود فى سنة واحدة ومن الممكن أن هذه السفارات كانت لها مقاصد سرية وذلك أن العرب أرادوا أن يطلعوا على تطورات الحروب الداخلية فى الصين، وان كان معظم المصلحة فى ترغيب طبقات التجار الى التفاهم والتعاون مع الحكام العباسيين بابرام معاهدة جديدة للتجارة مع الصين ووضع نظام جديد يقتضيه الوقت ويلائم الحال [٢]

وبناء على هذا البيان ، لا نكون من المخطئين ، إذا قلنا أن السفارة التى وردت إلى الصين فى سنة ٧٥٢م ، كانت من أبى مسلم الخراسانى ، ولم تكن من أبى العباس.

غير أن التحقيقات التاريخية تكشف وتؤكد لنا أن العلاقة السياسية بين الخلفاء العباسيين والصين ، كانت أقوى وأوثق مما كان عليه الخلفاء الأمويون . وعندنا

---

(١) استمرت خلافة المهدى من سنة ٧٧٥ الى سنة ٧٨٥ م

(2) Gibb : P . 97

شهادات كثيرة تدل على وجود علاقة متينة بين بغداد وعاصمة الصين، حتى ليقول بعض الباحثين أن الصناع الصينيين كانوا موجودين بمدينة الكوفة فى سنة ٧٦٢م أى بعد تأسيس الخلافة العباسية باثنتى عشرة سنة فقط . وعلى هذا الرأى الأستاذ (بليو - Pelliot) واتفق معه الأستاذ جاستون فيت (G. Wiet) . ويظهر أن بعض المحققين من علماء الإسلام فى هذا العصر قد قبل هذا الرأى بلا تحفظ [١] وأما الصينيون فأنهم يعتنقون هذا القول، إذ كان اختلاف الوفود بين (جانغ - آن) وبين بغداد لم ينقطع حتى القرن الثانى عشر للميلاد ، كما سترى ذلك حين نبحث عن علاقة أسرة (سونغ) بالعرب . لأن واقعة مثل هذه كانت من الممكنات التى تؤكدها الحوادث التاريخية ، فمثلا اكتشاف الفغفورى الصينى بسامرا ، الذى يرجع تاريخه إلى عهد (تانغ) ، دليل قاطع على استيراد المصنوعات الصينية إلى بغداد فى القرن التاسع الميلادى [٢] : وقد يكون هذا بوساطة التجار وقد يكون بوساطة السفراء . وأغلب الظن أن المصنوعات الصينية التى أتى بها السفراء إلى بغداد ، من قبل ملوك الصين ، هدية الى الخلفاء العباسيين ، كانت مشتملة على أشياء شتى منها الغضار والخزف ومنها الحرير والكمخاب ومنها الشاى والمسك فان الصين كانت لها شهرة عظيمة فى هذه الصناعات والحاصلات وما اختير منها هدايا للخلفاء كان من أعلاها صناعة وأبهاها جمالا ، وأرفعها ثمنا . ومن الطبيعى أن كل ما رق وراق من هذه الهدايا ، كان الخلفاء يحفظونه فى الخزانة ويعتنون به أكثر من غيره من الأشياء ، وإذا القينا نظرة إلى الفهرست لأثاث قصور الخلفاء فانا نجد فيها أشياء كثيرة من صناعات الصين [٣] . فهذه الصناعات تخبرك بعلاقة بغداد بامبراطور الصين فى الأيام الخالية ؛ وهذه الحالة لم تكن فى عهد الأمويين

دخلت الصين منذ منتصف القرن التاسع الميلادى فى عهد مملوء بالحوادث والاضطرابات

---

(١) التصوير فى الاسلام عند الفرس، ص ٣٣

(٢) يقول الجلبي : اغلى البضائع من الفخار يقال له « فغفورى »

(٣) تمدن عرب : ترجمة بلكرامى ص ٥٠٤

التى قضت على أسرة (تانغ) فى سنة ٩٠٦ م ؛ وبعدئذ مرت على مسرح سيادة الصين خمسة أسر حاكمة قصيرة الحكم، واحدة بعد أخرى فى غضون ست وخمسين سنة ؛ فلم تستقر واحدة منها على كرسى الحكم مدة تستحق الذكر ؛ لأنها ظهرت وغابت دون أن تترك أى أثر فى حياة الصين الداخلية ؛ فهذه الحوادث والانقلابات التى ذكرها أبوزيد السيرافى وابن الأثير ، قد قطعت صلة العرب بالصين نحو مائة سنة ؛ فلذا لا تجد فى كتب الصين القديمة أى ذكر عن العرب إلى الصين أو فى الصين بين سنة ٨٥٠ و ٩٥٠ م . لكن مع ظهور اسرة (سونغ) فى ميدان الصين السياسى ، فتح تاريخها صفحـــة جديدة ، فالرابطة التجارية والدبلوماسية التى كانت منقطعة بين الصين والعرب فى القرن السابق ، قد أوثقت من جديد . فأخذ تاريخ الصين بدون للمرة الثانية حركات العلاقة لهذا العهد الميمون حتى ذكر ٢٥ سفارة قدمت من العرب بين ٩٦٠ و ١١٢٤ م

ونفهم من التفاصيل التى وجدناها فى تاريخ (سونغ) ، أن أغلب هذه السفارات ، كان فى تحسين العلاقة التجارية بين الصين والعرب . لكن التى جاءت من قبل التجار أنفسهم ، أكثر من التى جاءت من قبل الخلفاء. ويظهر أن أكثر هذه السفارات قد اختارت طريق البحر ، وقليلا منها جاوز أواسط آسيا الى الصين لأن السفن قد ذكرت فى مواضع عديدة أثناء الكلام عن هذه السفارات . وأنقل هنا ما ورد فى تاريخ « سونغ » ، مع رجائى الى كتاب الاسلام ان يعلقوا عليه من المصادر العربية ، أن رأوا ضرورة الى ذلك

يقول مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » ، أن فى الجزء التسعين بعد المائة الرابعة من تاريخ سونغ ، فصلا خاصا يتعلق بالعرب . فقد ابتدأ الكلام بملاحظة على ظهور الاسلام فى بـــلاد العرب قائلا : أن الذين من بنى مروان يقال لهم (العرب ذوو الملابس البيض) والذين انتموا الى خلافة بغداد بعد أبى العباس ، سماهم تاريخ الصين (العرب ذوى الملابس السود) .

وقد بدأت العلاقة بين أسرة سونغ ، التى حكمت الصين أكثر من ثلثمائة

سنة (٩٦٠ — ١٢٧٦ م) وخلفاء بغداد ، منذ سنة ٩٦٦ م ، اذ كان أبو القاسم مطيع الله على كرسى الخلافة فى ذاك الوقت كان سائح صينى معروف باسم « اين جنغ » شد رحيله الى « الغرب » . فبعث الامبراطور « سونغ تاى جونغ » بواسطته رسالة ودية الى الخليفة مطيع الله ، يرجوه أن يمد اليه يد الصداقة فرد هذه الرسالة بارسال بعثة خاصة من بغداد فى سنة ٩٦٨ م تحمل الهدايا الى الامبراطور المذكور .

وكان هذا الامبراطور — مثل كل مؤسس دولة فى القرون الوسطى — شجاعا ، مدبرا متفوقا ، بعيد النظر ، يقدر العلم والعلماء ، وان لم يكن هو نفسه عالما أو فاضلا ، فيعرف الصالح من الطالح ويميز رجال الخير من أشخاص الشر يقول كاركورن ، مؤلف « تاريخ ممالك جين » : أنك تستطيع أن تعرف أوصاف هذا العاهل العظيم وشخصيته ، من حزن العالم عليه ، حين ارتحل من هذه الحياة الدنيا ، ومن زفرات الصدور ، حين يذكر بعد سنين من وفاته . وهو الذى بعث اليه الخليفة أبو القاسم مطيع الله سفارة فى سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) مع هدايا ورسالة ودية وكان رئيس البعثة رجلا يسمى كما جاء فى تاريخ الصين ، « برهان[1] » .

كانت هذه السفارة هى الرابعة من العرب ذوى الملابس السود حسب الترتيب الذى وجدناه ، فى تاريخ سونغ وفيه نجد أن السفارة الثانية كانت فى سنة ٩٧١ م . فأنعم الامبراطور على رئيسها نعمان وبلقب « واى خوا جيان جونغ 懷化將軍 » أى « أمين الحضارة » . قد كتب هذا على ورق مذهب فى خمسة ألوان ثم منحه أياه وفى هذه السنة ورد سفراء من فرغانة وقيل أنهم قد قدموا الهدايا الى حاكم (كيانغ — نان) فأبى قبولها . فانتهى الأمر الى القصر . فاذا بمرسوم يمنع تقديم الهدايا الى الحكام الأيالية .

وأما السفارة الخامسة فكانت فى سنة ٩٧٦ م ، يرأسها عبد الحميد ، والتى بعدها فى السنة التالية كانت برياسة أبى سينا ، ومعه نائب يسمى محمود والقاضى أبو لؤلؤ .

(١) تاريخ ممالك جين ج ٢ - ص ١٨٢ ، وعلاقة الصين القديمة بالعرب ص ٢٤٠

وخدام جاحظة أعينهم ؛ سود أبدانهم ، يسمونهم « عبيد الحبشة . ثم وردت سفارة أخرى فى سنة ٩٧٩ ، وكذلك بعد أربع سنوات أى فى سنة ٩٨٤ م . فالسفارة قد قدمت مما وراء النهر أيضا ؛ برأسها خواجة يحمل الهدايا الى الامبراطور ، من أنواع البرنيان والكندر والسكر وماء الورد والعطور ومصنوعات زجاجية

وأهم السفارات هو ما ورد فى سنة ٩٩٤ و ٩٩٥ ؛ والتفاصيل التى وجدناها عنهما فى الكتب الصينية تكشف لنا صورة حقيقية عن الثروة التى اكتسبها التجار العرب فى أسواق الصين فى القرن العاشر والقرن الذى بعده فكانت هذه السفارة ليست من خليفة بغداد ، بل من تاجر عربى عظيم بكانتون وله مراكب تجارية تجرى فى البحار، وقد استوطن فيها زمنا طويلا . وأما اسمه فقد عرف فى اللغة الصينية حتى كدنا لا نعرف أصله — اذ قد كتب فيها هكذا الى « بوهيم » 蒲希密 وأعتقد أنه محرف عن « ابراهيم » ، وأغلب الظن أن ابراهيم هذا هو ابراهيم بن اسحاق ، تاجر كبير معروف فى أواخر القرن العاشر الميلادى . ولقد ذكر عنه ياقوت فى معجم البلدان ما يأتى « وأما ابراهيم بن اسحاق الصينى فهو كوفى ، كان يتجر الى الصين . فنسب اليها[1] »

ولطول اقامته بالصين قد تعلم اللغة الصينية وأجاد الكتابة بها ، كأحد فضلائها الكبار . ومن رسالة رفعها الى امبراطور الصين ، تسمى فى عرف الأدباء الصينيين رسالة التقدمة الى الامبراطور (Address to the Throne) . نفهم أنه قد أحاط بدقائق اللغة والاسلوب الذى كان منتشرا فى البلاد حينذاك وكانت قدرته فى الفهم والكتابة ، لا تقل عن أى فاضل من فضلاء الأدب الصينى فى ذاك العصر : وانك لا تستطيع أن تقدر فضله الحقيقى فى هذا الباب ، إلا اذا عرفت أسلوب الأدب الصينى القديم والذوق الأدبى الذى هو مقياس لتقدير كل قطعة أدبية ذات مغاز ومعان ، كما أننا لا نستطيع ان نقدر كتب الجاحظ وأسلوبه الأدبى العالى ، الا بعد

---

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠٨

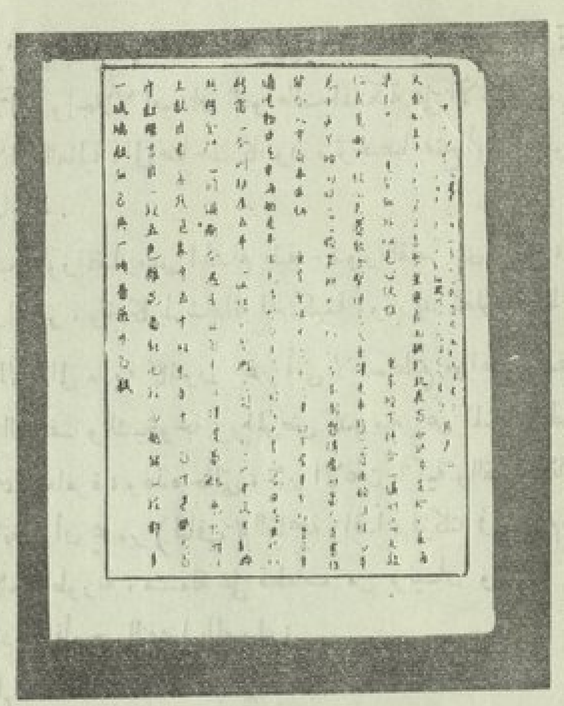
مدة طويلة قضيناها فى المطالعة وكسب ذوق صحيح فى الأدب العربى والا فنكون من المخطئين فى تحكيم كاتب فيما يتعلق بمنزلته وأسلوبه فى الأدب بسبب الجهل لما حوله وما يتعلق بعصره

وأما منزلة ابراهيم بن اسحاق فى ميدان الأدب الصينى فى القرن العاشر الميلادى فكما رأينا فى رسالة التقدمة وقد تكون مماثلة للتى نالها محمود بن الحسن بن محمد الكاشغرى المتوفى فى سنة ٤٦٦ هـ ١٠٧٤ م فى الأدب العربى ، وكان هذا العالم الصينى التركستانى قد تمكن من تقليد الجاحظ فى الكتابة العربية وذلك ظاهر جدا من مقدمته التى كتبها فى ديوان لغات الترك وهو كتاب عربى يبحث فى لهجات الترك المنتشرة من حدود الصين الى أناضول

ولم يذهب ابراهيم بن اسحاق نفسه إلى عاصمة فى سنة ٩٩٤ م لأن المرض قد منعه عن التحرك بعد وصوله إلى مدينة كانتون ، فبعث صديقا من أصدقائه ، معروفا فى تاريخ الصين ، باسم (ليف) نائبا عنه إلى قصر الأمبراطور . فوكله فى رفع « رسالة التقدمة » والهدايا إلى أمبراطور الصين وقد نقلنا هنا صورة من هذه الرسالة . ولعل بعض القراء يفهمونها فى اللغة الأصلية فيطربون بالنكات الادبية التى نعجز عن نقلها إلى اللغة المنقولة اليها . وهنا ترجمة وضعناها بعد فقد كثير من بدائعها الأصلية ومحاسنها الأدبية .

فى صورة فوتوغرافيه ص ١٩٣

نص رسالة التقدمة ، التى رفعت إلى امبراطور الصين
من ربان العرب ، ابراهيم بن اسحاق الكوفى ٩٩٤ م



ترجمة رسالة التقدمة الى امبراطور الصين

من ربان العرب ابراهيم

... أن الكواكب لا تحيط الا بالقمر، والأنهار لا تسيل إلا إلى البحر. كحكمة الرحمة التى تجلب قلب غريب الى الطاعة، أو كسياسة اللين التى تجذب أذن بعيد الى السمع والطاعة وذلك لأن أوصاف صاحب الجلالة على قوانين السموات والأرض منطبقة وسياسته كالكواكب السبع فى مسالكها دائرة وعواطفه على أهل البلاد كالأنهار جارية وإحساناته الى الأمم بالجهات الأربع كأمطار الرحمة بالغة. فيمدحه أقوام غير متمدنين وأتوا اليه بنوادر التحف وافدين.

كنا فى بلاد نائية، فيها عادات مختلفة، فطرق آذاننا صيت ركن الدولة الزاهرة فتحركت القلوب الواجفة الى رؤية الشمس، والآمال الى وجه السماء. كنا بأوطاننا

لجاء أمر من رئيس الجالية الأجنبية بكانتون يطلب حضورنا الى العاصمة، تمجيداً لمحاسن صاحب الجلالة، وإجلالا لفيضان العواطف الملكية على الأجانب، بمرسوم سام من ذات جلالته العالية، الى صاحب كانتون، ترخيصا بفتح أبواب الموانى للمتاجر من البلاد القاصية.

فركبنا البحر ورافقنا بعض الخدام بنية حضور القصر ذى التنين، تيمنا برؤية موطن الامبراطور، وتبركا بارشاداته الحكيمة، وتبريدا للقلوب الظامئة.

وصلت الآن الى مدينة كانتون غير أنى لا أستطيع مواصلة السفر الى الباب العالى بسبب الضعف والشيخوخة، والمرض الذى منعنى عن المشى والحركة فالأمانى فى قصد العاصمة العامرة، وهذه حالتى، تثير الأعين باكية والقلوب ثاكلة.

ومن الاتفاق أن يحضر (لياف) العاصمة وافدا، فوكلته فى تقديم هدية حقيرة الى السدة الامبراطورية، مشتملة على قطعات من برنيان وأدوية وغيرها من حاصلات بلادنا، فأرجو التفضل بالقبول:

وتفاصيلها

(١) العاج . . . . خمسون عددا
(٢) الكندر .. .. ألف وثمانمائة مائة رطل (صينى)[1]
(٣) البرنيان الأحمر .. .. قطعة واحدة
(٤) البرنيان الملون .. .. أربع قطعات
(٥) قماش الجوت .. .. قطعتان
(٦) التوتيا .. .. قارورة واحدة
(٧) أعجوبة غريبة .. .. قطعة واحدة
(٨) ماء الورد مائة قارورة

فأنت ترى فى هذه التقدمة بعض التعبيرات الأدبية الصينية الخاصة واستعاراتها فمثلا، إحاطة الكواكب بالقمر لا يراد بها الكمال فى الجمال كما هو شأن الأدب

---

(١) الرطل الصينى أكبر من الرطل العربى بربع رطل عربى

العربى بل براد بها التعظيم للذات المركزية ، ورجوع الاجسام الصغيرة الى الوحدة الكبيرة فى خصوصياتها وطبائعها كسيل الأنهار الى البحر . ثم موافقة أوصاف الامبراطور قوانين السموات والأرض ، وسياسته التى لا تخرج عن الطريقة المقررة ، كدوران السيارات السبع فى مسالكها الخاصة ، وميل القلوب إلى رؤية الشمس والآمال الى وجه السماء ، كلها تعبيرات خاصة بالأدب الصينى القديم ، خصوصا فى رسائل التقدمة من وضيع الى رفيع ، أو وزير الى مليك ، وقد حاولت أن أنقل المحاسن الأدبية الى اللغة المترجمة بها حسب الطاقة ، فلم أفلح إلا فى نصفها وأما النصف الآخر فيحتاج الى قلم بليغ يسيطر على دقائق اللغتين العربية والصينية ويستطيع أبراز خصائصهما .

فتفضل الامبراطور وأنعم على ابراهيم بن اسحاق برسالة سنية يشكر له فيها هداياه شاهدا على القبول ، كما أنعم عليه بخلعة الشرف وصناعات فضية فى مقابلة هداياه

لقد دون تاريخ الصين وصول ربان عربى كبير فى سنة ٩٩٥ م ، معروف باسم أبى عبد الله الذى بعثه ابراهيم السابق الذكر ، يحمل رسالة تقدمة وهدايا للامبراطور . وتفاصيل الهدايا ، كما جاء فى تاريخ الصين ، هى ما يلى :

(١) الكافور . . . . . مائة مثقال
(٢) سرر كلاب البحر . . . مائة عدد
(٣) ملح التنين . . . . فى علبة فضية
(٤) الزئبق . . . . ٢٦ قارورة
(٥) السكر . . . . ثلاثة جرار كبيرة
(٦) التمر . . . . ست صناديق
(٧) التوابل . . . ست قوارير
(٨) ماء الورد . . . عشرون قارورة
(٩) البرنيان . . . . قطعتان
(١٠) المنسوجات الصوفية .. .. .. ثلاث قطعات

(١١) منسوجات الجوت .. .. .. ثلاث قطعات
(١٢) سلطان الكندر .. .. .. عدد واحد

فلما ورد أبو عبد الله إلى العاصمة، جاء أمين القصر، ودله على قاعة التشريفات. فلما مثل بين يدى الامبراطور، قال بواسطة الترجمان: «أن أباه ابراهيم قد أبحر إلى كانتون، لطلب أسباب الرزق وكسب المنافع فلم يرجع منذ خمس سنوات». فجاء بأمر الوالدة للبحث عنه. فوجده فى مدينة كانتون. ولقد تكلم عن إنعامات امبراطورية من رسالة وخلعة وعمامة مزركشة مزخرفة بزهريتين فيهما صورتان للعنقاء، إحداهما منقوشة بخيوط الفضة والأخرى بخيوط الذهب، وعشرين قطعة حريرية فأمرنى أن أحضر إلى العاصمة لرفع كلمة الشكر إلى السدة السامية على هذا العطف الكريم، وتقديم بعض أشياء حقيرة من حاصلات بلادنا.

فسأله (سونغ تاى جونغ) عن بلاده فأجابه قائلا: «إنها قرية من بغداد، وتحت أمر حاكمها، وواقعة بين الجبال والبحار»[١]
ثم سأله: «ماذا تحصلون من جبالكم وبحاركم؟».
فقال: «الفيلة والكركدنات والأدوية».
«قال له بأية حيلة تصيدون الفيلة والكركدنات؟».
«قال أما الفيلة فتخدع بالفيلة وتربط بالحبال. وأما صيد الكركدن، فيصعد الصياد إلى الأشجار العالية، آخذا الأقواس والسهام، منتظرا ظهورها ومجيئها. فيقتلها بالسهم. وأما صغارها فلا يحتاج الى الرمى بالسهم بل كفى باليد صيدا».

فأمر الامبراطور بأن يخلع عليه خلعة وينعم عليه بأشياء أخرى ثمينة، وأنزله عنده ضيفا عدة شهور. ثم ودعه بحفاوة واكرام، ورد الهدايا بأحسن منها من ذهب وحرير وشكر له ما بعث به أبوه اليه.

ويقول تاريخ الصين لعهد (سونغ)، أن السفارات التى وصلت من بعد،

---

(١) يظهر من هذا الوصف أن البلد المراد هو الكوفة. فصدق أظننا بأن «بوهيم» الذى ذكر فى تاريخ الصين، هو ابراهيم بن اسحاق الكوفى كما ورد فى معجم البلدان

كانت في سنوات ٩٩٧ و ٩٩٩ و ١٠٠٠ و ١٠٠٣ و ١٠٠٤ و ١٠٠٧ و ١٠٠٨ و ١٠١٩ و ١٠٢٣ و ١٠٥٥ و ١٠٦٨ و ١٠٧٤ و ١١١١ و ١١٢٩ و ١١٣١ م

ومن إلقاء نظرة يسيرة الى تواريخ هذه السفارات ، تعرف أن أكثرها قد ورد بين ٩٩٩ و ١٠٢٣ م ثم أخذت تنقص بعدئذ ، لأسباب غير معروفة. ثم نقصت من القليل الى الأقل حتى انقطعت بعد سنة ١١٣١ م ، وكانت أسرة (سونغ) لا تزال باقية — باقية الى قرن ونصف قرن آخر . لانها لم تنقرض إلا في سنة ١٢٧٦ م

وفي بعض الاحيان كانت السفارة من غير العرب ترد معهم في وقت واحد فمثلا السفارة التي جاءت في سنة ٩٩٧ م ، كانت معها سفارة من «بالم بانغ» بجنوب سمـــاطرة . فقد اشتركتا في الاحتفال بعيد القناديل ، وحضر أعضاؤها وليمة هذا العيد .

أما أسماء رؤساء السفارات فقد دون تاريخ الصين بعضها دون بعض . وذكر أن بجيا هو اسم لرئيس السفارة المبعوثة في سنة ١٠٠٠ م ، من ربان عربي . فتكرم الامبراطور بمنحه خيلا مسرجة مع رسالة تفيض بالعطف والكرم . والتي جاءت في ١٠٠٣ م ، كان رئيسها أبا رشيد السامانى وأهدى الى الامبراطور مقدارا عظيما من اللآلئ والجواهر . ومن اسم الرئيس نعرف أن هذه السفارة لم تكن من العرب ، بل من الدولة السامانية التي كانت بينها وبين الصين علاقة من قبل ذاك الأوان كما ستري .

فكان الرئيس للسفارة التي وردت في سنة ١٠١٩ م ، أبا محمود التبريزي ونائب الرئيس أبا قاسم . وقد دخلوا الصين بطريق البر . وكان أول البلدان الذي وصلوا اليه هو «شانشو» ، ثم ولاية قانصو ثم «جنشو» . ومن هذا القول نعرف أنهم جاءوا من إيران ، ومن المعلوم أن إيران قد وردت منها عدة سفارات في هذه الأيام ، لأن الحديث عنها يوجد في تاريخ الصين ، فمثلا في سنة ١٠٢٣ م

جاءت منها سفارة عن طريق البر توصلت أولا إلى كانتون ، ثم إلى العاصمة . وقد قيـــل أن السفارة الايرانية قد وردت للمرة الرابعة فى ١٠٥٥ م وكان رئيسها أبا سعيد . وكان رجلا فاضلا ، نال منزلة عالية عند الأمبراطور حتى وظفه فى الحكومة وجعله مديرا لادارة التوظيف والخدمة فى مدينة « وونينغ » وهى (نانشانغ Nanchang) الآن .

وجاء فى تاريخ الصين حديث عن سفير اسمه سعادت نور ، كان مأمورا فى سنة ١٠٦٨ م فى إدارة المراقبة على الأجانب فترقى إلى منصب القاضى بكانتون ، ويظهر أنه كان ذا ثروة وافرة ، فاقترح تحسين مدينة كانتون ، على نفقته الخاصة ، فلم يقبل صاحب المدينة ذلك ، وفى سنة ١٠٧٤ م بعث شخص من رؤساء تبريز ، وقد حفظ تاريخ الصين اسمه فى رسم « أبى تبريزى » ، ابنا له يسمى محمودا إلى عاصمة الصين لتقديم الهدايا إلى الأمبراطور وكان يلبس الملابس العربية ، كما ورد فى « علاقة الصين القديمة بالعرب » ، وفى نفس السنة ، وردت سفارة من الموصل ومن ملابار ، ويذكر تاريخ الصين أيضا وصول سفارات إسلامية فى سنة ١١١١ و١١٢٩ و ١١٣١ م لكنه لم يذكر من أية بلاد كانت ، ولا أسماء الرؤساء وأغلب الظن أنهم جاءوا من العرب الذين كانوا بالبلاد المجاورة للصين .

هذا من جهة العلاقة الدبلوماسية بطريق البحر ، وأما من جهة طريق البر ، فقد نقل مؤلف « علاقة الصين القديمة بالعرب » عن تاريخ (كين) قائلا — أن سفير الدولة السامانية قد ورد إلى عاصمتها بشمال الصين فى سنة ٩٢٤ م . ثم ورد فى سنة ١٠٢٠ م ، أتى بالفيل هدية إلى ملوك (كين) ويطلب يد ابنته لأحد الأمراء السامانيين ، فى سنة ١٠٢١ م ، جاء السفير مرة أخرى الى عاصمة (كين) للغرض المذكور ، فجهز أميرة من بنات (دوسيلى) وهو أحد الأمراء الكبار ، الى الدولة السامانية وزوجها بابن سلطانها .

فمملكة (كين) المعروفة فى تاريخ الصين قبل أيام المغول ، هى التى اشتهرت فى الكتب العربية باسم « ماصين » ، وفى الكتب الفارسية باسم « ما چين » .

وكانت لها علاقة متينة بالدولة السامانية منذ يوم تأسيسها بأواسط آسيا ، وكانت في بادئ الأمر منحصرة في ناحية التجارة التي أشرنا اليها من قبل ثم اتسعت الى الناحية السياسية والدبلوماسية ، فقد جاء ذكر هذه الناحية في الكتب العربية فضلا عن الكتب الصينية ، ولعل أبا دلف مسعر بن مهلهل الينبعي ، هو أول العرب الذين كتبوا عنها ثم نقل عنه ياقوت والقزويني ، وأما أبو دلف هذا ، فكان رئيسا لبعثة رسمية أرسلها نصر بن أحمد الساماني الى أمبراطور (كين) بسندابل ، ومن كلامه أن ملك الصين واسمه قالين بن الشخير هو الذي بعث رسولا الى نصر بن أحمد أولا ، راغبا في مصاهرته وطامعا في مودته ، وكان يريد أن يخطب ابنة نصر لابنه ، فأبى ذلك نصر واستنكره لحظر الشريعة زواج المسلمة من غير المسلم ، غير أن قالين استرضاه بتزويج بنته بابنه ، فأجاب الى ذلك فانتهز أبو دلف هذه الفرصة وقصد بلاد الصين على رأس بعثة دبلوماسية لنصر بن أحمد الى أمبراطور (كين) ، فسلك بلاد الأتراك التي ذكرتها عند ما تكلمنا عن تجارة البر الى الصين ، حتى وصل مع رفاقه الى مدينة سندابل ، وبها دار الملك قالين . فعرض الرسول عليه ما جاء لأجله وهو طلب يد بنت قالين لنوح بن نصر ، فأجابه الى ذلك ، وأحسن مثوى أبي دلف ومن معه من الرجال ، وأقاموا عنده ضيوفا مدة ، حتى أنجزت أمور المرأة وتم تجهيزها ، فسلمها اليه يرافقها نحو مائتي خادم وثلثمائة جارية ، فحملت الى نوح بن نصر بخراسان فتزوجها [١] فتولدت عن هذا الزواج علاقة متينة بين دولة السامانيين وبين مملكة كين بشمال الصين .

ونظرا الى أن عهد حكومة نصر بن أحمد استمر من سنة ٩١٣ الى ٩٤٢ م ، وأن عهد حكومة نوح بن نصر ، كان من سنة ٩٠٢ الى ٩٥٤ م ، نعتقد أن هذا الزواج قد وقع بعد سنة ٩٢٠ م . لأن تاريخ الصين قد ذكر وصول سفارة من الدولة السامانيه في سنة ٩٢٤ م ، ومن الجائز أن هذه هي بعثة الخطبة على رغم سكوت تاريخ الصين في هذا الأمر . وأما خطاب سلطان سامان الى أمبراطور الصين يطلب

---

(١) ياقوت ج ٥ - ٤١٤

فيه بدأ ميرة صينية لابنه فى سنة ١٠٣٠ م ، فن الظاهر أنه جاء من آخر سلاطينها وهو أبو ابراهيم بن إسماعيل بن نوح الثانى الذى تولى أمور الدولة بعد وفاة عبد الملك فى سنة ١٠٠٥ م . عندئذ تغلب على أمرهم الأواغرة الذين كانت لهم يد بيضاء فى نشر الاسلام فى تركستان الصينية وذلك قد بيناه فى كتابى « الاسلام وتركستان الصينية » .

وبظهور المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى ، تحول مجرى العلاقة بين الصين والعرب إلى ما بين الصين والأمم التى خضعت لسيادة المغول . فانقطع تاريخ الصين عن ذكر وصول سفراء العرب لكنه ظل يدون حركات السفراء من الممالك الإسلامية إلى الصين فالسفارات التى جاءت إلى بلاد الصين فى عهد (يوان) (١٢٧٧ — ١٣٦٧ م) ، حينما سيطر آل جنكيز عليها وعلى أغلب الممالك الاسلامية فى الشرق الأوسط والأدنى ، وكان أكثرها من خراسان وايران وقد وردت من الهند فى بعض الأحيان فالتفاصيل عن هذه السفارات قد توجد فى المصادر العربية والفارسية ، فضلا عما ذكر فى المصادر الصينية .

ولقد سبق الكلام عن البعثة التى أرسلها محمد خوارزم شاه ، إلى بكين ، برياسة بهاء الدين الرازى عند ما كنا نتكلم عن العلاقة التجارية ، وكان ذلك للاطلاع على الأحوال التى كانت سائدة فى الصين بعد استيلاء المغول عليها . فأرسل جنكيز خان أيضا بعثة برياسة محمود الخوارزمى وعلى خواجة البخارى ويوسف الاترارى كما ورد فى النساوى ، ردا لسفارة محمد خوارزم شاه . وحملوا هدايا ثمينة نفيسة إليه ، باسم جنكيز خان . وكان ذلك قبل حادثة الأترار التى وقعت فى سنة ١٢١٨ م فلما انقسمت الامبراطورية الجنكيزية إلى أربع دول ، بعد وفاته بين أبنائه الأربعة . وصارت بلاد الصين من نصيب قبلاى خان وكانت العلاقات الدبلوماسية بين الصين وأمراء المغول فى أواسط آسيا والعراق قد توثقت بأواصر المصاهرة فتبادلت السفارات بين قبلاى خان ، صاحب (خانبالق) وبين هلاكو بالعراق ، تهنئة كل واحد للآخر ، بمناسبة فوز الأول فى فتح الصين ، والثانى فى

الاستيلاء على العراق : غير أن هذه التهنئات لا تهمنا كثيرا ، إذ لم يكن أحد منهما مسلما . والسفارة التى تهمنا جدا ، هى ما جاءت من آباقة خان بن هلاكو ، لحمل قبلاى خان على اضطهاد المسلمين واستنكار حركاتهم فى الصين ، وكان السبب فى ذلك أن بعض المسيحيين الذين نالوا نفوذا عظيما عند هلاكو وقد تزوج من امرأة مسيحية[١] ، قد وسوسوا الى آباقة خان وقالوا : أن فى القرآن ، وهو كتاب المسلمين المقدس ، آية تأمر بقتل المشركين ونصها هو «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم[٢]» فكانت هذه الدسائس حرمت كثيرا من المسلمين ، من الخدمة فى قصر المغول بايران . فبعث سفارة خاصة بناء على إشارة المسيحيين المقربين إليه ، إلى خانباليق ، ليخبره بما وقع فى القرآن من آية خطرة على حياة المغول . ونصحه بأخذ الحذر من المسلمين دائما . لأنهم يرون أن قتل المشركين فرض يأمرهم به القرآن . فكان لهذه السفارة أثر عظيم فى نفس قبلاى خان . وكان يتساهل فى الأمور الدينية على اختلاف مبادئها وعقائدها . فتغير دفعة بعد وصول هذه السفارة ، واتخذ موقفا حازما فى اضطهاد المسلمين فى الصين - أمرهم باتباع الياساق (الأحكام الجنكيزية) فى أمر الزواج . وأنزل الأئمة من المنابر وأكره المسلمين على أكل اللحوم المخنوقة على طريقة المغول ولم يفكر قبلاى خان فى هذا الحكم القاسى ، إلا بعد سبع سنوات . وكان ذلك بسبب قلة ورود التجار المسلمين من الخارج فنقصت إيرادات الدولة إلى حد لا يحتمل فندم على ما فعل بالمسلمين ورفع عنهم هذا الحكم الظالم القاسى بالغاية وأنى لا أتناول هذه النقطة ببعض التفاصيل ، إن قدر لى أن أكتب ، تاريخ الاسلام فى الصين ، فى الأيام المستقبلة .

ويظهر من تاريخ المغول أن آل جنكيز ، ولو انفرد كل واحد بدولة مستقلة ، يعترفون بسلطة الخان الأعظم عليهم . فينظرون الى أوامره ونواهيه بعين التعظيم والاجلال . ويقبلون تبريكه ، اذا خلف أحد منهم أباه فى الامارة والحكم . ومادام جنكيزخان حيا ، كان هو الخان الأعظم (القان) فأنعم على أولاده

(1) Arnold: The Preaching of Islam. P. 22

(٢) أو اق مغول ص ١٦٤

بماشاه من الألواب فلقب هذا : ملك العراق وذلك ملك الصين . فلما مات عنهم ، خلفه منغوخان فى عظمة الخانية ، واتخذ مدينة قراقرم عاصمة له وأنعم بالالقاب على أمراء المغول الذين بآسيا الوسطى والشرق الأدنى . لجاء هذا الحق من نصيب قبلاى خان الذى تملك أرض الصين سيدا عليها منذ سنة ١٢٧٧ م . وكان له معاصر فى إيران، اسمه آراغون خان الذى ارتقى العرش بعد تاقودار خان فبعث قبلاى خان سفيرا خاصا اليه ، يسمى « أورد وقتا » كما ورد فى « مطلع السعدين » ، وكان ذلك فى سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م ليقلده المنصب الملكى على العراقين العربى والعجمى رسميا . وبعد عدة أسابيع وصل وزير من المجلس الامبراطورى الأعظم معروف باسم « جنكسانك » فولاد الى إيران فأقام فى سراى منصورية بالاران Arran وكانت هذه المدينة عاصمة المملكة المغولية بالعراق وبها يقيم وكلاء الصين السياسيون الذين يمثلون الخان الأعظم فى قصور أمراء المغول فى إيران ، أثناء حكم آراغون خان وغازان خان وأولجائتوخان . وكان يرافق هذا الوزير مترجم يسمى « عليا » ، وكان من المبعوثين أيضا [1]

وفى آخر عهد آراغون خان ، أنعم الخان الأعظم المقيم بداند و [2] على غازان خان فى سنة ١٢٩٠ م بلقب « جن يوان وانغ [illegible] » أى أمير التأمين للبلاد النائية فبعث لاجل هذا الغرض سفارة خاصة

فالسفارة الرسمية التى وقعت لأول مرة بين أمبراطور المغول فى الصين وبين غازان خان ، حين تولى مقاليد الحكم عل إيران بعد وفاة أبيه آراغون خان ، كانت فى سنة ٦٩٧ —١٢٩٨ م . ولقد دون الوصاف هذا الواقع فى كتابه « تزجية

---

(١) جاء فى « مطلع السعدين » هكذا — جو آراغون بسراى منصورية اران رسيد ، أمير فولاد جنكسانك وعلى كلمجى وديكر ايلجيان ازبندكى قاآن رسيدند . . وبيست وهشتم ذى الحجة سنة ٦٨٤ هـ أورد وقتا أزبندكى قاآن برسيد ويرليغ آوردكه آراغون بجاى پدر خان باشد .

(٢) العاصمة العظيمة والمراد هو « خانبالق »

الأمصار ، عند ما تكلم عن علاقة إيران بالخان الأعظم بخان بالق . ومن كلامه يظهر أن هذه السفارة كانت مكونة من عضوين : هما فخر الدين أحمد وبوقا ايلجي فلذلك يقول : أن غازان خان العادل بعث فى سنة ٦٩٧ هـ — ١٢٩٨ م ، فخر الدين أحمد وبوقا ايلجى ، سفيرين الى تيمور خان مع هدايا من جواهر وثياب موشاة وحرير وفهود — جديرة بالقبول لدى ذاته الخاقانية . فأنعم عليهما بعشرة آلاف تومان ذهب كرأس مال للتجارة ، وكان فخر الدين قد جهز جميع الأشياء اللازمة للسفر بحرا بالمراكب والجنود . فشحنها بمتاجره الخصوصية من جواهر ولآلىء وأمتعة أخرى لاقربائه وأصدقائه ، ولشيخ الاسلام جمال الدين فى بلاد الخاقان . وكانت ترافقه فى هذا السفر البحرى فرقة عسكرية من الرماة المشتملة على الاتراك والإيرانيين . وكان الطريق مخوفا فى البحر ، فشعر أن حياته وحياة رفاقه فى المراكب وما معهم من الأموال ، معرضة للتلف بين عشية وضحاها ، مهددة كل ساعة على وجه الماء . فلما قدموا أخيرا حدود الصين ، اتصلوا بالمأمورين والموظفين . فأوصلوهم محطة بعد محطة على حسب عادة بلاد الخان ، وجهزوهم بالخيام والحاجات الأخرى اللازمة للطريق . ولم يكلفوا شيئا من الرسوم أو الضرائب حتى وصلوا الى « أردو » ، وهى الرباط الامبراطورى بدائد وبقرب خانبالق .

« يقول الوصاف ، أن تيمور خان كان ملازما الفراش مريضا فى ذلك الوقت . لكن الوزراء الأربعة الكبار قد حضروا مجلس الاستقبال وجلسوا على المقاعد الذهبية بجنب السجادة الامبراطورية فى عزة وهيبة . وأما بوقا ايلجى الذى ظن أن سلاما محضا كان يكفى فى المقابلة الأولى بدون الجثو أمامهم ، كما هى العادة فى قصر المغول بالصين فقاموا باحتجاج شديد على تقصيره فى الآداب الرسمية عند المقابلة التشريفية .

لكن بوقا - وكان حاضر الذهن ، فصيح اللسان - أجاب فى الحال : « أن الامبراطور ، يحذرنى من الجثو أمام أى ركن من أركان الدولة ، أو أمام أى نبيل

من بيوت النبلاء، حتى أرى وجه الخانقان المبارك، آية الرفاهية والهناء. فأجازوا بعدئذ، دخولهما على تيمور خان ومقابلتهما له شخصيا. فعرضا عليه الهدايا النادرة التي كلفهما غازان خان تقديمها اليه فاستلمها بالشكر والثناء. وأما المتاجر التي كانا يحملانها في المراكب، فقد وضعت أمام الامبراطور، فأعجب بها غاية الاعجاب. فأصدر مرسوما في وقته بتجهيز المنازل والطعام والثياب والخدام للسفيرين ومن معهما من العساكر والأصدقاء، بمناسبة الفصول الاربعة. وأمر أيضا بوضع خمسة وأربعين من الخيل تحت تصرفهم.

ولقد مكثنا في الصين أربع سنوات ثم ودعوهما في سنة ٧٠٢ ﻫ — ١٣٠٢ م توديعا حظيا منطويا على المحبة والاحترام. ومنح الامبراطور فخر الدين بنتا من بنات الأمراء. وعلى يده أرسل رسالة الود وهدية الصداقة الى غازان خان، مصحوبة بالمنسوجات الحريرية التي كانت وقعت في نصيب هلاكو خان وبقيت في الصين منذ زمن ما نغوخان ولم ترسل الى صاحبها حتى يومنا هذا.

وفي رواية أخرى أن تيمور خان قد كلف سفيرا خاصا بالسفر الى إيران في مركب خاص، لابلاغ صداقته واحترامه الى غازان خان

فأبحر فخر الدين بعد نيل الاكرام الذي سر به غاية السرور، من عند أمبراطور الصين، مصحوبا بسفير خاص من تيمور خان وثلاثة وعشرين مركبا، فيها أمتعة نادرة هدية لصاحب إيران وأمرائها. فمات سفير تيمور في الطريق عن يومين الى معبر، وكذلك فخر الدين، فدفن بمعبر بجنب مقبرة عمه. وكانت وفاته كما أخبرنا الوصاف، قد وقعت في سنة ٧٠٣ ﻫ — ١٣٠١ م [1]

وأما تيمور خان الذي خلف قبلاى خان على أرض الصين، فقد بعث سفارتين في حياته الى ايران فكانت إحداهما في رد زيارة السفارة الايرانية المذكورة وأما الثانية فكانت في سنة ٧٠٥ ﻫ ١٣٠٣ م للأنعام على خدابندة بلقب «كوان نينغ وانغ 王寧廣 أي أمير الأمن للارض الواسعة.» وقدقيل

(1) Elliot: Vol. P. 45-47

أن سفارة قد وردت من إيران فى سنة ٧١٤ﻫ - ١٣١٢ م، لكن أغراضها غير معلومة عندنا لسكوت التاريخ عنها.

ولقد ذكر رشيد الدين فضل الله فى تاريخه أميرا من أمراء جغطائين، اسمه ايسن بوقا. فرفع لواء العصيان على الخان الأعظم، وخرج على خراسان بين سنة ٧٠٣ﻫ - ٧١٥ﻫ. فوقع أعضاء السفارات التى كانت مبعوثة من خانبالق الى طورس، فى يده وقاسوا منه ما قاسوا من قسوة وظلم يعجز القلم واللسان عن وصفهاوها هوذا الذى وجدناه عن هذه الواقعة فى تاريخ رشيد الدين

« ايلجيان قاآن كه در ملك او بودند، تمامت را بگرفت اول توقتيمور چنكسانك راكه قاآن بردست او خاتونى جهت الجايتو سلطان مى فرستاد بهزار بانصد سر اولاغ ايشانرا بولايت فرغانه بشهر اندكان (اندجان) كردانيد وايلجيان ديكركه ازختاى رسيده بودند وچرخ وسنقار وديكر ظرائف پيش الجايتو سلطان ميآورند بستد. وايلجيان رابكاشغر فرستاد ومقيد ومحبوس كرد

در أثناى اين حالت ايلجيان قاآن مقدم ايشان فولاد چنكسانك باهفتاد نوكراز حضرت الجايتو سلطان بازكشته بودند، برعزيمت قاآن بايلكهاى وتنسوقهاى إيران زمين بالوس ايسن بوقا رسيدند. ازغايت غضب وخشم ايشانرا تمامت هلاك كرد وهرچه داشتند تمامت تاراج نمود، والترجمة هى كما يلى:

« كان فى مملكته (أيسن بوقا) سفراء الخان الأعظم. فقبض عليهم أجمعين. وفى أول الأمر كان توقتيمور الوزير الذى قد بعث الخان الأعظم على يده، أميرة الى سلطان الجائيتو، أرسله أيسن بوقا، والأميرة إلى أندجان بولاية فرغانه تحت مراقبة ألف وخمسمائة فارس، وأما السفراء الآخرون الذين وردوا من بلاد الخطا، وقد حملوا معهم النسور وطيور الصيد والبضائع النفيسة إلى السلطان الجائيتو، فمنعهم أيسن بوقا عن السفر، وأرسلهم إلى كاشغر فالقاهم فى الحبس .. أثناء هذه الأيام، رجع سفراء الخان الأعظم، وفى مقدمتهم فولاد الوزير، مع سبعين خادما من جهة السلطان الجائيتو، قاصدين القآن، حاملين

التحف والهدايا النادرة من حاصلات أرض إيران . فاغتاظ منهم أيسن بوقا واشتد حتى أهلكهم جميعا وسلب جملة ما كان معهم من الأموال .. [1]

وبعد نحو ١٢ سنة من هذه الحادثة ، فى عهد أبى سعيد بهادر خان ، أرسل أيسون تيمورخان أمبراطور الصين ، سفارة إلى أمير شهير يعرف باسم « چوبان » فى سنة ٧٢٦هـ — ١٣٢٤ م وكان هذا قد سافر من بغداد إلى هرات ، لأنه اغتاظ من السلطان أبى سعيد ، بسبب الكلام الذى يتعلق بابنته بغداد خاتون . فتركه وتوجه إلى هرات . فتبع سفير الصين أثره هناك حتى وجده وقدم إليه رسالة ودية من أمبراطور الصين ، وأنعم عليه بلقب « أمير الأمراء فى مملكة إيران وتوران » فاستقبل السفير بكل إجلال ، وودعه بفائق الإكرام .

وبعد بضع سنوات ، لما هجره الجيوش الذين كان يقودهم الى قتال أبى سعيد ، سافر الى ما وراء النهر مع قصد الاستغاثة من أمبراطور الصين فى استرداد ايران الى ممتلكاته من يد أبى سعيد

فى زمن ابن بطوطة كان أمير خوارزم ، أميرا كبيرا يسمى قطلودمور (أى الحديد المبارك) ويظهر من الإشارة التى نجدها فى رحلة ابن بطوطة ، أنه كانت له علاقة بأمبراطور الصين وكانت الفواكه اليابسة تحمل من بلاده الى مملكة القاآن وكان مع ابن بطوطة من سار الى خوارزم ، شريف من أهل كربلاء ، اسمه على ابن منصور . فعزم على السفر معه الى الهند : ثم أن جماعة من أهل كربلاء وصلوا بقصد السفر الى الصين ، فسافر معهم ؛ نعم أن ابن بطوطة لم يذكر غرض سفر هذه الجماعة ، لكن الظن الغالب يذهب بنا الى الاعتقاد بأن لهم مهمة ضرورية حملتهم على سفرهم الى الصين لقضائها ، فلذا سافروا

ثم سفر ابن بطوطة إلى الصين فى سنة ٧٤٣ هـ — ١٣٤١ م ، لم يكن بصفته سائحا جوالا بل كان بصفته سفيرا من قبل تغلق شاه ، صاحب الهند إلى أمبراطور

---

(1) Blochet : Introduction a l'Histoire des Mongols de Fadllah Rachideddine p. 234.

الصين وهو (هيون — تى Hyun - Ti) (١٣٣٣ – ١٣٦٧ م) ، آخر ملوك المغول من آل قبلاى خان ، وكان السبب فى ذلك أن ملك الصين قد بعث إلى تغلق شاه ، مائة مملوك وجارية وخمسائة ثوب من الكمخاب وخمسة أمنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجواهر وخمسة من التركش مزركشة وخمسة سيوف وطلب من تغلق شاه ، أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام الذى كان بسمهل واليه يحج أهل الصين ، وتغلب عليه جيوش الاسلام بالهند ، فخربوه ، فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان تغلق شاه ، كتب اليه بأن هذا المطلب لا يجوز فى ملة الاسلام إسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية . فان رضيت باعطائها أبحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدى .

فكافأه على هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة وملجمة ومائة مملوك وجارية من كفار الهند ، مغنيات ورواقص ومائة ثوب برلية ، وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن ، فقيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالخز وهى التى يكون أحد طرفيها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعمائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ، ومائة ثوب من الشيرين باف ومائة ثوب من الشان باف ، وخمسمائة ثوب من المرغز مائة منها سود ومائة منها بيض ، ومائة منها حمر ، ومائة منها خضر ، ومائة منها زرق ، ومائة شقة من الكتان الرومى ، مائة قطعة من الملف وسراجة ، وست من القباب ، وأربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة ، وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كشلها ، وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه ، إحداها مرصعة بالجواهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع الغمد بالجوهر وقفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان .

فعين السلطان للسفر مع ابن بطوطة بهذه الهدية ، الأمير ظهير الدين الزنجانى وهو من فضلاء أهل العلم والفتى كافورا (الشربدار) واليه سلم الهدية وبعث معهم الأمير محمد الهروى فى ألف فارس ، ليوصلهم إلى قاليقوط ومنها يركبون إلى

الصين، وكان فى مرافقتهم رسل ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسى ، وخدامهم نحو مائة رجل ، فانفصلوا فى محطة كبيرة وأخذت كل جماعة طريقـــا .

كان سفر ابن بطوطة من دهلى فى السابع عشر لشهر صفر سنة ٧٤٣ هـ — ١٣٤١ م ، لكنه لم يذكر تاريخ وصوله إلى الزيتون ، وأغلب الظن أنه قدم هناك بعد ثلاث سنين ، لأنه قد أقام بجزيرة مالديب نحو سنتين عند سلطانها ، فالمدة التى قضاها فى البلدان المختلفة بين قاليقوط والزيتون ، لا تقل عن سنة . وعلى هذا نحن نعتقد بأنه قد وصل إلى الصين فى سنة ٧٤٧ هـ — ١٣٤٥ م . وكانت مدة إقامته فى الصين لم تتجاوز سنة كاملة ، لأنه قد مر بالشام راجعا فى سنة ٧٤٩ هـ ١٣٤٧ م .

وكان ابن بطوطة آخر سفير من دول إسلامية الى ملوك المغول بالصين وبرجوعه انغلق باب العلاقة الدبلوماسية بدولة يوان ، التى زال حكمها من أرض الصين بعد ربع قرن من ذاك التاريخ . فجاء عليها صاحب جديد ، غير من كان عليها وكانت لهذه الأسرة الجديدة علاقة متينة مع الممالك الاسلامية . وسنراها فى الفصـــل التالى .

(ب) العلاقة الدبلوماسية فى عهد (منغ) ١٣١٨ - ١٦٤٣ م

أن الأسرة الحاكمة التى أسست فى ديار الصين بعد آل قبلاى خان ، هى أسرة (منغ Ming) فحكمت الصين نحو ثلثمائة سنة ومضى منها أربعة عشر ملكا ، فكان المؤسس لهذه الأسرة العظيمة هو (منغ تائى جو Ming Tai - Tsu) الذى استمر عهده الزاهر من سنة ١٣٦٨ الى سنة ١٣٩٨ م

من بين ملوك هذه الأسرة ، أفراد مشهورون منهم جن جونغ (١٤٠٣ - ١٤٢٤ م) وسى جونغ (١٥٢٢ - ١٥٦٦ م) ووئين جونغ (١٥٧٣-١٦١٩م) وأما صوان جونغ (١٤٢٦ — ١٤٣٥ م) فلو أنه لم يحكم الصين إلا عشر سنوات

لكنه أوجد فى عهده الوجيز ، علاقة مع الدول الاسلامية التى بأواسط آسيا وغربها ، أوثق مما كانت عليه فى عهد أسلافه وخلفائه .

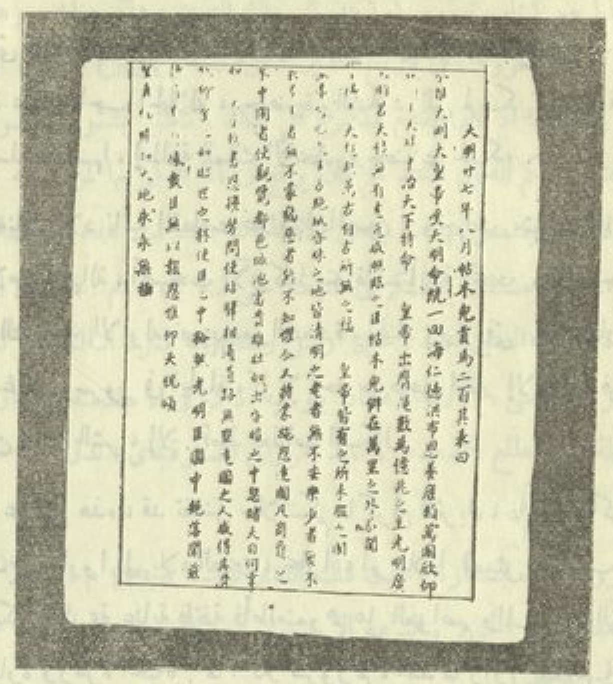
وهذا هو العصر الذى ازدهر فيه الاسلام فى الصين فظهر أثر هذا الازدهار فى كل ناحية من النواحى . فى ناحية العلم والتفكير ، وفى ناحية الأمور السياسية والخارجية ، وفى ناحية الصناعة والفن ، والناحية التى تهمنا هنا هى ناحية العلاقة الدبلوماسية مع الدول الاسلامية ، فلذا نخصص هذا الفصل للبحث عنها ونترك النواحى الأخرى إلى مواطنها من هذا البحث

ونظرة خاطفة الى الأمور الخارجية لهذا العهد، تكشف لنا أن علاقات أسرة منغ بالدول الاسلامية قد اتسعت الى أكبر حد لم يبلغه أى عصر من العصور السابقة لأن دائرة علاقات (تانغ) و (سونغ) كانت منحصرة فى الخلفاء بدمشق وبغداد وفى أمراء العرب بما وراء النهر وخراسان كما كانت علاقات (يوان) منحصرة فى ملوك المغول بايران واواسط آسيا ؛ وأما علاقات منغ التى نبحث عنها الآن فكانت تتصل بمصر وعدة امارات بشرق أفريقيا ، فضلا عن الرابطة التى قامت بينها وبين الممالك الاسلامية السابقة الذكر، وان الشواهد التاريخية من المصادر الفارسية تنطق بوجود علاقة ودية ورابطة دبلوماسية بين أسرة منغ وتيمور كوركان وبنيه فقد تبودلت عدة سفارات بين ملوك منغ وآل تيمور بسمرقند وهرات

ومن المعلوم أن أمراء المغول فيما وراء النهر وإيران كانوا مستقلين ، إذ كان قبلاى خان وأولاده لا يزالون على عرش الصين لأنهم كانوا من أسرة واحدة ، وليس من الصعب أن يعترف كل واحد منهم باستقلال أخيه فى دائرته الخاصة . لكن ملوك منغ ، الذين أخرجوا آل قبلاى خان من أرض الصين وردوا الحكم إلى أيدى الصينيين بأمر السماء ، لم يرضوا باستقلال أمراء المغول فى تركستان وآسيا الوسطى فأخضعوهم الى طاعتهم وكان تيمور كوركان صاحب سمرقند فى أول الأمر أيضا يخضع لحكم منغ تاى جو

وبناء على ماورد فى تاريخ منغ أن سمرقند وبخارى وهرات وكشمير، كانت تطيع الصين فى أول عهد (هونغ - وو) فكان أصحابها يرسلون الأتاوة والخراج والهدايا الى منغ تائى جو ويقول هذا المصدر أن صاحب سمرقند كان فى ذاك الوقت هو تيمور كوركان وسماه الصينيون «فوما تيمور» ولقد أرسل فى حياته ثلاث سفارات الى الصين. وكانت الأولى فى سنة ١٣٨٧ م، برياسة مسلم كبير معروف باسم (ملا حافظ) قد أتى معه بـ ١٥ جوادا وناقتين، هدية الى منغ تائى جو فأكرمه بالغ الاكرام وأنعم عليه بثمانية عشر مثقالا من الذهب الابيض ومن تلك السنة ظل تيمور كوركان يهادى ملك منغ بالخيول والابل سنويا. وأما السفارة الثانية فكما ذكرها تاريخ منغ، كانت فى سنة ١٣٩٢ م. فالهدايا التى جاءت بها هذه البعثة كانت مشتملة على ست قطعات من البرنيان وتسع قطعات من ثياب الصوف وشالين أحمرين، وآخرين أخضرين، وكمية كبيرة من التبر والسيوف والسكاكين وآلات حديدية أخرى.

والسفارة الثالثة التى وصلت فى سنة ١٣٩٤ م وعلى رأسها، كما ذكر فى كتاب الاستاذ بلوشيه «مقدمة تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله»، محمد درويش برلاس، أتت بمائتى جواد، هدية الى امبراطور الصين ومعها رفعت رسالة تقدمة من تيمور كوركان الى سدته العالية ونعرف من هذه التقدمة، أن تيمور كان يعترف بسيادة امبراطور الصين عليه فلذلك يقول:



نص « رسالة التقدمة » التى رفعت الى أمبراطور الصين
(دائمينغ) من تيمور كوركان ، صاحب سمرقند ١٣٦٤ م

تتبرك بالملك المعظم (دائى مينك) ، الذى وحد بأمر الله ، الجهات الأربع ، ووسع على الانام الخير والنعمة ، وأنعم على العوام اللطف والرحمة الذى يدين له الملوك بالسمع والطاعة ، والذى ينظر اليه السلاطين بالاجلال والاحترام فالحق الأعلى الذى أراد تأمين الدنيا ونصب لواء السلم مرفرفا على أهلها ، قدر للملك المعظم ، أن يكون قطبا للجماهير يدور حوله كل قريب وبعيد ، ونبراسا لأهل البلاد الشاسعة ، ينير كالشمس ، جميع أرجائها الواسعة .

فأنا تيمور الذى يقطن بعيدا بعشرة آلاف ميل فيما وراء الجبال ، قد سمعت عن عظمة لطف صاحب الجلالة ، وسعة كرمه كأنه سيل يجرى على الوضيع والرفيع أو كأنه فيضان يعم القريب والبعيد لاحد له ولا قيد وليس له فى الزمان نظير .

فالسعادات التي كان الملوك القدماء محرومين منها ومعدومة لدى سلاطين هذا الزمان كلها موجودة عند صاحب الجلالة ، حاضرة والبلاد التي لم تكن خاضعة لحكم الصين ، قد سلمت نفسها ، إطاعة للملك الأعظم وخضوعا لحكمه .

وكانت هناك بلاد نائية انقطعت علاقتها بالصين ؛ وجهات متوحشة ، غاص أهلها في الظلام والجهالة ، أصبحت الآن كلها منيرة مستأنسة تحت رعاية جلالتك فلا أحد من الشيوخ الا وله نصيب من السعادة والهناء ؛ ولا فتى من الفتيان ؛ إلا وله حظ من غبطة وسرور في الحياة ، كما لا أحد من أهل الخير إلا نال أوفر جزاء ولا عامل من ذوي الشر ، إلا اتعظ بعذاب النكال

وعلاوة على كل هذه ، قد تفضل جلالتكم باكرام الغرباء ، غاية الاكرام . فالأجانب الذين صاروا الى بلاد الصين ، تجارا ، أو طلابا للعيش وكسب المال لقوا من ذاتكم الكريمة عناية فائقة فأطلعتموهم على العواصم والمدن التي فيها ابتسامة الحضارة وزهرة الحياة . ما أكبر سرورهم ، عند ما رأوا عظمتها ، وما أعظم غبطتهم ، حين مشوا بين ابتسامات أزاهيرها . لقد اعتقدوا أنهم قد خرجوا من الظلمات فرأوا نور الشمس على جبين السماء . ثم الكتاب الذي وجهه جلالتكم الى التجار ، لم يكن إلا نورا من العطف السامي ، يتجلى عليهم ففتحت الطرق واتصلت المواصلات فأهل البلاد القاصية مغتبطون لهذا العطف الكريم متعطشون الى مزيد فيض من القلب الجلالي الذي يكشف كل ما في الخفاء ، كمثل كأس جمشيد لا يخفى عليه العالم وما فيه

بنور كرمك اهتدينا الى هناء وسعادة ، وبلطف عطفك ، عدنا الى رفاهة ونعمة وأما القبائل التي في مملكتي فعند ما سمعوا هذا الخبر السار ، رقصوا طربا وفرحا وأما أنا عبدك الضعيف ، فليس عندي شيء أقابل به هذا الانعام السامي غير الدعاء لذات الجلالة الملكية بالتمتع بأطول العمر وأوفر حظ من السعادة وأقصى حد من السرور والنعمة

هذا هو كتاب تيمور كوركان الى ملك الصين ، دائى منك ، وهو (منغ تائى جو) كما هو معروف فى تاريخ الصين ؛ فمن كلمة (臣 : Chen) التى يستعملها الوزير لنفسه ، اذ كان يقدم مذكرة الى الملك ، تتعلق بشئون الدولة ، أو أمير قد خضع لحكم الصين ، عند ما كان يرفع رسالة يشكر بها لمن فوقه من السلاطين والملوك ، أو يلتمس بها منه بعض الانعامات ، — من هذه الكلمة — نفهم أن تيمور لم يكن مستقلا بالحكم فى سمرقند حتى سنة ١٣٩٤م . فاضطر الى الاعتراف بسيادة ملك الصين عليه ، حين أرسل رسله إليه للمرة الثالثة ويؤكد هذه النظرية المصدر الفارسى . لأن الأستاذ بلوشيه ذكر فى « مقدمته » : أن هناك رسالة محفوظة فى « مطلع السعدين » لعبد الرزاق السمرقندى ، تدل على عدم استقلال تيمور فى بلاده

وردا لهذه السفارة ، بعث ملك الصين فى سنة ١٣٩٥ م ، سفيرا اسمه « فوآن » مع هدايا من الحرير والثياب الى تيمور كوركان . فعرضها عليه حين قابله على ضفة نهر جيجون .

كان خضوع تيمور لم يصدر عن نفس طيعة ، فلذا نراه يخرج على ملك الصين عندما قوى وفتح إيران وجزءا من جنوب روسيا . فقبض على تركستان وعزم على غزو الصين عن طريق بيش بالق . فعلم امبراطور الصين ذلك وأمر حاكم قانصو ، بالاستعداد للدفاع . لكن تيمور مات فى سنة ١٤٠٥ م ، قبل تحقيق غرضه . وعندئذ انقسمت دولته الى قسمين بين ابنه وحفيده . فكان ابنه الرابع شاه رخ يحكم هرات ، وحفيده السلطان خليل يحكم سمرقند . وكان خليل هذا أبقى علاقته الدبلوماسية مع الصين ، كما كانت فى أيام جده . وأنه قد بعث خداداد فى « مرافقة » فوآن « الذى سافر الى سمرقند أيام حياة تيمور كوركان ، واستبقاه هناك حتى يوم وفاته ، الى عاصمة الصين مع هدايا من حاصلات مملكته . فنال سفير خليل عند ملك الصين حظا كبيرا من الاحترام والاكرام .

ثم أرسل ملك الصين سفيرا خاصا الى سمرقند لتقديم التعازى اليه فى وفاة جده تيمور وهاداه بما يناسب مكانة السلطان

ويذكر تاريخ الصين رواية أخرى وهى ، أن شاه نور الدين ، أحد قواد تيمور كوركان ، كان يقدم أيضا الخيول والابل هدية الى ملك الصين ، فأرسل « فوآن » مرة ثانية الى سمرقند ، ردا لسفارة خليل ونور الدين فعاد فى سنة ١٤٠٩ ، وكان معه سفير خليل ، يحمل الهدايا والتحف الى منغ تائى جو ، وبعد ذلك كان السفراء يأتون من سمرقند مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات

وأن شاه رخ الذى تمكن من التربع على كرسى الحكم فى هرات ، كان يرسل بين الحين والحين ، سفيرا إلى ملك الصين ، فكانت علاقته مع الصين قوية وثيقة ويظهر أنه قد أرسل سفارات إلى ملك الصين ، أكثر مما بعث أبوه اليه . ويذكر المصدران : الصينى والفارسى ، أن البعثة الأولى من شاه رخ الى الصين كانت فى سنة ١٤٠٨ م ، والثانية فى سنة ١٤٠٩ م ، فالتمس برسالة رفعت الى ملك الصين بد المودة والصداقة التى كانت موجودة بينه وبين أبيه تيمور كوركان ، فرد الامبراطور « دائى منك » هاتين السفارتين ، ببعثة خاصة من بكين فى شهر المحرم سنة ٨١٥ هـ — ١٤١٢ م مع رسالة أمبراطورية الى شاه رخ بهرات ، ولهـذه الرسالة ترجمة فارسية ، نجدها محفوظة فى « مطلع السعدين » وها هى ذى ترجمتها الى العربية .

« أن الله قد خلق جميع الخلائق ، ثم خلق ما بين السماء والأرض ، ليكون كل واحد منها مستريحا فى النعيم ورافلا فى الرفاهية مع تأكيد من أمر الله » .

« لقد سخر الله لى ممالك على وجه الأرض ، أحكم عليها مطيعا لحكم الله ، أنى لست رجلا ، يفرق بين القريب والبعيد أو النسيب والغريب ، بل أنظر الى جميع الناس بعين المساواة والمحبة .

« لقد سمعت أنك حسن السيرة عالى الهمة ، كامل العقل ، مخلص النية ، أعلى من أقرانك ، وأرفع من أترابك ، حتى جعلت طاعة الله والعطف على الرعايا ،

والعناية بالعساكر والأحسان الى الزملاء وصلتهم ، سببا للسعادة ، ووسيلة الى الهناء . فلذا أرسلت سفارة خاصة لتلبسك « خلعة من الكمخاب »

« لقد عظمت سفيري ، عند ما أرسلته للمرة الأولى ، فأكرمته لديك ، بعد وصوله اليك وأظهرت الولاء نحوى ففرح الكبار والصغار فى قصرى ، ثم بعثت ، ردا لسفارتى ، بعثة فى وقتها ، أتت بالهدايا ، والتحف من جياد وأمتعة نفيسة من ديارك ، فأرى فى كل هذه علامة مودتك وآية صداقتك .

« نعم ، لقد وقع فى مسمعى المدائح العاطرة ، والثناء البالغ عن عواهل مغول منهم والدك قوماتيمور ، الذى قد قبل إطاعتى بأمر الله .

فهمت من الهدايا المقدمة الى ذاتى المحروسة ، ومن ورود السفارات منك الينا بين حين وآخر ، أن أهل بلادك كلهم فى راحة ورفاهية و جميع الأشخاص رافلون فى النعيم والهناء ، وأنك لتخطو خطوة أبيك الجليل ، همة وعملا ، وأما أنا فمن جانبي أرسل اليك « سوجو » و « دانك جينك » و « سون قرنجى » لابلاغ تهنئتى اليك ، والباسك خلعتى من الكمخاب ، وما هى إلا رمز من رموز الصداقة ومظهر من مظاهر المودة ، فأبعث بعد هؤلاء أناسا آخرين لتقوية الروابط بالبعثات ، ومد الصلات وفتح طرق التجارة وتوثيق العلاقات الى ما يرام

وأما السلطان خليل فهو ابن أخيك ، فعليك أن تربيه تربية حسنة لا تقة وتؤدى واجبك نحوه ، بصفة أنك أخ لأخيك ، كما عليك أن تطيعنى بالاخلاص وصدق النية — واليك هذا [1]

من هذا السند التاريخى الذى حفظه لنا عبد الرزاق السمرقندى فى كتابه «مطلع السعدين» يتضح لنا ، أن ملك الصين « دائى منك » كان يعتبر تيمور كوركان وابنه شاه رخ ، من تابعيه ، فلذا قال لشاه رخ أن أباه قد أطاعه ، فيجب عليه أيضا أن يطيعه كما فعل أبوه .

---

(1) Blocheit: P 248

لكن من الأسانيد الأخرى التى وجدناها فى «مطلع السعدين»، نفهم أن شاه رخ لم يرض بأن يكون تابعا لحكم الصين الى الأبد، فأعلن استقلاله ولعل هذا بعد سنة ١٤١٠ م، لأن الرسالة التى بعثها أمبراطور الصين الى شاه رخ فى سنة ١٤١٩ كانت فى غاية اللين والتواضع ولا نجد فيها تلك الكلمات التوبيخية التى كان يزجره بها فى الرسائل السابقة، كوالد يزجر ولده، أو حاكم أعلى يعاقب من تحته من المأمورين، بل على عكس ذلك نرى فيها كلمات التفخيم والتعظيم

وبعد إعلان الاستقلال، أرسل شاه رخ رسالتين إلى ملك الصين، إحداهما باللغة العربية والأخرى بالفارسية. فشرح فيهما عقائد الاسلام ومزاياه، ثم اسلام آبائه وأسباب ذلك. وكان قصده بهاتين الرسالتين دعوة ملك الصين إلى اعتاق الاسلام، واليك نصوص الرسالتين بلغتهما الأصلية مع ترجمة عربية الى الرسالة الفارسية تفهيما لمن لا علم له بها، وهى كما يلى:

النص الفارسى

بجناب «داى مينك» بادشاه از شاه رخ سلطان سلام ما، لا كلام

چون خداوند بحكمت بالغة وقدرت كاملة آدم را عليه السلام بيافريد وبعض فرزندان اورا پيغامبر ورسول گردانيد وايشانرا بخلق فرستاد تا آدميانرا بحق دعوت كنند، وباز بعض ازين پيغمبران راچون ابراهيم وموسى وداود ومحمد عليهم السلام كتابداد وشريعت تعليم كرد وخلق آن روزگار را فرمود، تا بشريعت

الترجمة العربية

إلى حضرة الملك «داى مينك» من السلطان شاه رخ، سلامنا، لا كلام.

لقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام بحكمته البالغة وقدرته الكاملة وجعل بعض أولاده أنبياء ورسلا وبعثهم إلى الأمم، ليدعوهم الى الحق. ثم أنزل الكتب على بعض الأنبياء منهم ابراهيم وموسى وداود ومحمد عليهم السلام فعلمهم الشريعة وأمر خلق تلك الايام أن يعملوا شرائعهم ويتمسكوا

ایشان عمل کنند وبردین أیشان باشند،
ومجموع این رسولان مردم رابدین
توحید وخد اپرستی دعوت کردند .
وازآفتاب وماه وستاره وسلطان وبت
برستیدن بازه‌اشتند . وهر کدام را
ازاین رسولان شریعتی مخصوص بود
أما همه بر توحید خدای متفق بودند
وچون نوبت رسـالت وبیغمبری
برسول ما محمد مصطفی صلی الله علیه
وسلم رسید ، شریعتهای دیکر منسوخ
کشت واو رسول وبیغمبر آخر زمان
شد وهمه عالمیان أمیر وسلطان ووزیر
وغنی وفقیر وصغیر وکبیر رابشریعت
أو عمل میباید کرد وترک ملت
وشریعتهای کذشته میباید داد ، اعتقاد
بحق ودرست اینست ومسلمانی عبارات
أزینست .

بیشترازین بچند سال جنکیزخان
خروج کرد وبعض فرزندان خود
دران ولایتها وممکلتها فرستادجوچی
خان را بحدود سرای وقرم ودشت
قفجاق فرستاد . درآنجان نیز بعض
بادشاهان ، چون أوزبك وجانی‌خان
وأرس‌خان برسر اسلام ومسلمانی
بودند وبشریعت محمد علیه السلام

بعروة أديانهم . وكان هؤلاء الرسل
كلهم يجمعون على دعوة الناس الى
التوحيد وعبادة الله ونهيهم عن عبادة
الشمس والقمر والنجوم والسلاطين
والاوثان وكان لكل رسول من
هؤلاء الرسل شريعة خاصة كلها متفقة
على توحيد الله . فلـــا نال رسولنا
المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم نعمة
رسالته ودرجة نبوته نسخت جميع
الشرائع الأخرى وصار خاتم الانبياء
ورسول آخر الزمان. فعلى كل ساكن
فى الدنيا ، أميرا كان او وزيرا ، غنيا
كان أو فقيرا ، صغيرا كان أو كبيرا ،
ان يعمل بشريعته ويترك الملل الماضية
وشرائعها . هذا هو الاعتقاد بالحق
والصدق. وأما المسلم فلا يعتبر الا بهذا

لقد خرج جنكيز خان قبل سنوات
فبعث بعض أولاده الى ممالك وولايات
فكان جوجى خان مبعوثا الى حدود
سراى وقرم ووادى قفجاق. وكان فى
تلك الجهات بعض الملوك مثل أوزبك
وجانى خان وأرس خان . قد اعتنقوا
دين الاسلام وصاروا يعملون على
شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وكان

میکردند . هلاکوخان ببلاد خراسان
وعراق ونواحی آن مقرر کردانید .
بس ازان بعض از فرزندان او که حاکم
ممالك بودند ، چون آفتاب شریعت
محمد بردل ایشــان (مشرق) بود
بر سر اسلام ومسلمانی بودند وبسعادت
اسلام مشرف کشته بآخرت رفتند .
چون بادشاه راست کوی غازان
خان والجائتو سلطان وبادشاه سعید
أبو سعید بهادر خان تانوبت حکومت
وفرمانروائی وسلطنت وکامرانی به بدر
مخدوم أمیر تیمور کورکان ، طاب
ثراه رسید ، ایشان نیز در جمیع ممالك
بشریعت محمد علیه السلام عمل فرمودند
ودر أیام سلطنت وجهانداری أیشان
أهل ایمان واسلام بهارونق هرچه تمامتر
بود أکنون بلطف وفضل خدا وند
تعالى این ممالك خراسان وماوراء النهر
وعراق وغیرها در قبضة تصرف ما
آمده ، در تمامت ممالك حکم بموجب
شریعة مطهرة نبویة میکنند وأمــر
معروف ونهی عن المنکر کرده ویرغو
وقواعد جنکیز خان مرتفع است
چون یقین وتحقیق شد که خلاص
ونجات در قیامت وسلطنت ودولت
در دنیا سبب ایمان واسلام وعنایت

هلاکو خان مأمورا على بلاد خراسان
والعراق . فولى بعض أبنائه حاكمين
على تلك الممالك . فلما أشرقت شمس
الشريعة المحمدية على قلوبهم أصبحوا
مسلمين فعــاشوا سعداء مشرفين
بالاسلام حتى ارتحلوا الى عالم الآخرة
فلما انتقل زمام الحكم الى يد السلطان
العادل غازان خان والسلطان
الجائيتو والسلطان أبي سعيد بهادر
خان حتى وصــل دور الحكومة
والسلطنة والحكم الى مخدومى والدى
الأمير تيمور كوركان ، طيب الله ثراه
كان يعمل أيضا فى جميع الممالك على
شريعة محمد عليه السلام وكان أهل
الايمان والاسلام فى أيام حكوماتهم
وصلوا الى أكمل درجة ، من العظمة
والرونق وأما الآن فبفضل الله وكرمه
قد وقعت فى قبضتنا ، بلاد خراسان
وما وراء النهر والعراق وغيرها من
الممالك . فالاحكام فيها كلها تجرى على
ما تقتضيه الشريعة النبوية المطهرة .
وهى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر
وأما نواهى جنــكيز وقوانينه فقد
رفعت . ومن المحقق واليقين أن الخلاص
والنجاة فى الآخرة والسلطة فى الدنيا

خداوند تعالی است بارعایت بعدل
ودادوانصاف زندکانی کردن واجب
است . أمید بموهبت وکرم خداوند
تعالی آن است ایشان نیزدران ممالك
بشریعت محمد رسول الله عمل کنند
ومسلمانی راقوت دهند ، روزه‌دنیا
بپادشاهی آخرت «وللاخرة خير لك
من الأولى » متصل کرد

درین وقت ازان طرف ایلچیان
رسیدند وتحفها آوردند سلامتی
ایشان ومعموری أن ممالك کفتند
ودوستی میان بدران بوده برموجب
محبت الاباء ، قرابت الأبناء تازه
کشت ما نیزازین طرف محمد بخشی
ایلچی فرستادیم تاخبر سلامتی رساند

مقرر آنست که بعد ازین راههای
کشاده باشد تابازرکان بسلامت آیند
وروند که معنی سبب آبادانی مملکت
ونیکونامی دنیا وآخر تست . توفیق
رعایت اتحاد ومراقبت شرائط وداد
رفیق أهل طریق باد .

. . . . تم

ودوامها لا تكون الا بالايمان
والاسلام وفضل الرحمن فواجب علينا
أن نعاشر الرعايا بالعدل والانصاف
والمساواة وأرجو من كرم الله وفضله
ان يوفقهم فى العمل بشريعة محمد رسول
الله ، كما أرجو ان يقوى ظهر المسلمين
فى هذه البلاد لكى تتصل سلطنة الدنيا
بسلطنة الآخرة و (للآخرة خير لك
من الأولى)

لقد وصل السفراء فى هذه الأيام
من عندكم وأتوا بالتحف والهدايا .
فتكلموا عن أمن البلاد وسلامة الحياة
كما تكلموا عن عمارتها فالمودة التى كانت
عليها مدارات الآباء موجبة قرابة الابناء
من جديد . فلذا نبعث من جانبنا محمدا
بخشى سفيرا اليكم ليبلغكم خبر السلامة
ومن المقرر ان تكون الطرق مفتوحة
بيننا من بعد ليمكن التجار ان يروحوا
سالمين ويرجعوا آمنين . فان هذا هو
سبب تعمير البلاد وسمعة حسنة بين
الانام فى الدنيا والآخرة . ونسأل الله
ان يوفقنا بالاتحاد فى المراعاة والمحافظة
على الشروط وانصاف الرفيق فى
الطريق .

. . . . . تم

الرسالة العربية

وأما الرسالة العربية التى قد حفظها لنا « مطلع السعدين » فهى ، كما وجدناها فى مقدمة تاريخ المغول لرشيد الدين فضل الله ، للمستشرق الأستاذ بلوشة ، مايلى

بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله محمد رسول الله . قال رسول الله محمد عليه السلام ، لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا يطاع من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك. لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته، قال « كنت كنزا مخفيـــا ، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف » فعلم أن حكمته جلت قدرته وعلت كلمته من خلق نوع الانسان ايثار[1] العرفان ، أعلاء أعلام الهدى والايمان وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ليعلم الشرائع والأحكام ومبين الحلال والحرام وأعطاه القرآن المجيد معجزة ليفحم به المنكرين ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام وأبقى بعنايته الكاملة وهدايته الشاملة ، آثاره الى يوم القيامة ونصب بقدرته فى كل حين وزمان وفرصة وأوان فى أقطار العالمين من الشرق والغرب والصين ذا قدرة وامكان وصاحب جنود مجندة وسلطان ليروج أسواق العدل والاحسان ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الامن والأمان ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر والطغيان ، ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء، وازاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد فى (الملة) الزهراء . فوفقنا الله تعالى بسوابق لطفه ولواحق فضله ، ان نسعى فى إقامة قوانين الشريعة الطاهرة وادامة قواعد الطريقة الزاهرة وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا فى الوقائع والقضايا بالشريعة النبوية والأحكام المصطفوية ونبنى فى كل ناحية المساجد والمدارس ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد لئلا يندرس أعلام العلوم ومعالمها وينطمس آثار الشريعة ومراسمهـــا ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطنتها واستدامة آثار الحكومة وايالتها باعانة الحق والصواب واماطة أذى الشرك والكفر عن وجـــه الأرض لتوقع الخير والثواب . فالمرجو والمأمول من الجانب العالى وأركان دولته أن يوافقونا فى الأمور المذكورة

---

(١) فى الأصل (آثار)

ويشاركونا فى تشييد قواعد الشريعة المعمورة، ويرسلو الرسل والقاصدين ويفتحوا المسالك للسائرين والتاجرين ليتأكد أسباب المحبة والوداد، ويتعاضد وسائل المودة والاتحاد، ويستريح طوائف البرايا فى أطراف البلاد وينتظم أسباب المعاش بين صنوف العباد والعباد. والسلام على من اتبع الهدى والله رؤوف بالعباد[1]

ذكر عبد الرازق السمرقندى بعد هذا، سفارتين أخريين من ملوك منغ الى شاه رخ فى سنة ١٤١٧ و ١٤١٩م ثم عدة سفارات من أمراء المغول فى إيران وهرات وسمرقند إلى الصين فى السنوات المختلفة ولذلك يقول

بادشاة داى مينك بازايلجيان فرستادة درماه ربيع الأول سنة عشرين وثمانمائه (١٤١٧) رسيدند. ايشان تيباجـين وتوباجين وجاتياجين وتنق‌ياجين، با‌صد سوار وتحفة وبيلاق بسيار وشنغار وأطلس وكمخاب وترغو وآلات جينى وغيره رسانيدند وبراى شاه زادكان وآغايان على حدة بيلاكات بادشاهانه آورده بودند ومكتوبى مشتمل بر معانى كه طرز رسائل كدشته باشد وذريعة لستعطاف أينده أيد مضمون آنكة أزجانبين رفع حجاب مغايرات وبيكانكى بايد نمود وفتح باب موافقت ويكانكى فرمود تارعايا وتجار بمراد خود آيند وروند وراههاى أيمن باشد. دركرت أول ايلجيان آمدة بودند جون مراجعت نمودند أمير سيد أحمد ترخان أسب بوزى جهت بادشاه روان داشته بود ودرنظر بادشاه بغايت مستحسن نمود وبراى أوجيزى بسيار فرستادة بود وصورت آن اسب را نقاشان أنجا كشيد بادو أختاجى كه عنان أسب را ازدو طرف كرفته بودندارسال نمودند وايلجيان وأمهمان‌دارى كرده ومهمات ساختة جناحة كدشتة روان داشتند وانحضرت أردشير تواجى را همراه ايلجيان بجانب خطاى فرستاد . . .

ومعنى هذه العبارات بالعربية

ثم بعث ملك الصين داى مينك خان سفراءه فوصلوا فى ربيع الاول سنة ٨٢٠هـ

---

(1) Blochet: P. 251-253.

(١٤١٧ م) وهم تيباجين، وتوباجين وجانباجين وتقباجين : جاءوا مع ثلثمائة فارس وهدايا كثيرة ، منها طيور الصيد وأطلس وكمخاب والفخار الصينى وغيرها من نوادر التحف، وأما الهدايا التى أتوابها للامراء والنبلاء فكانت على حدة من كل هذه الأشياء. وأما الكتاب فكان يشمل معانى كما فى الرسائل السابقة ، متضمنا وسائل الاستعطاف فى المستقبل فكان فحوى الكلام يضمن وجوب رفع الحجاب من بين الجانبين من مغايرة ومباعدة ، وفتح باب الموافقة والمواصلة ، ليمكن الرعايا والتجار أن ينتقلوا ذهابا وايابا على حسب مرادهم ولتكون الطرق آمنة من الخطر لقد جاء السفراء من قبل. فلما رجعوا ، بعث الأمير السيد أحمد ترخان على أيديهم جوادا يستبق الريح ، الى صاحب الجلالة ، فاعجبه غاية الاعجاب واليه أرسل أشياء كثيرة وصورة الجواد التى رسمها رسام مع السائسين الممسكين بعنان الجواد بالجانبين، وأما السفراء فقد أكرمهم غاية الاكرام وقضى لهم المهمات حتى ودعهم بكل حفاوة واحترام . فأرسل أردشير تواجى فى مرافقة السفراء الى الصين ..

ثم فى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٩ م) وصل وفد من ملك الصين الى سمرقند يحمل الرسائل الى صاحبها وعن هذا الواقع كتب عبد الرزاق فى كتابة ما يأتى

لقد بعث داى مينك خان ملك الصين أولا سفراءه فى هذه السنة الى حضرة خاقان سعيد فرده بارسال أردشير تواجى فى مرافقة أولئك السفراء الى ملك الصين ثم عاد اردشير وذكر أحوال البلاد وقدوم سفرائها عن قريب " فى آخر رمضان وصل فياجين وخان ماجين الى هرات ورفعا الى خاقا سعيد هدايا نفيسه ورسالة مودة . وكانت رسالة ملك الصين تكتب على طريقتهم الخاصة وذلك ان اسم الملك يكتب فى صدر الرسالة وتحته أسطر الكتابة . فالمواضع التى يذكر فيها اسم الجلالة أثناء الكتابة ، اذا بلغت ، تترك عند حدها ، وتستأنف باسم الجلالة من أول السطر الثانى . وكذلك يفعلون مع اسم الملك فى الكتابة .

وهذه الرسالة التى أرسلت الى خاقان فى سنة ٨٢٢ هـ ، كانت مكتوبة على هذا النمط . وكانت رسالاتهم تكتب من ثلاث نسخ وفى كل نسخة ثلاث لغات ، أحداها

تكون لغة الأغلبية وتضاف اليها لغتان أخريان . قد تكونان من الفارسية والمغولية
وهي لغة الأواغرة ، وقد تكونان من التركية والصينية الا أن اللغة الصينية تكتب
لزوما في كل نسخة من ثلاث الرسائل التي تعد للارسال تذكر فيها على التفصيل
جميع الاشياء التي في ضمن الهدايا من الحيوانات وغيرها . .

وهنا نموذج بالفارسية ، من الرسالة ، لكل نسخة من النسخ الثلاث وكان في
كل نسخة تاريخ مكتوب بثلاث لغات . وهذا التاريخ يكون يوم كذا من شهر
كذا من سنة كذا في عهد الملك فلان . (من قول عبد الرزاق أن هذه الرسالة
التي نراها فيما يلي، هي أحدى الرسائل التي بعثها ملك الصين داي مينك الى شاه رخ)
وفيها يقول

« داي مينك بادشاه معظم ارسال ميفرمايد به شاه رخ سلطان تأمل ميكنم »
« جداوند تعالى دانا وعاقل وكامل بيافريد أورا تاممكت اسلام ضبط كند
بسبب آن مردمان مملكت دولتمند كشته اند

« سلطان روشن رأى ودانا وكامل وخردمند وازهمه اسلاميان عاليتر وبأمر
« خداوند تعالى تعظيم واطاعت بجا آورده ودركار أوعزت داشت نمرده كه
موافق تأييد آسمان است

ما بيش ترين ايلچيان أمير سواى ليدا بأجمهم فرستاديم بنزديك
« سلطان رسيده اند بآداب رسوم اكرام واعزاز بسيار فرموده اند . ليدا
وأجمهم بمراجعت رسيده عرض نمودند برما همه روش ومعلوم كشت وايلچيان
بيلبوقا وغيره بليدا وأجمهم باهم براى ما هدايا شير واسبيان تازى ويوزان
وچيزهاى ديكر فرستادند . همه برين دركاه رسانيدند . ما همه را نظر كرديم ،
صدق محبت ظاهر كردانيده اند . ما بغايت شاكر كشتيم . ودرديار مغرب كه جاى
اسلامست ازقديم دانايان وصالحان هيچ كس از
سلطان عالى تر نبوده باشد ومردمان آن مملكت را نيك ميتواند أمان
تسكين دادان كه بروفق رضاء حق است جل جلاله جكونه

« خداوند تعالى راضى وخشنود نباشد مردانه ، مردان باهمديكر بدوستى بودند . دل بدل جو آئينه باشد . اكرجه بعد مسافد باشد ، كوبيا در نظرستى همت ومروت ازهمه جيز عزيز تر است . ليكن در تبع آن نيز جيزى عزيز شود . أكنون على الخصوص ليدا وجانكقو باجمهم با ايلجيان بيك بوقا وغيره راباهم فرستاده شد كه نزديك

« سلطان هدايا سونكقوران هم دست كه برسانند اين همه سونقوران راما بدست خودبرانيد ، ايم ونيز هدايا كخاب مع غيرهم فرستاد شد . سونكقورن اكرجه در مملكت جين ما نمى . شود ليكن على الدوام ازطراف دريا براى ما تحفه مى آرند . سبب آن كى نيست درآن جاى شما تامقابل همت عالى

أسلطان قربجى باشد اكرجه اشياء كينه است ، ليكن حوصله محبت ما باشد . بقبول

« سلطان وصول آيد من بعد ميبايد كه صدق محبت زيادة شود وايلجيان وتاجران بيوسته آمد

شد كنند ومنقطع نباشند ، تامردمان همه بدولت أمن وأمان ورفاهيت باشند البتة «خدواند تعالى لطف ورحمت زيادة كرداند اينست كه أعلام كرده شد . .

والترجمة العربية لهذه الرسالة هى كما يلى

تفضل الملك المعظم داى منك ، بارسال رسالة الى السلطان ، أعنى شاه رخ يقول فيها

« ان الله قدخلق من عباده حليما عاقلا . كاملا فى الفهم ، لينظم أمور الممالك الاسلامية وليكون سببا « فى اسعاد البلاد وغناء أهلها

«ان السلطان الكامل العقل، المتنور الضمير الذى يفوق جميع ملوك الاسلام، يطيع أمر الله « ويعظمه ، ويعتز بالأعمال لله ، هو الذى يؤيده السماء بفضله ولطفه

« لقد أرسلت من قبل ليدا وغيرهم سفراء الى السلطان ، وتلقوا من عندكم الحفاوة والاكرام ، وغاية التعظيم . وبعد عودتهم ، ارتحالا عرضوا علينا من الأخبار السارة . فجاء السفراء بيك بوقا وغيره فى مرافقة ليدا وجماعته الينا بالهدايا من أسود وجياد عربية وفهود وأشياء أخرى . فأوصلوها الى هذا القصر . فرأينا فيها تجلى الصدق والمحبة . وأشكركم غاية الشكر . لا يوجد فى ديار الغرب (غرب آسيا) وهى موطن الاسلام ، أحـــد من بين العقلاء القدماء والصالحين الكرماء ، أعلى منزلة من السلطان . وأما القوم فى مملكتكم فكلهم من الرجال الصالحين وذوى السيرة الحسنة فالأمن شامل ، والطمأنينة مرفرفة بظلها على السكان وفاقا لمرضاة الحق ومشيئة الله عز وجل . لم لا ، إذ كان الناس يصادق بعضهم بعضا ، وقلب كل واحد منهم ، مرآة للآخرين . ولو أن المسافة بعيدة ، لكن الهمة والمروءة من أعظم الاشياء ومن أعزها وكل شىء يتبع الهمة والمروءة هو عزيز عظيم أيضا . أبعث الآن على الخصوص ليدا وجانمكفو وجماعتهما فى مرافقة السفراء بيك بوقا وغيره الى السلطان ، بالهدايا من النسور التى كنت أطيرهن بيدى وكذلك الهدايا من الكمخاب فى بعثة أخرى . وأما النسور فلو أنها لا توجد فى بلاد الصين ، لكن يؤتى بها تحفا الينا من أطراف الانهار ولذلك أسباب كثيرة وهذه الاشياء قد تكون حقيرة فى بلادكم بالنسبة الى همة السلطان العالية ، لكنها آية من آيات المحبة التى توثق بقبول السلطان . ومن بعد يجب أن تزيد الصداقة والمحبة بيننا بواسطة السفارات والتجار وعدم انقطاعهم عنا ، ليكون الناس على التمتع بالامن والرفاهية فى البلاد . . .

« والاعلان عن هذا هو من تأييد رحمة الله ومزيد لطفه . . »

فرد شاه رخ سفارة الصين ببعثة فى ذى القعدة سنة ٨٢٢ هـ (ديسمبر ١٤١٩ م) وكان مع هذه البعثة سفراء من ميرزا باسون غور ، وسيور غاتميش . ومن قول عبد الرزاق السمرقندى أن سفراء شاه رخ قد وصلوا الى بكين فى ذى الحجة ٨٢٣ هـ ديسمبر ١٤٢٠ م وأقاموا فيها الى ١٥ من جمادى الاولى ٨٢٤ هـ ١٨ مايو

١٤٢١ م . فرجعوا الى هرات ١٠ من رمضـــان سنة ٨٢٥ هـ / ٢٩ / ٨ سنة ١٤٢٢ م

وتاريخ الصين يؤكد ما قلناه فى هذه النقطة عن « مطلع السعدين » ويذكر عدة سفارات من أولاد تيمورخان الى ابن السماء . كالتى من شاه رخ وغيره من أصحاب الاقطاعيات والأمراء الذين قد سيطروا على بعض البلاد فيما وراء النهر وخراسان وايران . كتاشقند وكش وشاهر وخية وبدخشان وأصفهان وشيراز وغيرها .

لقد روى صاحب « علاقة الصين القديمة بتركستان » استنادا الى تاريخ منغ ، قائلا : أن السفارة قد وردت من سمرقند حين كان يحكم عليها ميرزا أولغ بيك بعد السلطان خليل فى سنة ١٤١٥ م ، كما وردت من شيراز . فجاءت منها للمرة الثانية فى سنة ١٤١٧ — ١٤١٨ م ، ومن شيراز وأصفهان فى سنة ١٤١٩ م ومن بخارى فى سنة ١٤٢٢ م . ثم من شيراز فى سنة ١٤٢٣ م . فرجع الامبراطور سى جونغ ، سفراء ميرزا أولغ بيك بفائق الاكرام . فأمر « جن جونغ » و « لوآن » أن يرافقاهم وأرسل على أيديهم نيشانا من الفضة الى أولغ بيك

ففى عهد « صوان جونغ » (١٤١٦ — ١٤٣٥ م) جاءت من أولغ بيك عدة سفارات مع الهدايا إلى ملك الصين فى سنة ١٤٢٦ و ١٤٢٧ و ١٤٢٨ و ١٤٢٩ و ١٤٣٠ و ١٤٣١ و ١٤٣٣ م ولكل مرة من هذه السفارات رد بالبعثة من الامبراطور « صوان جونغ »

وقيل أن البعثة التى بعثها أولغ بيك فى سنة ١٤٣٩ م ، جاءت بجواد ذى غرة فى الجبين والجحافل فاستغربه الامـــبراطور وأمر بتصويره ، وأكرم لذلك ، السفير الذى أتى به اليه وبالغ فى الاكرام . وفى سنة ١٤٤٠ م ، أرسل أمبراطور الصين رسالة الى السلطان أولغ كورخان يقول فيها « إنك سلطان يحكم فى الغرب القاصى ويقدم الاتاوة والخراج بدون توقف ولا انقطاع . وأنه لمستحسن عندى . فلذا أنعم عليك وعلى زوجتك وأولادك على أيدى السفراء العائدين اليك « بخامات من ثياب الحرير » تقديرا لمنزلتك عندى . فأرسل مع

هذه الخلعات بعض المصنوعات الذهبية والفضية والزبرجدية وعصا نقش عليها رأس التنين، وأعلى نوع من السروج والحرير الملون[١]

وبناء على رأى الأستاذ بلوشه ، قد وردت بعد هذه ، عدة سفارات من سمرقند فى سنوات ١٤٤٥ و ١٤٤٦ و ١٤٤٩م . ولقد تلقى الامبراطور « ابخ جونغ » وفدا آخر ولعله هو الأخير الذى أرسله أولغ بيك إلى الصين[٢]

ويشهد تاريخ الصين فى عهد منغ ، أن السلطان أبا سعيد الذى كان يحكم سمرقند ، بعد أولغ بيك ، بعث سفارات عديدة إلى الصين فى عهد « جين جونغ » (١٤٥٠ — ١٤٦٤م) وفى عهد « شيانغ جونغ » (١٤٦٥ — ١٤٨٦م) وكان أول الوفود منه فى سنة ١٤٥٦ م . ولقد تكلم تاريخ الصين عن هذه السفارة بما يأتى : « ورد السفراء من سمرقند فى سنة ١٤٥٦م ، لتقديم الخيول والابل والأحجار الكريمة فقال أمين التشريفات أن النظام القديم فى القصر يفرض أوفر الإنعامات للسفراء وأما الآن فوضعوا الدرجات فى الانعام . من الناس من يستحق الدرجة الأولى من الانعام مثل السفراء ووكلائهم . لهم انعام كما كان لهم فى الأيام الماضية . والذين يستحقون الدرجة الثالثة من الانعام ، فلهم ثلاث قطع من سندس وأربعة ثياب من الكمخاب، وثوب من الحرير المذهب . وأما أتباع السفارة والخدام فلهم دون ذلك على حسب درجاتهم . وأما الانعام فى مقابل الحيوان ، فعن كل فرس أرغماكى (Argamaki) أربعة ثياب من الكمخاب وثمانية قطع من سندس وعن كل ثلاثة إبل ، عشرة قطع من زربفت ، وعن كل خيل تاتارى على اختلاف درجاتها ، ثوب من الحرير وثمان قطع من زربفت . وأما الزمرد فمنه ما يصلح للاستعمال ومنه ما لا يصلح لذلك . فوجدت عندهم ٢٤ قطعة من الزمرد صالحة للاستعمال ومجموع وزنها ٦٨ رطلا[٣] والباقى لا يصلح للاستعمال وهى ٥٩٠٠ رطل . وقلت لهم : ارجعوا بها إلى بلادكم . غير أنهم

(1) Ancient China's Realtion With Turkistan. p. 530

(2) Blcchet : p. 267

(١) الرطل الصينى يساوى رطلا عربيا وربعا منه

أصروا على تقديمها إلى الملك . فلذا ألتمس الاذن من السدة العالية باصدار حكم فيما يتعلق بالانعام بثوب من زربفت عن كل خمسة أرطال من الزمرد ، نرجع السفراء وأرسل امبراطور الصين على أيديهم ، هدايا نادرة إلى إبي سعيد[١]

من هذا البيان نفهم أن السفراء الذين جاءوا من سمرقند باسم تقديم الخراج أو الهدايا إلى الأمبراطور ، هم التجار فى الحقيقة ، ولا يريدون إلا كسب المال بمتاجرهم . لكن الأمبراطور كان على كل حال يغتبط بتلك الهدايا التى قدمت من قبل السلاطين بآسيا الوسطى فرآها نوعا من الخراج وإن كانت المعاوضة تتطلب فى نظير هذه الهدايا ، ما يساوى أكثر من القيمة الأصلية . فلذلك نرى أنه لم يمل من رد السفارة وانعام بخلعة على المهادين ، ففى سنة ١٤٥٧ م ، بعث الأمبراطور سفيره « مايون » وكان مسلما ، كما يظهر من اسمه ، إلى « ديار الغرب » وكلفه بالانعام بخلعة على السلطان موسى كما كانت العادة فى رد السفار فى تلك الأيام ، وأما السلطان أحمد أبو سعيد فأرسل أيضا عدة سفارات إلى بكين منها ثلاثة فى عهد « جنغ خوا » (١٤٦٥ - ١٤٨٦ م) ، فى سنوات ١٠٧٨ و ١٤٨٠ و ١٠٨٣ لقد روى فى تاريخ الصين أن فى مرافقة سفارة السلطان أحمد التى جاءت إلى الصين فى سنة ١٤٨٣ م وفدا من أصفهان وكان معهم أسدان ، هدية إلى الأمبراطور ، فلما وصل إلى مدينة (سوجو Su- Chow) بقانصو ، طلبوا من الأمبراطور أن يبعث وزيرا من الوزراء الكبار للاستقبال . فاستنكر ذلك أمير من الأمراء اسمه (لويون Lu- Yun) واعترض على أن الأسد حيوان غير مفيد ، لأنه لا يجوز للقربان فى المعابد والهياكل ، ولا يجوز للركوب كالخيول والأبل والحمير ، فخير للأمبراطور ألا يقبل هدية مثل هذه . وأكد ذلك أمين التشريفات قائلا — أن الاستقبال للأسودين خارج عن العرف العام والعـــادة المتبعة ، لكن الأمبراطور لم يسمع كلامهما . فقبل من وفد أصفهان الأسدين . فكان يأكل كل

---

(١) علاقة الصين القديمة بتركستان : ص ٥٣٠

واحد منهما غنما وعلبة من العسل وعلبة من السمز وقارورة من الخل يوميا وأما مربى الأسود فهو بهلوان له رزق خاص من خزانة الدولة .

والسفارات الأخرى من السلطان أحمد كانت فى سنوات ١٤٨٨ و ١٤٨٩ و ١٤٩٠ و ١٤٩١ م . وقد ذكر الأستاذ بلوشه كل هذه فى مقدمته . وإذا نظرت إلى ما جاء فى « علاقة الصين القديمة بتركستان » ، لترى بعض التفاصيل عن بضع سفارات أخرى من البلاد الأسلامية المختلفة بآسيا الوسطى إلى الصين . منها ما جاء من مالاقه (Malacca) فى سنة ١٤٨٩ م ومنها ما جاء من طرفان فى سنة ١٥٣٣ م ومنها ما جاء من سمرقند فى سنة ١٥٣٦ م

وأما السلطان على ميرزا الذى قتل فى سنة ٩٠٦ هـ — ١٥٠٠ م ، بيد محمد خان الشيبانى ، فقد بعث وفدا أيضا إلى بكين ووصل اليها ، كما ورد فى مقدمة الأستاذ بلوشه ، فى سنة ١٤٩٩ م .

[إنما العلاقة بين بكين وعواصم ما وراء النهر ، كانت تجرى على نصابها فى زمن الشيبانيين وهم فرع من بيت جنكيزخان : عن شيبان‌خان بن جوجى خان . قد] اسقطوا آل تيمور من السيادة ، حتى اضطروا ظهير الدين بابر الى ترك وطنه وركوب الخطر الى الهند ، ليبحث عن حظه هناك وكان من هؤلاء محمد خان الشيبانى الذى أرسل خمس سفارات الى بكين فى سنوات ١٥٠٣ و ١٥٠٤ و ١٥٠٨ و ١٥٠٩ و ١٥١٠ م . وبعث بعد ذلك ولده قوش كونجى أربعة سفارات تحمل الهدايا إلى ابن السماء فى الصين فى سنوات ١٥١٥ و ١٥١٩ و ١٥٢٣ و ١٥٢٩ م وكانت الأوليان فى آخر عهد « ووجونغ » (١٥٠٦ - ١٥٢١ م) والأخريان فى أول عهد « سى جونغ » (١٥٢٢ — ١٥٦٦ م) .

تاريخ الصين لا يزال يذكر وصول السفراء مما وراء النهر . فمثلا الوفد الذى بعثه السلطان سكندر فوصلوا إلى بكين فى سنة ١٥٨٣ م ، ووفد آخر من

سمرقند بعد زوال الشيبانيين إلى أمبراطور الصين فى سنة ١٦١٨ م ، ليرفعوا اليه يمين الولاء عن الأمير جنيد أمام كول .

اتصل ملوك (منغ) من الناحية الدبلوماسية ، بسلاطين المسلمين فى الممالك الساحلية بالشرق من قارة آسيا ، منهم سلطان جاوة ، وسلطان بورنيو ، وسلطان سماطرة ، وكان المسلمون فى الهند يشتركون فى إرسال الوفود إلى بكين ، ويذكر تاريخ الصين عن ورود السفارة من بنغال (الهند) برياسة سيف الدين فى سنة ١٤١٤ م [1] . وكان على عرش الصين فى ذلك الوقت ، الامبراطور (جينغ جو) وهو الذى سافر فى عهده الحاج الجهان إلى جزائر جاوة وسواحل الهند وبلاد العرب وموانى شرق أفريقيا مرات عديدة للأغراض السياسية والتجارية . وننقل هنا بعض ما جاء فى المصدر الصينى عن هذه الوقائع المهمة .

لا يخفى على القراء ، أن العلاقة الدبلوماسية التى كانت موجودة بين ملوك الصين والخلفاء وعمال العرب فى الولايات المختلفة بآسيا الوسطى ، قد انقطعت عند سقوط بغداد وزوال الدولة العباسية ، فالمغول الذين ظهروا فى القرون اللاحقة بعد دخول أكثر أمرائهم فى دين الاسلام حلوا محل العرب فى السياسة الإسلامية خصوصا فى قارة آسيا من أقصاها إلى اقصاها ، فلا نرى من حينذاك علاقة الصين الدبلوماسية إلا بسلاطين المغول فظلت قوية موثقة بالعلاقة الجنسية حتى زوال الشيبانيين فى القرن السادس عشر الميلادى . لكن ملوك (منغ) الذين قد أخرجوا آل قبلاى خان من ديار الصين ـ ولو أنهم كانوا يرون من المصلحة أن يبقوا علاقاتهم بأمراء المغول من آل تيمور فى بلاد تركستان وخراسان ـ لم يقلدوا فى سياستهم الخارجية ، خطوات قبلاى خان وأبنائه بحصر الرابطة السياسية فى أبناء الدم والجنس بل خرجوا على هذا التقليد واستأنفوا سياستهم الخارجية بمبادلة السفراء بينهم وبين أمراء العرب فى البلاد الساحلية فى خليج فارس والبحر

(1) Blochet : p. 266.

الأحمر فأرسلوا سفراءهم إلى الامارات التى ببلاد العرب مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وظفار واحساء ، وعدن وإلى التى أقامها بسواحل شرق أفريقيا ، كمصر ومقدشو وبراوة وبلاد السومال وأشهرها كان فى سنة ١٤٢٠ م تحت رياسة الحاج جهان .

وأما الحاج جهان فكان أحد الزعماء المسلمين المقربين إلى ملوك منغ ، ومن أعلام الدولة الذين كانوا يرفعون سيادة الصين على البلاد الساحلية المجاورة لها بين بحر الصين والمحيط الهندى ويكفيك فى معرفة شخصية هذا الزعيم أن الصين تفتخر بوجوده فى تاريخها باعتبار أنه أكبر البحارين الذين أنجبته الصين منذ فجر تاريخها إلى القرن الخامس عشر الميلادى . لقد أتموا خدمات جليلة للصين خصوصا فيما يتعلق بالعلاقات الدولية فى ذاك الوقت . وبها نال هو مقاما محمودا عند الصينيين . وأما اسمه فيذكر فى التاريخ والأدب كما يذكر فى القصص والروايات . ويظهر أنه عربى الأصل ، نزح أجداده فى زمن قبلاى خان من بخارى إلى يونتان ، التى كان السيد الأجل وأولاده يحكمونها مدة طويلة . وأما تاريخ الأنساب الصينية ، فنسبه إلى عائلة (ما) ، وكلمة (ما Ma) التى أصبحت اسما رسميا لكثير من عائلات المسلمين فى الصين اليوم ، ليست إلا محرفة من « محمود » أو من « أحمد » أو من « محمد » وأعتقد أنه من أولاد محمود ، أحد أولاد السيد الأجل السابق الذكر . وأما حياته فموضوع البحث والتحقيق . ونود أن نكتب فصلا خاصا عنه فى تاريخ الاسلام فى الصين فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

لقد سافر هذا الزعيم المسلم إلى البلاد الساحلية فى جزائر جاوة والهند وخليج فارس ، أكثر من مرة . والذى يهمنا هنا ، من أسفاره ، هو سفره إلى مكة فى سنة ١٤٣٠ م . وكان قبل هذا ، قد سافر مرة إلى هرمز فى سنة ١٤١٧ م ، بصفته سفيرا من قبل الامبراطور « جينغ جو » إلى صاحبها فى سنة ١٤١٧ م [١] غير أن سفره فى سنة ١٤٣٠ م ، كان فى تجديد العلاقة التى كانت بين العرب والصين

---

(١) الدراسة عن تاريخ الاسلام فى الصين للاستاذ جين كينانغ - ص ١٥٦

فى عصور (تانغ) و (سونغ) ، والى قد قطعها منها ، حكم المغول على أرض آسيا .

فوصل الحاج جهان أولا إلى مدينة كولم بملابار . فلما سمع أن كثيرا من التجار، يسافرون إلى مكة المكرمة ، التى على مسافة أربعين يوما من هرمز ، كما ذكرها تاريخ (منغ) ، تحرك شوقه إلى زيارة مكة فى مركب من مراكب التجار ومضى فى ذلك سنة فى الذهاب والاياب . فعاد بالعجائب والنوادر من أحجار كريمة وقرون كركدن وأسود ونعام . وكان معه سفير من أمير مكة . فأقام فى الصين حتى سنة ١٤٣٦ م فرجع فى مرافقة سفراء جاوة ، مع الهدايا من امبراطور الصين إلى أميرها . ثم ذكر أن أمير مكة قد بعث ولده السيد على ، وسفيره السيد حسن ، إلى الصين فوصلا عن طريق البرالى قراخواجه [١] حيث لقيا عصبة من اللصوص هجمت عليهما فجرح السيد على فى يده اليمنى ، وقتل السيد حسن . وأما أموالهما فنهبت . وأما التحقيقات التى أجراها حكام تلك الولاية بأمر الامبراطور فلم تأت بنتيجة مقنعة فذهب دم السيد حسن هدرا

ويظهر من تاريخ الصين أن بعض حكام الصين قد عاملوا سفراء العرب أسوأ معاملة . فلذلك يذكر أن مسلما من العرب ، اسمه على ، عزم على السفر الى يونتان، باحثا عن أخيه نادر الذى استوطن الصين أكثر من أربعين سنة ولم يعد . فشد رحاله حتى وصل الى مالاقة . ثم ركب مركبا لتاجر منها الى الصين ، قاصدا العاصمة لتقديم بعض الهدايا و بعد وصوله الى كانتون، صادر وكيل الجرك متاعه. فاشتكى الى الامبراطور بالعاصمة . فأمر أمين التشريفات أن يقدر أثمان الهدايا المصادرة لجازاه بالنقد تعويضا فأذن له ان يدخل بلاد يونتان ويبحث عن أخيه هناك . لكن وكيل الجرك المذكور الذى خاف من غضب الامبراطور عليه ادعى على

---

(١) ومدينة قريبة بطرفان بتركستان .

على بمعونة رجال القصر فرماه بتهمة الدسيسة فى بلاد الصين. فأيقن الامبراطور بكلامه وأمر باخراج على من الصين [1].

ولا نظن أن هذا الواقع غير صحيح وإلا فلم لم يأت مؤلف «علاقة الصين القديمة بالعرب» ببعض التعليقات عليه, تركه تاما كما وجده فى تاريخ (منغ) فى الفصل الذى جاء فيه الحديث عن العرب. لكن على كل حال قد وقع مثل هذا الحادث من حاكم يطمع فى أموال السفراء فاعتدى عليه ثم افترى عليه بأقاويل لا صحة فيها مطلقا

غير أن العلاقة الدبلوماسية كانت باقية على حالها ولم تتأثر بمثل هذا الحادث. فلذلك نجد أن تاريخ الصين لم يزل يذكر ورود السفارة من قبل السلطان أحمد مع بعثة من سمرقند وطرفان فى سنة ١٤٩٠ م، أتت بالخيول والابل والعقيق، هدية الى الامبراطور. فى سنة ١٥٠٦ م، أمر الامبراطور بعد استشارة رئيس مربى الخيول، حاكم ولاية قانصو أن يبحث له عن خيار الجياد. فسأل الواردين من الغرب. فقالوا: ان الخيول الفائقة من إنتاج العرب. فنشر منشورا يحث على استيراد الخيول العربية وقد قيل أن سفيرا قد أرسل الى الممالك التى بما وراء النهر، ليبث الدعاية بين أمرائها بان يبعثوا الجياد، ان عزموا على إرسال هدية الى امبراطور الصين. ويظهر أن الخيول العربية قد بعثت من ملوك العرب أيضا، لان التاريخ يذكر أن الشريف بركت الذى كان يحكم مكة المكرمة من سنة ١٤٩٧ م وتوفى فى سنة ١٥٢٤م [2]، قد بعث الهدايا المكونة من الخيول والابل والصوف والمرجان والاحجار الكريمة، وسكاكين مصنوعة من عظام الأسماك، الى امبراطور الصين فى سنة ١٥١٨ م وهو «وو — جونغ». فرد الهدايا بخلعة عليها صورة التنين المصنوعة من خيوط الذهب، والمسك والأوانى الفضية والذهبية. واذا ألقيت نظرة الى ما جاء فى «علاقة الصين القديمة بالعرب» للاستاذ

---

(1) Ancient China's Relation Whith the Arabs. P. 304
(2) Wustenfeld: Geschichte der Stadt Mecca 1861.

« جانغ سين لانغ » فى جامعة بوزين (بكين) ، تجد تفصيلا يزيد عما ذكرناه هنا من سفارات العرب الى الصين وبناء عليه ، فسفارات العرب قد وردت الى الصين من قبل أمير مكة فى سنة ١٥٢٥ م وفى سنة ١٥٣٢ م وفى سنة ٥٤٣ م وكانت معهم فى المرتين الأخريين سفارات من أمارات اسلامية بما وراء النهر وتركستان وسمرقند وحامى ، ومن الروم أيضا . غير أننا لا نجد التصديق على هذه الأقوال من المصادر العربية ولا من المصادر الأخرى ثم لم نعثر على كتاب يذكر فيه تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعرب للقرن الذى نتكلم فيه الآن ، ولا عن القرون التى بعد هذا . غير البيان الذى وجدناه فى عدة كتب صينية ، للمؤلفين الذين عاشوا فى عصر (منغ) ، يصدق على أحوال مكة المكرمة من أكثر النواحى فمثلا يقول . أن المسافة بينها وبين هرمز ، تكون أربعين يوما وليلة فى البحر وقد قيل أن طريق البر مفتوح ، بين مكة والصين لكنه يحتاج الى سنة كاملة فى قطعه . فالجو فى مكة فى الفصول الاربعة مثل أيام الصيف ورجالها يحبون حلق رءوسهم ولبس العمائم ونساؤهم يعملن الضفائر من أشعارهن ويلففنها على رءوسهن ويسترن وجوههن بالحجاب حتى لا تراهن أعين الأجانب ، إن خرجن من بيوتهن .

أما لغتهم فلغة غربية والخمر عندهم محظور وفى مكة معبد يسمونه كعبة ، حولها المسجد الحرام فى شكل قلعة لها ٤٦٦ باب . وللكعبة خمس عوارض مصنوعة من أطيب الأشجار وأرضها مفروشة بالعقيق الأصفر وجدرانها ترش يوميا بماء الورد والكندر فالروائح الزكية تفوح منها دائما ، وأما البلاط ففيه ٤٦٧ سارية [1] من المرمر ، تسع وتسعون منها فى الجناح الامامى ، و ١٠١ فى الجناح الخلفى و ١٣٢ فى الجناح الشمالى و ١٣٥ فى الجناح اليمينى . وأما الكعبة فعليها ستائر من حرير مزركش بخيوط الذهب ، يلبسها فى موسم الحج الذى يكون مرة واحدة فى كل سنة وذلك فى اليوم العاشر من الشهر الثانى عشر فى تقويمهم [2] ، وبمكة بئر يقال له

---

(١) يقول ابن بطوطة — فى المسجد الحرام ٤٩١ سارية

(٢) علاقة الصين القديمة بالعرب — ص ٣٠٩ و ٣١١

زمزم ، فالحجاج الذين يجيئون إلى مكة يشربون من هذا البئر ويقدسون ماءه ، وهذه هي البلدة التي زارها الحاج جهان في عهد (صوان ته Suan- Teh)[١]

ولم يقصر تاريخ الصين لهذا العصر على ذكر علاقة مكة بالصين بل ذكر أيضا علائق المدينة بها أيضا، ولقد أرسلت سفيرا الى الصين في عهد (صوان ته) مع سفراء مكة وعن هذه السفارة ، جاء في علاقة الصين القديمة بالعرب ما يأتي :- أن المدينة موطن الاسلام ، وهي قريبة من مكة ، وفي عهد (صوان ته) ، بعث أميرها سفيرا الى الصين ووصل مع سفراء مكة ثم انقطعت السفارة بينها وبين الصين[٢] وبعد هذه الكلمات يذهب تاريخ منغ الى الكشف عن تاريخ الاسلام وحياة النبي (ص) في المدينة وعادات المسلمين فيها .

وأما بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فالبلدان التي كانت لها علاقة دبلوماسية بالصين في القرن الخامس عشر للميلاد ، هي امارة ظفار ، واحساء وعدن . وقد ذكر تاريخ الصين هذه البلدان في مواضع عديدة ومن المعلوم أن عدن كانت مركزا للتجارة بين البحر الأبيض والمحيط الهندي .

فالمراكب الصينية التي كانت ترد الى سواحل الهند تبحر أحيانا الى عدن أيضا لتأخذ البضائع التي جاءت من مصر ومن البلدان الأخرى التي على سواحل البحر الأبيض . فعلاقتها بالصين اذن كانت من قديم العهد . إلا أن هذه العلاقة قد ترقت في عهد منغ الى درجة لم تصل اليها من قبل .

فلذلك نجد معلومات وافرة في الكتب الصينية عن عدن لهذا العهد . وأكثرها في حاصلاتها، وبعضها في أحوالها وعاداتها، وبعض آخر في علاقتها بالصين . واليكم ما تمس الحاجة اليه . يقول تاريخ منغ في الجزء ٣٢٦ .

---

(١) كان ذلك بين ١٤٢٦ و ١٤٣٥ م . سافر الحاج جهان اليها مع سبعة أمراء أخذوا معهم المسك والزخارف والحرير في مركب صيني إلى صاحب مكة فعاد بعد سنة مع الأحجار الكريمة والكركدن ورسم للكعبة

(٢) علاقة الصين القديمة للعرب — ص ٣١٣ و ٣١٥

إن عدن بلدة بغرب كو لم ، منها الى عدن فى البحر ، إذا كانت الريح فى موافقة السير ، عشرين يوما وليلة وهى البلدة التى بعث صاحبها وفدا الى الصين فى سنة ١٤١٦ م ، جاءوا بحاصلاتها ، هدية الى الامبراطور فرد سفارتها بارسال الحاج جهان اليها . ثم وردت منها أربع سفارات أخرى فأكرمها الامبراطور . ففى سنة ١٤٢٠ م ، أمر الامبراطور ، الحاج جهان ، أن يركب البحر للمرة الثانية الى الغرب . لأن الممالك التى بها قد قطعت ارسال الهدايا الى الصين منذ سنوات . فسافر الحاج جهان بأمر الامبراطور وكانت عدن من البلدان التى وصل اليها فى هذا السفر . فبعث أمير عدن وهو الملك نصر ، سفارة الى الصين وكانت تحمل حاصلات بلدها فوصلت الى العاصمة فى سنة ١٤٢٢ م ومكثت بها ثلاث سنوات ثم عادت فى سنة ١٤٣٦ م

فعدن مدينة كثيرة الحنطة والشعير ، رجالها أقوياء الأجسام وفيها نحو ٨٠٠٠ جندى من المشاة والفرسان والركبان . تخاف منها الممالك المجاورة لها . فالأمير والرعايا كلهم يدينون بدين الاسلام ، وملكها يعظم الصين كثيرا حتى خرج مع عساكره لاستقبال الحاج جهان ، عندما سمع أنه قادم سفيرا للصين وشرفه بمقابلة شخصية فرخص لكل أمير من الامراء أو تاجر من التجار من رعاياه ، أن يخرج ما عنده من النفائس والنوادر فى مبادلة ما عند الحاج جهان من البضائع والأمتعة

ولقد سافر أمير من أمراء الصين وهو من عائلة تشو (Chow) الى عدن فى سنة ١٤٢١ م ، فحصل فى سوقها عين الهرة ، بلغ وزنها مثقالين ومرجانا بلغ علوه ذراعين . فرجع بهما والأشياء الأخرى النادرة كاللآلىء واليواقيت[1] مختلفة الألوان ، والزرافات والأسود والفهود المنجمة الاجسام ، والنعام والكراكى . وكانت هذه الأشياء فى البلاد الأخرى ، لا تبلغ ما فى عدن : من نفاسة وبداعة

ويوجد فى أرضها فواكه مختلفة الانواع ؛ وأنعام مختلفة الأجناس ، الا الاوز والخنزير . وفى سوقها تجار فى الكتب ومصانع للاوانى الفضية والذهبية . وقد

---

(١) لأول مرة نجد ذكر الياقوت فى الكتب الصينية بكلمتها الأصلية

قيل أن الامبراطور (سى جونغ) Hsi - Chung كان يحب أن يعمل الخواتم من العقيق الأحمر والأصفر. فأمر بابتياعه. وقيل له إن هذا النوع من العقيق لا يوجد إلا فى عدن. وإذا كان صاحب العرش يحب اقتناءه فيجب أن يخطو خطوة السابقين بارسال سفارة تحمل الهدايا الى صاحبها وتشترى منها ما يريد من العقائق فاصغى الامبراطور الى كلام القائل ونفذ ما أشار به.

ونكتفى بهذه الاشارات إلى تلك العلاقة المتينة التى كانت بين الصين وعدن من الناحية الدبلوماسية فى عهد منغ، وإن هناك بيانا مفصلا فى كتاب الأستاذ « جانغ شين لانغ » يستوعب ست صفحات مع التعليق عليها، فمن طمع فى المزيد من العلم فلا مانع أن يراجعه ويأخذ منه ما يريد.

وأما علاقة ظفار بالصين فنجد الحديث عنها فى المصادر الصينية التى جاء فيها الحديث عن عدن وهى تاريخ منغ، وسفارات الممالك الغربية، و« وانغ منغ سيفالو » أو « مذكرة عن قانون وانغ منغ » وحاصل ما ورد فى هذه المصادر عن علاقة ظفار بالصين، هو أن بلاد ظفار، يصل اليها المركب من كولم فى عشرة أيام بلياليها، إذا كانت الريح موافقة والجو صحوا، ولقد أرسل صاحبها وفدا فى سنة ١٤٢١ م، مع وفد إحساء، وعدن إلى الصين. فأمر الامبراطور الحاج جهان أن يسافر اليها، ردا على وفودها. فى سنة ١٤٢٣ م، جاء وفد منها للمرة الثانية، فرد الامبراطور على هذا الوفد فى سنة ١٤٣٠ م بأن بعث الحاج جهان اليها مرة أخرى وكان صاحب ظفار على قد أرسل سفارته إلى الصين للمرة الثالثة، فوصلت إلى العاصمة فى سنة ١٤٣٣ م، وأقام بها ثلاث سنوات، فرجع فى سنة ١٤٣٦ م، تحمل هدايا الامبراطور إلى صاحب ظفار.

لقد وصفت هذه المصادر بلاد ظفار، بما يأتى — أن هذه البلاد بشرقها وجنوبها بحر عظيم وبشمالها وغربها جبال مسلسلة، وجوها فى الفصول الأربع، مثل ما فى الشهرين الثامن والتاسع فى الصين، فيها مختلف الأنواع من الحبوب والفواكه وجميع الأنواع من البهائم والانعام، وأهلها شديدو البأس وأميرها

ورعاياها كلهم يدينون بدين الاسلام ، وتوجد بها مساجد كثيرة وتعطل الأشغال يوم الجمعة ، وعندئذ تقفل الأسواق ، فيغتسل الأهالى ، كبيرهم وصغيرهم جميعا ، ويلبسون الملابس النظيفة ويتعطرون ثم يذهبون إلى الصلاة ، وفى الأيام العادية يبادلون تجار الصين بالكندر والقاطر والكافور وغيرها من البضائع ، وعندهم نعامة شكلها شكل الطاووس رجلها تبلغ ثلاث أو أربع أقدام ، ولون ريشها مثل لون الوبر ومشيها مثل مشية الناقة ، ويهادون الأمبراطور بها أحيانا [١] .

ويظهر من المصدر الصينى أن أحساء أيضا من البلاد التى كانت لها علاقة دبلوماسية بالصين وقد بعثت سفارة اليها فى عصر منغ ، فى السنين التى جاءت الوفود فيها من ظفار وعدن ، وقد وجدنا فى الجزء الـ ٣٢٦ من تاريخ منغ ، بعض الكلمات عن هذه العلاقات ، حيث يقول « أن بلاد أحساء يصلها المركب فى عشرين يوما وليلة من كولم فى طيب الهواء وهدوء الريح ، لقد بعثت سفارتها الأولى إلى الصين فى سنة ١٤١٦ م ، فأمر الامبراطور رد هذه السفارة بارسال الحاج جهان اليها ، ثم جاءت منها سفارات مع التى وردت من عدن وبراوة [٢] ، فسافر الحاج جهان اليها للمرة الثانية ، ثم انقطعت السفارة منها وانقطع رسم التهادى بينها وبين الصين ، وأن هذه البلاد تقع على شاطىء البحر ، جوها دائم الحر ، وأرضها مجدبة لا تصلح للحرث ولا للزرع ، والمطر فيها قليل ولا يوجد فيها خضراوات . لكن يوجد بها الكندر والكافور والابل والخراف . وأهلها يصيدون الأسماك فى البحر . وكان أميرها قد سمع عن الصين وصيت أمبراطورها ؛ فهاداه بحاصلات بلاده ، فالمتاجر عندهم ، هى الفضة والذهب والفلفل والعود ، ويبادلون بها حرير الصين وفخارها والأرز وغيرها مما يحتاجون اليه [٣] .

كانت هناك علاقة دبلوماسية بين الصين وبين بعض ممالك إسلامية بأفريقيا .

---

(١) تاريخ منغ — فصل الممالك الأجنبية

(٢) بلدة فى شرق أفريقيا

(٣) علاقة الصين القديمة بالعرب ص ٢٢٨

قد بدأت بمصر فى الشطر الثانى من القرن الثالث عشر من الميلاد، إذ كانت الصين لا تزال تحت حكم المغول من آل قبلاى خان، وأما مصر فى هذا الوقت، كانت فى أيدى المماليك. وعندنا شهادات كثيرة تدل على هذه العلاقة، فقطع المنسوجات الحريرية التى وجدناها فى دار الآثار العربية بالقاهرة، تحت أرقام ٢٢٢٥ و٢٢٢٦ و ٢٢٢٧، تنطق بوجود علاقة متينة بين الصين ومصر. وأنى لا أعتقد أن هذا النوع من المنسوجات الحريرية، من مصنوعات مصر وحركيت فيها صناعة الصين. وإذا كان الأمر عل خلاف ما نعتقد، فأننا نجد كثيرا من أمثالها فى المتاحف ودور الآثار. وقلة وجودها فى المتاحف الأثرية تشهد بأن هذه الصناعة كانت إما من تركستان، وإما من الصين. ولقد صنعها أمراء المغول خاصة لمهاداة السلطان محمد قلاوون، الذى نسج أسمه فى هذه القطع من الحرير. ومن المعلوم أن الحرير الصينى كان من الهدايا الرئيسية التى أهداها أمبراطور الصين إلى ملوك الاسلام فى العصور المختلفة. فلا عجب إذن أن أمراء المغول قد صنعوا بعض القطع الخاصة من الحرير فأرسلوها هدية إلى السلطان محمد قلاوون، فلذلك ترى قطعة من الحرير الذى تحت رقم ٢٢٢٦ فى سجل دار الآثار العربية جامات صينية، فى بعضها نسج بالحروف العربية ، ناصر الدنيا والدين محمد قلاوون ، وفى بعض آخر ، عز أموالنا السلطان الملك الناصر ، . وأقوى دليل على أنها ليست من منسوجات مصر هو الحروف الصينية التى تراها فى قطعتين تحت رقم ٢٢٢٥ و ٢٢٢٧ . فنسبها أولوا الأمر فى الدار إلى الكوفية خطأ ، لأنهم يرونها تشابه الكوفية إلى حد كبير فعندئذ أصدروا حكمهم بأنها هى الخط الكوفى. وأما الحقيقة فالكلمة التى فى قطعة ٢٢٢٥ هى كلمة صينية معناها ، سعادة مكررة ، والتى فى قطعة ٢٢٢٧ هى كلمة صينية أيضا يراد بها ، طول العمر ، . إلا أنهما كتبتا بطريقة قديمة تشبه الطريقة الكوفية من ناحية الكتابة. فلم يميزوا منها ووقعوا فى الخطأ فى تقاريرهم العلمية فيما يتعلق بهذه القطع من المنسوجات الأثرية

ثم هناك أربع أوان كبيرة نستطيع أن نسميها ، فغفورى ، وهو أحسن وأجود من الفخار أو الغضار فى مقابلة كلمة Celadon الانجليزية، محفوظة فى دار الآثار العربية. نجد فيها أدلة واضحة على علاقة الصين بمصر فى القرون

الوسطى . فان هذه الأوانى الأربع من صناعة الصين القديمة ، وجدت بجامع السلطان حسن وهى موضوعة الآن فى دولاب فى القاعة الثالثة عشرة من الدار تحت أرقام من ١٠٣٩ الى ١٠٤٢ (١)

فالحقيقة أن سلاطين المماليك كانت لهم علاقة وثيقة بأمراء المغول فى الصين . ويروى الأستاذ بلوشه أن سلاطين المماليك كانوا يستخدمون الأمراء الصينيين فى بلاطهم وكلمته هكذا باللغة الأنجليزية

« In the 14th century in Egypt at the Court of the Mamluke Sultans of Cairo, a Manchu General, Khitai by origin, could write an excellent and remarkable history in a style of great refinement. »

وإذا بحثنا فى المصادر الصينية ، وجدنا فيها الحديث أيضا عن هذه العلاقة . ولقد ذكر تاريخ منغ فى الجزء الـ ٣٢٢ . أن مملكة مصر ، كانت ترسل سفراءها إلى الصين فى عهد الامبراطور « يونلوى » (١٤٠٣-١٤٢٤ م) ، فكانوا يقابلون بحفاوة وإكرام فى كل محطة من المحطات بأرض الصين ، فالسفارة التى وردت إلى الصين فى سنة ١٤٤١ م ، كانت من قبل السلطان أشرف برسباى الذى حكم على الشام ومصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فهاداه الأمبراطور «اينغ جونغ» جميع الأنواع من الحرير ، منها مايسمونه « شالو » ومنها (بامز) وأرسل أيضا هداياه الى الأمراء و الأميرات من الأسرة الحاكمة بمصر وكانت الهدايا تختلف على اختلاف درجات المهدى اليهم (٢) ولقد عرفتم مما تقدم علاقة الصين بمصر فى عهد منغ . غير أن هذه العلاقة لم تنحصر فى هذه المملكة من أقليم أفريقيا بل اتسعت الى البلدان الأخرى . مثلا مقدشو ، وبراوة والجب Jubb بشرق أفريقيا ففى تاريخ منغ بعض الحديث عن علاقة مقدشو بالصين فيما يلى أن بلاد مقدشو ،

---

(١) رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية للأستاذ حسن محمد الهوارى ص ٨٤

(٢) يظهر أن بعض الأغلاط قد وقعت فى تاريخ هذه السفارة ، لأن شرف الدين برسباى قد توفى فى سنة ٨٤١ هـ - ١٤٣٨ م ، لكن من الممكن أن سفيره قد غادر مصر قبل وفاته فوصل الى الصين فى سنة ١٤٤١ م

والسومال وغيرها من ممالك أفريقية ، قد أرسلت سفراءها الى الصين فى سنة ١٤١٦ م فسافر الحاج جهان بأمر الامبراطور اليها مع سفرائها ردا لزياراتهم . فجاء وفودهم للمرة الثانية فأبحر الحاج جهان اليها مرة أخرى وحمل معه الهدايا الى أمرائهم، فى سنة ١٤٢٣م وردت وفودهم للمرة الثالثة فودعهم الامبراطور بحفاوة وإكرام . مع هدايا الى أمرائهم وأميراتهم . وأما مقدشو ، فبلاد أمامها بحر وخلفها جبال ، قليلة المطر والزراعه ، رجالها متحمسون ، يحبون الرماية والفروسية ويطعمون أنعامهم الأسماك ، ولأغنيائهم مراكب التجارة يتاجرون بها فى البلاد البعيدة، وحاصلاتها الابل والغنم، والخيول والبقر والكافور والكندر ومتاجرهم الذهب والفضة والعود والفخار والأرز وأمراؤهم يحبون التعارف فيرسلون التحف الى امبراطور الصين[1]

وأما براوة فهى بلدة تجاور مقدشو . قد بعثت إلى الصين أربع سفارات فى غضون سنوات بين ١٤١٦ و ١٤٢٣ فقدموا مع سفراء مقدشو وبهذا السبب سافر الحاج جهان اليها مرتين بأمبراطور الصين ومرة ثالثة فى سنة ١٤٢٠ م . وكانت هذه الأسفار كلها فى رد سفارات براوة .

وأما السفارات التى جاءت من بلاد السومال والجب فوقعت أيضا فى هذه السنوات . وكان الحاج جهان قد سافر اليهما عدة مرات ردا لسفارتهما ومن هذه الناحية كان الحاج جهـــان أكبر المسلمين البحريين الذين أنجبتهم الصين وأعظم السفراء الصينيين إلى الممالك الاسلامية فى العصور الماضية وبعد الحاج جهان انقطعت العلاقات الدبلوماسية بين الصين والعرب حتى القرن العشرين ، القرن الذى تنوع فيه أحوال العالم ، وتغير سلوك بلاد مع بلاد أخرى فى الأمور السياسية والدبلوسية بانشاء القنصليات والمفوضيات والسفارات فى البلاد الصديقة أو المعاهدة ومع هذا التطور فى الإمور الخارجية بقيت الصين منقطعه عن بلاد العرب من الناحية الدبلوماسية حتى الآن . ولا نعرف متى تأتى فرصة تسمح بايجاد رابطة جديدة بين الصين والعرب حتى يتعارفا ويتصادقا كما كان فى الأيام الماضية[2] .

---

(1) Ancient Chiua's Relation With Africa. P. 221-222.

(٢) كتب هذا الفصل سنة ١٩٤١

الباب السابع

فى العلاقة الصناعية والفنية

ليس من السهل أن نتكلم فى هذا الموضوع إلى حد يقنع كل قارىء أو يرضى به كل طالب لأن المصادر التى نستطيع أن نراجعها، أو نأخــذ منها شيئا من المعلومات، قليلة جدا، ومع قلتها لا نجد فيها إلا إشارة خفيفة فى أكثر الأحيان لكن على كل حال أرى من الفائدة أن ألم بهذا الموضوع على قدر الطاقة راجيا أن يتهيأ لأحد الباحثين فى المستقبل مالم يتهيأ لى فيشفى الغليل ويطفىء الظمأ.

فالمراد بالعلاقة الصناعية، يشمل الصناعات التى كانت من الصين فراحت فى الممالك الإسلامية بوساطة العرب، أو من العرب فراحت فى الصين، كما يشمل الأشياء التى قد صنعت فى الصين لكنها متأثرة بالزخارف العربية والاسلامية أو فى الممالك الاسلامية، لكنها متأثرة من صناعة الصين الفنية. فالمبحث إذن يحتوى على صناعــة الورق وهى من الصين، فأخذها المسلمون والعرب، وعلى البارود ولعله من صناعة العرب، فأخذتها الصين، كما يحتوى على صناعة الفخار والخزف والمنسوجات الاسلامية التى ظهر فيها أثر الصين قليلا كان أو كثيرا، وصناعة البرنز الصينى الذى فيه أثر العرب والاسلام.

وأما العلاقة الفنية فكلامنا فيها يكون منحصرا فى التصوير، لأن الفنون الأخرى مثل الموسيقى وغيرها، لا نجد فى عربيتها أثرا صينيا ولا فى صينيتها أثرا عربيا أو اسلاميا. نعم، نجد فى العمارة علاقة فنية خفيفة، نراها فى محاريب مساجد الصين وفى مناراتها، لكنها لا تثير الاهتمام الى حد أنها تبحث فى بحث خاص غير أننا نرى أن المحراب فى مسجد كانتون مزخرف على الطراز العربى إلى حد يثير الاعجاب وقد يوجد

مثل هذا المحراب فى المساجد الصينية الأخرى القديمة ، لكننا لا نعرف حقيقتها حتى الآن . غير أن هذه المسئلة تحتاج إلى بعض التحقيق وقد نقوم بهذا العمل فى المستقبل القريب ، إن شاء الله تعالى .

١ ـ صناعة الورق بعد هذه الكلمة التمهيدية نذهب أولا إلى البحث عن العلاقة الصناعية . وأول شىء يتناوله الكلام فى هذا البحث هو الورق وهو بلا شك من صناعات الصين قد أخذها العرب فى سمرقند ، ثم روجوها فى الممالك الاسلامية ، فتعلمها منهم أهل أوربا .

كان السبب فى ذلك على أرجح الشهادات التاريخية ، أن العرب ، كما عرفتم فى باب العلاقة السياسية ، قد قاتلوا الصينيين ، الذين ذهبوا إلى مساعدة أمراء الأتراك خصوصا آل أخشيد بفرغانة وسمرقند فهزموهم شر هزيمة حتى أسروا منهم عددا كبيرا . وذكر الثعالبى فى « لطائف المعارف » أن أولئك الصينيين الذين وقعوا أسارى فى يد زياد بن صالح وكان قائدا لقوات العرب بما وراء النهر ، علموا العرب صناعة الورق بسمرقند ، وكان ذلك فى سنة ٧٥٠ م

أن تعلم العرب صناعة الورق من أهل الصين بسمرقند من الحقائق التاريخية التى يتفق عليها علمـــاء الشرق والغرب على السواء ، غير أن هناك ، بعض الاختلافات فى وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل هذه السنة . والكلام الذى وجدناه فى «لطائف المعارف» للثعالبي ، يدل على أن مصنع الأوراق لم يكن موجودا إلا بعد انهزام الجيوش الصينية أمام زياد بن صالح ووقوعهم أســـارى فى أيدى العرب فى واقعة « تالاس » (٧٥٠ م) . وكان من بين هؤلاء الأسارى : من يعرف صناعة الورق ، فعلموها العرب وأهل سمرقند . فانتقلت منها إلى إيران ثم إلى مكة المكرمة . ومنها إلى صقلية ثم إلى أسبانيا وإلى أوربا [1] لكن الأستاذ غستاف لبون ، صاحب «حضارة العرب» ، يعتقد وجود مصنع الأوراق بسمرقند قبل فتح العرب لها ، فلذلك يقول « أن صناعة الورق كانت معروفة عنـــد

---

(1) Legacy of Islam. P' 144.

الصينيين من قديم الزمان، وهذه الصناعة قد أتت إلى سمرقند فى القرن الأول الهجرى. فلما فتحها العرب؛ وجدوا فيها مصانع الأوراق [١] واتفق معه الأستاذ (برتولد لوفر Berthold Laufer) باحث أمريكى شهير ومتخصص فى العلوم الصينية قال - أن الورق قد جلب إلى سمرقند من الصين لأول مرة فى سنة ٦٥٠ م، ثم فى سنة ٧٠٧ م. فان ورق الصين كان معلوما فى إيران إذ كانت تحت حكم آل السامان. غير أنها كانت تعد من البضائع النادرة المخصصة لرسائل الدولة والملوك، وإنما الرواية المشهورة تقول أن ورق الصين قد أورد إلى سمرقند فى سنة ٧٥١م، وكان ذلك بواسطة الأسارى الصينيين، وإلى مكة فى ٨٣٧ م - ٢١٢ هـ [٢].

ولعل «هذه الرواية مبنية على ما ورد فى «لطائف المعارف» للثعالبى وفى «المسالك والممالك» للجوينى لكن الباحثين الآخرين يؤكدون ما قال الأستاذ لوفر ومنهم أدوارد جيبون، المؤرخ الرومانى الشهير الذى قال على هامش كتابه «انحطاط الامبراطورية الرومانية وزوالها» ما يأتى، «يوجد بيان غريب عن سمرقند فى (Biblietheca Aradio Hispan . tome I. P.208 H. C.)، استنادا إلى ما قال مدير مكتب كاسيرى، الذى روى مستندا إلى شهادة وثيقة، أن الورق قد ورد إلى سمرقند أولا فى سنة ٣٠ هـ - ٦٣٠ م، ثم نقلت صناعته إلى مكة فى سنة ٨٨ هـ - ٧٠٧ م، وفى مكتبة أسكوريال، توجد دفاتر أوراق، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى [٣].

ولسنا متشككين فى قول الأستاذ جيبون، إذ قال أن صناعة الورق قد نقلت الى مكة فى سنة ٨٨ هـ - ٧٠٧ م، لأن نفوذ العرب السياسى الى ماوراء النهر فى عهد بنى أمية، خصوصا فى زمن الوليد بن عبد الملك أوجد احتمالا قويا فى

---

(١) تمدن عرب - ترجمة بلكرامى ص ٥٤٣

(2) Sino-Iranica: «On Paper»

(3) Gibbon: II. P. 480.

تصديق هذا القول بعد ثبوت أن صناعتها قد عرفت فى سمرقند قبل ٢٥ عاما لكننا نشك فى قول الأستاذ كرد على حيث يدعى أن العرب كانوا يصنعون الورق بسمرقند فى سنة ٦٥٠ م بل نقول أن هذا محال، لأن هذه الصناعة لايمكن أن تجىء الى علم العرب الا بعد توغلهم سياسيا الى سمرقند، ومن المعلوم أن نفوذهم الى أواسط آسيا قد توقف عند خراسان بعد الخليفة الثانى من الخلفاء الراشدين حتى زمن الوليد بن عبد الملك (٨٦ هـ — ٧٠٥ م) وبناء على هذا أعتقد أن الأستاذ كرد على، قد أخطأ فى حكمه، بحجة أن بعض العلماء يذكرون ورود الورق من الصين الى سمرقند فى سنة ٦٥٠ م. وهذا القول فى الحقيقة لا يفيد أن العرب قد مدوا أيديهم الى هذه الصناعة فى تلك السنة، لأنهم لم يفتحوها الا فى آخر عهد الوليد بل يفيد الخبر عن انتشارها من الصين الى سمرقند فى سنة ٣٠ هـ — ٦٥٠، وهذا هو ماقاله العلماء الآخرون. وأما معرفة العرب بهذه الصناعة فتلك ممكنة إذا فتحوا سمرقند، ولم يفتحوها الا سنة ٧٦ هـ — ٧٠٥م.

فلما فتحها العرب، تعلموا هذه الصناعة من أهلها، ومن الظاهر أنها قد جاءت إلى علم المسلمين قبل واقعة تالاس بخمسين سنة على التقريب. وهذا هو رأى صاحب « تراث الاسلام » والأستاذ لوفر، وما وجدناه فى جيبون أيضا، يؤكد هذا الرأى، غير أننا لا نجد ما يؤيده فى هـــذه النقطة من المصادر العربية، وما ورد فى « لطائف المعارف » يذهب بنا إلى ٤٥ سنة متأخرة، وأرجح قول الثعالبى على أقوال غيره، بسبب واقعة تالاس المعروفة فى تاريخ آسيا الوسطى، وأما المصدر الصينى فقد اتفق مع الأستاذ الثعالبى فى هذه النقطة.

والذى اخترع الورق هو « تساى لون » على رواية مشهورة عند الصينيين وهو من أهل (هانغ جو)، عاش فى القرن الأول للميلاد. وقد كثرت فيها أشجار التوت ويصنع من قشورها الورق. فعمت هذه الصناعة فى بلاد الصين وانتفع أهلها بها. فلما حصل الاتصال السياسى بين الصين والعرب فى آسيا الوسطى، تعلموها فى سمرقند. ثم انتشرت سريعا الى البلاد الاسلامية الأخرى

حتى قيل أن الورق كان يباع فى سوق بغداد فى سنة ٧٩٤ م — ١٧٨ ﻫ فيها سوق خاصة لهذه التجارة. وتوجد فى متحف باريس بعض النماذج للاوراق المصنوعة ببغداد لذاك العهد، عليها كلمات عربية، وعلى قطعة منها حلول لمسائل رياضية. ويرجع تاريخ هذه القطعة الى سنة ١٧٠ ﻫ من صناعة شيراز. ويحتفظ متحف لندن أيضا ببعض نماذج من هذه الاوراق [١]

ولقد جاء ورق الصين الى علم المسلمين فى شكل آخر، غير ما ذكرناه — فى شكل أوراق مالية. ومن المعلوم أن الصينيين هم الأولون الذين قد أوجدوا أوراق المال. فنقلها المغول الى إيران فى سنة ١٢٩٤ م. فالأوراق المالية التى عملها الايرانيون كانت على شاكلة ما عملها قبلاى خان فى الصين بلا أى فرق، عليها حروف صينية تدل على قيمة الورقة المالية. وأغرب شىء يجب أن نلاحظه فى هذا الامر أن المطبعة الخشبية التى استعملها الصينيون من زمن قديم قد استعملت لأول مرة فى تبريز فى طبع الاوراق المالية فى سنة ١٢٩٤ م

لم يحرم الغربيون فى القرن الثالث عشر للميلاد من علم الأوراق المالية التى كانت رائجة فى الصين فان ماركوبولو كان عالما بصناعتها. ولقد شهد بعينيه فى الصين أن الخان الأعظم، كان يأمر الناس أن يأخذوا قشور التوت ويصنعون منها الاوراق. ثم يقطعونها مربعة مستطيلة فيطبعونها فاذا هى أوراق مالية يشترون بها ويبيعون. وبناء على ما رواه ابن بطوطة، كان أهل الصين فى زمنه لا يتبايعون بدينار، ولا بدرهم، بل بقطع كاغد، كل قطعة منها على قدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت وهو بمعنى دينار عند العرب. واذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها إلى دار الاوراق المالية فأخذ عوضها جددا. وكانت هذه الأوراق تعتبر عند الناس ثقة الى أقصى حد، حتى لا يرضوا فى التبايع إلا بها.

وكان آخرون من علماء الاسلام غير ابن بطوطة علموا بصناعة الأوراق

---

(١) سالنامه مجلة كابل (١٩٠٣ م) ص ٢٩١

المالية ورواجها فى الصين فنلا أحمد شهاب الدين المتوفى سنة ١٢٣٨ م بالقاهرة. فانه قد ترك لنا كتابا جليلا فى فن الجغرافية فى ٣٠ جزءا. فذكر دراهم الكاغد، كما سماه ابن بطوطة. إلا أن بيانه لا يختلف كثيرا عما وصفه ابن بطوطة [1] وكذلك تاج الدين حسن بن الخلال السمرقندى. يقول أنه رأى فى الصين نقودا من الورق قيمتها من درهم الى أربعين، الى خمسين، والى مائة [2]. وأقوى الشهادات التى تدل على أن أصل الورق من الصين فانتشر الى العالم الاسلامى، بعد واقعة تالاس، هى كلمة «كاغد» مستعملة الآن فى اللغة الفارسية والعربية معا وستجد بعض التفاصيل عن أصل هذه الكلمة فى آخر باب من هذا الكتاب

٢ — البارود: علماء العرب ينسبون البارود وهو سفوف مخلوط من ملح وكبريت وفحم صالح لقذف المقذوفات، الى اختراعات الصينيين، لكن مؤرخى الصين ينكرون هذا الفضل على أنفسهم بحجة أن تاريخ الصين يذكر خلاف ذلك. والذى كان معروفا عند الصينيين منذ زمن قديم، شىء غير البارود، يسمى صواريخ نارية (Fire Works) كانوا يستعملونها فى مناسبات الأفراح أو مناسبات المآتم. ولقد اخترعوا هذه الصواريخ على مبدأ عقود القصب التى اذا أشعلت بالنار، تنفجر صارخة مثل صراخ الألعاب النارية اليوم.

وأما القصب فهو كثير فى بلاد الصين وبلاد العجم، يستخدمونه وقودا بدلا من الحطب والفحم أحيانا. وعندما تشتعل النار فيها، تحدث صواريخ عظيمة بانفجار عقودها فى الموقد فتهتز جوانبه. فدخل فى أذهان الناس شىء من العجب. فكان تفكيرهم فى حدوث هذا الصوت الكبير الهائل فى عقود القصب يؤدى إلى إيجاد صواريخ نارية، يصنعونها بالكواغد الخشنة، على شاكلة أنبوب القصب، من حيث أن يجعلوا نوعا من سفوف كبريتية فى وسط الأنبوب. ثم يسدون جانبيه بنوع من الطين سدا يشبه عقود القصب. ثم يدخلون فيه خيطا

---

(1) B. Laufer: Sino-Iranica. P. 564

(٢) نبذة عن الصين لاترنى أبى العز (باشا) ص ٦٠

من ورق رقيق مكبرت فاذا اشعل هذا الخيط المكبرت الى داخل الأنبوب ، انفجر من وسطه بصارخة عظيمة كأنها صوت بندقية . ان هذا هو ما كان معلوما لدى قدماء الصين ، لكنها لا تفيد شيئا فى الحرب أو القتال ، كما يفيد البارود فى المدفع فشتان بين الصواريخ النارية وبين البارود . عملا وتأثيرا . فأولها لا يكون الا نوعا من الألعاب التى كان أهل الصين يستخدمونها فى حفلات الأفراح ، أو فى مناسبات المآتم . وأما الثانى ، فلا يستعمل إلا فى القتال والفتك بالأرواح وإطارة الرءوس من الأجسام . ولم يعرف هذا الصينيون إلا بواسطة المغول فى أول القرن الثالث عشر للميلاد . وبغض النظر عن المخترع له ، هل كان من العرب أو من أمة غير العرب وبقطع النظر أيضا عن أصل كلمة البارود ، تركية كانت أم فارسية ، وبقطع النظر عن تاريخ هذه الكلمة ، متى عربت ومتى استعملت للمرة الاولى فى اللغة العربية ، بقطع النظر عن كل هذا ، نكاد نجزم بأن المغول لم يعرفوا استعمال البارود إلا بعد احتكاكهم بالمسلمين فى الميدان السياسى ، وتعلمهم إياه منهم . ولدينا أدلة تاريخية من المصادر الصينية عن هذه النقطة نوردها فى السطور الآتية .

وفى تاريخ الصين لعهد سونغ ، بعض التفاصيل عن استخدام المغول المدفع والبارود فى الحملة على عاصمة الصين الشرقية وهى مدينة (كائى فانغ الحاضرة) . قد وقع هذا فى أول القرن الثالث عشر للميلاد . وخلاصة الكلام ، إن المغول كانوا يستعملون المنجنيق ، كما يستعملون المدافع فى حملاتهم على قلعة (لونغ ته) وكانت حصنا حصينا لأسرة كين (Kin) . كان المغول يستخرجون الأحجار من الجبال ، وقطعوها قطعات على حسب مطلوبهم ، منها كبيرة ومنها صغيرة ، مستديرة على شكل البيض وكان على سور المدينة أكثر من مائة برج . فوضعوا على كل برج مدفعا حجريا (هو منجنيق) يرمون به أحجارا الى داخل المدينة ليلا ونهارا ، حتى امتلأت الأسواق والشوارع من كرات الحجر وهدمت البيوت من ضرباتها . وأما الذين فى القلعة فقد حاولوا الدفاع عنها باستخدام جلود الجواميس والأبقار وجعلوها معلقة خارج البيوت ، منتشرة عليها مثل الخيام

فاذا وقعت عليها الاحجار لا تؤثر فيها؛ فلا يظهر فى الجلود شيئا إلا بعض اعوجاج. فأطلق المغول عليها مدافع نارية تحرق كل ما وقعت عليه من جلود أو أخشاب أو بيوت

وكان المغول يبنون السور حول معسكراتهم، يمتد فى بعض الاحيان إلى الخمسين ميلا، وعملوا عليها أبراجا يلتجئون اليها عند القتال، وحفروا الخنادق حول السور إلى عشرة أذرع عمقا. ثم حددوا بين كل أربعين قدما، موضعا خاصا لنصب مدفع نارى فيه، سموه «صاعقة»، فيها وعاء حديدى للبارود ينفجر بالنار. فاذا انفجر يسمع صوته من بعد ثلاثين ميلا. ويصيب من بداخل أربعة أفدنة. كانت عند المغول بندقية نارية أيضا، ترمى بالنار، تحرق من فى حدود عشرة أقدام. فكان الناس يخافون القرب منها

ويثبت من هذا النص، أن المغول قد استعملوا المدافع الحجرية (المجانيق) والنارية فى ضرب عاصمة الصين الشرقية. ومن المعلوم أن معاوية قد استخدم المجانيق فى محاصرة قسطنطينية فى سنة ٤٨ هـ. وكذلك استعملها الحجاج بن يوسف فى محاصرة مكة، إذ كان يقاتل عبدالله بن الزبير سنة ٧٣ هـ. وأما المغول فقد تعلموا استعمال المجانيق مباشرة أو غير مباشرة من العرب، فى زمن خروجهم على الممالك الاسلامية. وبناء على ما ورد فى «جامع التواريخ» لرشيد الدين فضل الله أن المغول، لما حاصروا مدينة «سيانغ يانغ فو Siang Yang - fu» لم يستطيعوا فتحها، لاستحكام قلعتها وشدة المحافظة عليها. فطلبوا صناع المجانيق من بعلبك ودمشق، وكان ممن جاءوا إلى الصين، تلبية لدعوة المغول، أبو بكر وإبراهيم ومحمد وغيرهم من المتعلمين. فعملوا لهم سبع مجانيق وضربوا بها مدينة «سيانغ يانغ فو»، ففتحوها [1].

وأما المدفع النارى الذى يحتاج إلى البارود فى قذف مقذوفاته، فيثبت من المصادر الصينية، أنه من صناعات المسلمين، ومن المحتمل أنه من العرب. لان

---

(١) جامع التواريخ، فى حكاية أحمد البناكيتى

عدة كتب فى اللغة الصينية . تذكر استعمال « مدافع المسلمين » هوى هوى بو « فى محاصرة سيانغ يانغ فو » . لقد ورد فى « يوان شى » (أى تاريخ المغول) فى ترجمة القائد على يحيى الأويغورى الذى بعثه قبلاى خان الى مهاجمة سيانغ يانغ فو قائلا أن فى عسكره مسلما ، يسمى اسماعيل ، كان يعرف كيف يصنع المدفع النارى فتمكن القائد المذكور من فتح المدينة بمساعدة هذا النوع من المدافع ، ويذكر فى ترجمة « يوان سى جو » أى الامبراطور الأول لأسرة المغول - قبلاى خان ، أن قائدا له يسمى باسم « لانغ كيا » (Lang Kia) ، كان يستحضر كل من يعرف صناعة المدفع من ولاية « خوى » الى العاصمة ، وكان منهم ستمائة من المغول والمسلمين والصينيين . فأرسلهم جميعا من المدفعيين الذين كانوا بتادو Taidu وعلى رأسهم « جانغ لين » الى الحملة على الولايات الشرقية ، فالنوع من المدفع الذى استعملوه فى هذه الحملة ، كان معروفا « بمدفع المسلمين » (Hui-Hui Bhao)

جاء فى « تهونغ جيانغ » أى تاريخ الصين العام فى الجزء الرابع والتسعين ما يأتى لقد ظهرت الثورة فى مدينة « فانغ » (Fang) ، فى الشهر الأول سنة ١٢٣٢ م . فقتل حاكمها . وكذلك ظهرت الثورة فى مدينة « سيانغ يانغ فو » ، فمات فيها كثير من المغول . فأصدر الامبراطور وهو (قبلاى خان) أمرا إلى قائد كبير معروف باسم على يحيى ، باغاثة المدينتين على عجل . فحمل أولا على مدينة « فانغ » . وكان المسلمون الذين فى جيوشه ، يصنعون له نوعا من المدافع فاستخدمه فى أعماله العسكرية حتى تمكن من فتحها . ثم توجه بجيوشه إلى « سيانغ يانغ فو » ، وضربها به . فوقعت المقذوفات على عمارات عالية البناء ، وقوع الصاعقة عليها . فارتعد السكان وارتجفوا من رعده . وأما قواد الثوار فأكثرهم قد تسوروا السور وخرجوا خاضعين لأمر الجنرال على يحيى . فقبل تسليمهم . ثم دخل المدينة وأمنها باسم الامبراطور

فأقوى الشهادات التاريخية هو ما وجدناه فى كلمة « بو » فى ديوان لغات الصين . ويقول صاحب الديوان عن هذه الكلمة : وهى آلة نارية تستعمل فى الحرب . لقد صنعها اسماعيل وعلاء الدين من أهل (الغرب)[1] ، للمغول الذين

(١) والمراد من « الغرب » هنا هو الممالك الاسلامية فى آسيا

استعملوها لأول مرة فى الحملة على مدينة « سيانغ يانغ فو » فى سنة ١٢٣٢ م . ومن ثم تعلم الصينيون استعمال المدفع النارى فى الحرب [1]

وجملة الأقوال تؤدى الى أن البارود والمدفع النارى ، وان لم يكونا من اختراعات العرب فمن اختراعات المسلمين على اليقين . ونقول هذا ، بسبب عدم علمنا بنسب اسماعيل وعلاء الدين المذكورين فى تاريخ الصين .

وهنا سؤال وهو هل كان البارود والمدفع النارى معروفين قبل اسماعيل وعلاء الدين وبعبارة أخرى ، هل سبقهما أحد فى صناعة هاتين الآلتين الحربيتين ومن كان مخترعهما الاول فهذا لا سبيل لنا الى معرفة حقيقته . غير أن البحث الدقيق فى هذا الأمر ، يؤدى الى الاعتقاد بأن البارود الذى غير فن الحرب فى العالم ، منذ يوم اختراعه ، كان معروفا عند المسلمين على الأقل قبل القرن الثانى عشر للميلاد . لأن المسلمين كانوا يستعملونه فى الحروب الصليبية التى قد نجم قرنها فى أوائل هـــذا القرن . وكان الصليبيون يصفونه بأنه « عامل مهلك فى ازهاق النفوس » . اذن فلم يأت الى علم الصينيين بواسطة المغول إلا بعد مائة سنة . وكان ذلك فى سنة ١٢٣٢ م

ولقد ثبت فى تاريخ الاسلام ، أن العرب قد استعملوا البارود فى الحروب الأخرى ويقول الاستاذ ج كوند فى كتابه « حكومة العرب فى أسبانيا » ، أن العرب كانوا يستعملون البارود فى أسبانيا فمثلا كان اسماعيل بن فراز ، ملك غرناطة ، يستخدم بعض الآلات الحربية فى رمى المقذوفات النارية ، حين حاصر مدينة بوزا (Boza) فى سنة ١٠٢٥ م

كما أن المغول قد استخدموه فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد فى الصين ، كذلك استعملوه فى الهند فى القرن السادس عشر . فان بابر الذى حارب ابراهيم لودهى

---

(1) Shin Pao Yueh kan: 15, Oct. 1934. Shanghai

سلطان دهلي في واقعة باني بيت في ٢١ أبريل سنة ١٥٢٦ م، قد استعمل قاذفات نارية في الحرب لأول مرة في الهند فقتل ابراهيم لودهي في هذه الواقعة، وزالت حكومته . فالقاذفات النارية التي استعملها بابر في هذه الحرب، كانت بدون شك، تحتاج الى بارود وقد عم استعماله في الصين قبل هذا بقرنين، بعد أن تعلموا من المسلمين الذين هاجروا الى الصين أيام قبلاى خان

الفخار والخزف : ذكر كثير من علماء العرب مهارة الصينيين في الصناعات منهم الجاحظ والمسعودي وابن الفقيه، وابن بطوطة . فقد قال الجاحظ « أهل الصين في الصناعات، واليونانيون في الحكم، وآل ساسان في الملك، والاتراك في الحروب » وقد عرض علينا صورة أجمالية تصور فوارق طبائع أمة من أخرى من هذه الأمم المعروفة في التاريخ. فالرجل الصيني، خلق صانعا كل وطبيعته تميل الى الانهماك في الصناعات . فحذقوها واشتهروا بها من قديم

ومن الصناعات التي نال بها الصينيون شهرتهم في العالم، الحرير والفخار والخزف والتصوير فالحرير قد ذكرته ضمن بعض الأبواب السابقة وسأعود إلى ذكره عند البحث عن المنسوجات الاسلامية التي يتجلى فيها أثر الصين . وهنا نلم إلماما بالفخار الصيني الذي قد وصل علمه إلى العرب في أوائل القرن الثاني للهجرة . وإذا اعتقدنا بصدق ما قال الطبري وابن الأثير، لزمنا أن نسلم بما وقع في غزوة كش (١٣٤ هـ) . اتفق الطبري وابن الأثير في أن أبا داود بن ابراهيم الذي عينه أبو مسلم الخرساني، قائدا في غزوة كش، لما فتحها العرب بعد حرب طاحنة، أخذ من الاخريد وأصحابه، « من الاواني الصينية المنقوشة المذهبة التي لم ير مثلها، ومن السروج الصينية ومتاع الصين، ومن الديباج وغيره ومن طرف الصين شيئا كثيرا »[1] . وهنا وقفنا على تسرب علم صناعة الأواني الصينية وغيرها من الصناعات الدقيقة إلى العرب . فحاكوا صناعتها بمدينة « سر من رآى » أيام العباسين وبمدن أخرى بعدهم

---

(١) الطبري ج ٩ — ص ١٥٠ ، وابن الأثير ج ٥ — ص ١٨٣

ومن المعلوم جداً أن مدينة «سامراء أو سر من رأى» هي التي بناها الخليفة المعتصم في سنة ٨٣٨ م لنفسه ولحراسه. لكن من جاء بعده من الخلفاء لم يجدوها ملائمة لاقامتهم بها فتركوها في يد الدهر حتى ذهب بزهرتها وحولها الى خربة تبكي عليها البوم والغربان، فلم ينظر اليها أحد من المؤرخين أثناء هذه المدة الطويلة حتى القرن السابق، إذ جاء عالمان من علماء الألمان [1] للتنقيب عن هذه المدينة على ضوء العلم الأثرى، وعن حالها في الغابر. فالجهود التي بذلاها في آثار «سامراء» أدت إلى اكتشاف جديد، يؤكد وجود علاقات صناعية بين الصين وعاصمة الخلافة العباسية في القرن التاسع للميلاد. لأن من بين حفريات سامرا بعض أوان إسلامية، صنعت على شاكلة أوان صينية، وعددا كبيرا من خزف الصين التي وردت الى بغداد، أما بواسطة التجار وأما بواسطة السفراء الذين كانوا موفدين الى الصين أو الى بغداد. ولقد خصص «مؤلف» «دليل الى الفخار والخزف بالشرق الأقصى»، ثماني صفحات للبحث عن مهمة الكشف للأواني الصينية بخربة (سامرا) وأطلالها. وهي مشتملة على فغفوريات بيض ونخار أبيض ضارب الى الصفرة، وسلادون (Celadon) وخزف على اختلاف أنواعها وغيرها من الصناعات الزجاجية المرقشة بالنقوش، والزخارف المتنوعة. وأن هذه الأنواع من الأواني الصينية، ما عدا ما يسمونه (سلادون) كلها من محاكاة صناعة الصين، وقد وصلت هذه المحاكاة الى درجة يكاد الانسان لا يميز بينها وبين صناعات الصين الأصلية، الا باختبار الطين الذى صنعت منه، فالأوانى المقلدة (بفتح اللام) قد صنعت من طين سامرا، اللين الذى لونه يشبه لون الجلد المدبوغ، وتصبح مسحوقا إذا كسرت بالسكين. وأما الفخار الصينى الأصل فيتحمل ضرب السكين ولا يسحق إذا كسر. وأما الفغفورى فأبيض اللون جسما

ومن بين الصناعات التى صنعت فى سامرا محاكاة للصناعة الصينية، نوع من الأباريق له فم قصير مستقيم ومقبض عليه إذن أو عروة، ونقوش أخرى خاصة

---

(1) Hobsun's Gu.de to Islamic Poltery. P. 2,

للأواني الصينية التي قد صنعت في عهد (تانغ) (٦١٨ — ٩٠٦ م) . وهي ذو خطوط زجاجية صفراء اللون ، مع زركشة في لون أحمر قان . وقطعات أخرى حوكي فيها فن الصين ،منها طاسات ذات أوراق زجاجية .

أن المحاكاة في صناعة الفخار الصينية وفي صناعة الخزف الصينية قد وقعت في بلاد شتى من البلاد الاسلامية ، منها إيران ، وسمرقند ومصر والشام ولقد ظهر أثر الصين قويا جدا في الخزف الاسلامي الذي صنع في هذه البلاد . وأما ناحية المحاكاة فلم تكن منحصرة في الألوان والأشكال فحسب بل في الزخرفة والنقوش أيضا . لقد عثر على بعض نماذج في بلدة سوسا (Susa) ، للفخار الايراني الذي صنع على شاكلة أواني تانغ . ففي الرسم الذي تحت رقم ١١ في كتاب (ديماند)[1] نرى صحنا فيه أشكال عجيبة مبنية على خرافات ساسانية مع نيلوفر منقول عن فن الصين . ومن قول الأستاذ ديماند ، أن الايرانيين قد نجحوا نجاحا تاما في محاكاة الصينيين في صناعة الفغفوري الأبيض اللون ، في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من الميلاد . ولديه بعض النماذج من هذا النوع من الفغفوريات

وهناك نوع آخر من الخزف المصقول الذي صنعه الايرانيون في القرن الثاني عشر والثالث عشروهو يمتاز عن أنواع أخرى بالرسوم والنقوش الملونة . فقيده الأستاذ ديماند برقم ٦٦ في كتابه . فالسمكة والطيور والأوراق المعوجة التي نراها في هذا الخزف المصقول ، هي من محاكاة فن الصين . مثله نموذجان وصحن يرجع تاريخها إلى سنة ٦١٢هـ - ١٢١٥ م ، في مجموعة ماسي (V. E. Macy)

استمرت هذه المحاكاة إلى القرن السابع عشر من الميلاد ، خصوصا في صناعة الفخار والفغفوري وكان ذلك متأثرا بصناعة الأواني الصينية التي استوردها امراء ايران وملوكها . فحاكوها في الزخارف وكيفية الصناعة . فمثلا أن الصناع الايرانيين قد سعوا في محاكاة الفغفوري ذي اللونين الأزرق والأبيض لعهد (منغ Ming) ، مع نقوش زرقاء وبيضاء في طراز صيني . يوجد بعض النماذج لهذا النوع في مجموعة الاستاذ ديماند

---

(1) Dimand: A Hand Book to the Mohammedan Decorative Arts.

وهناك أنواع أخرى من الفغفوريات بغير النقوش بيضاء وزرقاء، صنعت فى القرنين السابع والثامن عشر، مشتملة على صحون وطاسات صلبة الأجسام، عليها مناظر طبيعية، وصور طيور صينية الشعور والرموز التى نراها، بكثرة فى الخزف الصينى لعهد منغ.

ويظهر من البحث فى آثار الصين فى الخزف الاسلامى فى إيران، أن محاكاة صناعة الفخار الصينى وغيره من الصناعات الخزفية، لم تكن منحصرة فى مدينة أو مدينتين، بل عمت أكثر مدنها. فان جاردين (Gardin) الذى جال خلال الديار الايرانية فى القرن السابع عشر للميلاد، لاحظ أن الفخار وهو من أجمل الصناعات الايرانية، يصنعونه فى كثير من مدنها. وأحسن ما صنع فى إيران من الفخار، هو من شيراز و مشهد ويزد وكرمان وسلطان آباد فالمواد التى كانوا يصنعونها بها، كانت جيدة، كجودة المواد الفغفوريات الصينيات، رشفافة، كشفافها، وجميلة كجمالها والحقيقة أن كثيرا من الناس لما رأوا هذا النوع من الخزف، ظنوا أنه من الصين فلاجل هذا، كان التجار الهولانديون فى تلك القرون يستوردون الفخار والخزف من ايران ويبيعونه فى أسواق أوروبا كمصنوعات الصين. وكان أهم خصائص هذه الصناعة، هو ما نقله الايرانيون عن فنون الصين من الزخارف والنقوش والزركشة. فالنقوش فى الخزف الايرانى للقرنين السابع والثامن عشر الميلادى، كلها تشبه تمام الشبه، نقوش الخزف الصينى لعهد منغ، وهو العصر الذى تغلبت فيه الزخرفة البيضاء والزرقاء فى الصناعات الخزفية. وهناك طاس مرقوم بـ ٨٢ فى كتاب الاستاذ هوبسن، يشبه تماما ما صنع بالصين [1]

وأشهر الفخار والخزف فى ايران، هو ما صنع بسلطان آباد وكرمان ولقد عقد الاستاذ هوبسن فصلا خاصا عن خزف سلطان آباد، الذى ظهر فيه أثر الصين واضحا قويا. فخزف سلطان آباد ينقسم الى قسمين: قسم يشبه ما صنع بالرى، ليس فيه شيء من التشابه بينه وبين الخزف الصينى وقسم آخر قلد فيه،

---

(1) Hobson : P. 67.

الصناع ، صناعة الصين فى الترقيش والتصوير . وفى هذا القسم من الخزف ترى صور حيوان وطيور ، وصور انسان أحيانا ، مع زخارف نباتية وأوراقها على أسلوب ما صنعه الصينيون فى بلادهم . وانك تجد فى رسم تحت رقم ٦٨ فى كتاب الاستاذ هوبسن ، صورة انسان على شكل مغولى ، ورسم نيلوفر يرمز الى شعور صينى . وفى نماذج أخرى ترى صور التنين والعنقاء وكلاهما من الرموز الصينية (١)

وإذا انتقلنا من إيران إلى مصر ، نجد أثر الصين فى صناعتها أيضا فالمدينة التى كانت تشتهر بصناعة الخزف والفخار فى القرون الوسطى بمصر ، هى الفسطاط . ففخارها ينقسم إلى أربعة أقسام على حسب الألوان منها ماهو مادته رملية من لون أحمر أو رمادى ، ومنها ماهو يشبه ما صنع بالشام وإيران من لون أزرق ضارب الى السواد ، ومنها ماهو فى لون أزرق وأسود . وأما القسم الرابع فهو مختلف الألوان وفى هذا القسم الأخير ظهر أثر الصين الصناعى . ويقول الأستاذ هوبسن — أن المصريين قد قلدوا فى صناعة الفخار والخزف ، صناعة الصين لعهد سونغ (Sung) وعهد يوان خصوصا فى زخارف الأوانى التى صنعت فى ولاية « جيكيانغ » (Chekiang) ، فان هذه الأوانى كانت تنقل كمتاجر من الشرق الاقصى الى الأدنى فى أيدى التجار العرب فى القرن التاسع من الميلاد وأما المصريون فقد نجحوا الى حدما ، فى محاكاة لون زجاج شفاف فى بلادون الصين فنقلوا زخارفها الطبيعية الى صناعتهم ، مثل الأسماك والأطيار والأوراق المنبسطة المعرجة غير أنها مغايرة لأخواتها الصينية من ناحية المادة والشكل الجسمى . فالنماذج لهذا النوع من الخزف المصرى كثيرة تستطيع أن تراها فى دار الآثار العربية (بمصر) ففى هذه الدار ، أربع أوان كبيرة من صناعات الصين ، وقد عثر عليها فى جامع السلطان حسن . ويقول الأستاذ هوبسن أن هناك بعض أوان أخرى من صناعات الصين عثر عليها فى الفسطاط (٢) .

وكانت زخارف الخزف الشامى فى القرنين الرابع والخامس عشر من الميلاد

---

(1) Hobson: 54.

(2) Hobson: p.61

على الأسلوب العربى الذى تتجلى فيه الحروف العربية المشتبكة فى ألوان مكونة من أزرق وأسود وفيروزى . غير أن هناك قسما أخر صنع فى هذين القرنين ، مثل ما صنع بالفسطاط . يغاير الأوانى الأخرى بزخارف من مناظر طبيعية وطيور وأزهار صينية فى لون أسود ضارب إلى الزرقة . ولقد عثر على بعض النماذج لهذا القسم من الخزف فى دمشق ، وهو صحن فى وسطه طاووس ومن رأى الأستاذ ديماند ، أنه من صناعة الشام على أسلوب صينى [1]

وقد ظهر أثر الصين فى الفخار التركى أيضا ويوجد هذا الأثر فى فخار كوباجه بداغستان . يذكر الأستاذ ديماند فى كتابه ، أن بعض النماذج وجد فى الجامع الأخضر وفى مقبرة السلطان محمد الأول بمدينة بروصه (Brusa) . لأن محراب هذا الجامع الذى بنى فى عهد السلطان محمد الأول (١٤١٣ – ١٤٢١ م) ازدان بزخارف عربية ورسوم الأزهار التى يرى فيها أثر الصين . والسبب فى ذلك أن المحراب قد بناه الايرانيون من أهل تبريز . فرسموه برسوم وزينوه بزخارف لونها يشبه لون الخزف لعهد قبله . ثم أشار إلى اللوحة التى تحت رقم ١٠٥ فى كتابه قائلا أنها قطعة من القراميط التى صنعت ببروصة فى القرن الخامس عشر الميلاد وأثر الصين فيها واضح [2] واتفق معه الاستاذ هوبسن فى هذا الرأى

وأما كوباجه فهى قرية صغيرة بداغستان ، تشتهر بخزفها وفخارها . و أكثرها مدهون بألوان من أزرق وأخضر وأصفر . ومنها نوع وردى اللون يشبه الفخار التركى . فالزخارف فيها عادة من رؤوس النساء تحاط بالأزهار والحيوانات على طرز صينى . ولعل هذا النوع من الخزف ، من صناعات القرن السادس عشر أو بعده بقليل [3]

---

(1) Dimand P: 164.
(2) DiMand : P. 172
(3) Hobsou : 75.

ويروى الأستاذ ميجون فى كتابه « فنون المسلمين » : أن الصينيين قد صنعوا بعض القطع من الخزف على أذواق الايرانيين فجاء بنماذج لهذا النوع فى كتابه، يتجلى فيها الذوق الايرانى من ناحية الشكل والزخرفة . بيد أن فيها أختاما صينية فى أسفلها ، والظاهر أن هذه القطع صنعت اما فى مصانع الصينيين بايران ، وأما فى المصانع الايرانية التى كان فيها صناع الصين .

وفى الزمن الذى يتجلى فيه أثر الصين فى الصناعة الايرانية بوضوح نرى فى بعض الخزف الفغفورى المصنوع بكرمان ، ذوقا ايرانيا وزخارف صينية معا . وهى محاربة التنين والعنقاء [1]

٤ — أثر الصين فى المنسوجات الاسلامية .

يجد الباحثون فى الصناعات الاسلامية ، أثر الصين فى المنسوجات أيضا ، وكانت لذلك عوامل كثيرة . منها غزوات العرب الى أواسط آسيا فى القرن الثانى للهجرة . ولقد عرفنا فى باب سابق أن أبا داود حينما فتح مدينة كش ، أخذ من الأخشيد وأصحابه أشياء كثيرة من الديباج والحرير وطرف الصين ، كما ذكر فى الطبرى وابن الأثير . فالديباج نوع من الحرير المنسوج بخيوط الذهب أو الفضة ، المرسوم من أشكال مختلفة ، من زهور وطيور وتنين وعنقاء ، ونيلوفر وأوراق النبات . ولا نشك فى أن الطرف الصينية التى نقلت على يد أبى داود الى بيوت العرب يوجد منها بعض هذا النوع من الحرير . فأصبح نموذجا للمنسوجات الاسلامية فيما بعد ذلك

وهناك احتمال آخر فى كون غزوات العرب الى آسيا الوسطى عاملة فى نقل أثر الصين الصناعى الى المنسوجات الاسلامية . وهو أن العرب قد أسروا فى واقعة تالاس ، عددا غير قليل من الصناع الصينيين ، ونقلوهم الى مدنهم . فتعلموا منهم تلك الصناعات التى كانت لهم يد عليا فيها مثلما تعلموا صناعة الورق منهم فى سمرقند . وقد حاولنا تحقيق هذه المسئلة من الناحية التاريخية فعثرنا على نص يدل على

---

(1) Migeon : Maneul D'Aart Mussalmans 11, P. 270.

صحة ما ذهبنا اليه فى كتاب صينى ألف فى القرن الثامن الميلادى، يسمى « رحلات توان » . وجدنا ما يؤكد ما قلناه من تعلم العرب الصناعات من الأسرى الصينيين . فأن توان هذا ، كان عالما من العلماء رافق الجيوش الصينية الى سمرقند . فوقع أسيرا فى أيدى العرب ، اذ هزموهم فى واقعة (تالاس) . فأخذوه الى العراق وابقوه هناك نحو ١١ سنة ثم أطلقوا سراحه . فركب البحر من البصرة ووصل الى كانتون سنة ٧٦٢ م ومن ثم سافر الى (سى آن) عاصمة الصين اذ ذاك . فكتب رحلته المشهورة . وذكر ما رآه فى أواسط آسيا وفى مدن العراق من الحاصلات والصناعات . وفى أثناء كلامه عن أحوال الكوفة ، ذكر أن بها الصناعين الصينيين وهم الأربعة . فانصو ، وليوجى ، من أهل سى آن . ولو هوان ، وليولى ، من أهل ولاية « ها - تانغ » ، وكانوا يعلمون أهـــل الكوفة صناعة الأقمشة الحريرية والصياغة والتصوير [1] فمن المتيقن إذن أن من بين الذين قد وقعوا أسرى فى أيدى العرب كثيرا من صناع الصين فعلموهم ما عرفوا من الصناعات والفنون . وبسبب هذا ، انتقل أثر الصين الى صناعة المسلمين فى أوائل العصر العباسى

ومن عوامل التأثير الصناعى العلاقة التجارية التى كانت وثيقة بين الصين والعرب بين القرن التاسع والخامس عشر الميلادى . وكان العرب منذ أواخر القرن الأول الهجرى ، أخذوا يركبون البحر إلى الهند للتجارة . ثم وسعوا نطاق حركاتهم فوصلوا الى الصين بعد عقود من السنين ، فمن تجار العرب الذين قد سافروا إلى الصين فى القرن التاسع الميلادى ، سليمان المعروف بالتاجر السيرافى ، وهو أول من ذكر من العرب لباس الحرير وصناعة الحرير بالصين ثم حذا حذوه علماء آخرون . فلذا نجد فى الأسفار الاسلامية كثرة الحديث عن تجارة الحرير والديباج وصناعتهما ، فلا غرو ، أن هؤلاء التجار قد حملوا إلى بلادهم بعض القطع

---

(1) Anciet China's Relaton With the Arabs. P. 56.

النادرة من الديباج والحرير ، فحاكوا صناعته رسما ونسجا ، بعد أن تعلموا تربية دود القز واستخراج خيوط الحرير من بطونها .

وهناك عامل آخر يساعد على نقل أثر الصناعة الصينية إلى الصناعات الاسلامية وهو كما ذكرته فى باب مستقل ، تبادل السفارات بين الصين والممالك الاسلامية فى عصور مختلفة ، وكان ملوك الصين على اختلاف الأسر والعائلات ، قد بعثوا هـدايا نفيسة وتحف نادرة من الأقمشة الحريرية ، والكمخاب والدبابيج والفغفوريات الى خلفاء الاسلام وملوك العرب ، بواسطة السفراء الوافدين من الممالك الاسلامية . أو المبعوثين اليها . فأمراء العرب وكبار الاسلام ، كانوا يعجبون طبعا ببضائع الصين الدقيقة ونوادرها . وليس من البعيد أنهم قد هموا بمحاكاة هذه الأشياء صنعا ونسجا . فأمروا بصنع بعض المنسوجات على شاكلة المنسوجات الصينية ، بادخال أساليب التشكيل والرسم الصينية فيها .

وبعد هذا : أقول أن أثر الصين فى المنسوجات الاسلامية لم يظهر جليا إلا فى الزمن الذى قد اتحدت فيه بلاد الصين بالشرق الأقصى ، مع البلاد الاسلامية بالشرق الأدنى تحت حكم المغول . فى هذا الزمان ، أخذ تأثير الصين يبدو واضحا قويا فى كثير من الصناعات الاسلامية . ولعل السبب فى هذا هو وجود أولئك الصناع الذين نقلهم جنكيزخان وهلاكوخان من الصين إلى العراق ووطنهم هناك . ومن قول المحققين أن هلاكو قد نقل نحو ألف صانع من الصين إلى العراق [1] .

ولعدم العثور على نموذج أقدم من عصر المغول ، لا نستطيع أن نبحث بحثا تحليليا عن حد تأثير الصين فى المنسوجات الاسلامية قبل هذا العصر ، فاكتفيت بهذه الملاحظات التاريخية فى بداية العلاقة الصناعية وعواملها ، انصرافا إلى البحث فى تأثير الصين الصناعى فى الصناعات الاسلامية فى عصر المغول والعصور التالية

والذى لا يختلف فيه اثنان ، أن ظهور المغول فى القرون الوسطى ، قرب الصين إلى الممالك الاسلامية فى شتى النواحى ومنها ناحية الصناعة التى نتكلم فيها الآن ومن

(1) Hobson; P. 54,

المعروف عند العلماء أن الصناعات الاسلامية التى ظهر فيها أثر الصين، منها ما صنع بايران، ومنها ما صنع بمصر والشام ويظهر أن بعض منسوجات أسبانيا فى عهدها الاسلامى، لم يكن خالصا من تأثير الصين أيضا.

فايران التى تتوسط بين الصين وبين الممالك الاسلامية من الناحية الجغرافية هى التى توسطت فى نقل أثر الصين الى الصناعات الاسلامية أو بعبارة أخرى، أن أثر الصين لم ينتقل الى الصناعات الاسلامية، إلا بعد توغله فى صناعات إيران. ومن المحقق أن صناعات الصين كانت معروفة فى ايران قبل الاسلام بقرون فأثرت فى صناعاتها الى حد ما، حتى سقوط بغداد. وأما فى الوقت الذى اتحد فيه، الشرقان، الأقصى والأدنى تحت سيطرة المغول وحكمهم فقد تأثرت الصناعة الايرانية من تأثيرات الصين الى درجة لم تبلغها من قبل قط، ففى المنسوجات الايرانية التى صنعت فى القرن الثالث عشر من الميلاد، ترى أن أثر الصين الصناعى، يتجلى فيها بكل وضوح، حتى خيل لبعض الناس أنها من عمل الصينيين أنفسهم، ولقد ذكر الأستاذ كيرستيه فى مقاله عن «الفنون الاسلامية الصغيرة» فى كتاب «تراث الاسلام»، قطعة من الديباج الموشى بالذهب، عليها زخارف مكونة من أشكال الطير الخرافى الذى يعرف باسم العنقاء عند الصينيين. وإذا نظرت الى هذه القطعة اعتقدت أول وهلة أنها من منسوجات الصين والحقيقة أنها مصنوعة بايران فى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر من الميلاد.

ولا ندعى أنها قطعة من المنسوجات الصينية، لأن الكتابة العربية التى نسجت فيها عمل، استحال على الصينيين أن يعملوه هم فى بلادهم، لأن الفن العربى أو الإسلامى، لم يؤثر فى الصناعات الصينية حتى ذلك الوقت. وبوجود الكتابة العربية فيها نحكم، أنها من الصناعات الايرانية التى أثر فيها فن الصين الصناعى. ومن المعلوم أن الايرانيين كانوا يقلدون صناعة الصين فى الرسوم والزخارف خصوصا فى عهد المغول. فالرسوم التى نقلوها إلى صناعاتهم، كانت على

العموم، صور العنقاء والتنين و «كيلين» ثم أوراق النباتات الصينية مثل النيلوفر والخشخاش [١]

ولقد ذكر الأستاذ ديماند بعض النماذج لسجاجيد إيران التى يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر للميلاد أو السادس عشر، فمثلا اللوحة التى قيدها فى كتابه تحت رقم ١٤٥ وهى من مجموعات آلتمان (Altman). ويوجد فى وسط هذه السجادة وسام كبير سماه الفنيون (مداليون — Madallion)، من لون أبيض مع نجمة زرقاء ذات ثمانية أضلاع فالأساليب الزخرفية فيها منقولة عن شكل نيلوفر وخشخاش وهما من النباتات الخاصة بالصين [١].

وفى نموذج قيده تحت رقم ١٤٦ وهو من أبدع ما صنعته يد الرسام فى عهد شاهتا هسب، ترى تسع وسامات مثل النجوم، بدلا من وسام كبير رأيناه فى شكل ١٤٥ فى كتاب ديماند. ويتجلى فى هذه الوسامات، أسلوب الزخارف الصينية، فى هيئة محاربة التنين العنقاء. وفى شكل ١٥٠ صورة سجادة وجدت فى جامع الشيخ الصوفى بأردبيل. فالزخارف المشكلة فيها، تمثل الأسود والنمور المهاجمة على الـ «كيلين» الخرافى الصينى. ومن رأى الأستاذ ديماند، أن هذه السجادة من صناعات إيران العربية، صنعت فى وسط القرن السادس عشر الميلادى

وأثر الصين يوجد فى صناعة مصر أيضا. والدليل على هذا، أن نموذج الحرير للعهد الفاطمى الذى ظهر فيه أثر الصين، يوجد بكثرة فى متاحف أوروبا. ولقد ذكر الأستاذ ديماند قطعة من منسوجات الحرير التى صنعت ببروكسل، مزخرفة بصور الطيور الطائرة بين الأوراق النخلية، وعلى اجنحتها عبارات عربية يراد بها التفاؤل والاستخارة. فاللون فى هذه القطعة، كالذى وجد فى أخواتها وهو مشتمل على الخضرة والزرقة والصفرة والحمرة المتحدة التشكيل، المتناسبة الرسوم وطرز هذه القطعة من المنسوجات يذكرنا بلون الفخار المصرى اللامع الذى

(1) Dimand: P. 124.
(2) Migeon: P. 238.

كان يصنع فى القرنين الحادى والثانى عشر من الميلاد . ولعل هذه القطعة من صناعة ذلك العهد أيضا وظهر الأسلوب الصينى جنبا إلى جنب مع الأسلوب العربى فى المنسوجات الحريرية فى عصر المماليك . ففى نموذج قيده الأستاذ ديماند فى كتابه تحت رقم ١٢٩ ، ترى حريرا بديعا جميلا ، من صناعة مصر أو الشام ، فى لون أخضر مع لون برتقالى ، وحلقات مكونة من سرب طيور ، وقطعان الحيوان الخرافى الذى سماه غريفين Griffin ، متوازية الصفوف بين الأوراق النخلية [١] فى متاحف برلين ، وفكتوريا ، والبرت (لندن) ؛ تجد كثيرا من نماذج المنسوجات المصرية لعهد المماليك ومن خصوصيات هذه النماذج أن لقب « ناصر محمد بن قلاوون » ، سلطان مصر والشام الذى حكم عليهما من ١٢٩٣ إلى ١٣٤٠ م ، قد نسج فيها . ومن رأى الباحثين المحققين ومنهم الأستاذ ديماند ، أن هذه المنسوجات قد تأثرت من الصناعات الصينية التى كانت معروفة فى الشرق الأدنى وقتئذ .

وقد وقع لقب ناصر « محمد بن قلاوون » فى قطع بعض من الديباج المزركش بخيوط الذهب والفضة . وقطعة شهيرة من هذا النوع ، توجد فى كنيسة سانت مارى بدانزيج ، ترى فيها زوجين اثنين من الببغاء والتنين الصينى مع لقب « الناصر » المنسوجة بخيوط الجلد المذهبة على أرض الحرير السوداء . والمراد من « الناصر » ، كما تعلمون ، هو « ناصر محمد بن قلاوون » .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة ، بعض النماذج الحريرية التى ظهر فيها أثر الصين واضحا جليا . على واحدة منها جامات صينية كتب فى داخلها « ناصر الدنيا والدين محمد قلاوون » ، وعلى غيرها حروف صينية يراد بها طول البقاء والسعادة . وأغلب الظن أن هذه القطع قد صنعت فى آسيا الوسطى للسلطان محمد بن قلاوون كما أشار إلى ذلك الأستاذ ديماند [٢]

وهناك بعض الديباج ، ظهر فيه أثر الصين وإيران معا . وهو من صناعات

---

(1) Dimand: P. 227.
(2) Diamnd : P. 211.

أسبانيا. فيغلب فى الرسوم أوراق نباتية معرجة وصور طيور منسوجة بخيوط مذهبـــة على أرض زرقاء ضاربة الى السواد. ومن كلام الأستاذ ديماند، أن فى متحف نيويورك قطعتين من هذا النوع من الديباج. فى أحداهما رسوم الأوراق المعرجة والنيلوفر التى يستظل من تحتها زوج من الارانب وفى الأخرى أوراق نخلية مع سرب طيور تشرب من فوارة متدفقة بالماء. وهى من صناعة القرن الرابع عشر الميلاد [1]

٥ - التصوير.

من الفنون الاسلامية التى ظهر فيها أثر الصين فن التصوير الذى كان الايرانيون والمغول يحبونه ويقلدون الصين فى صناعته أكثر من غيرهم من الأمم الاسلامية لكن متى بدأ هذا التأثير وبأى طريق؟ ذلك مالا يمكن ان نحدده لعدم وجود دليل قاطع على أبتدائه فى زمن معين. غير أننا نقول أن التصوير كان معلوما لدى الأمتين الصينية والايرانية، قبل الاسلام. ومن اليقيين أن علم الصينيين بهذا الفن كان أسبق من الايرانيين ومع هذا لانقول أن الايرانيين قد تعلموا هذا الفن من الصينيين لاختلاف المبادىء فى تصويرهم. فالتصوير الايرانى القديم اتخذ الدين والعقيدة مبدأ فنيا. بخلاف التصوير الصينى الذى أخذ مبدأه من الطبيعة ومظاهرها، ومن هذا الاختلاف نعرف أن فن التصوير فى أيران كان مستقلا بذاته غير خاضع لأمة من الأمم قبل الاسلام.

فلما ظهر الاسلام واتسع نفوذه من طريق ايران إلى الصين أخذ أثر فن الصين ينتقل من مهده أولا الى تركستان ثم إلى ايران والعراق. ولانعرف تماما هل حدث هذا الانتقال فى العهد الأموى أو لم يحدث. غير أننا علمنا من «توهوان» الأسير الصينى فى أيدى العرب الذى قد أشرنا إليه من قبل أن المصورين الصينيين كانوا موجودين بالكوفة فى أول العهد العباسى يعلمون صناعة التصوير والصياغة هناك، ومن الظاهر أن انتقال فن التصوير من الصين إلى العراق قد وقع فى

(1) Dimand: P. 227.

أوائل القرن الثامن للميلاد وذلك بعدما سلمنا ما قاله « توهوان » في هذا الصدد غير أن العرب لم يأخذوا من الصين هذا الفن بل رغبوا عنه ، لعدم حاجتهم إليه في حياتهم العلمية حينما كانوا مشتغلين في تنظيم الدولة وترتيب الولايات الجديدة وأما أهل الفرس الذين قد سبقت لهم المعرفة بهذا الفن، فقد قبلوا بعد انضمامهم إلى الخلافة الاسلامية بعض الأمر من التصوير الصيني من ناحية الأساليب والزخارف ولعلهم كانو يحاكون في تصويرهم الزخارف الصينية التي وجـــدوها في الغضائر والفغفوريات لعهد (تانغ) وقد استورد تجار العرب والفرس كمية كبيرة من هذا النوع من الغضائر والفغفوريات من الصين إلى بغداد في صدر العصر العباسي. ثم أخذوها مباشرة من المصورين الصينيين الذين وردوا دار السلام بعد استحكام العلاقة التجارية بينها وبين الصين برا وبحرا.

ويثبت من المصادر العربية التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري ، أن العرب كانوا على علم بفن التصوير الصيني وأن لم يميلوا إلى تعلمه ، لأن ابن وهبان ابن الأسود ، الذي دعته همته إلى أن سار إلى ديار الصين من البصرة ، قد رأى عند ملك الصين صور الأنبياء السالفين والرسل الماضين وقد أخرجها من الخزانة وعرضها عليه ، امتحانا له ، هل كان صادقا في حديثه عن بلاد العرب والاسلام، أو كاذبا ؟ فنال منزلة محترمة لدى ملك الصين بعد أن تحدث اليه عن قصص الأنبياء ، واتفق أن أغلب ما تحدث إليه عنهم يطابق ما كتب تحت كل صورة من صور الأنبياء لديه. وأما براعة الصين في التصوير فكانت مشهورة في العالم الاسلامي ، حتى قال المسعودي : أن أهل الصين أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم أحد من معاشر الأمم. والرجل منهم يصنع بيده ما يعجز عنه غيره ثم ذكر إنعام الملك على الفنانين البارعين في الفن. وكان الطريق في ذلك أن الرجل إذا عمل صورة بيده يقصد بها باب الملك ، فيأمر بنصبها هناك إلى سنة واحدة ، فان لم يخرج أحد منها عيبا ، أجاز صانعه[1]

---

(١) مروج الذهب ومعدن الجوهر ج ١ - ص ١٧٧

هذا وأما أهل الفرس فيظهر من التاريخ الأدبي الفارسى أنهم قد التمسوا براعة الصينيين فى تصوير كتبهم وتجسيم قصائدهم . وترى هذا فى قصيدة «رودكى» التى نظمها لنصر بن أحمد الساماني فى سنة ٩٢٠ م

وبناء على تحقيق البروفسير آرنولد ، كان رودكى ، الشاعر الفارسى ، قد عمل نسخة نظمية من حكايات «كليلة ودمنة» لهذا الأمير . فكلف بعض الفنانين الصينيين تزيينها بالصور . ولهذه الصور تأثير عظيم فى التصوير الاسلامى فيما بعد ذلك .

وقد حاول بعض العلماء إنكار هذه الحقيقة بحجة أن الصلة بين تصوير قصائد رودكى والتصوير الايرانى فى عهد المغول معدومة فلم يجدوا سلسلة التدرج أو التطور الفنى من العهد الساماني إلى العصر المغولى وكانت بين العصريين فترة تقرب من ثلثمائة سنة ، لم يكن فيها اتصال فنى أبدا . وكان البروفسير آرنولد يميل إلى جانب الانكار ، لو لم ير دليلا آخر أقوى من الأول ، فرفع شكوكه ورده إلى اليقين . وهو أن الشاعر الايرانى الجامى ، قد حمل زوجة «بوتفار» على استحضار مصور صينى ، ليعمل لها صورة مع صورة يوسف فى لوحة واحدة . وهذه اللوحة الفذة النادرة ، معروفة الآن عند علماء الفن ، بلوحة «يوسف وزليخا» والواقع أن التصوير الصينى كان له تأثير واضح فى الفن الاسلامى بايران . فانهم كانوا يحبون أن يزينوا كتبهم الأدبية بالتصوير . فلما رأوا أن تصويرهم ينقص من المناظر الطبيعية ، وهى من خصائص التصوير الصينى ، نقلوها إليه بعد معرفة خصائصها وأساليبها

ولا نعرف مبلغ المعلومات التى حصلها الايرانيون عن التصوير الصينى فى القرن العاشر من الميلاد ، غير أننا نستطيع أن نقدر معلوماتهم من قول الثعالبى الذى عاش من سنة ٩٦١ إلى ١٠٣٨ م أنه كان يعجب بالتصوير الصينى ، كما أعجب به المسعودى من قبله . وكان له علم ببراعة الصينيين فى التصوير وذلك قد حصله إما مباشرة من الصينيين أو بواسطة غيره الذى رأى الصينيين فى صناعة التصوير بعينيه . فلذلك يقول —

أن صانعا صينيا يمكن أن يصور رجلا ضاحكا كما هو فى طبيعته فى جميع الأنواع من الضحك ولكل نوع طريق خاص.

نستطيع أن نعرف شيئا من معلومات الايرانيين عن التصوير الصينى، من «سكندرنامه». فى هذه القصيدة الفارسية التى وضعها النظامى فى آخر القرن الثانى عشر من الميلاد، نجد ذكرا عن مباراة مصور صينى وآخر رومى فى صناعة التصوير أمام الملك أسكندر، فوقع فى دهشة حينما رأى عمل المصورين ولم يستطع التفريق بينها، ثم اختبر طريقتهما فى التصوير وحقق سر التوحيـــد بين المبدأ والأسلوب، حتى كشف أن ما عمله المصور الرومى، هو أصلى، وما عمله المصور الصينى هو المنقول عنه. ولقد نقل الثانى من عمل الأول، وكل ما فى تصويره من تخطيط وتلوين وأسلوب فنى إلى أكمل حد، حتى لا يستطيع إنسان أن يفرق بين عمل الاثنين فيقول أن هذا أصلى، وأن ذاك منقول عنه [١] ومن كمال الفنان الصينى أنه لا يخطىء ذرة فى تصوير أى شىء رآه، أذ ينقله بريشته كما هو على حالته الطبيعية بدون أى فرق.

نعرف أن هذه القصدة خيالية غير حقيقية على أى حال من الأحوال، لكنها تشير إلى التأثير الذى أحدثه فن التصوير الصينى فى أواسط إيران حتى يذكره شاعر من شعرائهم كنظامى فى قصيدته وعند ما قرأنا هذه القصيدة ذكرنا ما ورد فى رحلة ابن بطوطة عن تصوير الصينيين، وهذا من مشاهدته التى لا سبيل لنا إلى أنكارها وهو يقول —

أما التصوير فلا يجاريهم أحد فى أحكامه من الروم ولا من سواهم، فان لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنهم، ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الأسواق، ولقد دخلت مدينة السلطان فررت على سوق

---

(١) سكندرنامه ج ٢ — ص ١٩٧ (دهلى ٣١٦ هـ)

النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين ، فلما عدت من القصر عشيا ، مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كاغد قد ألصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطىء شيئا من شبهه . وذلك لأن السلطان قد دعاهم الى القصر فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك .

ولا ريب أن أثر الصين فى التصوير الاسلامى فى عهد المغول قد ظهر أقوى مما كان فى عصور قبلهم ، وكان السبب فى ذلك أن هؤلاء الفاتحين قد نقلوا كثيرا من النقاشين الصينيين الى بغداد ، كما نقلوا كثيرا من الصناع المسلمين الى قراقرم ، ذكر البروفسير آرنولد فى كتابه « الكتاب الاسلامى » أو « دى اسلامك بوك » أن هلاكو قد أتى بكثير من النقاشين الصينيين والكتب المصورة الى إيران [1] ومن مصادر أخرى علمنا أن الصناع الصينيين وجدوا فى عواصم ايران فى هذا الوقت ، ويقول راهب صينى – وقد زار إيران عن طريق آسيا الوسطى بين ١٢٢١ و ١٢٢٤ م ، أن الصناع الصينيين استوطنوا كل مكان بسمرقند [2] .

ومن المعلوم أن سيطرة المغول على إيران وبغداد قد تمت فى سنة ١٢٥٨ م ، فوضعوا أيديهم على حماية فن التصوير وشجعوه حتى نهض إلى درجة لم يبلغها من قبل ، فأصبحت بغداد ، وتبريز وسلطانية هذه المدن كلها مراكز لفن التصوير خصوصا فى عهد « ايلخان » ، ويذكر الأستاذ ديماند – أن مكتبة مورجان (Morgan) بنيويورك ، تملك نسخة خطية نادرة من كتاب « منافع الحيوان » بالفارسية لابن بختشو ، فيها ٩٤ صورة . لقد ألف هذا الكتاب بحكم غازان خان أحد أحفاد هلاكو خان بين ١٢٩٥ و ١٣٠٠ م . والأرجح أن هذه الصور قد رسمت فى تبريز ، ولاشك أن بعضها قد احتفظ بطابع إيرانى قديم ؛ غير أن أكثرها تزين بمناظر الطبيعة وصور الحيوان التى تذهب بنا الى فكرة تلك

---

(1) The Islamic Book. P. 69
(2) Painting in Islam. p. 86

الرسوم الطبيعة التى نراها فى تصوير (سونغ) ، ولعلها من صناعة الفنانين الصينيين وإلا فلا مرية فيها فى تقليد الفنون الصينية فى الزخارف والأساليب .

ويرجع هذا التأثير ، كما رأى أكثر العلماء ، إلى العلاقة الدبلوماسية التى كانت قائمة بين عاصمة الصين وإيلخان بايران ، وقـد يكون لاعجاب المغول بالتصوير الصينى ، دخل عظيم فى هذا التأثير ، وبناء على قول رشيد الدين فضل الله ، كان المغول يستحضرون الكتب المصورة والمصورين والبنائين من الصين .

وهناك مخطوطة أخرى من كتاب « منافع الحيوان » بمتحف متروبولتان بنيويورك ترى فيها لوحة من نسور ومناظر طبيعية ، مثل الغمام والنبات والأزهار فهذه الأشياء كلها من خصائص التصوير الصينى التى تعلمها ونقلها النقاشون الايرانيون فى عهد المغول [١] .

وفى مخطوطة لكتاب (جامع التواريخ) لرشيد الدين محفوظة الآن فى (جمعية آسيا الملكية بلندن) ترى عدة صور ، أساليبها وألوانها ومناظرها ، كلها صينية محضة . وأمثال هذه الصور ، تجدها فى أكثر متاحف أوروبا ، ولقد تحدث الينا كثيرا عنها العلماء المتخصصون فى الفنون والتاريخ مثل آرنولد و ديماند وبلوشه وغيرهم من الباحثين المشهورين .

ويتصل بأسلوب التصوير فى « جامع التواريخ » بعض أوراق مصورة لنسخ مخطوطة من شاهنامه « كتاب الملوك للفردوسى » محفوظات فى مجموعات شخصية بأوروبا وأمريكا ، ففى هذه الأوراق المصورة ، ترى عناصر مختلفة مخلوطة من أساليب شتى ، منها الصينى ومنها الايرانى ومنها المغولى [٢] .

وقد احتفظ أثر الفن الصينى بمركزه فى التصوير الايرانى فى عصر آل تيمور الذين قد خلفوا آل جنكيز خان على آسيا الوسطى وإيران ، ونماذج الصور لهذا

(1) Dimand: p. 20.
(2) Dimand : P. 21.

العصر ولو أنها نادرة الوجود ، غير أنه من الممكن العثور عليها ، ويذكر الأستاذ ديماند نسخة مخطوطة لكتاب خواجة الكرمانى الذى عاش الى سنة ١٣٥٠ م . فانه قد وصف فيه حالة أمير إيرانى تعلق بحب ابنة أمبراطور الصين توجد لهذا الكتاب نسخة فى متحف لندن . كتبت فى سنة ٧٩٩ هـ — ١٣٩٦ م . وتمت كتابتها ببغداد على يد خطاط شهير معروف باسم « ميرعلى » التبريزى . الذى قد اخترع أسلوب النستعليق فى فن الخط . وفى صورة من صور هذه النسخة ، ترى إمضاء جنيد النقاش السلطانى ، كان فارسيا ولعله قد خدم السلطان أحمد (١٣٨٢ — ١٤١٠ م) ، ولهذه الصور التى صنعت على أساليب التصوير الصينى ، أثر عظيم فى مدرسة « هرات » فى عهد شاه رخ .

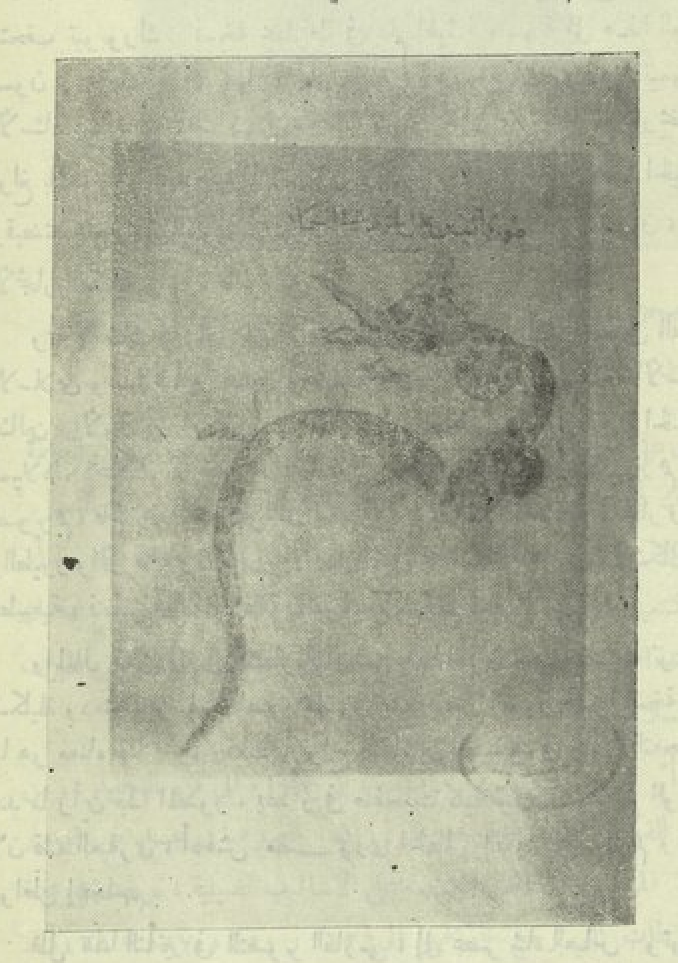
وليس يخفى أن شاه رخ قد احتفظ بعلاقة ودية مع الصين ، أشد توثقا مما كان عليه أبوه تيمور كوركان . ولهذه العلاقات جانب من الأهمية فى استبقاء تأثير الفن الصينى فى التصوير الايرانى . وذلك تراه فى أن السفراء الذين سافروا بأذن شاه رخ الى الصين بين سنة ١٤١٣ — ١٤١١ م ، قد أخذوا معهم رساما اسمه غياث الدين . فأوصاه شاه رخ بتقييد ما يشاهده ، فى الطريق من العجائب والغرائب ، وتصويرها رسما ، اذا دعت الحال الى ذلك [١]

ثم نجد فى شخص « باى سنكور ميزا بن شاه رخ ١٤١٧ — ١٤٣٣ م) محبا عظيما للفنون الجميلة وظهر هذا الحب فى تأسيس مدرسة فنية بهرات فوظف فيها أربعين شخصا من المصورين والنقاشين والخطاطين والمجلدين من أهل ايران وبعضهم من تلاميذ مير على التبريزى فساعدت هذه المدرسة على ايجاد منهج جديد للفن الايرانى . لكنها لم تستطع التخلص من تأثيرات الصين التى قد اندمجت فى التصوير الايرانى وأصبحت جزءا من أجزائه أسلوبا ومنهجا . فظهرت هذه التأثيرات فى هذه المدرسة التى كسبت لمدينة هرات اسما خالدا وشهرة عظيمة

---

(1) Notes and Extraits: Vol. 14. P. 308

بين طبقات العلماء. والمحبين للفنون الإيرانية التى تجددت فى عهد بنى تيمور وانتشرت فى أواسط آسيا، حتى أصبحت شيراز وتبريز وسمرقند مراكز عظيمة للتصوير وللفنون الجميلة. ولم يكن كل هذا إلا بنهضة هرات وبركة هذه النهضة.



(صورة من الصور الفلكية فى «زيج أولخ بك»، وهى عبارة عن مجموعة الكواكب فى صورة التنين الصيني كما صورها عبد الرحمن الصوفى السمرقند ١٤٣٠م)

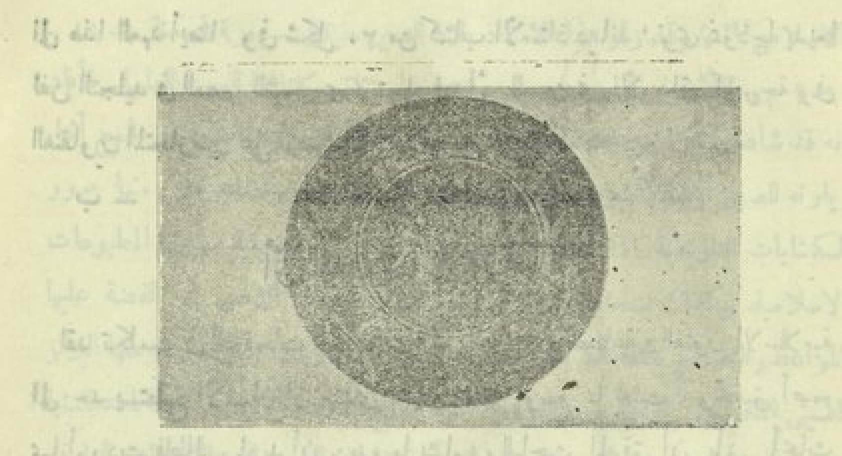
وتقول المصادر الفارسية، أن أولغ بك بن شاه ، رخ وكان حاكما على ما وراء النهر من سنة ١٤٠٩ - الى ١٤٤٦ م ، قد شيد مرصدا بسمرقند ووظف فيه بعض العلماء البارزين فى علم النجوم والهيئة ليطالعوا الأجسام السماوية ويراقبوا حركاتها ، ولهؤلاء العلماء تصانيف كثيرة ، أشهرها « زيج أولغ بك » . توجد فى متحف نيويورك . نسخة مخطوطة فى علم الهيئة منسوبة الى هذا العصر ، فيها خمسون رسما فلكيا، قلد فيها الأسلوب الذى كان سائدا فى أول عهد تيمور. ويقول الأستاذ ديماند أنه يملك ١٢ لوحة من صور « شاهنامه » ، يرجع تاريخها إلى عصر أولغ بك ، ومن القصص المشهورة فى « شاهنامه » ، (محاربة رستم الخيل رخش ، وقبضته عليها) والمنظر فى هذا الرسم : منظر طبيعى ، عظيم الشأن ، مكون من الأشجار الصينية وأوزة طائرة بين أوراقها .

ومما لا شك فيه أن فن التصوير الصينى قد ترك أثرا عميقا فى الفن الايرانى الاسلامى ولهذا التأثير صدى واضح فى الأدب الفارسى ، وضحه الأستاذ آرنولد بمثالين الأول أن ابن الوردى الجغرافى الذى عاش فى أول القرن الخامس عشر للميلاد ، ذكر من بين الصناعات التى فاق فيها الصينيون غيرهم من الأمم ، تصويرهم ، فانهم قد استطاعوا أن يصوروا بريشاتهم الخاصة ، الأشجار والحيوانات والطيور والأزهار والأثمار والانسان ، فى مختلف الأوضاع والأشكال على حالتها الطبيعية ، فتظهر أمامك ناطقة بالقوة ، نابضة بالحياة [1] .

والمثال الثانى أنه فى الشطر الثانى من هذا القرن ، حينما ظهرت ترجمة فارسية لكليلة ودمنة ، يوسف المصور الذى وضع بعض الصور لهذه النسخة الجديدة ، بما هو معناه هنا - « وقعت أرواح النقاشين الصينيين فى وادى التعجب والحيرة عند ما رأين هذا المصور ، يصور فى صفحات كليلة ودمنة ، ويرسم الوجوه فيها ، لأن قلمه العبقرى ، أدهش مصورى الخطا (الصين) وسحرهم واستولى على مواطن إعجابهم .

ظل هذا التأثير فى التصوير الفارسى ، إلى عصر شاه العباس . وتوجد نماذج بكثرة وافرة لهذه المدة الطويلة . وانظر الى هذه اللوحة التى فى أول صفحة ٢٧٣ تعرف أثر الصين فيها .

(١) خريطة العجائب ص ١٦٨ (القاهرة)



صحن بور سلين ايرانى ، يتجلى فيه زخارف صينية —
من صناعة الشاه العبـــاس (القرن السابع عشر)

فأثر الصين على العموم ، يظهر فى صور العنقاء والا و كيلين ، والتنين والغمامة المتراكمة وكذلك فى النيلوفر والخشخاش والمناظر الطبيعية التى امتاز بها فن التصوير الصينى عن غيره فان وجدت شيئا من الأشياء المذكورة فى نسخة فارسية أو عربية من الكتب المصورة فثق بأنها مأخوذة أو متأثرة بالفن الصينى . ويمكنك أن تحدد مبلغ هذا الأخذ أو الأثر ، بمقدار الخصائص الفنية الصينية ، التى ظهرت فى التصوير الاسلامى .

ولم يقف أثر الصين عند تصوير الكتب ، بل تجاوزه الى فن التجليد . ومن المعلوم أن هذا الفن قد نال درجة رفيعة فى إيران ، خصوصا فى عهد بنى تيمور فالنماذج الجميلة المزخرفة بالمناظر الطبيعية على الأساليب الصينية ، توجد على عدة نسخ من المخطوطات التى يرجع تاريخها إلى ٨٤٢ و ٨٥٠ و ٨٨٧ هـ ١٤٣٨ و ١٤٤٦ و ١٤٨٢ م ، محفوظة الآن فى متحف الأوقاف باستنبول . ومنها نسخة فى داخل غلافها رسم جامة صينية منقوشة فى الجلد وهى من آثار سنة ٨٥٠ هـ ١٤٤٦ م ، تشبه نسخا أخرى ضمن مجموعات الأستاذ ديماند ، التى يرجع تاريخها

الى هذا العهد أيضا . وفى شكل ٣٠ من كتاب الاستاذ ديماند ، نرى نموذجا بديعا لفن التجليد فى العصر التيمورى ، يتجلى فيه أثر الصين فى الاوراق المعرجة وفى العنقاوين المتحاربتين على أرض سوداء .

ب —

أثر الاسلام فى فنون الصين

لقد تكلمت فى الصفحات السابقة عن أثر الصين فى الصناعة والفنون الاسلامية الى حد يستطيع الانسان أن يهتدى به إلى بحث أوسع مما بحثت . وتحقيق أصح مما أوردت فلطالب لمزيد أن يزيده ما يشاء ، وللباحث المدقق أن يأتى بأبحاث مفيدة، اتماما لما قصرت فيه : تكميلا لهذا الموضوع الطريف الذى قلما طرق باحث بابه حتى هذا الحين، هذا جانب من العلاقة الصناعية والفنية والى جانب هذا جانب آخر غير ما ذكرنا فى السطور السابقة، وهو أثر الاسلام فى صناعات الصين وفنونها. فالحق هذا بسطور تبيانا لهذه الناحية من العلاقة الفنية . لكى نستطيع أن نكون فكرة أولية عن تأثير الاسلام فى فنون الصين ومبلغ هذا التأثير فيها .

من كتاب علاقة الصين القديمة بالعرب الذى أخذنا منه معلومات كافية ، عن العلاقة الدبلوماسية بين الصين والعرب ، وقفت على كتاب باللغة الصينية من مؤلفات الاستاذ جنبوان أستاذ التاريخ فى جامعة بكين ، فعقد فيه فصلا خاصا عن الفنون الاسلامية فى الصين[1] وقد كنت ولا أزال حريصا على الحصول على نسخة من هذا الكتاب ، لأطلع على ما كتب فى هذا الصدد . غير أن جهودى فى تحصيل بعض المعلومات من المصادر الصينية ، لم تثمر حتى الآن وذلك لصعوبة المواصلات والمراسلات بسبب الحرب القائمة فى أوربا وفى الشرق الأقصى . وبالرغم من كل هذا وجدت من الميسور أن أراجع الاستاذ برتولد لوفر ، الذى قد نشر مقالا ممتعا فى مجلة الفنون الاسلامية ، التى تصدر من أمريكا تحت عنوان « البرنز الصينى

---

(١) علاقة الصين القديمة بالعرب ص ٢٠٣

الاسلامى[1] ، وقد زار هذا الاستاذ بلاد الصين مرتين - مرة فى سنة ١٩٠١ - ١٠٩٤ م ، والأخرى فى ١٩٠٨ — ٩١٠، م . وكانت كلتاهما للمهمة العلمية . فأفاد أنه قد شاهد كثيرا من مجتمعات المسلمين وآثار الاسلام العمرانية فيها . فجمع أثناء زيارته للصين أشياء كثيرة ، تتعلق بالحياة الأسلامية ومظاهرها ، منها صور الكتابات التاريخية بالمساجد القديمة، فى اللغتين العربية والصينية ، ومنها المطبوعات الاسلامية وكذلك سبحات وقلانس مزركشة بخيوط الذهب أو الفضة عليها المواعظ والنصائح باللغة العربية، وهى خاصة بالمصلين وقت صلواتهم . ومنها البرنز الصينى المنقوش بالزخارف العربية . لقد جمع هذه الأشياء كلها لمكتبة (نو بسرى) بنيويورك وهى التى قد أوفدته إلى الصين لهذه الأغراض العلمية .

نظرا إلى أن الاسلام قد دخل الصين فى القرن الأول للهجرة ونهض فى عهد المغول ، ثم اتسع نطـــاقه فى عصر (منغ) ولا يزال يحتفظ بروح قوية تؤثر فى الأخلاق والعادات فى أمة الصين، فانه من المعقول ، أن يكون له أثر فى صناعات الصين وفنونها أيضا ، غير أن الباحثين لم يلتفتوا حتى الآن ، إلى هذه المسئلة ولم يعنوا بها، ومن الجائز أن عالما ذكرها مصادفة أثناء بحثه عن الأمور الأخرى التى تتعلق بالاسلام فى الصين لكنه لم يفردها ببحث خاص ولا يستطيع أن يأتى ببحث خاص . إذ لم يجد مصادر يراجعها ، لكن الاستاذ برتولد لوفر الذى يولع بحضارة الصين ومدنيته ، خصوصا بتلك الناحية من الحياة العمرانية ، التى لها علاقة وثيقة بالامم الاسلامية فى الشرق الأدنى ، قد بذل جهودا جبارة فى البحث عن هذه الناحية من التأثيرات المدنية ، فالنماذج التى جمعها من أنحاء الصين ، وعرضها الآن ، فى مكتبة نيو بسرى) ، تساعده على تحليل بعض النقط المهمة ، عن أثر الاسلام فى صناعات الصين .

---

(١) أشكر الدكتور محمد زكى حسن ، أمين دار الآثار العربية (سابقا) ، وأستاذ الآثار الاسلامية فى الجامعة المصرية (حاليا) على المساعدة التى قدمها إلى فى تلخيص ما جاء فى مقالة الاستاذ برتولد لوفر (بدر الدين)

ولا شك أن النماذج التى جمعها من الصين ، أثناء جولانه بها ، لا تكون إلا قطعا معدودة من الصناعات الاسلامية الصينية ، التى قد ضاع أكثرها فى حوادث الدهر وزالت آثارها من صفحات الوجود ، بيد أنى أعتقد أن قطعا غير قليلة من هذا النوع من الصناعات الفنية ، لا تزال مختفية فى بيوت عامة الناس متفرقة فى البلدان المختلفة فى طول بلاد الصين وعرضها ، وإذا كان أحد من الباحثين يصرف جانبا من همته فى البحث عن هذه الصناعات الاسلامية الصينية ، ويجمع نماذجها فمن اليقين أنه سيفوز فوزا عظيما وسيأتى بأعظم مجموعة ممكنة ، يرجع اليها الباحثون فيما بعد .

أما متى بدأ تأثير الاسلام فى صناعة الصين وفنونها ؟ فهذا سؤال يصعب على أى إنسان أن يجيب عنه ، أقول هذا ، لأنى جاهل بتاريخ هذا التأثير ، إذن فمن الصعب علينا أن نحدد زمن ابتدائه ومن المحتمل أنه قد بدأ قبل عصر المغول ، إذ كثر الرواد من العرب إلى موانى الصين فى القرن التاسع للميلاد وفيما بعده ، غير أن تأثير الاسلام فى صناعات الصين ، قد ظهر واضحا جليا فى عهد المغول (١٢٧٧ ـ ١٣٦٧ م) ، وذلك نراه ، فى صنعة المدفع واستخدام المجانيق فى المهمات العسكرية ومن الثابت فى المصدر الفارسى ، أن المغول ، لما فتحوا البلاد الاسلامية نقلوا كثيرا من الصناع المسلمين من العراق إلى قراقرم[1] ومن المعقول أن هؤلاء الصناع المسلمين قد تركوا بعض آثارهم الصناعية والفنية فى عاصمة مغوليا لذلك العصر ، ومن تحقيق الأستاذ « جنيوان » ، أن مسلما معروفا فى تاريخ الصين باسم « يختير »[2] ، قد اشترك فى بناء قصر قبلاى خان ، الذى سماه ابن بطوطة (خانقو) بخانبالق وواضح إذن ، أن المسلمين كان لهم دخل عظيم فى إيجاد بعض الصناعات وأدخال بعض الأساليب العربية فيها .

---

(1) Dimand: 68.

(٢) يظهر أن التحريف قد وقع فى هذا الاسم . ولعل أصله بختيار (صاحب البخت) ، يستعمله الترك والإيرانيون فى التسمية دائما .

ونهضت الصناعات الاسلامية بالصين فى عهد (منغ) ،خصوصا فى القرنين الخامس والسادس عشر للميلاد ، فاستمرت حركة هذه النهضة إلى القرن الثامن عشر ثم فترت فى منتصف القرن الماضى فلم يجدد نشاطه حتى اليوم .

وأما حد التأثير الاسلامى فيها ، فلا نستطيع الاجابة على هـذا السؤال ، إلى حد كاف أو مقنع لقلة المصادر والمراجع التى تحت أيدينا ومن المناسب الا نبدى أى رأى فى هذا الصدد حتى نتمكن من الحصول على وسائل كافية للبحث التحليلى وأدلة مفصلة للنقد العلمى .

ويذكر الاستاذ لوفر سببا آخر يعوق بحثنا عن مبلغ التأثيرات التى أحدثها الأسلام فى صناعة الصين خاصة وفى ثقافتها عامة ، وهو أن المسلمين فى الصين يلتزمون السكوت دائما . وهم ليسوا كمثل البوذيين الذين كانوا يعرفون قيمة الاعلان والدعاية ولم يتعبوا منها أبدا ، فأستفادوا من الاعــلان والدعاية بطرق مختلفة وتدابير منظمة لدينهم وثقافتهم الدينية . فلذا نرى اليوم واضحا جليا مبلغ التأثير الذى أثر دين البوذية فى مدينة الصين وثقافتها - لكن إذا سأل سائل - الى أى حد أثر الأسلام فى حضارة الصين ومدنيتها فلا نحير جوابا ، لأن الآداب الأسلامية فى اللغة الصينية وغير اللغة الصينية لم تتناول هذا الجانب من البحث ، بل أهملتها أهمالا تاما حتى لاسبيل لنا الى معرفة حقيقة هذا التأثير من المصادر الاسلامية فعلى الباحثين الذين يهتمون بهذه المسئلة العلمية أن يبحثوا من المصادر الصينية فى صناعتها وفنونها مثل البرنز والفخار والمنسوجات والتصوير خصوصا فى الصناعات التى يرتبط تاريخها بعصر منغ ، لكى يمكنهم أن يفرقوا بين الصناعات الأصلية والتى تأثرت من الاسلام اسلوبا وزخرفة .

ومن تحقيق الاستاذ برتولد لوفر أن أول من كتب من الاوربيين عن فنون الصين هو الاستاذ باليولوغ N · qaliologue وهو أول من بحث قليلا عن البرنز الأسلامى فى الصين أيضا . فوضحه بثلاثة نماذج من هذا الفن عليها كتابات عربية لكنه لم يأت بترجمة لها . وأنه قد أخذ هذه النماذج من مجموعة فنيه

تحت يد الاستاذ شفر (C'Shuffer) وكان مديرا لمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس : وأما تاريخ هذه النماذج فيرجع كما هو ثابت من نقوش الأختام . فى اسافلها إلى أول القرن الخامس عشر من الميلاد ويعتقد الاستاذ بالبولوغ أن هذه القطع كانت من (طقم) واحد يستعمل فى خدمة الرسوم الدينية عند المسلمين الصينيين . ومن هذا (الطقم) علبة صغيرة لوضع عيدان البخور فيها ومبخرة وأناء لملقاط البخور . ولاشك فى أن مسلمى الصين كانوا ولايزالوان يوقدون عيدان البخور فى الحفلات الدينية فى مباخر برنزية صنعت فى الصين مزخرفة بالعربية والصينية معا . لكن متى نشأت هذه العادة فيهم وهل نشأت من تقليدهم للوثنيين الصينيين الذين ورثوا هذه العادة من آبائهم وأجدادهم من قديم الزمان أو من تأثيرات ايران التى كان تجارها يستوردون منها عيدان البخور المعروفة فى آداب الصين بالبخور الايرانية ، ولانستطيع الاجابة على هذا برأى قاطع ، وإذا نظرنا إلى عادات العرب نجد أن أشعال البخور فى الحفلات الرسمية لايزال رائجا فيهم إلى الآن فلا غرو اذن أن العرب كان لهم بعض الدخل فى ترويج هذه العادة بدليل أن المسلمين فى الصين يرون أن أشعال البخور لازم للحفلات الدينية خصوصا فى مجالس الوعظ وتلاوة آى الذكر الحكيم .

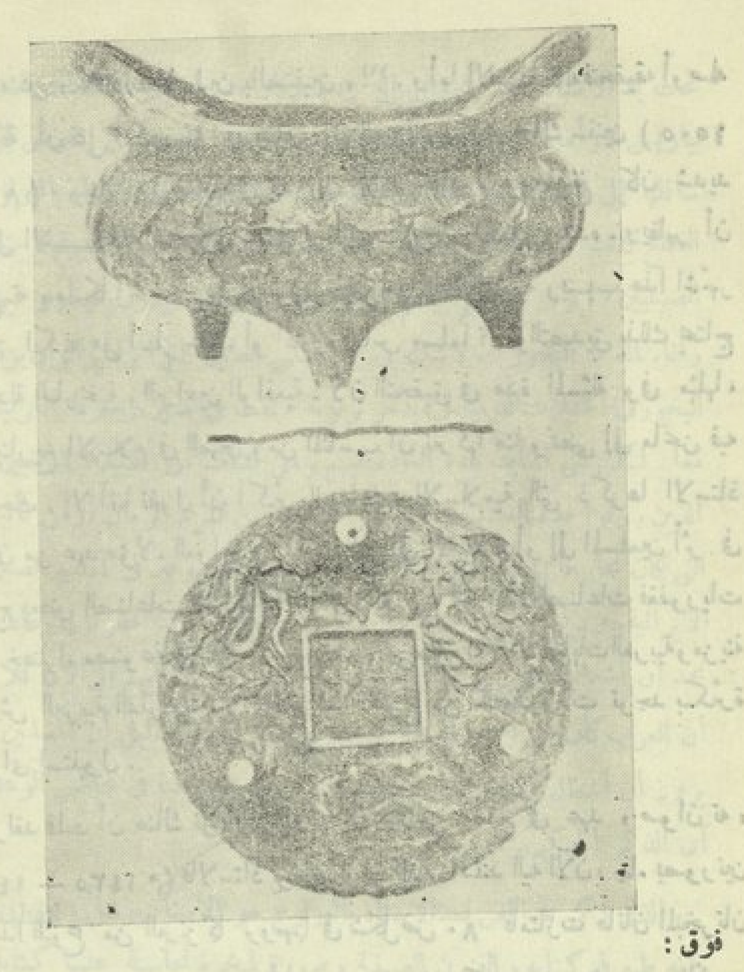
والذى ذكر هذا الفن بعد الاستاذ بالبولوغ هو الاستاذ بوشل (W' Bushall) وأنه طبع فى كتابه « الفنون الصينية » صورة لمبخرة نحاسية عليها كتابات عربية صنعت فى عهد « صوان ته » (١٤٢١ — ١٤٣٥ م) وصورتين أخريين للأوانى الزجاجية القاتمة اللون عليها الزخارف العربية وتحمل احداهما تاريخا يدل على أنها قد صنعت فى عهد « يونغ جنغ » (١٧٢٣ — ١٧٣٥ م) . والذى كتب حديثا عن الفن الاســـلامى فى الصين هو الاستاذ كاله (Prof' kahle) بجامعة بن Bonn Uuiversity لقد تحدث عن خطاى نامه « الكتاب الذى ألفه عالم ايرانى اسمه على أكبر فى القرن السادس عشر من الميلاد ، ووقف علماء أوروبا على هذا الكتاب بواسطة الاستاذ شفر الذى قد ترجم بعض فصوله الى اللغة الفرنسية فى

اتمام بحثه عن « علاقات المسلمين بالصينيين »[1]. وأما الاستاذ كاله فتحقيقه أوصله إلى معرفة أن على أكبر هذا قد سافر إلى الصين ومكث هناك سنتين (١٥٠٥ — ١٥٠٦ م). وبناء على ماجاء فى عله ان الامبراطور « هيوجونغ » كان شديد الميل إلى الاسلام لذا كان يفضل توظيف "شرفاء المسلمين عنده. ويظهر أن « جينغ ته » ملكا آخر من ملوك « منغ » قد تعلم اللغة العربية وبسبب هذا اشتهر اسلامه. لكنه هل أسلم حقا ، أو اعتبره الناس مسلما ؟ والتصديق بذلك يحتاج إلى الادلة التاريخية والبراهين الواقعية. لأن التحقيق فى هذه المسئلة وفى مثلها ، يتعلق بتاريخ الاسلام فى الصين ومن المناسب ان نتركها هنا ونمضى إلى مانحن فيه من البحث. إلا أننا نقول أن أكثر الصناعات الاسلامية التى ذكرها الاستاذ كاله كان من عهد هؤلاء العواهل، ولعل ميلهم إلى الاسلام أو إلى المسلمين أثر فى أخراج بعض الصناعات الصينية على طراز أسلامى، فن هذه الصناعات ففغوريات بيضاء خضراء مصنوعة فى عهد « جنغ ته » وهى مزخرفة بالكتابات العربية ومزينة بالنقوش العربية الفارسية ، والنماذج لهذا النوع من الففغوريات توجد بكثرة فى سراى استنبول.

ولقد قلت أن هناك نوعا من البرنز الاسلامى ، صنع فى عهد « صوان ته » (١٤٢٦ — ١٤٣٥ م) فالاستاذ برتولد لوفر الذى استند اليه الآن، جاء بصورتين من هذا النوع من البرنز كما ترونهما فى شكل ص ٨٠ فامتازت هاتان المبخرتان عن أخواتهما بتاريخ معين وبستة حروف صينية ، يكشف بهـا بعض الأمور التاريخية الهامة. وقد حصلهما فى مدينة « سى آن » ، فى سنة ١٩٠٨ م ، من تاجر مسلم ، وكان مشهورا بكونه تاجرا فى العاديات (انتيكات). ويقول الاستاذ لوفر ، أن المسلمين فى تلك المدينة ، كانوا قابضين على ناصية سوق الصناعات الفنية تماما ولهم وحدهم احتكار فى تجارة العاديات والصناعات الفنية

---

(1) Les Relations Mussalmans Avec les Chinois



فوق :

صورة مبخرة برنزية صينية اسلامية ذات ثلاث أرجـــل ، صنعت فى سنة ١٤٣١ م

أسفل :

ناحية تحتية للمبخرة ، عليها كتابة صينية ذكر فيها اسم الصانع وتاريخ الصناعة

وان هاتين المبخرتين اللتين ، أخرج الاستاذ لوفر صورتهما نموذجا لأخواتهما الأخرى التى توجد بأسواق الصين بكثرة حتى اليوم تشبه أحداهما الأخرى ، شكلا وصناعة . وقد صنعتا فى المسبك الامبراطورى ببكين ، احداهما فى سنة ١٤٣٠ م والأخرى فى سنة ١٤٣١ م ولاشك انهما دقيقتا الصناعة ، جيلتا السبك وكان الصانع هو « ووبونغ تسو (Wu Pong Tso) وذلك عرفناه من الخاتم الذى وجدناه فى أسفل المبخرة

ولقد طبع الاستاذ لوفر منظرين للمبخرة الأولى مع مقالته فى مجلة الفنون الاسلامية . وهى فى لون أدهم لامع يمتاز به الفن البرنزى فى عهد « صوان ته » . وترى فيها «كلمة التوحيد» وهى (لا آله الا الله محمد رسول الله) فى خط بديع جميل.

وللاستاذ برتولد لوفر ، بحث طويل فى غرض « ووبونغ تسو » فى نقش هذه الكلمة التى هى أساس دين الاسلام ، فى المبخرة . هل كان يقصد بهـا استمالة الامبراطور « صوان ته » الى الاسلام ، أو يريد بها اظهار جمال الحروف العربية التى تلائم أوضاعا زخرفية فى الأوانى والخ . . او قصد بها ذكرى للترقية التى قد نالها فى تلك السنة من منصب الوكيل الى وزير الأشغال . فاستنتج على كل احتمال من هذه الاحتمالات ، ان « ووبونغ تسو » ، كان مسلما غيورا ، وقوى دليله بوجود كبار المسلمين الموظفين فى بلاد الصين فى ذاك الزمان



صحنان برنزيان ، أولهما ذو ستة أضلاع مقوسة ، والثانى مستدير الشكل . فالزخارف العربية فيهما يشابه بعضها بعضا — من صناعة عصر (منغ)

ومن النماذج البرنزية التى جمعها الاستاذ لوفر ، صحنان مضروبان من النحاس ، مركبان من عدة فصوص وفى وسط كل فص يحوى الحروف العربية ، غير أنها صارت غير واضحة وصعبة القراءة ولعلها كلمات عن أركان الاسلام ومبادئه ، مثل كلمة التوحيد والصلاة والصيام والحج وغيرها من الدعاء والذكر . فهذان الصحنان يشبه أحدهما الآخر فى الصناعة والتركيب والزخرفة بالعربية . غير أن الأول على شكل مسدس والثانى على شكل دائرة



فوق :

غطاء علبة نحاسية ، عليه زخارف عربية بديعة

أسفل :

ثلاث زهريات وهى من صناعة عصر (منغ) تشهد بأثر الاسلام فيها

من مجموعة الاستاذ لوفر ، علبة نحاسية مستديرة الشكل كما تراها فى الشكل الأعلى على غطائها زخرفة عربية . فالكتابات العربية المنقوشة فيه تقرأ « محمد ؛ محمود ، أحمد ، حامد » وفى الحواشى زخارف عربية مكونة من أربع وحدات ، وبين كل وحدة وأخرى ترى أوراقا باسطة الوجوه ، مختلطة بالعساليج ورءوس الطيور .

وأما الزهريات الثلاث التى تراها مع العلبة النحاسية فى شكل واحد، فانها من صناعات آخر عهد منغ ، على الرأى الأرجح ، ولكل منهما عروتان بديعتان. والتى بالشمال والوسط مزخرفتان برسوم الأزهار ، الواضحة النقوش على عنقهما . فالكتابة العربية فى الأولى، من الشمال ، سبحان الله، وفى الثانية «محمد » وفى الثالثة ، «والحمد لله » . ومن النماذج ، نفهم أن الفنون الاسلامية فى الصين كان لها شأن عظيم ، خصوصا فى عهد (منغ) ، الذى هو عهد النهضة الاسلامية أدبيا وفنيا . غير أن الباحثين لم يلتفتوا الى هذه الناحية من آثار الاسلام . لكن على كل حال سنواصل البحث عن أثر الاسلام فى فنون الصين ونود ان نأتى بمزيد تفاصيل ، بعد عودتنا الى الصين لأن المعلومات التى تتعلق بهذا الموضوع تحتاج الى الجمع والبحث من المصادر الصينية وهى غير متيسرة فى مصر

الذى يجب علينا ان نقول هنا ، هو أن الاسلوبين من الزخارف الخطية — الصينى والعربى — اللذين لم يكن بينهما أية صلة لسانية ، قد ازدوجا فى أرض الصين ، ازدواجا يوافق أحدهما الآخر ، ذوقا وتنسيقا ، لا يظهر بينهما أى تباعد او تنافر . ومن العجيب أيضا أن الحروف العربية قد أظهرت صلاحيتها الفنية فى أواسط فنون الصين ، وأثبتت فعلا أنها تنسجم مع حياة الصين الفنية . لا . بل زادت فيها نوعا من الجمال والجلال لم يكن موجودا فيها . وبفضل هذا الازدواج ظهر نوع حديث من الفن معروف عند العلماء الآن، باسم «الفن الاسلامى الصينى الذى لم يكن شيئا مذكورا قبل عصر (منغ) .

الباب الثامن

النتـــائج

بعد ذكر هذه العلاقات التي تناولت ستة نواح وهي السياسيـــة ، والعلمية والتجارية، والدينية، والدبلوماسية، والصناعية الفنية، أرى لزاما على أن أكتب كلمة عن نتائجها، أتماما للبحث الذى لا نزال فيه حتى الآن، وهذه النتائج كما وجدتها، أما مترتبة على العـــلاقه السياسية وأما على العـــلاقة الدينية وأما على العلاقة التجارية ، وأغلبهـــا رتب على آخر الذكر ، فالتي رتبت على العلاقة السياسية هى دخول الاسلام برا ، إلى شمـــال الصين وغربها واختلاط دم العرب بالدم الصيني بتلك الناحية من البلاد ، وانتشار صناعة الورق إلى الممالك الاسلامية ثم إلى أوربا .

لقد سبق البحث في وصول هذا النوع من الصناعة الصينية إلى سمرقند وغيرها من البلدان الاسلامية، ولا حاجة بنا إلى تكرار ما قلناه هناك في هذا الموضوع . غير أننا نشير إلى نتيجة رتبت على انتشار هذه الصناعة في الممالك الاسلامية وهي كلمة « كاغد » ، التي يستعملها بعض كتاب الاسلام كما فعل ابن بطوطة في القرن الثالث عشر للميلاد ، ككلمة عربية وأجرى عليها قاعدة اللغة العربية بجمعها على « كواغد » أن هذه الكلمة لم تكن فارسية الأصـل ، كما زعم بعض اللغويين . وأصلهـا من الصـــين ، من كلمة (Kukdz) [1] وهى الورقة التي تصنع من قشر التوت فعربت هذه الكلمة الصينية إلى اللغـة الايرانية ، بعد واقعة « تالاس » ، في شكل محرف إلى « كاغد » فعم استعمالها في بلاد الفرس ، ثم نقلت إلى لغة الضـاد ، على أغلب الظن في عهد المغول ، وهى مستعملة الآن في اللغة العربية كـكلمة معربة ، خاضعة للقواعد العربيه كـكلمة أصيلة [2] .

---

(1) Laufer: Sino-Iranica: On Paper

(٢) جاء في القاموس « الـكاغد والـكاغد القرطاس معرب » .

وأما وصول الاسلام إلى الصين براً كنتيجة من نتائج العلاقة السياسية فواضح جدا لا يحتاج إلى مزيد تفصيل، لأن زحف قتيبة بن مسلم الباهلي الى أواسط آسيا وفتحه لكاشغر في سنة ٩٦ هـ - ٧١٥ م، كانه منذر لصاحب الصين بقدوم الاسلام الذي يتطلب استعدادها للقبول أو الخضوع الى حكمه، لقد بعث قتيبة بن مسلم بالفعل وفدا الى امبراطور الصين برياسة هبيرة بن مشمرج يطالبه بقبول أحد الأمور الثلاثة - الاسلام أو الجزية، أو الحرب - وأن قتيبة لم يحقق أمله بسبب وفاة الوليد بن عبد الملك، لكن حالة الصين الداخلية بعد أيام قلائل، قد هيأت الأسباب من تلقاء نفسها لاستقبال الاسلام. فالثورة الهائلة التي ظهرت في شخصية آنلوشان (An Lushan) واستمرت من سنة ٧٥٤ الى ٧٥٧م أكرهت امبراطور الصين على الاستنجاد بقوات المسلمين بأواسط آسيا، في قمعها ورد الحكم الى يده. فجاء بضعة آلاف من عساكر المسلمين بقيادة «يعبور» من التتار والأواغرة والعرب، الى اعانة «سوتسونغ»، الذي قد ارتقى العرش، عند غياب أبيه عن العاصمة وانقطاع أخباره، وبفضل هؤلاء العساكر المسلمين أو بيأسهم، قد تمكن من إخماد تلك الثورة الهائلة، حتى رد النظام إلى نصابه. فأرسلهم وعظمهم وخيرهم في الاقامة أو العودة فعاد بعضهم واستوطن الآخرون. فأنشأ للمقيمين مسجدا في العاصمة ودور الضيافة فيها، حتى طابت لهم الأرض واستقرت حالهم. فاختار أغلبهم الاقامة الدائمة في شمال الصين فانتشروا فيها من يومئذ.

وطبعي أن إقامتهم هناك، لا تستقر الا بأن تكون معهم عائلاتهم. فالذين كانوا يحملون العائلات معهم أيام الحرب، استوطنوا حيث وجدوا أوطانا جديدة لهم في تركستان أو غير تركستان. وأما الذين توغلوا في الصين بناء على دعوة امبراطورها، ولم تكن معهم عائلات، فالو طبعا إلى تأسيس بيوتهم بمصاهرة الصينيين بعد اختيارهم للاقامة هناك[1] فتزوجوا وتناسلوا حتى كونوا في الأيام المتأخرة نوعا جديدا من النسل لم يكن موجودا في الصين.

(١) جيني مسلمان للمؤلف ص ١٠

فالعلماء الذين يبحثون عن أصل المسلمين فى شمال الصين وغربها وجـدوا هناك ثلاثة أجناس من المسلمين[٢] ، جنس فيه دم العرب ، وآخر فيه دم الاواغرة وثالث فيه دم المغول . وأحسنهم صورة وقامة . هم الذين ينتمون إلى العرب . ثم الذين يمتزجون بدم الاواغرة . ان هولاء طوال القامة قوى الاعصاب ، شامخو الأنوف مستطيلو الرؤوس ، كثيفو اللحى ، واسعو الجبين كبيرو العيون ، أقرب شبها وهيئة بأولئك القوم الذين بشمال الهند أو جنوب افغانستان أو بخارى وهم أشد الناس تمسكا بأحكام الاسلام ، وأكثرهم حبا للغة العربية والفارسية ويوجد فيهم العلماء الكبار الذين يفهمون الفقه والحديث ، إلا أنهم لا يجيدون التأليف ، بل يكتفون بما الف علماء العرب والعجم ومصر والهند من الكتب الدينية والعربية

٢ — نتائج العلاقة الدينية .

وأما النتائج التى ترتبت على العلاقة الدينية فتشمل عدة أمور - منها انشاء المساجد وازدياد المسلمين ، ومنها ادخال اللغتين العربية والفارسية للاغراض الدينية ومنها نقل العلوم العربية إلى الصين . وهأنذا أتكلم عن هذه الأمور على سبيل الاجمال

من الطبيعى أن انشاء المساجد يتوقف على انتشار الاسلام وازدياد المسلمين فى الصين . ولقد عرفتم فى باب سابق ، أن الاسلام قد وصل إلى الصين سنة ٦٥١ م فى عصر (تانغ) . فأخذ ينتشر شيئا فشيئا فى عصر (سونغ) ثم قوى وازدهر فى عصر (يوان) أو المغول وعصر منغ (وأما عصر مانشو Manchu فكان عصر المصائب والكوارث على المسلمين اذ هلك فيه ملايين (فالباقون على قيد الحياة لم يستطيعوا التنفس فى هواء الحرية ولا الاستنشاق من نسيم التقدم ، اقتصاديا كان أو اجتماعيا ، دينيا كان أو معنويا . لأنهم كانوا مقيدين فى هذا العصر المشئوم الذى علا فيه الطغاة فى أرض الصين بالقيود الثقيلة فى كل ميدان من العمل حتى

(2) C. F Anbrew: The Crescent in the North - West Chine P 2.

فى الميدان الأدبى . الا أنهم لم يحرموا من السجود فى المساجد فاستمروا فى هذه الحالة المظلمة إلى انقلاب الصين فى سنة ١٩١١ م

ويرجع تاريخ انشاء المساجد فى الصين إلى سنة ٧٤٢ م ، وهى السنة التى اسس فيها ، أول بيت لله فى (جانغ - آن) عاصمة الصين حينذاك ثم مسجد آخر بكانتون ثم ثالث بنانكين ، ومما لاشك فيه أن هذه المساجد الثلاثة ، هى من مؤسسات عصر (تانغ) ، فالأول كان للعساكر المسلمين الذين جاءوا من وراء النهر واختاروا أقامتهم فى عاصمة الصين وأما الثانى والثالث فالتجار الذين وردوا عن طريق البحر إلى الصين ، فكان منهم الايرانيون ، لكن أكثرهم من العرب ، فلما انتشر الاسلام فى عصر (سونغ) بعض الانتشـــار ، بسبب التجارة الزاهرة التى كانت تربط الصين بالمسلمين ربطا وثيقا ، أخذوا ينشئون عدة مساجد أخرى فى مدينة (جوان شو) و (هانغ شو) ، وبالقاء نظرة سريعة إلى تواريخ هذه المساجد ، نفهم ، أن الاسلام حتى آخر عصر (جونغ) ، لم يصل ألى غير عدة مدن ساحلية بالصين لكن مع ظهور المغول فى ميدان السياسة وسيطرتهم على الصين ،وجد الاسلام فرصة سانحة للتوغل فى الولايات الداخلية، حتى أنشئت فى خانباق (بكين) وحدها ستة عشر مسجدا ، منها ستة شيدت على نفقة الأمير آننده [1] يتسع لمائة ألف نسمة من المصلين . وأما غير هذه المساجد السته ، فأنشئت على نفقات « شيكوم » أحد ملوك المغول بالصين . ومع وجود هذه المساجد الجديدة ، لا يجد بعض المسلمين محلا لصلواتهم

لقد تقدم الاسلام فى عصر المغول بسرعة البرق فى ولايات الصين وأرجائها حتى وقف العلماء فى هذا العصر حيارى فى تعليل هذا التقدم ولا يدرون ـ هل كذب المؤرخون أو بالغوا فى بياناتهم ، والحقيقة أن أحدا لا يمكن أن يصدق مثل هذا القول الا إذا علم به من مصادر وثيقة كجامع التواريخ ، لرشيد الدين فضل الله ، أن ثمانيا من اثنى عشرة ولاية من الصين فى هذا العهد، كان عليها حكام مسلمون ،

---

(1) Blochet: Introduction a l, Histoire des p. 75.

غير وزير المـــالية شمس الدين الملقب بالسيد الأجل، ووزير الحربية على يحي الأيورغرى .

وبقى الاسلام مزدهرا فى أرض الصين إلى عهد بعيد حتى بعد انقراض الدولة المغولية منها، كان السبب فى ذلك، أن كثيرا من زعماء المسلمين، قد اشتركوا مع الوطنيين الصينيين فى قلب الدولة المغولية . فنالوا أكبر حظ من الاكرام والتقدير من الحكومة الجديدة التى قامت بعد المغول وإذا تصفحت تاريخ (منغ)، تجد أعلام المسلمين فيه مذكورة وكانوا من أركان الدولة وأعمدتها، وعلى اكتافهم وقعت أكثر الأمور الهامة .

وأما مبلغ التقدم الاسلامى فى هذا العصر، فيمكنك أن تقدره من تلك المساجد التى أنشئت فى هذه الأيام. يوجد الآن فى ربوع الصين، آلاف من المساجد ثلثها يحمل تاريخ (منغ) على اختلاف سنواتها بين ١٣٥٠ و ١٦٥٠ م . فالكتابات الحجرية التى وضعت تخليدا لتواريخ تأسيس المساجد فى هذا العصر، أكثرها نقشت بالعربية والفارسية ومنها ما بالتركية أيضا، أن هذه المساجد امتازت عن أخواتها بسعة ساحتها وضخامة مبانيها ومشابهتها لهياكل كانفوشيوس هيئة وجلالا كما تراها فى جامع (نيوكاى) أو فى جامع (البرج الرابع الشرقى) ببكين .

وتوقف انتشار الاسلام بعد عصر (منغ) بسبب فقد العوامل المشجعة والأسباب المعززة التى وجدت فى عصر المغول أو فى عصر (منغ) من ناحية . ومن ناحية أخرى، بسبب نفور حكام (مانشو) من وجود المسلمين فى الادارات الحكومية واضطهادهم لهم لقد نشأ هذا الاضطهاد من خوفهم من توحيد الصفوف بين أنصار أسرة (منغ) وهم الصينيون الخلص، وبين زعمـــاء المسلمين وكانت لهم أياد بيض فى إقامة الحكم لأسرة منغ على أرض الصين أمام هذه الموانع كان الاسلام فى عصر (مانشو)، لا يستطيع الحصول على اتباع جدد بل كان سير الأمور يجرى على العكس . فهلك آلاف، بل ملايين فى الثورات التى ساقت مظالم الحكام المانشوريين المسلمين فى شمال الصين الغربى إلى ايقاد نارها

متوقعين منها الخلاص والنجاة. لكن يد الحكام الحديدية أثقل وأوقع فكان الثوار من الهالكين بعد كفاح متواصل وجهاد دام أكثر من نصف قرن، فأن هذه الحوادث المؤلمة تحتاج إلى مجلدات ضخمة في سردها وبيانها وتركناها هنا لأنها من موضوع آخر غير ما نحن بصدده ومع كل هذا كان المسلمون قد احتفظوا بمراكزهم في المجتمعات خارج الهيئات السياسية والادارات الحكومية فظهرت نهضة مباركة في الميدان الأدبي الاسلامي، ولولا المراقبة الشديدة من الحكومة القائمة على هذه الحركة لاتسعت إلى الدوائر الفكرية غير الاسلامية. فتغير أفكار الآخرين إلى ما يقرب من الاسلام، لكن هذا لم يكن من مشيئة الله، فحبطت ايما حبوط.

ومع ذلك، بقيت بعض آثار هذه النهضة الأدبية الاسلامية في الصين، منها تلك المؤلفات التي تركها قلم الاستاذ ليوتشي Liu Chih والأستاذ الشيخ يوسف مافوصو [1] باقية في عالم الأفكار، خالدة بميزاتها، محتفظة بمراكزها بين أدب الاسلام في الصين مهما وصل ازدهار العلوم الاسلامية في الصين في المستقبل. ومما هو جدير بالذكر، أن كتابا من مؤلفات الاستاذ ليوتشي قد ترجم الى اللغة الانجليزية تحت عنوان (النبي العربي [2]) والحقيقة أن تصانيف هذا الاستاذ والتي بقلم الشيخ يوسف مافوصو، تلفت أنظار غير المسلمين إلى أبعد حد، فيرجعون اليهما في فهم بعض حقائق الاسلام وسمو أفكاره.

ان الاسلام في الصين قد أصبح محروما من العوامل الخارجية بعد عصر (منغ) مثل التجارة، وزيارات السفراء، ومناصب الحكومة، في تقوية قضيته، غير أن عاملا فطريا، قد هيأه الله من صميم الفطرة، لحفظ الاسلام في الصين والدفاع عنه بطريق سلمي صامت، فكان هذا العامل الفطري لم يقعد عن العمل أو يقف عن السير، يوما من الأيام لم يكن هذا العامل الطبيعي الذي حفظ الاسلام من الاندثار في بلاد وثنية قام بها حكم الطغـــاة الوثنيين، غير التفرع من الأصل

---

(١) أنظر في «جيني مسلمان» ص ١٠٤

(2) The Arabian Prophet

والازدياد فى النسل لحظر على المسلمين المخدرات ومنعهم من استعمال المسكرات وبذلك استطاعوا أن يحفظون قواتهم الجسمية من الضعف والانحلال فترى أغلبهم أحسن جسما وبنية وصحة من الصينيين الآخرين الذين اضطربت أعصابهم ، وتراخت عضلاتهم ، بسبب أدمان ما لا فائدة منه من المأكولات الضارة والمسكرات الفتاكة للاجسام والعقول ، فهزلت قواهم ، وانحطت أخلاقهم .

وقد يكون هذا سرا من الاسرار التى أراد الله بها الابقاء على المسلمين فى بلاد الصين صالحين لمواجهة جميع المشقات فى سبيل المحافظة على الحـــياة صابرين على الشدائد فى ميدان العمل الذى لاينجح فيه ألا أقوياء البدن والأعصاب، ومع أنهم كانوا تحت مظالم قاسية فى عصر (مانشو) قد تمكنوا من رفع مستواهم الاقتصادى بالتجارة والزراعة الى منزلة محترمة حتى قدروا على تربية عدد غير قليل من الاطفال الذين تركهم آباؤهم الوثنيون البائسون على قارعة الطريق بين مخالب الموت وأظفار المجاعة ، وكان ذلك من نزول الآفات السماوية على حقولهم وممتلكاتهم المادية مثل القحط والفيضان وأن هذه الآفات تزور الصين حينا بعد آخر بدون سابق أنذار فتتقاضى من أهلها آلافا من الضحايا الآدميين . فالاطفال الذين فقدوا حنان الأبوة أو تركوا فى الطرق بدون مأوى ولا ملجأ يلتقطهم المسلمون ويضمونهم إلى صدورهم ضم الآباء الأبناء فيدخلونهم فى حظيرة الاسلام التى يجدون فيها ظل الرحمة الواسعة والرعاية التامة لأرواح مشردة .

وهكذا كثر المسلمون فى عصر (مانشو) خصوصا فى آخر هذا العهد حين أغرق الأمراء فى الفسق والفجور . فأتتهم الآفات من حيث لايشعرون . وأما الآن فيبلغ المسلمون على أصوب تقدير أربعين مليونا أو يزيد وأن كان هنا قائلون باكثر من خمسين مليونا (١) فأن هؤلاء يتفرقون فى جميع الولايات والمدن ولهم مراكز خاصة وبيئات خاصة فى الجهات التى يقطنون بها . وأما أكثرهم فى ولايات يونان وقانصو والا يالات المجاورة لها .

(١) تجد فى آخر باب من كتابى جينى مسلمان بحثا وافيا فى تضارب الآراء فى سكان المسلمين بالصين رأيى فيهم .

ومما لاشك فيه أن مراكزهم الاجتماعية والدينية هي المساجد التي أنشأوها من حين لآخره محافظة على حياتهم الاجتماعية وعلى الحقوق التي يستحقونها في مجتمعات الصين. ولولا هذه المساجد، لفنى الاسلام في الوثنية في الغابر، أو الدهرية في الوقت الحاضر، لكن الله يريدهم باقين أحياء رغم دوران الأفلاك عليهم فأصبحت هذه المســاجد عند المسلمين في الصين، أركانا ركينة وحصونا حصينة يلتجئون اليها في حل مشاكلهم الاجتماعية وعقد مسائلهم الدينية. ثم هي مجتمعات التعارف بين المسلم وأخيه، ومعاقل التعاون والتعاضد، اذا انقلب عليهم الدهر ودارت عليهم الأفلاك لسبب لا يدرونه. ثم أنها ينابيع تتفجر منها مياه الحياة، يقصد اليها كل مفلس من أن كان يشرف الأخلاق، وتشفى غليل كل متعطش إلى الفضائل والمكارم. فيرتد فرحا مسرورا بعد ما أشرف على الموت يائسا ساقطا في فساد الدهر وأنها لقوة جبارة في حفظ حياة المسلمين من الفناء، بصفة أنها مراكز للتعليم الديني والثقافة الاسلامية، وفي منع الانسان من السقوط إلى درجة الحيوان أو أدنى منها. ولولا هذه المساجد لكانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة. وعددها يقدر في الوقت الحــاضر بعشرة آلاف يحفظ المسلمون بها وجودهم وخصوصياتهم في أنحاء الصين العامرة.

ومن نتائج العلاقة الدينية تسرب اللغتين العربية والفارسية الى الصين وتأثيرهما في بعض نواحي حياتها: لا أقول انتشارهما لأن النشر يحتاج الى مساع منظمة. فدخول هاتين اللغتين وأثرهما في مجتمعات الصين لم يكن بطريق منظم كما كانت اللغة العربية والفارسية في الهند أو ما وراء النهر، بل من طريق لم يشعر به أنسان. ثم الانتشار يقتضى تأثيرا عميقا ونفوذا واسعا يتغلغل في الحياة الفكرية أو الحياة الاجتماعية. فحالة العربية أو الفارسية لم تصل الى هذه الدرجة من قوة النفوذ والتأثير فلذا قلت أنهما تسربتا الى الصين من طريق خفي وآثارهما موجودة في الواقع غير محسوسة في الظاهر، ثم أن تأثيرهما محدود في بعض بيئة خاصة معدوم من أغلب المجتمعات الأخرى فلذا لا نستطيع ان نحكم على الاطلاق بأن اللغة العربية منتشرة أو مفهومة حيث يوجد المسلمون في الصين وكذلك حالة الفارسية.

ولقد بينت آنفا أن المسلمين ينتشرون فى جميع ولايات الصين بل فى جميع المدن غير أن اللغة العربية غير مفهومة فى كل ولاية أو فى كل مدينة نعم فى كل مدينة يوجد من بين المسلمين بعض أفراد يعرفون كيف يقرأون السور القصيرة من القرآن الحكيم، لكن علي الطريقة الصينية بجعل «الراء» «لاما» «والباء» «باء» «والسين» «ثاء» و«الشدة» «تنوينا» و«المدة» «قصرا» «وبزيادة» «النغمة» فى أكثر الحروف لكن هؤلاء المساكين لا يفهمون ما يقرأون فى كالببغاء التى لا تفهم ما تنطق به. فيرون بعد ذلك فى عدم فهم القرآن أعجاز القرآن:

هذه هى حالة اللغة العربية فى أكثر المدن، والحقيقة أن المسلمين فى الصين منهم واحد فى الألف يسعى جهده إلى تعلم بعض الصلوات العربية والسور القصيرة حفظا عن ظهر قلب لقيادة عامة الناس فى تأدية الأمور الدينية ولولا الصلاة التى أوجبت عليهم تعلم ما تيسر من القرآن لما تعلموا كلمة واحدة من العربية ولولا الخوف من النار أو رجاء الجنة لما تعلموا بعض الصلوات الضرورية ولما عرفوا شيأ ما عن العربية.

هذه هى الحال العامة بالنسبة إلى نفوذ اللغة العربية فى بيئات المسلمين. غير أن هناك بعض المستثنيات التى يجب علينا ألا نتغاضى عنها مثلا قانصو ويوننان. فالمسلمون فى تلك الولايتين منهم عدد غير قليل يفهمون اللغة العربية الى حدما ويتكلمون بها أيضا فى بعض الاحيان وذلك من كثرة مطالعتهم الكتب الدينية من الفقة والتفاسير والأحاديث فتذوقوا حتى استطاعوا أن يتبادلوا الآراء فى الأحكام الدينية والمسائل الشرعية بواسطة اللغة العربية، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وهناك بعض العوامل التى تستميل المسلمين فى قانصوا ويوننان الى الاقبال على لغة القرآن - لينالوا نصيبا منها. ومن هذه العوامل كثرة عددهم. فالمسلمون فى قانصو قد بلغوا ٤٠ فى المائة والذين فى يوننان ٣٥ فى المائة ومنها أختلاط الدم بين الصينى والعربى وغيرهم من الأجناس ومن المحقق أن المسلمين فى قانصو ليسوا

من الدم الصينى الخالص . بل مزيج من الدم العربى والصينى أو الأيوغرى . فيترتب على هذا الاختلاط تمسكهم بالدين ورغبتهم فى العربية وتعصبهم للاسلام أكثر من المسلمين فى الولايات الأخرى . ومنها قربهم من تركستان وماوراء النهر ـ البلاد التى كانت العلوم الاسلامية تزدهر فيها من القرن الثانى الهجرى إلى ظهور المغول

وأما المسلمون فى يونان ، فيثبت من التاريخ ، أن أكثرهم من أولاد السيد الأجل الذى نزح من بخارى إلى الصين فى زمن قبلاى خان . ولقد تولى منصب وزارة المالية ، ثم القيادة العامة إلى يونان ففتحها وأمنها ، وقد أعقب سبع أولاد ناصر الدين ، بيان تشار ، حسن ، حسين ، مسعود وجعفر ومحمود ـ فانتشرت منهم عـــدة عائلات فكثر نسلهم ، وأما مسلمو يونان اليوم فأكثرهم ينتمون إلى أولاد السيد الأجل . من أعقابه المشهورين ، الشيخ يوسف ما فوصو ، الذى ذكرناه فى مناسبة سابقة ، مع اسم الأستاذ ليوتشى ، ومنهم الحاج نور الحق الذى سنقتبس بعض كلماته نموذجا للمكانة العربية ، التى وصل علماء الصين اليها .

وبوجود هـذه العوامل فى هاتين الولايتين ، نالت اللغة العربيـة فى العصور الماضية أكبر نصيب من العناية فيهما . وأما حالتهـا فى الولايات الأخرى ، فغير جديرة بالذكر ، فما سمعت عن تعليمها فى بكين فى هذا القرن ، هو من عناية الخلافة العثمانية قبل الحرب العظمى الأولى . ولقد أرسل الأزهر الشريف الى أحدى مدارسها الاســلامية شيخين موقرين لالقاء بعض الدروس الدينية والثقافية الاسلامية فى سنة ١٩٣٤ وبعد أربع سنوات عاد الى مصر على أثر نشوب الحرب الصينية اليابانية فى سنة ١٩٣٧ م فماذا تكون نتيجة هذه الحركة الجديدة ، سوف يخبرنا بها الزمان .

وبالنظر إلى هـــذا العدد الهائل من المسلمين فى ديار الصين ، يخيل إلى المسلم المتدين ، أن اللغة العربية ، لا مندوحة لها من أوفر حظ من العناية والانتشار بين اللغات الحية فى الصين ، هذا لاشك ينطبق على حالة اللغة العربية فى البلاد الأخرى غير الصين ، مثل جاوة والهند لكن حالتها فى الصين قديما أو حديثا ، لا يمكن أن

تقدر ـ بكثرة عدد المسلمين فيها . ولأجل هذا لا نجد لهم فى طبقات العلماء الاسلاميين اسما واحدا مع أن الأسلام قد دخل الصين منذ ١٣ قرنا ، بل أكثر ،

بيد أننا نجد فى الكتب التاريخية ، بعض الاشارات التى نفهم منها جانبا عن أحوال اللغة العربية فى الصين . فأبوزيد الحسن السيرافى ، الذى عاش فى القرن الثالث للهجرة ، ذكر فى الجزء الثانى من « سلسلة التواريخ » ، أن ابن وهبان من ولد هبار بن الأسود ، لما مثل بين يدى ملك الصين ، أخبره بما جرى فى بلاد العرب والعجم بواسطة « الترجمان » ، حين سئل عنها ومما لا شك فيه ، أن ابن وهبان ، كان يحاوره باللغة العربية التى لا يفهمها ملك الصين . وأنما كان فى قصره بعض أناس يفهمون هذه اللغة . فتوسط بينهما فى الحوار حتى تمكن أحدهما من فهم كلام الآخر . وهذا يدل على أن هذه اللغة كانت مفهومة على الأقل فى عاصمة الصين ومن المتصور أيضا أن اللغة العربية ، كان يتكلم بها فى الموانى التى كانت بها تجار العرب وإيران . غير أنها لم تترك أثرا فى المجتمعات بتلك الجهات . فانتهى تداولها بين الناس ، بعد رجوع أولئك التجار فى الأيام المتأخرة . لكن المسلمين فى عصر المغول ، قد نالوا منزلة عظيمة فى البلاد ، فروجوا استعمال اللغة العربية والفارسية فى الصين إلى حدما وكان ذلك بفضل كثرة المسلمين فى الحكومة ونفوذهم فيها وقد قيل أن قبلاى خان قد أنشأ مدرسة لأبناء المسلمين بتاندو ، بخانبالق [1] . ومن المظنون أن للغة العربية كانت من المواد اللازمة فى برنامج هذه المدرسة وأما الجهات التى كان للغة العربية أعظم أثر فيها فى عصر المغول ، فهى « تانغوت » ـ ولاية قانصو الحاضرة ـ ويروى الأستاذ «هووورث» عن المصادر الفارسية ، أن الأمير آننده . كان مسلما غيورا ، قد بذل أقصى جهده فى نشر الاسلام فى تلك الجهة وكان حافظا يستطيع أن يسمعك القرآن كله ، عن ظهر قلب . وكان يجيد كتابة العربية . وأنه قد جمع حوله جماعة كبيرة من المسلمين

(1) Howorth: Vol. 1. P. 257.

من التتار والايرانيين والعرب [1] . ويظهر أن هؤلاء قد بذلوا نصيبا عظيما من جهودهم فى ترويج اللغة العربية هناك .

والحقيقة أن اللغة العربية قد انتشرت إلى تركستان الصينية قبل ظهور المغول بعدة قرون . فنالت عناية فائقة من أهلها وترقت إلى درجة لا تقل عن التى نالتها فى بغداد فى القرن الخامس الهجرى .

ونستطيع أن نستشهد من كلام الشيخ محمود الكاشغرى الذى ألف باللغة العربية كتابا ، سماه « ديوان لغات الترك » . واليك بعض الاقتباسات من مقدمة هذا الكتاب .

« قال العبد محمود بن الحسين بن محمد الكاشغرى - لما رأيت أن الله ، وتعالى قد اطلع شمس الدولة فى بروج الأتراك ، وأدار بملكهم دائرات الأفلاك . فسماهم « الترك وولاهم الملك وجعلهم ملوك العصر ووضع فى أيديهم أزمة أهل الدهر » « فقيضهم على الخلق وأيدهم على الحق . وأعز من انتمى اليهم وسعى بين أيديهم ونال ، » منهم بلغة فى المراد وسلم من معرة أوباش العباد ، حتى لكل ذى لب التمسك بحبالهم ، » توقيا عن وقع نبالهم ، ولا ذريعة لديهم أحسن من التواطن بلسانهم لاصغائهم اليه ، » أسماعهم واستمالة جنانهم . فاذا اعتصم به عدوه من فرقهم ، وآمنوه من فرقهم ، فيلوذ به غيره ويكشف عنه ضميره .

وإذا قارنا بين هذه الكلمات وبين ما كتبه أدباء بغداد فى هذا العصر ، لا نجد أى فرق بين هذه وتلك . فالسجعات الى تراها فى أسلوب الكاشغرى ، تجعلك تعتقد بلا تردد ، أن صاحب المقال قد عاش فى العصر الثالث من العصر العباسى وإن لم تعلم تاريخ ولادته أو وفاته .

وإذا كانت هذه هى حالة اللغة العربية فى تركستان الصينية الواقعة على باب ولاية قانصوقبل ظهور المغول بقرنين ، فكيف لا تتأثر بها هذه الولاية فى عهد لمغول وكان عليها أمير مسلم غيور متدين ، حوله جماعة من العلماء الكبار .

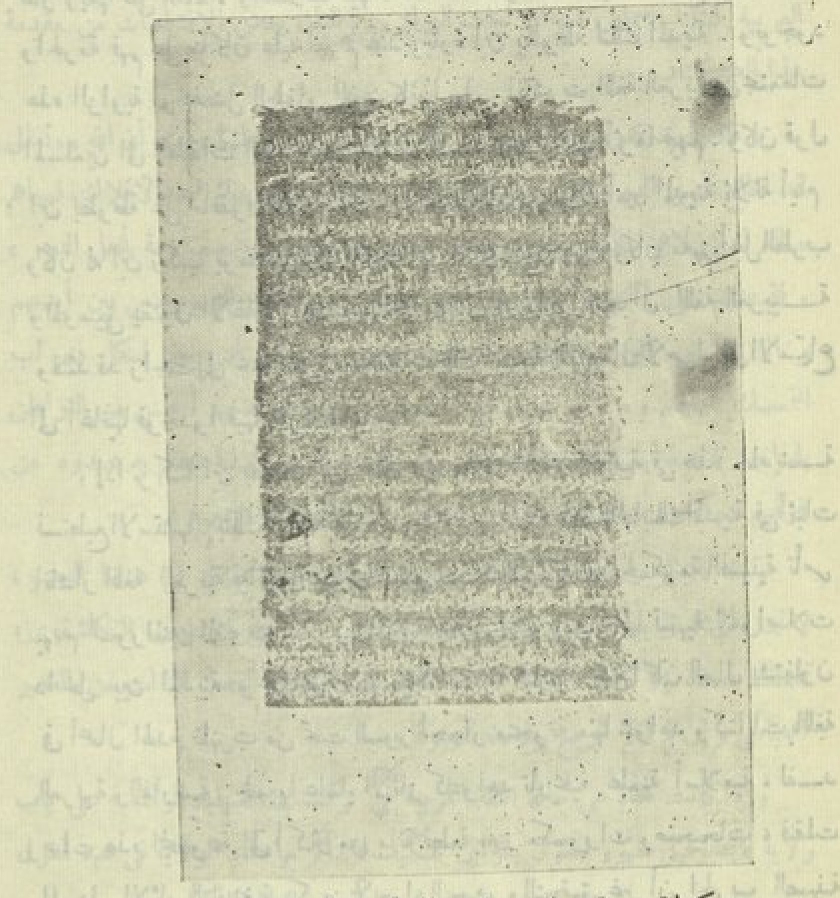
(1) Howorth: Vol. 1. P. 292.

حتما أن اللغة العربية فى هذا العصر لم تكن محددة بهذه الولاية. بل كان لها رواج فى المدن الأخرى أيضا فقد أخبرنا ابن بطوطه بكثرة علماء الاسلام بمدينة «الخنسا» و(هانغ جو) منهم فخر الدين وهو قاضى المدينة وشيخ الاسلام فيها، ومنهم أولاد عثمان المصرى أحد التجار الكبار فى مصر. لقد استحسن هذه المدينة واستوطن فيها، فهناك طائفة اسلامية عرفت بالنسبة اليه فأنه قد أسس جامعا بها ووقف عليه وعلى الزاوية التى كانت اللغة العربية والعلوم الدينية تدرس فيها أوقافا تدر ريعها على العلماء والطلاب فيها، فلما مات أورث ذريانه «بهانغ جو» الجاه والحرمة فهم على ما كان عليه أبوهم عند زيارة ابن بطوطه لتلك المدينة. وبوجود هذه الزاوية أو بفضل العلماء الذين كانوا بها. انتشرت اللغة العربية من مجتمعات المسلمين الى الطبقات العالية من غير المسلمين وتركت أثرها فيهم. وكان قول ابن بطوطة على مانقول شهيدا، كان ابن بطوطه فى ضيافة أمير المدينة ثلاثة أيام وكان له ابن ركب يوما مع ابن بطوطة فى خليج هانغ جو، وكان معهم أهل الطرب والموسيقى يغنون الأغانى الصينية والفارسية والعربية وأعتقد أن اللغة العربية وقتئذ قد راجت إلى حد بالغ فى مجتمعات تلك المدينة حتى مال الأمراء إلى الاستماع الى أغانيها فوجدوا فيها طربا وسرورا.

وإذا تركنا ابن بطوطة فيما قال عن حالة الثقافة العربية فى هذه المدينة نستطيع الاستشهاد بتلك الكتابات التاريخية التى اكتشفت حاليا بتلك المدينة فى أثبات انتشار اللغة العربية وأثرها فيها فى السنوات الماضية وكانت الحكومة الصينية تأمر بهدم السور المتين الذى ضرب حول المدينة منذ أول يوم من بنائها تسهيلا للمواصلات داخل بين المدينة وخارجها وتوسيعا لمساحة البلدية. فبينما كان العمال يشتغلون فى أعمال الهدم ظهرت من تحت السور أحجار منحوتة منها شواهد وكتابات باللغة العربية والفارسية. فجمعها علماء الآثار كشواهد تاريخية علمية أسلامية، لقد وصلت هذه المجموعة إلى أكثر من مائة قطعة بين مكسورات وصحيحات، فنقلت إلى دار الاثار التاريخية بيكين لأجراء البحث والتحقيق غير أن الحرب الصينية اليابانية حالت بين هذه البحوث فتركت فيها كما هى. ومما لاشك فيه أن هذه

الشواهد والكتابات لها شأن عظيم فيما يتعلق بغابر الاسلام فى تلك المدينة وأثر العربية فيها. وإذا بحثت وحللت فستكون لدينا معلومات جديدة هامة عن تاريخ الأسلام فيها.

وهناك بعض كتابات عربية تاريخية لاتزال منصوبة محفوظة فى (جامع العنقاء) بهانغ جو، منها ماقد محى بعض حروفها إلى حد لانستطيع أن نميزها أو نقرأها ومنها مابقيت واضحة بحروفها بالعربية الجميلة كما ترى فى هذه اللوحة وهى تحمل تاريخ سنة ٧٠٧هـ.



كتابة عربية جميلة بمدينة (هانغ تشو) لعصر منغ

تحدثنا تاريخ (منغ) عن تعلم الامبراطور « جنبغ — ته » (Cheng Teh) اللغة العربية وميله إلى الاسلام ، وقد أشرت إلى هذا فى مناسبة سابقة والحقيقة أن اللغة العربية فى عهد (منغ) وخصوصا فى صدر هذا العهد قد لقيت عناية عظيمة من ملوكها حتى أثرت فى صناعات الصين وفنونها . وهو العهد الذى نقلت فيه بعض العلوم الاسلامية بواسطة العلماء المسلمين فنالت اهتماما عظيما عند طبقات العلماء بالصين .

وأما عهد (مانشو) فلاشك أن ملوكهم كانوا ينظرون الى الاسلام بعين السخط والنفور ، غير أن المسلمين الذين قد انتشروا فى أنحاء الصين ولهم قدم راسخة فى المجتمعات ، ورغبة صادقة فى الأشغال العلمية العربية والاسلامية كانوا يعملون فى الميدان العلمى بكل هدوء وسكينة صابرين على سخط الحكام وأولى الأمر ، صامتين فى أعمالهم الوضيعة راضين بالحالة التى ساقهم اليها ولاة البلاد ، غير مبالين بتلك المراقبة الشديدة أو العقوبات المتوقعة التى فرضت عليهم حتى تمكنوا بمعونة الله من أخراج بعض كتب قيمة باللغة الصينية وغير اللغة الصينية فى موضوعات اسلامية . فالكتب الدينية ـ العربية أو الفارسية . التى تتـــداول الآن فى أيدى المسلمين بالصين أكثرها من ثمار هؤلاء المجاهدين الصابرين فى هذا العهد . ويظهر أن اللغة العربية قد ارتقت فى آخر هذا العهد الى درجة حسنة محمودة من ناحية التفكير والأسلوب والتسلسل المنطق واليكم هنا قطعة من أمثالها :

لما تجلى وجود الحق ظهرت حقائق الاشياء وصورها . فالحقائق مودعة فى علم الله تعالى والصور مرئية بقدرته فعلمه تعالى هو قبل وجود الملكوت وقدرته تظهر فى وصولها من الملكوت الى الملك . والملكوت أنما ظهرت بأجسام وصور الملك أنما تصورت بأرواح فلما توافقت طبقاتها استقرت كل درجة من الأرواح فى طبقتها فلما اجتمعتا وتصورتا ظهرت صفات الله تعالى إلا أنها فى حق الانسان تسمى بالعلم والقدرة وفى الاشياء بالخصائص ، أن الروح الانسانية متساوية غير أن الروح النفسانية متفاوته . فلذا صار بعضهم جاهلا . وبعضهم عالما ، ولأن ذات الحق أحدية وصفاته متفاوته . فمظاهرها توافق حالها ، أن اتحاد العلم والقدرة

مع الحق انما يكون لنفس خاتم الأنبياء. واستعمالهما بالرضا من الله وتخبيره يكون لنفوس أولى العزم والانقياد بهما والاجابة الى نور هدايتهما لنفوس المرسلين وبهما أظهار الدعوة والتبليغ لنفوس الانبياء. وبهما الطمع فى الخير والتمنى للتقوى لنفوس الأولياء، وبهما تحصيل معرفة الحق لنفوس العارفين، وبهما اتقان المحافظة لنفوس الزاهدين، وبهما طلب العبودية لنفوس العابدين، وبهوى النفس تصرفهما لنفوس العاصين..

وهذه القطعة من رسالة للاستاذ الشيخ الحاج نور الحق الذى عاش الى القرن الثالث عشر للهجرة سماها « مبادىء الطبيعة عند العرب » تكلم فيها عن تفريق الناس إلى طبقات مختلفة من جهة الفطرة التى فطرهم الله عليها فى الأزل، فبين بهذه الكلمات الوجيزة المميزات التى تمتاز بها كل طبقة من غيرها من درجة خاتم الأنبياء الى درجة العاصى.

لقد تحدث هذا العالم عن نفسه فى مقدمة كتاب آخر له سماه « الدعوة الكبرى بأنه ينتمى الى السيد الأجل الذى نزح الى يونان فى زمن قبلاى خان وكان هذا السيد ينسب الى السلطان عبد الملك بن عبد الجليل ببلاد بخارى وله شرف الانتساب الى شجرة صاحب الرسالة

وأما ولادته فلم تذكر. وانما ذكر عن حجه الى مكة المكرمة فى سنة ١٢٣٦هـ. ثم ولى مدرسة كبيرة فى جهة الغرب بولاية يونان فى سنة ١٢٩٠هـ. ويظهر أن جميع مؤلفاته على اختلاف اللغات، صينية كانت أم عربية، أو فارسية، كلها من مجهوداته العلمية بعد الحج. وله معاصرون من العلماء الكبار. فألفوا بلغات شتى، أكثرها طبعت بالمطبعة الخشبية فى تلك الولاية وتجد فى مكتبة الجامع الازهر الشريف، بعض نسخ لهذه المطبوعات. وهى هدية تذكارية من قبل البعثة الصينية الى الأزهر

ومن آثار العلاقة الدينية، رواج الاصطلاحات الفارسية فى أمور الدين وتداول بعض كلماتها فى مجتمعات المسلمين فى الصين. وأما تاريخ دخول اللغة الفارسية، فكما أعتقد، قد بدأ قبل زمن المغول بقليل. لأن الكلمات الفارسية،

قلما توجد فى أدب الصين قبل القرن الثانى عشر من الميلاد. لكن مع سيطرة المغول على أمور الصين السياسية، دخلت اللغة الفارسية وراج استعمالها فى بعض الادارات الرسمية أولا. ثم توغلت بأثرها الى المجتمعات العامة وكان ذلك بفضل احتكاك الصين مع المسلمين فى أواسط آسيا من التتار والعرب والايرانيين. ثم هجرة عدد كبير من الذين تضلعوا فى اللغة الفارسية مع المغول الى الصين، تساعد على رواج الفارسية فى المجتمعات الاسلامية بولايات مختلفة.

لم تكن للمغول الذين حكموا الصين من سنة ١٢٧٧ الى ١٣٦٧ م، لغة معروفة. فاضطروا الى اختيار الاصطلاحات للادارات الحكومية، أما من الفارسية وأما من الصينية. فلذلك تراهم يستعملون «كتوال» وهو رئيس البوابين، و «برد دارية» وهم أصحـــاب الحجابة، وأصباهية «وهم الرماة، ونيزدارية، وهم أصحاب الرماح» وتيغدارية، وهم أصحاب السيوف، مع «جنكسانغ، الوزير الأعظم، وزوحينغ وزير اليسار، و «يوجينغ» وزير اليمين، و «لجون»، كاتم السر، فى مراتب حكومتهم

وكان للغة الفارسية رواج عظيم فى مدينة هانغ جو، لأن كثيرا من الكتابات الفارسية التى اكتشفت أخيرا، تحمل تاريخ المغول. ويظهر أن نفوذ هذه اللغة كأختها العربية، لم يكن منحصرا فى مجتمعات المسلمين فحسب، بل توغل الى مجتمعات غير المسلمين أيضا. ومن رواية ابن بطوطة أن ابن أمير هانغ - جو، (الخنسا)، الذى وضع له دعوة عظيمة، كان معجبا بالغناء الفارسى الذى كان أهل الطرب يغنون له به، اذا كان متنزها مع ابن بطوطة وأصحابه فى زوارق بخليج هانغ جو فأمرهم بتكراره المرة بعد المرة، حتى حفظه ابن بطوطة من أفواههم. وقال: وله تلحين عجيب فى القصيدة الآتية:

تادل بمحنت داديم   در بحر فكر أفتاديم

چون در نماز استاديم   قوى بمحراب أندريم

وابن بطوطة ما كان يعرف اللغة الفارسية ولا كان يجيد نطق جميع حروفها . فلذا نراه يقع فى اغلاط املائية ويظهر أنه حفظ البيت المذكور عن المطربين . والصحيح هو كما يلى وهو بيت واحد فقط (لا بيتان كما ذكر فى رحلة ابن بطوطة) .

تادل بمهرت داده ام در بحر فكر افتاده ام

چون در نماز ايستاده أم كوى بمحراب أندرى (١)

ومعناه — عندما نذرت لك قلبى حبا وقعت غريقا فى بحر الافكار

فلما اقف قائما للصلاة كأنى أراك فى وسط المحراب

والبيت من قصيدة مشهورة للشيخ السعدى رحمه الله ومطلعها :—

آخر نگاهى باز كن وقتيكه برما بگذرى

كر كبر منعت ميكند كز دوستان ياد آورى

ومعنى هذا البيت — أن يمنعك الكبرياء عن ذكر الاحباب ، فالق على نظرة الوداع عند المرور ببابى .

كان ملوك منغ ، يعرفون قيمة هذه اللغة ، ويقدرونها حتى كان بعض الامراء فى القصر يتعلمونها فأجادوا الكتابة بها . ففى « مطلع السعدين » لعبد الرزاق السمرقندى ، رسالة فارسية منسوبة إلى ملك الصين « دائمينك » . ولقد نقلناها فى باب العلاقة الدبلوماسية . وهى الرسالة التى بعثها إلى شاه رخ فى سنة ٨٢٢ هـ - ١٤١٩ م بهرات . مكتوبة بلسان فارسى فصيح ، خال من الضعف والغريب . غير أنها على نمط الرسالات الصينية التى من خصائصها ، وضع كل كلمة تفخيم وتعظيم وتجليل ، فى صدر سطر جديد . وهذه الرسالات التى وجدناها فى « مطلع السعدين » ، أن لم تكن بقلم الملك نفسه ، فبقلم أحد أمرائه على وجه اليقين . لان عددا غير قليل من رجال القصر فى ذاك الوقت ، قد أجادوا التكلم والكتابة باللغة الفارسية ومنهم من عرفوا اللغة التركية أيضا .

لقد كثر المتعلمون للغة الفارسية فى عصر « ما نشو » ، حتى تمكنوا من التأليف بها . وأنك لتستطيع أن ترى آثار النهضة الفارسية فى المؤلفات التى تركها

(١) الايرانيون لايفرقون بين نطق الهاء والحاء ولا بين نطق القاف والغين

علماء يونان فى القرن التاسع عشر للميلاد فى مختلف الموضوعات ، منها ما فى النحو والصرف ، ومنها ما فى التوحيد والكلام ومنها ما فى أحكام الدين وآداب الاسلام ولهذه الكتب رواج عظيم بين المسلمين فاستفادوا منها واستفاد أبناؤهم من بعدهم

والحقيقة أن اللغة الفارسية ، قد نالت حظا من النفوذ فى حياة المسلمين العامة أكبر من أختها العربية وأنك إذا ذهبت إلى ولاية يونان ، تسمع فيها لغة شائعة بين طبقات المسلمين ممتازة مختلفة عما يتكلم بها غيرهم من الصينيين ، بسبب الكلمات الفارسية التى أدمجوها فى كلامهم فتصبح غامضة على أخوانهم الصينيين فى فهمها وأدراك معانيها الحقيقية ، مع أن كلامهم لم يخرج عن الأسلوب الصينى العادى . وكان عامل الغموض هو تلك الكلمات الفارسية التى وردت على لسانهم قصدا فى بعض الأحايين ، وبدون قصد أحيانا أخرى وقت حوارهم أمام غيرهم ولا يريدون أن يفهموا ما دار بينهم من الكلام . فالكلمات الفارسية التى ترد على لسانهم فى أغلب الأحيان هى — « نماز ، روزه ، آبدست ، كناه ، بامداد ، پيشين ديكر ، شام ، خفتن ، كسى ، ديدن ، خواب ، خوشنودى ، أستاد ، شاكرد ، آخوند ، بنده ، خدا ، سرجين ، بهشت ، دوزخ ، قبول كردم ، دادم ، خوب ، زشت تونكر ، خاوند ، زن ، دزده ، بانك ، چشم ، كوش ، دستار ، سر ، باقى ، دست خوردن ، درم ، نام ، موقى الخ » .

مع هذه الكلمات الفارسية ، قد دخلت على لسانهم بعض الكلمات العربية التى صارت جزءا لا ينفك عنها قولا — نيت ، إيمان ، ميت ، عذاب ، غسل ، حج ، بخيل ، زكات ، سخى ، بركت ، شهوت ، صدقت ، قربان ، تعظيم ، حقيقت ، روح ، نفس ، صبر ، قدرت ، وعظ ، صورت ، رزق ، شفقت ، عالم ، جاهل ، سائل ، حشو ، شفاعت ، حق ، باطل ، كذب خراب الخ .

فالصينيون يستعملون هذه الكلمات العربية كالكلمات فارسية . ولدينا عدة أدلة تؤيد نظريتنا هذه .

أولا — أن الكلمات العربية التى آخرها تاء ، يكتبونها مفتوحة غير معقودة ولذا لا يقفون

عليها فيقولون مثلا « قدرة » بل يكسرونها مع الامالة ، فيقولون « قدرت » ، هذه طريقة قراءة التاء المفتوحة عند الايرانيين والذين شاركهم فى لغتهم كالبخاريين والافغانيين والتركستانيين .

ثانيا — أن التغيير قد يقع فى معانى بعض الكلمات - منها كلمة النفس فأذا وردت هذه الكلمة على لسانهم أثناء الكلام ، فالمراد منها على العموم « الغضب الشديد » . فيقول المسلمون الصينيون دائما « بويودون نفس » اذا نقلناه الى العربية حرفيا فيكون المعنى « لاتحرك نفسك » لكن المعنى المصطلح عليه هو « لاتغضب » ومنها كلمة « خرابات » اذا سمع العرب أو علماء العربية هذه الكلمة تخرج من فم صينى يفهم لأول وهلة أن المراد منها الاطلال الدارسة أو الاماكن الموحشة التى هجرها الساكنون . لكن معناها فى الفارسية ليس كذلك بل يراد بها أماكن الشراب التى فيها دوران الكؤوس مع الرؤس ، أو الحارة التى فيها نساء يحترفن البغاء . هذا التعبير هو أقرب الى ماعند الايرانيين فهما وتعبيرا بعيدا عما يريد به العرب . وأن كان متصلا بمفهومه الأصلى فى اللغة العربية من جهة ما .

ثالثا - أن المسلمين الصينيين لايسمون أيام الأسبوع بالأسماء العربية غير الجمعة فيطلقون على أيام السبت ، والاثنين ، والثلاثاء ، والاربعاء ، والخميس : شنبه ، يك شنبه . دو شنبه . سه شنبه . جار شنبه ، وبانج شنبه . لجمعه . والجمعة هنا ؛ لاتكون غير تابعة للاصطلاحات الفارسية . ومما لاشك فيه انهم لايعقدون نياتهم للصلوات الخمس بالعربية ، بل بالفارسية فيقولون لصلاة الفجر مثلا - نيت كردم كه بگزارم دوركعت نماز بامداد ... ألخ

فمن الواضح اذن أن هذه الكلمات العربية التى جرت على لسان المسلمين الصينيين وأصبحت أجزاء من لغتهم الخاصة ، قد دخلت مع أخواتها الفارسية ، تابعات لهن استعمالا وتعبيرا

وللغة الفارسية نفوذ آخر فى مجتمعات المسلمين بالصين ، لم تستطع العربية أن تكتسبه . فالحكايات والقصص التى فيها جانب من المواعظ الدينية أو الارشادات الاسلامية ، أغلبها محفوظ فى اللغة الفارسية ، سار فى المجالس والمحافل ، جار على ألسن الأطفال والسيدات . فكثير من الصبيان يستطيعون أن يقصوا عليك ،

واقعة كربلاء ، واستشهادة الحسن والحسين باللغة الفارسية عن ظهر قلب بدون فهم لما يقصون كما يستطيع كثير من السيدات أن يحكين لمن تحضر المجالس الدينية من جنسهن حياة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، وحياة فاطمة الزهراء ، أم السيدين الحسن والحسين ، باللغة الفارسية . وإذا ذهبنا إلى جمع أحاديثهن بالفارسية لأتينا بكتاب ضخم لا يتسع له هذا المقام فحسبنا هذه الاشارة الخاطفة هنا ، تاركا التفصيل لموطن آخر

غير أن اللغة العربية ، مع أنها لم تؤثر فى حياه المسلمين العامة خارج الدائرة الدينية ، لها نوع آخر من التأثير فى الصين لم يكن للغة الفارسية حظ فيه . فاللغة العربية هى الأداة التى نقلت منها بعض علوم المسلمين ولا سيما علم الطب وعلم الهيئة .

ولست عالما فى الطب العربى ولا عارفا تاريخ نشأة هذا العلم فيهم . فليس من مقاصدى أن أدخل فى موضوع تاريخ الطب العربى ، ورواجه فى العالم . بيد أنى أرى من المناسب أن أشير إلى عناية الصين بعلم الطب العربى (أو الطب الاسلامى كما هو معروف فى الصين بهذا الاسم) فى العصور التى ازدهر فيها الاسلام وبهذه المناسبة أقول . أن نقل علم الطب العربى والهيئة الاسلامية إلى الصين ، نتيجة من نتائج العلاقة الدينية .

ومن المعلوم أن الاسلام قد تقدم كثيرا فى الصين فى عهد المغول . فابتدأ دخول العلوم العربية فيها من هذا الزمان . لأن المغول بعد أن فتحو دار السلام ، (بغداد) ونهبوها ، نقلوا كثيرا من رجال العلم إلى الشرق الأقصى فأثمرت مساعيهم هناك .

ويظهر أن الداعى الذى كان يدعوه إلى نقل علم الطب العربى إلى الصين ، هو الحروب التى كانت دائرة بين ملوك منغ وجنكيزخان وآله فكان هؤلاء المغول لم يعرفوا شيئا عن فن الطب والمعالجة . غير أنهم قد وجدوا فى الكتب العربية

خزانة مملوءة من المعلومات الطبية . فاستفادوا منها بواسطة العلماء المسلمين فى علاج الجرحى حين اشتد النضال بينهم وبين الصينيين فلما فتحوا الصين واستقر الحكم لهم فيها ، أمروا بنشر هذا العلم فى عواصمها . ولهذا الغرض ، أسسوا دائرة طبية عربية يركبون الأدوية فيها ، على حسب التشخيصات العربية ، علاجا للحراس والعساكر واليتامى والمساكين . وكان فيها موظفون مسلمون منهم من تولى منصب الرياسة لشعبة ترتيب الأدوية ، ومنهم من تولى توزيع الأدوية[1] . وكانت هذه الأدوية تؤخذ أو تستخرج طبعا من الأعشاب والنباتات ، ولمعرفة الخصائص الدوائية فى النباتات ألف كثير من الأطبا كتبا قيمة فى هذا الموضوع ، منها أصول المآكل والمشارب 飲膳正要 لمسلم معروف فى تاريخ الصين باسم خوشحال 和斯輝 ، ألفه فى سنة ١٢٣١ م ولقد بحث فى هذا الكتاب خصائص النباتات التى تفيد الجسم غذاء ودواء . ومن هذه النباتات ما ينبت فى الصين وما ينبت فى الممالك الاسلامية ، ومن قول مؤلف الدراسات فى تاريخ الاسلام فى الصين أن مكتبة بكين تحتوى على نسخة من التشخيصات الطبية الاسلامية فى سته وثلاثين جزءا[2] واذا كان عالم من علماء الطب العربى ، يأتى يبحث تحليلى عن هذه التشخيصات ، ومبلغ العلم الطبى الذى وصل اليه العرب أو المسلمون فى الأيام الغابرة ، فمن اليقين أنه سيضيف الى هذا العلم معلومات لم تكن معروفة فى العالم .

وأما علم الهيئة الاسلامية فقد نقل إلى الصين أيضا فى عهد المغول . وكان له رواج عظيم فى أول عهد منغ ، أى فى القرن الرابع عشر للميلاد ، ولقد ذكر غستاف لبون ، أن قبلاى خان ، لما فتح الصين ، استحضر كثيرا من كتب الهيئة من بغداد ومن القاهرة . فحصل علماء الصين من هذه الكتب ، وعلى الأخص ، كوشوكنك علم الهيئة العربية .

---

(١) جينى مسلمان . ص ٢٧

(٢) الدراسات ص ١٥٠

وكانت فى الممالك الاسلامية بالشرق، ثلاثة مدارس لعلوم الهيئة. مدرسة بغداد، ومدرسة سمرقند ومدرسة القاهرة فابن الجبير البتانى المتوفى سنة ٩٣٠ م وأبو القاسم عبد الله بن المأجور (٩٣٣ م) وأبو الوفا المتوفى سنة ٩٨ م، من مدرسة بغداد. والذين اتصلوا بتيمور وأولغ بك، وهم من مدرسة سمرقند. وأما مدرسة القاهرة، فلم تنشأ إلا لمنافسة بغداد. فخلفاء مصر قد وضعوا العلم تحت حمايتهم. فأسسوا على جبل المقطم مرصـــدا إلى جانب القلعة، وكان ابن يونس المتوفى سنة ١٠٠٧ م، يدير هذا المرصد فى عهد الحاكم. فعمل له زيجا معروفا عند العلماء بزيج الحاكم، كما اشتهر الذى بسمرقند بزيج أولغ بك. فأبطل ابن يونس بزيجه، ما وضعه غيره من الزيجات. ولقد نقل هذا الزيج إلى لغات كثيرة، منها اللغة الصينية، نقله اليها عالم صينى اسمه «كوشوكنك» فى سنة ١٢٨٠ م.

ومن المصادر الصينية نعرف أن أمراء المغول فى الصين قد جمعوا عددا كبيرا من الكتب العربية، على اختلاف العلوم والفنون، ومنها ما يتعلق بعلم الهيئة، فخزنوها فى المكتبة الامبراطورية المغولية بخانبالق. ولقد نقل بعض من هذه الكتب إلى اللغة الصينية فى أول عهد منغ، إذ كان الامبراطور منغ تاى جو على العرش (١٣٦٨ — ١٣٩٩ م)، بقلم شيخ المشايخ وقاضى المسلمين، حيدر عطف الدين [1]. ومن المرسوم الذى أصدره منغ تاى جو، إلى شيخ المشايخ فى سنة ١٣٨٣ م، بشأن ترجمة الكتب التى فى علم الهيئة والنجوم، نعلم أن هذا الملك كان مولعا بالعلوم العربية ومعجبا بها، فكانت الأغراض من ترجمة هذه الكتب العربية إلى الصينية هى الاستعانة على أصول الاستنباط الكائنة فى هذه الكتب فى تحقيق المسائل الفلكية. تصويبا لما قد أخطأوا فيه من التقارير والآراء فى ظواهر الكون وحركات الأفلاك السيارة. وكان فى الصين فى القرن الثالث عشر من الميلاد، علماء مسلمون مشهورون فى علم الهيئة، منهم السيد الأجل. وجمال الدين وكمال الدين. ولكل واحـــد من المذكورين الآخرين، تأليف فى التقويم،

---

(١) أنظر فى جينى مسلمان ص ٩٥ — ٩٨

معروف بين طبقات العلماء حتى الآن [١]. وللاستاذ «جنيوان» أبحاث دقيقة عن شخصيات هؤلاء العلماء وأعمالهم العلمية فى كتابه «تصين المسلمين فى عصر المغول» وسنرجع اليه عند ما ندرس تاريخ الاسلام فى الصين فى المستقبل إن شاء الله تعالى

نتائج العلاقة التجارية: وأما النتائج التى ترتبت على العلاقة التجارية بين العرب والصين فترويج استعمال إبرة المغناطيس فى الملاحة البحرية، ونقل استعمالها بوساطة العرب إلى الغرب. ثم نقل بعض الكلمات الصينية إلى الألسن الاسلامية، وبعض النباتات مع أسمائها العربية إلى لغة الصين، وهنا نبحث قليلا عن هذه الكلمات واستعمالها فى الصينية أو فى العربية.

لكن قبل الدخول فى هذا البحث، نلقى نظرة إلى رواج استعمال ابرة المغناطيس فى الملاحة والأسفار البحرية وهذا من أهم نتائج العلاقة التجارية بدون نزاع.

ولقد قلت فى باب «العلاقة التجارية» أن التجارة البحرية قد تقدمت كثيرا فى القرن الثانى عشر للميلاد، بسبب معرفة استعمال ابرة المغناطيس التى كانت معروفة عند الصينيين منذ زمن قديم باسم «الأبرة المشيرة الى الجنوب»، وبناء على ما ورد فى «فجر الجغرافية الحديثة» للاستاذ بيزلى [٢] أن الصينيين كانوا يستعملون هذه الأبرة فى أسفارهم البحرية البعيدة من ميناء كانتون الى سواحل ملابار فى القرن الثالث من الميلاد. لكن الأستاذ أسبك يقول — أن الصينيين كانوا يستعملونها فى الملاحة منذ القرن الأول الميلادى [٣]. ولقد حقق المستشرقون استعمال ابرة المغناطيس فى الملاحة من المصادر الصينية، فوجدوا الحديث عنها فى الكتب الصينية المؤلفة فى النصف الثانى من القرن الثالث للميلاد [٤] وهو أقدم ما ذكرته المصادر الصينية. وأما المؤلفات للقرن الحادى عشر فذكرتها فى مواضع كثيرة

---

(١) الدراسات ص ١٤٧

(2) Beazley : Down of the Modern Geography. P. 490

(3) E. Spekz : Handel Geschichre des Alterthumes. P. 1, 29, 209

(4) E. H. Parker : China Review XVIII 197.

ويقول الاستاذ رينان الذى نقل « جغرافية أبى الفدا » الى اللغة الفرنسية فى خاتمة البحث عن معلومات العرب عن استعمال الأبرة المغناطيسية هكذا - يثبت من الأدلة السابقة ، أن هذا النوع من الأبرة ، قد عم استعماله فى الشرق والغرب عند نهاية القرن الثانى عشر وابتداء القرن الثالث عشر من الميلاد[1]

ظهر أمامنا من الأقوال السابقة أن العرب قد سافروا الى الشرق الأقصى فى هذه القرون فتعلموا استعمال الأبرة المشيرة الى الجنوب من الصينيين فى أسفارهم البحرية . ثم تعلم منهم أهل أوروبا بواسطة البرتغاليين . لأن وسكودى غاما ، لما وصل فى سنة ١٤٩٨م الى ماليندى Malindi بساحل أفريقيا الشرقية عن طريق رأس الرجاء ضل عن سبيله الى الهند غير أن ربانا عربيا معروفا باسم « أحمد بن عبد المجيد » جاء الى مساعدته فأراه الطريق الى الهند . ويذكر المصدر البرتغالى أن هذا الربان العربى كان يحمل معه خريطة مفصلة عن البحار والادوات التى تتعلق بالأسفار البحرية ، منها الأبره المغناطيسية [2] . وصاحب المقال فى تراث الاســلام يؤكد الاستاذ أسبك والاستاذ بيزلى بقوله أن علم استعمال الأبرة المغناطيسية عند الصينيين كان من القرن الثانى للميلادى فتعلم منهم العرب فى القرن الثانى عشر بعد احتكاكهم معهم تجاريا فى بحر الصين وسواحل الهند .

وأما ماورد فى بعض المؤلفات من ادعاء أن الأبرة المغناطيسية من اختراعات الفرنجة ، فدحضه كثير من العلماء مثل الأستاذ هيرت ، مترجم جوفانكى تذكرة عن البلاد الأجنبية . والاستاذ كراموس ، صاحب المقال بعنوان الجغرافيــة والتجارة فى كتاب « تراث الاسلام » ، وأقواهم برهانا وحجة هوما وجدناه فى أبحاث الاستاذ « كاركورن » ، مؤلف تاريخ ممالك جين بلسان الاردو . وأنه قد خصص ثلاث صفحات من كتابه فى هذا الكتاب وفيه تفاصيل لمن أراد التوسع فى هذا الموضوع .

---

(1) A. D. Reinand: Geographie d'Abdul Fida. 1. 111 cc 1V.
(2) Legacy of Islam : P. 96.

أن آراء العلماء تجمع على تعلم العرب استعمال هذه الأبرة من الصينيين ثم تعلم أهل أوروبا منهم فأصبحت الآن آلة لا يمكن الاستغناء عنها فى الاسفار البحرية وهذه المعرفة هى أحدى نتائج العلاقة التجارية بين الصين والعرب فى القرون الوسطى

وأنتقل الآن الى نقطة اخرى من نتائج هذه العلاقة . وهى نقل بعض الكلمات الصينية الى العربية بواسطة أوبلا واسطة. وهذه الكلمات كما وجدتها هى « كاغد » وكمخاب ، والشاى ، ويمكن ان نضيف اليها كلمة ,, بك ،،.

لقد تكلمت فى نتائج العلاقه السياسية عن كلمة « كاغد » ، وأصلها ، فأتركها هنا اكتفاء بما قلت هنالك. وأما كلمة « كمخو » بفتح الكاف والخاء وسكون الميم والواو فانتقلت الى العربية بواسطة الفارسية ، وكان الايرانيون يستعملونها فى شكل كمخا أو كمخاب (Kamxwa Or Kamxwab) بالألف ، أو بالباء بعدها . وهو نوع من الديباج [1] أى الحرير الصينى المنسوج بخيوط الذهب يسمى باللغة الصينية ,, كمخا ،، بكسر الكاف (錦花 - Kimxwa) ولاشك أن الايرانيين كانو يستوردون الحرير من الصين من عهد قديم، ولكثرة احتكاكهم مع الصينيين عن طريق التجارة براً، تعلموا من أهل الختن، تربية ديدان القز، فجربوها فى بلدة جيلان ، ونجحوا الى حد ما، وأما الديباجة الصينية فكانت مشهورة فى ايران فى عهد الاسلام حتى ذكرها الفردوسى فى ,, شاهنامة ،، فى عدة مناسبات وذكر أيضا نوعا آخر من الحرير الصينى سماه ,, برنيان ،، لا أعرف حق المعرفة هل هناك علاقة لسانية بين كلمة ,, Silk ،، الانجليزيه وكلمة ابريسم المعربة من ناحية وبين كلمة 絲 الصينية والظاهر أن العلاقة بين هذه الكلمات موجودة ، وأعتقد أن كلمة « Soie » فى الفرنسية صورة محرفة من كلمة « Sie » الصينية ، لكن الجزم بهذه العلاقة يحتاج إلى تحقيق اللسانيين ، وليس ذلك من مقاصدى الآن وانما أقول أن كلمة « كمخا » أو « كمخاب » أو « كمخا » أو « كمخو » فى العربية والفارسية والتركية والهندوستانية ، وهى نوع من الديباج

---

(١) وكلمة الديباج ، معناها ,, الحرير الصينى . وهى مركبة من ، ديبا چين

الصينى مأخوذة بدون شك من كلمة « 錦花 » الصينية . لقد ذكر هذه الكلمة ابن خرداذبه وابن بطوطه ـ والمقدسى فى كتبهم .

الشاى : من الصعب أن نقف على تاريخ دخول كلمة الشاى فى اللغة العربية ، غير أننا نقول أن سليمان التاجر السيرافى ، صاحب (سلسلة التواريخ) قد أتى بمعلومات صحيحة عن استعمال أوراق الشا عند الصينيين كشروب عادى ، فسماه فى كتابه الساخ . ومن العجب أن كتاب العرب الذين كتبوا بعد سليمان ، لم يقولوا شيئا عن هذه البضاعة فلذلك لا نجد فى الكتب الجغرافية التى تتعلق بالبلاد الشرقية فى القرون الوسطى أى ذكر عن الشاى ، وأبو المنصـــور الذى كتب (كتاب الأبنيات عن حقائق الأدويات فى سنة ٩٨٥ م ، لم يذكر هذا النبات أيضا وكذلك ابن البيطار . واذا نظرنا الى المصادر الصينية للعصور التى بين القرن الثـــامن الميلادى وبين الثانى عشر ، لانجد ذكرها من بين البضاعات الصادرة الى الخارج ومع هذا ، نعتقد أن زراعة الشا فى الصين كانت من أيام قديمة واستعماله كشراب منزلى كان رائجا من أول يوم زراعته غير أن هذه العادة لم تنتشر الى غرب آسيا قبل القرن العاشر الميلادى . وأغلب الظن أن عادة شرب الشا انتقلت فى عهد المغول الى الممالك الاسلامية . ثم الى أوروبا فى القرن الخامس عشر الميلادى لأن الأستاذ راميسو Ramiso ذكر بالتأكيد فى المقدمة التى قدمها لطبعة جديده لرحلة ماركوبولو ، فى سنة ١٥٤٥ م ، أن أول أوروبى تعلم شرب الشا من تاجر ايرانى اسمـــه حاجى محمد[1] ولم يكن للشاى رواج عظيم فى أسواق ايران حتى القرن السادس عشر للميلاد . ومن رواية ماندلسلو A. D. Mandeslo الذى قد زار ايران فى سنة ١٦٦٢ م أن الايرانيين كانوا يستعملون القهوة بدلا من الشاى

وهذا من جهه تاريخ تجارته فى العالم . وأما من جهه اللغة فكلمة الشـاى فى الصينية هى 茶葉 Tcha - Yeh أى أوراق الشاى ونجد هذه الكلمة بعينها فى

---

(1) Laufer; Sino - Iranica P. 55

اللغات البرتغالية والروسيه والتركيه والفارسيه والهند وستانيه يظهر أن كلمة Thé فى الفرنسية محرفة من جائى Tcha - i الفارسيه وكلمة Tea الانجليزية من Thé فى الفرنسية . وأما نطق الجائى الفارسية فهو أقرب الى النطق الأصلى وهو Tcha من نطقها فى العربية . لأن العربية ليس فيها حرف . فبدلها الناطقون بالضاد ، بالشين وهى أقرب صوت إلى الجيم الفارسية

ونظرا إلى أن بعض اللغويين يزعمون أن أصل كلمة الشاى (شاه) فيرون من الصحيح أن ينسب اليه بأن يقال ، شاهى) أميل الى الاعتقاد بأن هذه الكلمة الصينية قد دخلت فى اللغة العربية ، بواسطة ايران . والدليل على صحة هذه النظرية أن اللغويين يحسبونها معربة من كلمة الجائى الفارسية ، جهلا لأصلها الحقيقى وهو Tcha - Yeh 茶葉 هى مركبة من كلمتين صينيتين (١) 茶 (أى) تشا و(٢) 葉 أى (ى) فمعناها أوراق الشا فالصينيون يشربون الشا ولا يشربون الشاى لأن الشاى هو الورق اليابس . وأما الشا فهو عصير الورق فى الماء الساخن .

لقد ذكر الأستاذ برتش نائدر فى كتابه الدراسات عن القرون الوسطى ، أن علاء الدين ، وكان سفيرا من سفراء العرب إلى الصين فى القرن الخامس عشر من الميلاد ، بعد تقديم الهدايا الى الامبراطور (منغ تاى حو) والرسالة التى بعث لأجلها ، التمس من الامبراطور ، أن يمنحه كمية من الشاى . ولا أعرف حق المعرفة هل لهذا الواقع علاقة بكلمة الشاى المستعملة فى اللغة العربية الآن ؟ والظاهر أن العرب قد علموا هذه الكلمة قبل هذا الزمان .

بك . أضيف إلى هذه الكلمات الثلاث ، كلمة ، بك ، ، لا لأنها نتيجة من نتائج العلاقة التجارية بل لأنها كلمة صينية الأصل ، استعملت كثيرا عند كتاب العرب والاسلام فى الخلافة العثمانية وفى الوقت الحاضر . وهى كلمة تدل على درجة من الألقاب المدنية أدنى من الباشوية بدرجة واحدة فقط ولعل اللغويين يعتقدون أنها كلمة تركية اختار كتاب العرب استعمالها من عهد العثمانيين إلى يومنا

هذا ، وظلوا فى استعمالها إلى ما شاء الله . ولا أخالفهم فى هذا ، غير أنى أقول أن هذه الكلمة متركة (أى مدخولة فى التركية) من كلمة صينية الأصل وهى (Pak). وهى كلمة بك نطقا ومعنى بدون الكاف وكان الصينيون من عهد قديم ، قد أوجدوا ، أو وضعوا القابا ودرجات الشرف للرجال العسكريين والمدنيين . فقسموها إلى « قون » (Kun) و « خيو » (Khew) « وبك » (Pak) ومما لاشك فيه أن هذه الكلمة قد تسربت إلى لغات الترك قبل هجرتهم إلى آسيا الصغرى وأما المسلمون بتركستان ، سواء كانوا من المغول أو من الترك فيكتبون اليوم (بى) بالباء والياء بدون الكاف وهو الأصح نطقا واملاء . قد يكتب (بيك) وقد يكتب (باى) ، غير أن كتاب العربية يكتبونه بالباء والكاف [1] .

هذه من جهة الكلمات الصينية التى راج استعمالها فى اللغة العربية بنطقها صحيحا أو محرفا ومعناها بدون تغيير . وأما من جهة أخرى فقد دخلت بعض الكلمات العربية فى أدب الصين بواسطة التجارة منها (زعفران) ، و (ياسمين) و (يابروه) و (حناء) و (حلبة) ومن المظنون أن هناك كلمات أخرى دخلت فى أدب الصين ، غير أننا لم نعثر عليها لقلة معلوماتنا عنها ونكتفى بهذه الكلمات الخمس كبراهين لنفوذ تجارة العرب فى الصين وآثارهم الدائمة التى تركوها فى أدب الصين .

الزعفران وهو زهرة معروفة فى البلاد الاسلامية ، وصل علمها إلى الصينيين قبل الاسلام تحت اسم (فانهونغ خوا) أى الزهرة الحمراء الأجنبية . ومن المعلوم أن فى الزعفران فوائد كثيرة والناس يستعملونه كصبغة أو كتابل ، (كعطر أو كدواء) وهو من البضائع التجارية المحبوبة التى قد لعبت دورا عظيما فى التجارة الشرقية فى العصور الاسلامية . فكثرت التجارة فيه فى عهد المغول فأتى المسلمون به إلى أسواق الصين وباعوه بأغلى ثمن ولكثرة تجارة الزعفران ، دخلت هذه الكلمة فى أدبيات الصين اشكلها العربى مع تحريف يسير ، من (زعفران) إلى زافوران) .

---

(١) ومعانى هذه الكلمات (قون) الأمير . و (خيو) الباشا . و (بك) البك .

والذى قد ذكر هذه الكلمة فى الكتاب ، هو (لى شيجين) من أهل عصر المغول ويظهر أن (Saffron) فى الانجليزية أيضا محرفة من زعفران . ومن رأى الأستاذ لوفر، أن العرب أتوا بالزعفران أولا إلى الأندلس ومنها إلى بلاد أخرى أوروبية والشاهد على صحة هذه النظرية ، أن الاسبانيين يسمونه (Azafron) والبرتغاليين (Acafrao) والطليان (Zafferan) والفرنسيين (Safran) والرومانيين (Sofran) [1] .

٢ الياسمين — فى وصف النباتات الشرقية ، أقدم كتاب لعالم معروف باسم « كيخان ، Kekhan وكان وزيرا لامبراطور (هوى) الذى عاش فى آخر القرن الثالث الميلادي . وقـــد ذكر أن « الياسمين » ، يأتى بها الأجانب من الغرب . فغرسوها فى ولاية (كوانغ تونغ) . فالذين يقطنون بالجنوب، يحبون روائحها . فلذا يزرعونها بكثرة .

وذكر كاتب آخر فى القرن التاسع الميلادى ، أن ياشيمى ، أتى بها الايرانيون إلى الصين وروجوا استعمالها فيها . وفى الكتب الأخرى يوجد حديث عن هذه الزهرة أيضـا .

ولا شك أن كلمة « ياسمين » أو ياشيمى » فى الكتب الصينية منقولة عن الياسمين ، الفهلوية ولهذه الكلمة صور جديدة فى « ياسمين » الفارسية الحاضرة والعربية المعربة

وقد أخطأ الأستاذ لوفر فى نسبة كلمة « ياسمين » إلى أصل العربية . فلا غرو أنه لم يقم لبيان (كيخان) أى وزن . وبناء عليه قال من غير الممكن أن تتسرب كلمة عربية إلى لغة الصين فى القرن الثالث الميلادى ! والحقيقة أن كلمة (ياسمين) فى العربية هى معربة عن الفارسية وغير أصيلة فيها. فكلمة يسمين فى كتاب (كيخان) كلمة مصينة من الفهلوية التى تفرعت منها الفارسية الحاضرة .

---

(1) Sino-Iranica. p, 312

ومما لاريب فيه أن الايرانيين كانت لهم تجارة فى الياسمين مع الصين قبـــل الاسلام، غير أن العرب الذين نهضوا كأمة تجارية فى القرون الوسطى، قد ورثوهم فى هذه التجارة. فأتوا بكمية كبيرة من رياحين الياسمين وزيوتها إلى الصين فروجوا استعمالها فيها، كما أنهم قد روجوا استعمالها فى بلاد الغرب. فلذا ترى اليوم أن جملة اللغات الأوروبية قد اختارت هذا الاسم فى صورته المعربة.

أن زيت الياسمين كان حاصلا مشهورا عند العرب والايرانيين والهنود. ويسميه العرب «دهن الزئبق». وأما التركيب لصناعة زيت ياسمين فيوجد فى كتاب ابن بيطار. وبناء على قول الاصطخرى أن فى ولاية (دارا بيجرد) بايران، نوعا من زيت الياسمين لا يوجد فى مدن أخرى كانت سابور وشيراز مشهورتين بزيت الياسمين. ويذكر (كوى زى صون) وهو كاتب عاش إلى نهاية القرن الثانى عشر الميلاد أن زيت الياسمين يصنع بايران والشام. ثم قال — أن ياسمين زهرة بيضاء مثل الثلج بياضا جاء بها العرب والايرانيون من البلاد (الغربية) إلى مدينة (كانتون). لحببت إلى كل متنفس يسكن هناك. لقد وردت فى «وقائع كانتون» بيانات عن استيراد زيوت الياسمين من البلاد الاسلامية قائلة أن زيوت الياسمين تستورد فى المراكب، لأن المسلمين يجمعون أزهار الياسمين ويعصرون الزيت منها. وهو يفيد للجذام والبرص. فان أطباء العرب يستعملونه كانع لأمراض الفالج والصرع[1] وأما الصينيون فاختاروا اسمه مصينا، بتحريف يسير.

٣ يابروة. وهى إبرة الراعى، من النباتات التى جاء بها العرب إلى الصين فى عهد (سونغ) وأول من ذكر هذا النبات باسمه العربى من علماء الصين، هو «تشوى» (١٢٣٠ — ١٣٢٠ م) ولقد خصص الأستاذ لوفر عدة صفحات لبحث هذا النبات وخصائصه فى كتابه (La Mandragore) باللغة الفرنسية.

٤ الحناء دخلت هذه الكلمة فى اللغة الصينية فى شكل محرف الى «هاى نا (Hai na)» نوع من النبات»، ذو صبغة حمراء. تصبغ بها النساء أظفارهن وفى بعض الأحيان كفوفهن. ومن رأى الاستاذ لوفر، أن عادة استعمال الحناء كزينة

(1) Sino- Iranica. p. 383

فرحية لم تكن موجودة فى نساء الصين قبل عصر (سونغ) فظهرت من ذاك العهد رائجة فى الصين الى الآن . ولا شك أنها من آثار المسلمين فى الحياة الاجتماعية الصينية، فأقدم المصادر التى ذكرت رواج استعمال الحناء فى الطبقة النسوية فى الصين هى رسالة « كوى شين Kuishiu Tsache » بقلم الأستاذ « تشومى » الذى قد ذكرناه فى مناسبة سابقة فعقد الملاحظات التاليه على أستعمال الحناء وكيفية استعمالها فقال: عند الناس عادة باستعمال أوراق « فون شيان » (الحناء) فى صبغ الأظفار أذيأتون بأوراق هذا النبات على أختلاف أنواعه من اللون الأحمر فيسحقونه فى هاون ويخلطونها بمسحوق من حجر العب. فالأظفار يجب أن تنظف جيدا. ثم توضع عليها عجينة الحناء فتربط بشريط من الحرير من أول الليل إلى الصباح حتى يأخذ أثر الحناء فى الأظفار . وهكذا يكرر ثلاث مرات أو خمسا . ولونه أحمر قان لايذهب بالغسل إلى عشرة أيام والنساء المسلمات يحببن الآن أن تصبغ كفوفهن بهذه الصبغة

ولاشك أن تركيب الحناء وطريق استعمالها فى الصين فى عهد (سونغ) يوافق ماوجدناه فى جميع الممالك الاسلامية الآن . ومن المعلوم أن هذه الزينة كان لها رواج مقبول فى غرب آسيا وفى الممالك الاسلامية حول حوض البحر الابيض فالمصريات يحببن أن يصبغن أيديهن بأوراق بوكر Puqer من قديم الزمان .

ولهذه العادة انتشار عظيم فى طبقات المسلمين فى أنحــــاء العالم حتى تعدت ألى بعض الرجال يصبغون بها أشعارهم ولحاهم ، وأما الايرانيون فهم أكثر الناس استعمالا للحناء . ويروى الاستاذ لوفر عن اولى آريوس Olfarius أن الايرانيين لهم عادة فى صبغ أيديهم وعلى الأخص أظفارهم بلون أحمر ضارب إلى الصفرة او البرتقالية، ومنهم من يصبغ بها رجله وهى زينة لازمة لمجالس الافراح وحفلات الزواج . فيؤتى بالحناء وتوزع بين حاضرات الحفلة . فلا يذهب أثرها إلى خمسة عشر يوما ولو غسل بالماء عدة مرات كل يوم .

وأما الهند فهى غنية بالحناء وهى تنبت بكثرة بسواحل كورو ـ مندل . وتزرع هناك على أنها حاصلات زراعية واما عادة استعمال الحناء فأصبحت عامة بين النساء المسلمات الهنديات ومنهن انتشرت إلى الهندوكيات أيضا . ومن تحقيق الأستاذ جورت Geret أن الحناء لم تكن مزروعة الا من أيام المسلمين . وفرواجها

وأما نقله إلى الصين، فيظهر أنه من إيران أو من الهند وكان ذلك فى عصر (سونغ).

الحلبة: علم أطباء الصين بحبة أجنبية باسم هولوبا Hulupa فاستعملوها فى الدواء ومما لا ريب فيه أن كلمة هولوبا فى الصينية هى كلمة حلبة فى العربية ومن المظنون أن شجرتها قد نقلت الى الصين فى القرن العاشر للميلاد وان أول من ذكر هذه الحبة من علماء الصين هو جان يوشى الذى عاش الى ١٠٦٤ م. ومن قوله أن الحلبة تزرع فى كانتون ويقول مصدر آخر أن بذور الحلبة قد أتى بها من جزيرة هاى نان والبلاد الأجنبية الأخرى. فالتجار الذين وصلوا الى كانتون، ألقوا بذورها فى أرضها فنبتت وأثمرت الا أن بذورها لم تبلغ ما جاءت من البلاد الاسلامية جودة وأما الأبحاث عن استعمال الحلبة وفوائدها الطبية، فتوجد فى جميع الكتب المتعلقة بالنباتات والأدوية تحت عنوان هولوبا. واذا نظرى الى كتاب الابنيات عن حقائق الأدويات لأبى منصور. فتجد أنه قد بحث خصائصها الطبية تحت اسم حلبت بالتاء المفتوحة ونظرا الى أن هذه الكلمة قد حرفت الى شكل هولوبا نميل الى الاعتماد بأنها أتت من إيران وخليج فارس فى آخر عهد تانغ. لأن هذا العهد ينسب أكثر الأشياء الأجنبية الى «هو» أى ايران وما يجاورها من البلاد.

كلمة ختامية

هذه العلاقات التى قرأتها فى الابواب السابقة، وهذه النتائج التى رتبتها آنفا لم أكن قاصدا كتابتها. غير أنى أرى أن تحقيق تاريخ الاسلام فى الصين - موضوع قلما يلتفت اليه علماء الاسلام — يحتاج فى الخطـــوة الاولى، إلى معرفة هذه العلاقات فجمعت المعلومات عنها من مصادر شتى بين بلغات شتى. ثم رتبتها هذا الترتيب على حسب الموضوع وعنصره. ليكون أول معلومات عن صلات العرب بالصين وآثار الاسلام فيها حتى تمهد الطريق للبحث فى موضوع تاريخ الاسلام فى الصين مع تعليل انتشاره وبقائه هناك الى اليوم وهذا من أسمى مقاصدى وأنا جاد فى سبيل الدراسة والبحث وإذا فيه وفقنى الله وألهمنى الصبر والمواظبة على البحث فسأخرج كتابا جامعا فى هذا الموضوع فى المستقبل القريب.

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت واليه انيب

من ٢٢ شعبان سنة ١٣٦٠هـ - ١٤/ ٩/ ١٩٤١م

بدر الدين الصينى

كتب المراجع

(١) باللغة الصينية .

(١) أصل المسلمين فى الصين (هوى هوى يوان لائى)

(٢) ألهيات الصين .

(٣) تاريخ (شيما جيانغ)

(٤) تاريخ (تانغ) القديم والجديد .

(٥) تاريخ (منغ) .

(٦) تهونغ جيانغ

(٧) جوفانكى .

(٨) الدراسات عن تاريخ الاسلام فى الصين .

(٩) ديوان لغات الصين .

(١٠) مجلة (توه جوه) م ٢ ، ج ٥ .

(١١) مجلة (شين باو) ١٥/١١/١٩٣٤ .

(١٢) مختصر حضارة الصين .

(١٣) علاقة الصين القديمة بالعرب .

(١٤) علاقة الصين القديمة بالتركستان .

(١٥) النسل من الغرب (شى لائى تشونغ بو) .

(٢) باللغة الفارسية والأرديه :

(١٦) أويماق مغول – للاستاذ آغا جان محمد خان (طبعة أمرتسر) الهند

(١٧) تاريخ ممالك جين – للعلامة كاركورن (طبعة كلكتة) .

(١٨) تاريخ الوصاف .

(١٩) جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله .

(٢٠) جينى مسلمان – لبدر الدين الصينى (طبعة دار المصنفين) .

(٢١) تمدن عرب – ترجمة بلكرامى (حيدر آباد – دكن) :

(٢٢) ختائى نامه – لاكبر على .

(٢٣) ساله نامه مجلة كابل ١١٣٢ .
(٢٤) عرب وهند كى تعلقات — للعلامة السيد سليمان الندوى .
(٢٥) مطلع السعدين — لعبد الرزاق السمرقندى ،
(٣) باللغة العربية .
(٢٦) آثار البلاد وأخبار العباد — للقزوينى
(٢٧) الاسلام وتركستان الصينية — لبدر الدين الصينى .
(٢٨) أقاليم الأرض — للاصطخرى .
(٢٩) تاريخ ابن الأثير .
(٣٠) تاريخ الطبرى .
(٣١) تاريخ ابن الوردى .
(٣٢) التصوير فى الاسلام عند الفرس — للدكتور محمد زكى حسن .
(٣٣) رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية بالقاهرة .
(٣٤) تحفة النظار فى غرائب الامصار — لابن بطوطة .
(٣٥) تعليقات على «حاضر العالم الاسلامى» .
(٣٦) ديوان لغات الترك — لمحمود الكاشغرى .
(٣٧) تحفة الالباب .
(٣٨) صبح الأعشى .
(٣٩) صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والاقطار — للشيخ بيرم التونسى
(٤٠) سلسلة التواريخ لسليمان وأبى زيد الحسن السيرافى .
(٤١) العقد الفريد .
(٤٢) الفهرست .
(٤٣) كتاب الممالك والمسالك — لابن خرداذبه .
(٤٤) معجم البلدان .
(٤٥) مروج الذهب — ومعدن الجوهر
(٤٦) نبذة عن الصين — لأنزى أبى العز (باشا)
(٤٧) نزهة المشتاق — للادريسى

المراجع الافرنكية

(1) C. F. Andrew : The Crescent in the North-West China.
(2) Arnold : Islamic Book; Painting in Islam.
(3) Ameer Ali : The Short History of Saracens.
(4) Blochet : Mussalman Painting; Introduction a l'Histore des Mongols de Fadllah.
(5) Berthold : Turkistan Down to the Mongol Invasion.
(6) Breitschneider : The Ancient Chinese Knowledge on the Arabs.
(7) Broomhall (Marshall) : Islam in China.
(8) E. Browne : The Literary History of Persia.
(9) Dimand : Hand Book to the Mohammedan Decorative Arts.
(10) Elliot (Sir) : History of India.
(11) Ferand : Relations des Voyages.
(12) Gibb : The Arab Conquests of Central Asia.
(13) Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire.
(14) Hadi Hasan : History of Persian Navigation.
(15) Hirth : Chao Ju-Kua.
(16) Hirth : China and the Roman Orient.
(17) Hobson : A Guide of the Islamic Pottery.
(18) H. Howorth : History of the Mongols.
(19) Huart : Ancient Iranian Civilization;
(20) Legacy of Islam.
(21) B. Laufer : Sino-Iranica.
(22) E. H. Parker : China and Religion.
(23) Sladin & Migion : Manuel D'Art Mussalman.
(24) C. Schuffer : Les Relations de Mussalmans avec Chinois.
(25) Vambery : History of Bukhara.
(26) Wilson : The Persian Gulf.